

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة 8 ماي 1945 قالمة



كلية الآداب واللغات  
قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة

لنيل شهادة الدكتوراه علوم

التخصص: اللغة والأدب العربي

من إعداد الطالب: غوتي عمار

بعنوان:

## مقامات الزمخشري من منظور اللسانيات التداولية

أمام لجنة المناقشة المكونة من:

بتاريخ: 2022 / 12 / 15

الاسم واللقب	الرتبة	
السيد: جودي عبد الرحمن	أستاذ محاضر أ.	بجامعة 8 ماي 1945 - قالمة
السيدة: معلم وردة	أستاذ التعليم العالي.	بجامعة 8 ماي 1945 - قالمة
السيد: منصر يوسف	أستاذ التعليم العالي	بجامعة باجي مختار - عنابة
السيد: شكيل عبد الحميد	أستاذ التعليم العالي	بجامعة باجي مختار - عنابة
السيدة: ديش وفاء	أستاذ محاضر أ.	بجامعة 8 ماي 1945 - قالمة
السيد: اهقيلي نبيل	أستاذ محاضر أ.	بجامعة 8 ماي 1945 - قالمة

السنة الجامعية: 2021 - 2022

الله أكبر

## عِبْرَةٌ

إنني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا كان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

(صديق الفتوحى، أيجد العلوم، ج1، ص71)

## إهداء

إلى كلِّ من علمني حرفاً .  
وكلِّ من أسبغ عليَّ علمه .  
وكلِّ من أسدى إليَّ بنصح، وأمدني بالعون والتشجيع .  
وكلِّ من شجعني في لحظات خمول وتراخ .  
وكلِّ من قصرت عنه الذاكرة في لحظات النسيان .  
إلى هؤلاء جميعاً أدين بالحبّة، وأُقرُّ بالفضل .

# ﴿ شُكْر ﴾

قال رسول الله ﷺ: « لا يَشْكُرُ اللهُ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ » رواه البخاري وأحمد .

وبعد تمام هذا البحث لا يسعني إلا أن أشكر صاحب الفضل والتوفيق . وأقر بالمعروف لكل من أعانني على إنجاز هذا البحث، وخاصة الأساتذة المشرفة الأساتذة الدكتوراة "وردة معلم " التي اقتطعت من حياتها لرعاية العمل منذ أن اختمر فكرة، وعلى ما خصّني به من التوجيه والتصويب حتى استوى بجثا، كما لا يفوتني أن أنوه بجهود كل من لاحظ ووجه من قريب أو بعيد، وخاصة أعضاء لجنة المناقشة .

خالص شكري وامتناني

المقدمة

شغلت اللغة بوظيفتها الأساسية المتمثلة في التواصل بال المفكرين قدامى ومحدثين، ففاضت محابريهم بما جادت قرائحهم وانكبوا على دراستها. حتى جاءت البنيوية في القرن التاسع عشر وتخلت عن كل العوامل الخارجية التي تتحكم في اللغة إنتاجا وتأويلا، وظلت ردحا من الزمن تدرس اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها من منظور صوري، وتفسر الظاهرة اللغوية تفسيراً مُركّزاً على المكون الداخلي النحوي والصرفي والصوتي والدلالي للبنية، واستبعدت الدلالة الخارجية التي هي جوهر اللغة الإنسانية ومناطق التواصل، باعتباره مرتبطاً بالسياق ارتباطاً وثيقاً لا ينفك عنه. وبذلك أقصت كل الطبقات المقامية التي ينجز ضمنها التواصل اللغوي الإنساني.

ولم تُسدّد هذه الثغرة إلا جزئياً في أعمال بعض التوجّهات اللسانية وخاصة اللسانيات الوظيفية، وظل الخطاب التواصلية يدرس معزولاً عن السياق الذي تخلّق فيه، إلى أن ظهرت مراجعات من داخل المنهج البنيوي نفسه وحاولت أن تلطّف من غلو البنيوية الغارقة في الصورية.

وفي هذا الوقت ظهرت في فرنسا وأنجلترا مقاربات جديدة، جاءت لتردّ على البنيوية، وتلطّف من غلوها، وتشكّل انعطافة تاريخية في تجديد الفكر اللساني، وتسدّ ثغرات البنيوية التي سلخت اللغة من محيطها الاجتماعي الذي أنتجت فيه، وتولي السياق والمقاصد اهتماماً كبيراً في تفسير الحدث الكلامي، فتكون له دلالات قصرت أن تصل إليها في ظل البنيويين.

وطرح هذا التوجه الجديد بدوره إشكالات عدة من قبيل: إذا أمكن القارئ التعرف على الدلالة الداخلية للبنية من خلال منطوقها الحرفي، فكيف يتمكن من الدلالات المستلزمة أو الضمنية، والوصول إلى مقاصد المنتج في غياب أي إشارة إلى عنصر السياق والمقام خاصة في الخطابات المكتوبة؟

ولم يعد النص مغلقاً حسب النظرة التداولية، وإنما هو مشروع على قراءات ربما وافقت مقصدية المتكلم أو تعدّتها أو خالفتها، فالمتكلم قد يقصد ما يقول، أو يقصد أكثر مما يقول أحياناً، وربما قصد عكس ما يقول، وهذه إشكالات تجيب عنها التداولية، كما تجيب عن تساؤلات كثيرة منها: من يتكلم؟ إلى من يتكلم؟ ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ من يتكلم ولأجل من؟ كيف يمكننا أن نقول شيئاً آخر غير ما كنا نريد قوله؟ هل يمكن أن نركن للمعنى الحرفي لقصد ما، وغيرت بذلك النظرة إلى اللغة؟ فتعاملت التداولية مع النص تعاملاً جديداً، وأعدت الاعتبار للظاهرة السياقية، وجعلت منه محور التفكير الإنساني الذي يتجلى بوضوح في اللغة، وأولت اللغة أهمية قصوى وربطتها بالشروط الخارج لغوية، والمتعلقة بالمقام والمتكلمين ومقاصدهم وحيثيات الاستعمال، ودرست علاقة اللغة بمستعملها وطرق استعمال العلامات اللغوية وكيفية بنجاح.

وتلقّف العرب المحذون هذه المقاربة، وتوسّلوها منهجا وآلية لمقاربة النصوص والخطابات الأدبية والإبداعية، وإعادة قراءة التراث اللغوي والفكري العربي من منظور تداولي، واستغلوا ما فيه من مقولات بلاغية، ونحوية، وصرفية، وفلسفية، ومنطقية، وأصول الفقه-وما أكثرها - لتسليط الأضواء عليه بغية استجلاء الجوانب التي أغفلتها البنيوية خاصة السياق والمعنى والوظيفة.

ورغبة منا في استكناه الظاهرة الخطابية، والتنقيب عن الظواهر اللسانية في النصوص التراثية المقامية باعتماد مقاربات جديدة في التحليل اللساني، كانت إشكالية بحثنا متمركزة حول تمثّل مقامات الزمخشري نمطا من الخطاب لم يأخذ حظه الكافي من الدراسة التداولية حسب وجهة نظرنا. فكان السؤال الإشكالي الذي شغلنا هو كيف يمكننا قراءة مقامات الزمخشري من المنظور التداولي؟

وقد تفرّعت عن هذا السؤال الإشكالي أسئلة عديدة كانت من صميم الدراسة التداولية التي افترضها البحث طريقا له، ومن هذه الأسئلة: لمن كانت البنيوية قد قصرت عن استيفاء النصوص حقها دلاليا، وإلى أي مدى يمكن أن تبلور التداولية المعنى كما هو عند المتكلم؟ وبإيجاز كيف يؤول المتلقي معاني تساق إليه في غير دواها الأصلية؟ وكيف يمكن للخطاب التخيلي أن يشكل أفعالا إنجازية لها القدرة على الفعل في المتلقي؟ وكيف يمكن للمتكلم من خلال التخيل أن يصل إلى قلب المتلقي وعقله؟ وماهي الأدوات الحجاجية التي لجأ إليها المتكلم بهدف التأثير في المتلقي وإقناعه؟

وتبعاً لما تقدم جاء عنوان الدراسة "**مقامات الزمخشري من منظور اللسانيات التداولية**"، وحاولنا من خلالها أن نحشد ما أمكننا من أدوات ووسائل تداولية حجاجية توسّلها الزمخشري للتأثير في المتلقي وإقناعه.

وترجع أهمية الدراسة إلى محاولة التعرف على الخصائص اللسانية والتداولية التي تحفل بها المقامة باعتبارها نوعاً قلّ الاهتمام به مقارنة بالأنواع الأخرى، وخاصة مقامات الزمخشري التي لم تنل حظها من البحث اللساني الرصين مع أنها تتوفر على طاقات خيالية وجمالية وإقناعية هائلة، وتمثل فضاء ثرا ينفح الدارس بأي منهج يأتيه، وتعدّ مقامات الزمخشري خطاباً وعظياً جاداً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالسياق وبمقاصد المنتج، يخاطب به الزمخشري نفسه ويعظها وينهاها عن الركون إلى ديدنها الأول، لكنّه توجه بها إلى أيّ متلقٍ ليقتبس منها في مجال العلم والتقوى، فهو إذن، **مُخاطَبٌ ومُخاطَبٌ** في الوقت نفسه، إلا أنه يعظ بمقاماته غيره **بوعظه نفسه** - كما يقرّر هو في خطبة الكتاب - وتمثّل موضوعاتها انعكاساً لحالة اجتماعية عامة أخلاقية وثقافية وأدبية وتاريخية وقيمية في عصر المؤلف.



ويضاف إليها الخصوصية البنائية والموضوعاتية لمقامات الزمخشري؛ فهي على الرغم من غياب السمات الحكائي المشوّق الذي تميزت به المقامة الأنموذج إلا أنها تعبر عن مضامين وأبعاد رشحتها لأن تكون متميزة متفردة في تاريخ فن المقامات.

كما أن شخصية الزمخشري غير خافية فهو إمام في الدين واللغة والأدب، فليس يجهل مفصله في النحو، وأساسه في البلاغة والمعجمية، وكشافه في التفسير وغيرها.

ومن الأسباب كذلك اهتمامنا بالدراسات اللغوية، وولعنا بالتراث الأدبي واللغوي العربي لما يتميز من جمال وثراء في مختلف المستويات، مما يجذب القارئ ويستهو به ويحفّزه إلى إعادة قراءته قراءة حديثة، ومقارنته تداوليا من أجل إبراز أهميته.

إن المقامات ميدان خصب للدراسة، لذا فنحن نروم دراسة هذا النص التراثي من منظور اللسانيات التداولية دون الارتفاء في حضن الدراسات الغربية، بل إننا سنحاول المزاجية بين النص والمنهج وبين ما هو عربي وما هو غربي.

وتهدف من خلال الدراسة إلى:

- إبراز مدى قدرة المنهج التداولي على استظهار مكونات النص التراثي العربي، ومقاصد المتكلم وأغراضه من الخطاب للوصول إلى الآثار المستهدفة في المخاطب.
- إبراز فعالية البلاغة من خلال قوالبها التصويرية في تحليل الخطاب تداوليا، والآثار التي تحدثها الصورة المتخيلة في قلب المتلقي وعقله أثناء توظيف اللغة لتحقيق التواصل، وهذا من خلال النموذج المختار.
- إظهار نجاعة الخطاب الحجاجي، من خلال تجنيد الأدوات والوسائل الحجاجية التي توسلها الزمخشري للتأثير في المتلقي وإقناعه، لترسم عليه الآثار نفسيا وسلوكيا واجتماعيا.
- إثراء المكتبة اللغوية التداولية بجهد متواضع زواج بين الأصالة والحداثة، ووظف منهجا حديثا في قراءة نص تراثي، خاصة الجانب التطبيقي منها.

وتقوم الدراسة على مدخل وأربعة فصول تتصدّرها مقدمة وتذيّلها خاتمة:

وحوى المدخل ترجمة للمؤلف موجزة، والمصطلحات المفاتيح التي تتركز عليها الدراسة، كالتداولية وأفعال الكلام، ومكانة المقامة بين الأنواع الأدبية، وعلاقتها بالمقامة الأنموذج.

وتناولنا في الفصل الأول المقصدية باعتبارها نواة مركزية في الدرس التداولي، تسبق عملية الإنتاج والاتصال والتفاعل، ولارتباط فصول البحث بها، قمنا بتقديم هذا المبحث على الدراسة اللسانية، وركّزنا فيه على

مفهوم المقصدية، وإبراز مقاصد المقامات الدلالية والنصية الموضوعاتية، وعلى الأفعال الكلامية التوجيهية المباشرة وغير المباشرة التي وظّفها الزمخشري في الوعظ.

وخصّصنا **الفصل الثاني** للبحث في الأبعاد التداولية للتركيب النحوي بالتركيز على العدول الكمي والترتيبي في ظواهر التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف، واستخلاص الأغراض والمعاني المستلزمة مقاميا الناتجة عنه، مع إمكانية تكرار تركيب ما وحلولة في أكثر من ظاهرة، لخصوصية الخطاب المكتوب، وصعوبة تحديد سياق واحد يفسّر في ظله التركيب.

وبحثنا في **الفصل الثالث** في تداولية التركيب البلاغي، بالتركيز على الصورة الفنية التي قدم بها الزمخشري مقاماته قصد إبراز دورها في التأثير في المتلقي وإقناعه، ومن ثمّ دفعه نحو اعتقاد أو فعل، أو ترك، أو تعديل سلوك، والحرص على تبليغ مقاصده.

ودرسنا في **الفصل الرابع** البنية اللغوية الحجاجية، لما للحجاج من دور يستهدف به المخاطب التأثير في المخاطب وإقناعه بالبرهنة والاستدلال، وركّزنا العمل فيه على العلاقات والروابط الحجاجية. وأما **الخاتمة** فبتّنا فيها نتائج البحث المتوصّل إليها.

ولما كانت الدراسة تتعامل مع واقع لغوي موجود بالفعل، يتطلع الزمخشري من خلاله إلى الفعل في المخاطب من أجل تغيير واقعه، وإصلاح مجتمعه، مضافا إليها خطة البحث اقتضى الأمر اعتماد **المنهج التداولي** متوسلا آليات التحليل الأسلوبي والدلالي والنصي الذي يهتم بتوصيف العلاقات والروابط الداخلية للأبنية النصية لسانيا مع ربطها بعوامل السياق.

وتطرق باحثون كثير لمقامات الزمخشري، لكن أغلب دراساتهم كانت مقالات انتقائية تركّزت على مقامة أو بعض المقامات، واقتصرت على بعض المستويات اللغوية؛ البديعية، والدلالية، والأسلوبية، والنصيّة، والموضوعاتية. وجلّ ما أمكننا العثور عليه من البحوث الأكاديمية على قلّتها نذكر دراسة **لباي هونغ وي** وسمت بـ "مقامات الزمخشري دراسة تحليلية" تقدم بها إلى الجامعة الأردنية سنة 1997م لنيل شهادة الماجستير، وركّز الدراسة فيها على مضمون المقامات، وعلى الجانب البديعي والفني فيها. ودراسة أخرى للباحثة **شفيعة ليماني**، بعنوان "التأويل في شرح مقامات الزمخشري"، وتقدّمت بها إلى جامعة مولود معمري بـتيزي وزو سنة 2012م لنيل شهادة الماجستير، وركّزت العمل فيها على التأويل اللغوي والأدبي لمقامات الزمخشري، وهي دراسة تتميز - في نظرنا - في مجملها بالعموميّة وطغيان الجانب النظري على التطبيقي، ولكنّ هاتين المحاولتين وإن كانتا قد تناولتا مقامات الزمخشري إلا أنّهما لم تلتفتا إلى

الخصوصية التداولية لها، وهذا ما دفعنا إلى مواصلة البحث والتنقيب فيها للكشف عن الآليات والمسالك التي وظفها الزمخشري للتأثير في المخاطب وإقناعه بمواعظه من أجل تغيير واقعه، وتحقيق غاياته وأهدافه من المقامات.

واستأنسنا لتحقيق مرامي البحث بجهود كثير من اللغويين والباحثين قدامى ومحدثين، عربا وعجماء، نذكر البعض منها: "مفتاح العلوم" للسكاكي، و"دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني، و"الإيضاح في علوم البلاغة" للخطيب القزويني، و"استراتيجيات الخطاب" لعبد الهادي ابن ظافر الشهري، و"آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر" لمحمود أحمد نحلة، و"التداولية عند العلماء العرب" لمسعود صحراوي، و"في اللسانيات التداولية مقارنة بين التداولية والشعر" لخليفة بوجادي، و"الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية" لعبد الله صولة، و"الحجاج في الشعر العربي القديم" لسامية الدريدي الحسني، و"الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة" لمحمد حجي علي الصراف، كما استنرنا بمراجع مترجمة متخصصة، وكثير من البحوث العلمية للإجابة على إشكالية البحث.

وجابجتنا في أثناء الإنجاز عقبات عدّة لعل أبرزها:

- 1- قلة البحوث والمراجع المتخصصة في التداولية خاصة الجانب التطبيقي منها؛ ذلك أن المكتبة العربية الحديثة تعاني فراغا كبيرا ونقصا هائلا منها، وما عثرنا عليه لا يفي بجابجتنا العلمية، ولا يرقى بنا إلى درجة الاطمئنان، وتلك هي العقبة الكأداء.
- 2- ندرة البحوث والمراجع الجادة التي تناولت مقامات الزمخشري، وأكثر ما أمكننا الحصول عليه دراسات تناولت جوانب موضوعاتية وأسلوبية ودلالية في المقامات.
- 3- الاضطراب المفاهيمي الحاصل في الحقل التداولي إلى درجة التناقض أحيانا، وهذا ما دفعنا إلى التزام ما اطمأنا إليه من الآراء.

ونشير إلى أن ما ثبتناه من قراءات وتأويلات لخطابات في المقامات، خاصة في معرض تحليلنا لنماذج في تداولية التركيب النحوي، والبلاغي، والأفعال الكلامية التوجيهية هي نسبية تصلح لحلول مقاصد وأغراض أخرى محلّها، وما ثبتناه من مقاصد وأغراض في المواقع التي هي فيها، إنما هي نتاج ما اطمأنا إليه بعد تمحيص وتدقيق، ولعل الأدق في غيرها، وصالح للحلول في أكثر من مبحث، ولهذا كررنا بعض النماذج، وعندما تعدد آراء اللغويين في مسألة ما، فإننا نعمد إلى ما تمّ ترجيحه على غيره بينهم، وكثُر استعماله عندهم، وما نظمنا إليه، فنعمده، ونحتال أحيانا لقاعدة أصلية أو فرعية هامة، فنعدّل قليلا في الشاهد من الخطاب للفائدة.

ولا ننسى في الأخير أن ننوّه بدور الأستاذة المشرفة التي اقتطعت من حياتها وقتا طويلا في رعاية البحث، وتمهيد الطريق له، وما أمدّتنا به من توجيهات، منذ أن اخترت فكرة حتى استوى بحثا، فكانت نعم السند، ونعم المعين، كما لا ننسى كل من أشار علينا برأي، وأسدى بنصح، وأعان بفكر، وتقدم بمرجع، فلكلّ هؤلاء جميعا خالص شكرنا وامتناننا.

وما توفيقني إلا بالله، عليه توكلت

المدخلُ

# ترجمة ومصطلحات

أولاً: الزمخشري شيخ الاعتزال، ومجمع العلوم

ثانياً: نوع المقامة

ثالثاً: مقامات الزمخشري

رابعاً: في التداولية

يعدّ الزمخشري شيخ الاعتزال وأحد رجالات العلم والأدب، فكان موسوعة حية يشهد عليها العدد الكبير من المصنفات المتنوعة في فنون العلم والمعرفة، وبالرغم من هذا لم يتبوأ المنزلة المستحقة، ولم ينل الخطوة عند الملوك فقضي العمر متبرّماً ساخطاً على الزمن ينتقل من ملك إلى ملك، إلى أن آلى على نفسه ألا يطاءً موطناً يهان فيه إنسان أمام عتبة سلطان. وأن يكرّس حياته في خدمة العلم والدين.

أولاً: الزمخشري الاعتزال ومجمع العلوم.

### 1. ترجمة للزمخشري:

أشبع كتاب السير والتراجم سيرة الزمخشري دراسة وبثاً، وفي أثناء البحث استوقفتني محطات بارزة في حياته وسيرته استخلصت منها زبدتها:

هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، كبير معتزلة عصره، ولد بزمخشري في السابع والعشرين من رجب سنة 467هـ، في عهد السلطان السلجوقي ملك شاه ووزيره نظام الملك، وهو من أزهى الفترات التي نهضت فيها الآداب والعلوم.

وتبوأ الصدارة من علماء عصره، « كان شديد الذكاء، متوقد الذهن، جيّد القرينة، كثير الحفظ، إماماً وعالماً في أفانين كثيرة من العلم والمعرفة؛ كان مفسراً جنياً، وفيلسوفاً متكلماً، ونحوياً بارعاً، وأديباً ألعياً، وكان إنتاجه غزيراً في كل فن»<sup>(1)</sup>.

ونشأ بزمخشري ودرس بها، ثم رحل إلى بخارى ليطلب العلم في مطلع حياته، لأنها كانت مثابة الملك وكعبة العلم، ومجمع أفراد الزمان.

كان الزمخشري في مطلع حياته طموحاً، يأمل أن يتبوأ المكانة التي تكافئ علمه وأدبه وذكاءه، وأن ينال من المال ما يكفل له رغد الحياة، كما نال غيره ممن هم دونه مقدرة وكفاءة، وكانت الدولة الخوارزمية ما تزال في نشأتها ولاية تابعة للسلاجقة، فصبوب الزمخشري نظره نحو الدولة الكبيرة التي يتولى شؤونها نظام الملك، فمدحه بقصيدة صوّر فيها ضيق نفسه، وبرمه بعلمه وكفايته وفضله، ما لم تبوئه المكان الرفيع الذي يستحقه، وجهر بأنه من الظلم أن يظفر المتخلفون بما يجب أن يناله الأكفاء المتقدمون وحدهم، وسخط على الزمن الذي جاد على الأراذل بحقوق الأماثل، ثم عزى نفسه عن هذه المفارقات بأن كثيرات من القبيحات أجيادهن حالية، وكثيرات من الحسان أجيادهن خالية.

(1) - انظر هارون الرابعة وآخرون، مقامات الزمخشري رؤية وتأصيل، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، عدد 39، تشرين الأول 2016، ص 202.

وكان حين يمدح يمزج مدحه بالشكوى، وبنوه بعلمه وأدبه، ويجعلهما صلة قرى بينه وبين نظام الملك، ويعرض بتقصيره في رعايته على ما بينهما من القرابة، مع أن غيره ممن لا قرابة بينهم وبينه كان يرعى حقوقهم. وبالرغم من هذا لم يظفر الزمخشري من نظام الملك بما أراد، فهدد بالرحيل عن خوارزم كلها إذا لم يسعفه بمأمل، وربما كانت عقيدة الزمخشري الاعتزالية سبب هذا الجفاء، لأن نظام الملك سُني المذهب. وحين يئس من المقام بخوارزم حيث لا منصب ولا مال، قرر الرحيل عن الوطن الذي ولد به، وزيّ فيه، واتجه إلى خراسان أحد أقاليم الدولة السلجوقية، فاتصل ببعض رجال الدولة هناك ومدحهم، ولكنه لم يجد في خراسان مبتغاه، ولم تكن حاله بها خيرا من حاله في خوارزم، فسمّ البقاء، وارتحل إلى أصفهان عاصمة السلاجقة، ووظل يمدح ملوكهم بالعدل والسؤدد ونصرة الحق وحماية الإسلام.

ثم رجع إلى نفسه في مرضته سنة 512 هـ ووصفها بأنها ناهكة ومنذرة، فعاهد الله إن منّ عليه بالصحة ألا يطأ عتبة سلطان، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن مديحهم، وأن يعف عن التطلع إلى عطياتهم والأمل في مناصبهم، وأن يعكف على التأليف والتدريس.

فلما شفاه الله شخص إلى بغداد، وناظر بها وسمع من علمائها، ثم ما لبث أن أحسّ بسمو نفسه، وبتخلّصها من أوهاق المطامع، فاتجه إلى مكة مشوقا راجيا الصفح من ربه عما فرط منه، معتزما أن يقيم بها مترددا على بيت الله إلى أن يحم القضاء، وفيها اتصل بالأمر علي بن حمزة بن وهّاس الشريف الحسني فرحب به وعرف قدره، ورفع شأنه، وأقبل على الاستفادة منه.

ولكنه بعد أن أقام بمكة أربع سنين حنّ إلى وطنه فرحل إليه، ثم عزم على العودة إلى مكة، وفي طريقه إليها عرج على الشام، وأقام بها مدة، وفي السنة نفسها سلك الطريق إلى مكة، فبلغها وقضى بها ثلاث سنوات لقي فيها ما كان يتلقاه من حفاوة وتعظيم، ولكن هذا الرحالة الثقلّة اشتاق إلى وطنه ثانية، فعاد إلى خوارزم، وأقام بها إلى أن حمّ القضاء ليلة عرفة سنة 538 هـ (1).

## 2. الزمخشري شيخ الاعتزال:

ولد الزمخشري بخوارزم، ونشأ في ربوعها، وكانت حينئذ تموج بالمعتزلة، وتلقّى أولى علومه على يد أبي مضر المعتزلي الذي كان أحب أساتذته إليه، وكان الزمخشري بطبعه كلفا بحرية الرأي، ميّالا إلى عمق الفكر، وتقليب وجهات النظر، وإلى المناقشة والجدل. لهذا دان الزمخشري بالاعتزال، وناصح عنه، وكان يجد الراحة النفسية في إعلان مذهبه، حتى نقل أنه إذا قصد صاحبا له واستأذن عليه في الدخول قال لمن يأخذ

(1) - أحمد محمد الحوفي، الزمخشري، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1966، ص 35-47

له الإذن: قل له: أبو القاسم المعتزلي بالباب (1).

### 3. أصول المذهب المعتزلي:

وقام المذهب المعتزلي على أصول أيدها بكل ما استطاع من فكر وبيان، وأوّل الآيات القرآنية بما يتفق مع هذه الأصول ويؤكدّها، لهذا نجد هذه الأصول ماثورة في المقامات ومنها:

#### 1.3. التوحيد:

ينزه أهل السنة الله عن المماثلة، ويمسكون عن الكلام في الآيات التي يدل ظاهرها عليها، مؤثرين البعد عن التأويل. لكن المعتزلة تفلسفوا في توحيدهم، وبنوا على التأويل أموراً لم يكن أحد من المسلمين يعرض لها؛ فقد وجدوا في القرآن الكريم آيات تنزه الله عن المشابهة، وآيات يدل ظاهرها على التجسيم، ورأوا آيات تدل على أنه تعالى ليس في جهة أو مكان، وآيات يفهم من ظاهرها الجهة والمكان، وبنوا على هذا التوحيد كثيراً من المعتقدات منها (2).

أ. نفي صفات الله وتعطيلها، وقالوا إنه عالم بذاته، قادر بذاته، حيّ بذاته، وليست الحياة والقدرة والعلم صفات غير ذاته (3)، وحرص الزمخشري على تأويل الآيات وفق هذه العقيدة، فلم يجد شبهة تعلق بها إلا محامها، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ، قَالَ لَنْ تَرَاني﴾ (4) كلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك، وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقوا مخطوطاً في الله، وروى أن موسى عليه السلام كان يسمع الكلام من كل جهة.

ب. نفي التشبيه عن الله سبحانه نفيًا تاماً من كل وجهة، مكاناً وجهة وصورة وجسماً وتحيزاً وانتقالاً وتغيراً، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة، وسمّوا هذا توحيداً، فقد أوّل الزمخشري قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (5)، لمّا كان الاستواء على العرش، وهو سرير الملك مما يرادف الملك جعلوه كناية عن الملك، فقالوا استوى فلان على العرش، يريدون: ملك، وإن لم يقعد على السرير البتة.

ج. إنكار رؤية العباد لله بأبصارهم في الآخرة، لأن الجسمية إذا انتفت الجهة، وإذا انتفت الجهة انتفت الرؤية، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (6) تنظر إلى ربها خاصة،

(1) - انظر أحمد الحوفي، الزمخشري، ص 67، 68

(2) - المرجع نفسه، ص 119، 120

(3) - المرجع نفسه، ص 120

(4) - القرآن الكريم (رواية ورش عن نافع)، دار الخير، بيروت، ط 1، 2004. (سورة الأعراف: 143)

(5) - (سورة طه: الآية 5)

(6) - (سورة القيامة: الآية 22)



واختصاصهم بالنظر إليه محال، فوجب حملة على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، يريد معنى التوقع والرجاء<sup>(1)</sup>.

**2.3. العدل:** تعمق المعتزلة في مفهومهم للعدل، فشققوا منه عدة مباحث:

أ. فالله تعالى عادل، والظلم منفي عنه.

ب. هو يريد لعباده خير ما يكون.

ج. ولا يريد لعباده الشر ولا يأمر به. وذلك أن مرید الخير خير ومرید الشر شرير، ولهذا قالوا: إن الله أراد ما كان من الأعمال خيرا أن يكون، وما كان شرا ألا يكون. ويعتقد غيرهم أن الله مرید لجميع ما كان، غير مرید لما لم يكن، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وينبني على هذا أن كفر الكفار وعصيان العصاة لم يرده الله في رأي المعتزلة، وأراده في رأي غيرهم. قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا، وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾<sup>(2)</sup> معنى إلهام الفجور والتقوى إلهامهما وإعقابهما، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح، وتمكينه من اختيار ما شاء منها، بدليل قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾، فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليتهما<sup>(3)</sup>.

**3.3. الوعد والوعيد:** أراد المعتزلة بالوعد والوعيد أن الله صادق في وعده ووعيده، فقد وعد المتقين الجنة، وأوعد المشركين والعصاة النار، وهو سبحانه لا يخلف وعده ولا وعيده، فمن عمل صالحا استحق الثواب ونجا، ومن عمل السوء استحق العقاب وخسر<sup>(4)</sup>. إذا مات المسلم العاصي قبل التوبة يخلد في النار، ولا تنفع فيه شفاعة، كما أن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار، لأنه عمل خيرا هو إيمانه، عقيدة أهل السنة أن الشرك غير مغفور له البتة، وما دونه من الكبائر مغفور له، هذا مع عدم التوبة، وأما مع التوبة فكلاهما مغفور له. جاء في مقامة التصبر: «فَلَا تَفْتَرِ فِي خِلَالِ ذَلِكَ أَنْ تَعْرِضَ عَلَيْهَا مَا وَعَدَ اللَّهُ الْأَتْقِيَاءَ. وَمَا أُوْعِدَ بِهِ الْأَشْقِيَاءَ. وَأَنْ تُكْرِرَ عَلَى مَسَامِعِهَا السُّورَ الَّتِي تَرُوعُ وَتَرْدَعُ. وَالآيَاتِ الَّتِي تَقْرَعُ وَتَقْدَعُ. وَأَنْ تَقْدِفَ عَلَيْهَا كُلَّ عِبٍّ مِنْ الْعِبَادَةِ بَاهِظَ. وَتَرْمِيهَا بِمَا يَحْكُ فِي قَلْبِهَا وَيَحِيكُ مِنَ الْمَوَاعِظِ»<sup>(5)</sup>

**4.3. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:** يرى المعتزلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على

المسلمين كما يرى أهل السنة، ولكنهم ذهبوا على الاقتصار على القلب إن كفى، فإن لم يكف القلب

(1) - أحمد الحوفي، الزمخشري، ص 135

(2) - (سورة الشمس: الآيات 7 - 10)

(3) - أحمد الحوفي، الزمخشري، ص 147

(4) - المرجع نفسه، ص 155

(5) - الزمخشري، مقامات الزمخشري دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2004. (مقامة التصبر: ص 139)

فباللسان، فإن لم يغن القلب واللسان فباليد، فإن لم تنفع اليد فبالسيف<sup>(1)</sup>، يقول الزمخشري: « أَكْفُفْ قَلِيلًا مِنْ غَرْبِ شَطَارَتِكَ، وَانْتِهِ عَنْ بَعْضِ شَرَارَتِكَ... ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَى طَاعَةِ هَوَاكَ فِي الْاسْتِنَامَةِ إِلَى الشَّيْطَانِ وَخَطَرَاتِهِ، وَالرُّكُونَ إِلَى اتِّبَاعِ خَطَوَاتِهِ فَإِنَّ مِنْ تَسْوِيَلَاتِهِ لَكَ وَتَحْيِيَلَاتِهِ إِلَيْكَ أَنْ لَا تَحِينَ ارْعَوَاءَ »<sup>(2)</sup>، والمعتزلة في هذا الأصل يسيرون في اتجاه معاكس لأهل السنة في ترتيب مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذين يجعلون الإنكار بالقلب آخر مرتبة بعد القول والفعل.

**5.3. المنزلة بين منزلتين:** لا ينفي أهل السنة الإيمان عن فاعل الكبائر، وإنما يفسقونه فقط، بينما يراه المعتزلة في منزلة بين الكفر والإيمان، ولهذا فإن الفاسق ليس مؤمناً وليس كافراً. وعلى هذا الأساس أول الزمخشري قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾<sup>(3)</sup>، الإيمان الصحيح أن يعتقد الحق، ويعرب عنه بلسانه ويصدق به عمله، فمن أخلّ بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق، ومن أخلّ بالشهادة فهو كافر، ومن أخلّ بالعمل فهو فاسق<sup>(4)</sup>.

### 6.3. حرية العباد:

دان المعتزلة بحرية العباد في أعمالهم، بغير توجيه من إرادة الله وقدرته، ولهذا يثيبهم الله عليها أو يعاقبهم، فلا جبر ولا اضطرار، لأن الله تعالى منزّه عن الفساد، وعن خلق أفعال العباد، فهم يفعلون أفعالهم بالقدرة التي خلقها الله فيهم، وهو ما لم يأمرهم إلا بما أراد، ولم ينههم إلا عما كره، ولو شاء لأجبرهم على طاعته، ومنعهم من معصيته، لأنه القادر. ولما كان الزمخشري يدين بهذه الحرية، فإنه لم يدع آية من القرآن الكريم تتصل بالجبر أو الاختيار إلا أولها وفق مذهبه، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾<sup>(5)</sup>، لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا بعد إذ أرشدتنا لدينك، أو لا تمنعنا إطفائك بعد إذ لطفت بنا أما أهل السنة فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرفة، لأنهم يوحدون حق التوحيد، فيعتقدون أن كلّ حادث من هدى وزيغ مخلوق لله تعالى<sup>(6)</sup>.

**7.3. تجريد العقل:** كان الزمخشري كلّفا بحرية الرأي، ميّالا إلى عمق الفكر وتقليب وجهات النظر، وإلى

(1) - أحمد الحوفي، الزمخشري، ص 165

(2) - مقامات الزمخشري (مقامة الارعواء: ص 26)

(3) - (سورة البقرة: الآية 3)

(4) - انظر أحمد الحوفي، الزمخشري، ص 161.

(5) - (سورة آل عمران: الآية 8)

(6) - أحمد الحوفي، الزمخشري، ص 148-150

المناقشة والجدل فينصح دائما: لا تقنع بالرواية عن فلان وفلان، وامش في دينك تحت راية السلطان<sup>(1)</sup> (العقل)، فيعند بالعقل اعتدادا كبيرا، ويتخذة أداة للتعبد، والحكم على الأمور؛ بل ويعتمد على العقل المجرى حتى في فهم العقيدة الإسلامية، وربما جعله وحده دليلا إلى الهدى، فيقول الزمخشري:

اتْرَكُهُ<sup>(2)</sup> وَأَمَشَ عَلَى آثَارِ عَقْلِكَ فِي مَحَجَّةٍ مِثْلَهَا لَيْسَتْ بِمَتْرُوكَةٍ (البيسط)  
فَالْعَقْلُ هَادٍ بَصِيرٌ لَا يَزِيغُ إِلَى بَصِيرَةٍ عَنِ سَدَادِ الرَّأْيِ مَأْفُوكَةٍ<sup>(3)</sup>

ونجده في موقع آخر يمجّد العقل تمجيذا كبيرا «سُبْحَانَ اللَّهِ... أَيَّ جَوْهَرَةٍ كَرِيمَةٍ أَوْلَيْتَ. وَبِأَيِّ لَوْلُؤَةٍ يَتِيمَةٍ حَلَيْتَ. وَهِيَ عَقْلُكَ لِيَعْقِلَكَ. وَحَجْرُكَ لِيَحْجُرَكَ، وَهَيْتُكَ لَتَنْهَاكَ. وَأَنْتَ كَالْخُلُوِّ الْعَاطِلِ لِتَسْرِعَكَ إِلَى الْبَاطِلِ»<sup>(4)</sup>. وهذا أمر يتعارض مع إجماع أهل السنة عموما الذين اتفق علماؤهم على أن العقل وحده لا يكفي في العبادة والتعرف على الخالق، إذ إن هناك أموراً أخرى تقع خارج حدود الإدراك العقلي. ومن اعتمد على عقله وحده ضل ضلالا مبينا.

**4. الزمخشري مجمع العلوم:** كان الزمخشري منذ صباه شغوفا بالعلم والبحث، فشغل قلبه وامتلك نفسه، لا تصرفه عنه شواغل الآباء بالأسرة والأبناء، لهذا تفرغ للعلم تعلّما وتدرّسا. وانهمرت عليه سحائب العلم، وجادت عليه الثقافة بأوفر نصيب، وحبس على التأليف نشاطه، فكثرت مؤلفاته وتنوعت حتى بلغت سبعة وأربعين مؤلفا خلد كثير منها إلى اليوم. وقد ذكر مؤلفاته أكثر الذين ترجموا له، فألّف في:

1. العلوم الدينية ورجالها: ١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل.
٢. ضالة الناشد والرائض في علم الفرائض. ٣. شقائق النعمان في حقائق النعمان.
2. اللغة: ١. أساس البلاغة. ٢. الفائق في غريب الحديث. ٣. أعجب العجب في شرح لامية العرب.
٤. شرح مقامات الزمخشري. ٥. المستقصى في أمثال العرب.
3. علم النحو: ١. المفصل في علم العربية. ٢. الأتمودج. ٣. شرح أبيات كتاب سيويه. ٤. المحاجة بالمسائل النحوية أو الأحاجي النحوية. ٥. مقدمة الأدب. وأكثره في النحو.
4. علم العروض: القسطاس.
5. الأدب: ١. نوابغ الكلم. ٢. مقامات الزمخشري. ٣. أطواق الذهب. ٤. ديوان الزمخشري

(1) - المرجع السابق، ص 68.

(2) - يعود الضمير المتصل في تركه على الهوى.

(3) - مقامات الزمخشري (النهى عن الهوى: 198)

(4) - المصدر نفسه (الرضوان: 25)

٥. ربيع الأبرار ونصوص الصغار. ٦. النصائح الصغار والبولغ الكبار. ٧. نزهة المستأنس.

اكتفيت في هذا المبحث بالتركيز على نشأته وحياته العلمية وسرد المؤلفات التي ذكر المؤرخون أنها معروفة أو مخطوطة أو مطبوعة فقط.

ثانياً: المقامة:

1. مفهوم المقامة: المقامة من الأنواع النثرية التي ظهرت في القرن الرابع للهجرة، ونمت في عصر الانحطاط وازدهرت فيه، ويحيل الجذر اللغوي للمقامة على «المجلس» أو «على الجماعة من الناس»، جاء في لسان العرب لابن منظور: المَقَامَةُ والمَقَامُ: المجلس، ومقامات الناس: مجالسهم، ويقال للجماعة يجتمعون في مجلس: مَقَامَةً، والمَقَامَةُ والمَقَامُ: الموضع الذي تقوم فيه، والمقامة: السادة<sup>(1)</sup>، وهي كذلك المحفل، ومجتمع القبيلة، والنادي، ويرى آخرون أنها استخدمت في العصور الإسلامية الأولى بمعنى الكلام الذي يلقيه القائل، وهو واقف، وسميت الأحداث من الكلام مقامة.

تتبع بروكلمان تطور معنى "مقامة" منذ العهد الجاهلي حتى عصر الهمداني، فرأى أن أقدم معاني المقامة يرجع إلى أيام الجاهلية إذ كانت عبارة عن مجتمع القبيلة، ثم اتخذت شكلاً دينياً في عهد الأمويين إذ أصبحت أحاديث زهدية تروى في مجالس الخلفاء، ثم تطور معناها فصارت تقرن بالشعر والأدب وأخبار الوقائع القديمة. ولكنها في القرن التاسع تحبب من مستواها الرفيع إلى مستوى الكدية والاستجداء بلغة مختارة، ولم تتخذ شكلها الحقيقي إلا على يد بديع الزمان الهمداني<sup>(2)</sup>.

وتقوم المقامة على راو وهمي، يختلق متناً وهمياً، يدور حول بطل وهمي، بطلها رجل أحكم التحيل، وقصر همّه على الاستزاق، تدور أخباره كلها حول الكدية، والخداع، والاحتيال، والتمويه، لا تربطها وحدة موضوعية، ولا تحيها شخصية حقيقية. وهي ميدان لعرض النكتة، وإظهار البراعة في التخلص من مآزق الحياة عن طرق ملتوية، وبنوع خاص لإظهار المقدرة اللغوية والأدبية<sup>(3)</sup>.

ويعرفها أحد الباحثين بـ«أنها حديث قصير من شطحات الخيال أو دوامة الواقع اليومي في أسلوب مسجع تدور حول بطل أفاق، وأديب شحاذ يحدث عنه، وينشر طويته راوية جواله قد يلبس جبة البطل، وغرض المقامة البعيد هو إظهار الاقتدار على مذاهب الكلام وموارده ومصادره في عظة بليغة تقلقل الدراهم في أكياسها، أو نكتة أدبية طريفة، أو نادرة لغوية لطيفة، أو شاردة لفظية طفيفة»<sup>(4)</sup>

(1) ابن منظور، لسان العرب (مادة ق و م)، تح ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر

(2) انظر حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البولسية، بيروت، لبنان، ط10، 1980، هامش ص731.

(3) انظر المرجع نفسه، ص731.

(4) الكك فكتور، بديع الزمان، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 1971، ص48.

وهيمنت على المقامة خلال تاريخها الطويل أغراض تناسب المناخ العام لكل عصر مرت به؛ ففيما كان الوعظ والإرشاد لصيقاً بمراحل تشكُّلها، أصبحت أغراض الظرف، والتطفل، والكديّة، وما تستدعيه من شخصيات طفيلية، وهامشية، وامتاجنة سمة من سمات موضوعات المقامة في عصور ازدهارها، ثم تنوعت الأغراض التي تعنى بها في تاريخها المتأخر، فصارت وسيلة للوصف والمدح والتعليم وغير ذلك<sup>(1)</sup>.

2. تاريخ المقامة:

اختلف النقاد والمؤرخون في أول من ابتدع "المقامات"، فذهب الحريري إلى أن بديع الزمان الهمداني هو أول من ابتدع هذا النوع، وأرسى قواعده، فقال في مقدمة مقاماته: «وبعد فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريجه، وخبث مصابيح، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان، وعلامة همدان، فأشار من إشارته حُكم، وطاعته غُثم، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع»<sup>(2)</sup>، وجاراه القلقشندي في تأكيد ريادة الهمداني للمقامة بقوله: «إن أول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر، وإمام الأدب، البديع الهمداني»<sup>(3)</sup>، وذهب جرجي زيدان إلى أن البديع اشتغل في مقاماته على نسق رسائل الإمام اللغوي أحمد بن فارس (ت 395 هـ)، وذكر آخرون أنّ بديع الزمان قد تأثر بأحاديث "ابن دريد" اللغوي، قال الحُصْرِي في عرض كلامه على بديع الزمان الهمداني: «ولما رأى البديع أن أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر في معارض عجمية، وألفاظ حوشية، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع حجبتها الأسماع، وتوسع فيها، إذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفاً، وتقطر حسناً، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى»<sup>(4)</sup>.

وقصارى القول إن المقامات نشأت في مناخ قصصي، وبزغت نوعاً قصصياً جديداً، ذوّبت فيها بعض سمات القصة وخصائصها، وإن للبديع الهمداني فضل إرساء النوع وتنظيمه، ووضع في شكله النهائي الفني الخالص الذي ظل مثلاً يحتذى منذ البديع.

(1) - عبد الله إبراهيم، السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992،

(2) - حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص 733

(3) - المرجع نفسه، ص 733

(4) - المرجع نفسه، ص 733

### 3. مقامات الزمخشري:

ألف الزمخشري مقاماته لما أصيب بالمرضفة الناهكة التي سمّاها المنذرة ، وندبه لإنشائها طائف مناميّ في بعض إغفاءات الفجر، وهي خمسون مقامة يعظ فيها الزمخشري نفسه، وينهاها أن تركز إلى ديدنها الأول، وألا تفكر فيه إلا على سبيل التندم والتحسر على ما تقدم، ويأمرها أن تلج في الاستقامة على الطريقة المثلى، وأخذ على نفسه الميثاق إن منّ الله عليه بالصحة ألا يطأ عتبة سلطان ولا أعوانه، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم، وأن يعف عن التطلع إلى عطاياهم، ويجتهد في محو اسمه من الديوان، ويبتهل إلى ربه ويتنسك.

ويخاطب الزمخشري في كل واحدة منها نفسه واعظا، فهو إذن، مخاطب ومخاطب في الوقت نفسه، ولكنه يقصد بعظته نفسه غيره على طريقة وعّاظ زمانه. جاء في خطبة الكتاب: «ولم يأتل فيما يعود على مُقْتَسِمًا بجليل النَّفْعِ وعظيمِ الجِدْوَى. في بابي العلم والتقوى»<sup>(1)</sup>.

ولأهمية مقاماته تولّى بنفسه شرحها شرحا مفصلا، تعرض فيه للغة، والبلاغة، والنحو، واستشهد بكثير من آيات القرآن الكريم، والحديث النبوي، وشعر العرب، وأمثالهم، وأخبارهم.

ولئن خالفت المقامات الزمخشريّة المقامة الأنموذج في المقومات والموضوعات والغاية، بقيام هذه الأخيرة على راوية وبطل، واعتمادها على الكدية، والحوار، والحكي، والوصف فهي محاكاة لها في الأسلوب المسجع، «وهي وإن خالفت مقامات الحريري في الموضوعات والغاية، فإنها محاكاة لها في الأسلوب المسجع الحافل بالمحسنات»<sup>(2)</sup>، فقد نزع الزمخشري في بناء مقاماته منزع أدباء عصره في القرن الرابع والخامس للهجرة إلى الزخرفة اللفظية والصنعة البلاغية، وركن إلى السجع ذي المقاطع القصيرة، واختيار الألفاظ، وانتقاء الغريب من الكلام<sup>(3)</sup>.

وتكاد مقامات الزمخشري تخلو من مقومات الفن القصصي، فلا نجد فيها شخوصا تتحرك ولا أحداثا ولا زمانا ولا مكانا، مما يجعلها تقترب من مفهوم المقام<sup>(4)</sup> أكثر من مفهوم المقامة. كما أنها تنحو من الجد في جميعها، فلا نجد في مقاماته هزلا أبدا، ولعل السبب في ذلك يعود إلى جدية الموضوعات المطروقة

(1) - مقامات الزمخشري (خطبة الكتاب: ص 13، 14).

(2) - أحمد الحوفي، الزمخشري، ص 277، 276.

(3) - انظر أحمد الحوفي، الزمخشري، ص 277، وكمال عبد الفتاح حسن، مقامات الزمخشري، دراسة موضوعية فنية، مجلة

سر من رأى، مج 4، ع 4، 2004. ص 58

(4) - المقام هو أن يقوم الخطيب بين يدي الخليفة للوعظ والتذكير.

في المقامات (1). فلا يليق بها إلا الأسلوب التقريري المباشر كونه يقصد العامة بالخطاب، إلا أن هذا لا يمنع المتكلم من الارتقاء بالمقامات في كثير من الأحيان إلى مستوى الإبداع الفني عندما يراه الأنسب لمخاطبة المتلقي.

#### 4. إشكالية تجنيس مقامات الزمخشري:

اختلف النقاد في تقييم المقامة وتجنيسها، وذلك منذ أن عرفها ابن الأثير بأنها « حكاية تخرج إلى ملخص»، وبالرغم من حضور عناصر السمات الحكائي فيها عموماً إلا أن النقاد والدارسين نقلوا مركز اهتمامهم من صميم المقامة إلى أجناس وأنواع أخرى قد لا يجمعها بالمقامة إلا المرامي السردية البعيدة، وهكذا اعتبرت المقامة "حكاية" أو "حديثاً"، كما عدّها المتأخرون "قصة قصيرة"، أو "أقصوصة"، أو "مسرحية"، أو "ملحمة"، أو "نواة روائية"، أو "حدوتة"، أو "مقالة" (2).

غدت البنية الحكائية وعناصر القصّ كالشخصيات، والحوار، والسرد، والوصف، والكديّة، والغاية التعليمية، وشيوع الفكاهة، والظرف، والسخرية، القوانين التي يجب أن يحتذيها كل من يريد التأليف في المقامة، لكن الزمخشري قد أَلّف - بعد الهمداني والحريري - مقامات تدور كلّها حول الوعظ، ولم يلتزم فيها بهذه العناصر، فليس لها راو، ولا بطل (3)، وبالرغم من بروز الكثافة البلاغية، والغاية التعليمية فيها إلا أن هذا لم يشفع لها عند النقاد من طرح مشكل تجنيسها، فقد صرّحوا أو لمحاوا إلى أن مقامات الزمخشري لا تنتسب انتساباً حقيقياً إلى المقامة؛ فذكر شوقي ضيف أنه ليس لها منه إلا الاسم: « وكل ما في الأمر أنه استعار من الحريري الاسم ليطلقه على مجموعة من المواعظ » (4)، ولكنه لم يعطها تجنيساً محددًا.

ونجد الرأي نفسه عند أحد الباحثين « وبعد أن تبين لنا خلو مقامات الزمخشري من عناصر القصّ التي شاعت في فن المقامات [...]، وإن احتوت غاية تعليمية - واقتصارها على الوعظ والإرشاد الذي لا نراه كافيًا لعدّها من المقامات التي أصبحت فناً مستقلاً استقلالاً تاماً عن أحاديث الوعظ والإرشاد التي شاعت قبلها، بل إننا كثيراً ما نجد الوعظ والإرشاد في الشعر أو النثر بصوره المتنوعة » (5).

(1) - انظرهارون الرابعة وآخرون، مقامات الزمخشري رؤية وتأسيس، ص 203.

(2) - أنقار محمد، تجنيس المقامة، مجلة فصول، مجلد 13، عدد 3، 1994، ص 9.

(3) - شوقي ضيف، المقامة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 10، 1954، ص 77.

(4) - المرجع نفسه، ص 77

(5) - أحمد رحاحلة وخالد العجمي، إشكالية التجنيس في مقامات الزمخشري، 2017 / 12 / 10

بينما ينفي عنها أحد الباحثين صفة المقامة صراحة، ويلحقها بالرسائل، فيقول: « هي أشبه ما تكون بالأحاديث الهادئة، والرسائل المنمقة التي تعالج مجردات من الأمور... خلت من الحوار الحي، وهدمت من الأبطال الذين يتحركون باستمرار... فهذه الخطبة -أي خطبة الزمخشري في مقاماته - فهي بقدر ما تبتعد عن الفن القصصي، تقترب من فن الرسالة» (1)، فجعلها أقرب إلى الرسائل منها إلى المقامات.

ويمكن القول: إنَّ للمقامة عند الزمخشري تحديدا خاصا ينطلق من المعنى المعجمي بعيدا عن مفهوم المقامة البديعية النموذج كما تواضعوا عليها، لكننا حين نعلم النظر في شرحه كلمة "المقامة" في مقامة المرشد، نجد المقامات عنده « جمع مقام أو مقامة، موضع القيام، فاتسع فيهما حتى استعمالا استعمال المكان والمجلس، ثم قيل لما يقام به فيها من خطبة أو شبهها مقامة، ويقال مقامات الخطباء ومجالس القصاص، ويسمى الجالسون فيها مقامة» (2)، وترتبط بمقامات الزهاد، والعباد، والوعاظ، والقصاص، والخطباء. كما نجد الزمخشري يسمي ما ألف "مقامات" « هذه مقامات أنشأها الإمام فخر خوارزم أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري... وضم إلى هذه الكلمات ما ارتفعت به مقامه وأنسها بأخوات قلائل » وبلا مخالفة ريب فإنه لم يغب عن الزمخشري تحديد سابقه للمقامة ولا عناصرها، خاصة وأنه لم يُخف إعجابه الشديد بما كتب الحريري فقد كان يقول:

أقسم بالله وآياته      ومشعر الحجاج وميقاته      (السرير)  
إنَّ الحريري حريٌّ بأنَّ      نكتب بالتبرِّ مقاماته

لكنه سمي ما ألف مقامات. فهي إذن، مقامات من نوع خاص تنهض بالمسلم وتسمو بنفسه ليرتفع مقامه، فأرادها عملا مميزا مستقلا عن سبقه في الموضوع والبنية الحكائية.

### ثالثا: في التداولية:

تقع التداولية بوصفها درسا جديدا وغزيرا في ملتقى طرق الأبحاث الفلسفية والاجتماعية واللسانية وغيرها، وإن أردت لها الاستقلالية فلن تعود علما كاملا ناضجا إلا مستندة إلى تلك العلوم، وجاء هذا العلم رداً على التوجهات البنيوية فيما أفرزته من تصورات صورية مبالغ فيها، وعلى غلوها في عزل كل ما له صلة بالجانب الوظيفي النفعي للغة التي هي « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» (3)، كما جاءت لسد ثغرات المدارس اللسانية الحديثة، خاصة الغربية منها التي درست اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها، وسلخت اللغة من محيطها الاجتماعي الذي أنتجت فيه، الذي قد يفتح الكلام بدلالات تقصر أن تصل إليها في

(1) - عبد الملك مرتاض، فن المقامات في الأدب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 248، 249

(2) - الزمخشري، مقامات الزمخشري، ص 16.

(3) - ابن جني، الخصائص، الجزء 1، تحقيق عبد الحكيم بن محمد، ص 44.



ظل اللسانيات البنوية، وجاءت لتجيب عن تساؤلات كثيرة منها: ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ من يتكلم إذن؟ وإلى من يتكلم؟ من يتكلم ومع من؟ من يتكلم ولأجل من؟ ماذا علينا أن نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة؟ كيف يمكننا قول شيء آخر غير ما كنا نريد قوله؟ هل يمكن أن نركن للمعنى الحرفي لقصد ما...<sup>(1)</sup>؟ لذلك نجد أنفسنا أمام معنيين:  
الأول: دلالي وهو المعنى الحرفي للتركيب.

الثاني: تداولي وهو معنى ثاوٍ وراء المعنى الحرفي، وذلك مرتبط بمقاصد المتكلمين ونواياهم. وتعدّ التداولية أحدث بحث أفرزته اللسانيات الحديثة، البحث الذي يولي أهمية قصوى للشروط الخارج لغوية (Extra Linguistique)، والمتعلقة بالسياق والمقام والمتكلمين ومقاصدهم وحيثيات الاستعمال والأفعال اللغوية، أي أصبحت جزءاً من دراسة الإنجاز (Part of performance)<sup>(2)</sup>.

**1. مفهوم التداولية:** يعود الفضل في إدخال مصطلح (pragmatics) بمفهومه الحديث إلى معجم اللسانيات الحديثة إلى الفيلسوف الأمريكي شارل موريس (Charles Morris) الذي استخدمه سنة 1938 عندما جعلها جزءاً من السيميائية (semiotics) وأحد مكوناتها في قوله: «علم الدلالة (semantics) يعالج علاقة العلامات بالموضوعات التي تدل عليها، أما علم الاستعمال (pragmatics) فيخص علاقة العلامات بمفسيها، وقد وضع شارل موريس هذا التمييز في إطار تقسيمه الثلاثي لعلم العلامات<sup>(3)</sup>:  
أ. علم التراكيب syntax: وهو دراسة العلاقات النحوية للعلامات signs بعضها ببعض.  
ب. علم الدلالة semantics: يدرس علاقات العلامات بالأشياء التي تنطبق عليها العلامات.  
ج. التداولية pragmatics: يبحث علاقة العلامات بالمفسرين

ونشأت التداولية في حوض فلسفة اللغة، فجون لانجشو أوستين (J. Austin) حين ألقى محاضرات وليام جيمس سنة 1955 لم يكن يهدف إلى وضع تخصص لساني جديد، بل كان يرمي إلى وضع اختصاص فلسفي جديد هو "فلسفة اللغة"، بيد أنّ تلك المحاضرات صارت فيما بعد بوتقة اللسانيات التداولية.

وأنكر أوستين على فلاسفة الوضعية المنطقية الذين قصرُوا وظيفة اللغة على وصف العالم وصفاً يكون صادقاً أو كاذباً إذا طابق الواقع أو خالفه، ورأى أن هناك عبارات غيرها لا تصف وقائع العالم

(1) - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986، ص 6.

(2) - إدريس مقبول، البعد التداولي عند سيبويه، مجلة عالم الفكر، عدد 1، مجلد 55، 2004، ص 246.

(3) - صلاح إسماعيل، النظرية القصدية في المعنى عند جرايس، دار المنظومة، الحولية 25، الرسالة 230، 2005، ص 77

<http://search.mandumah.com/Record/476849>

الخارجي، ولا يمكن وصفها بصدق ولا كذب، بل تؤدي أو تنجز فعلا، من قبيل قول المسلم لأمراته: أنت طالق، أو يقول: أوصي بنصف مالي لمرضى السرطان، أو يقول وقد بشر بمولود: سميتة يحي، وعلى هذا الأساس ميز بين نوعين من الأفعال:

أ. أفعال إخبارية (Constative): وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة.  
ب. أفعال أدائية أو إنشائية (Performative): وهي أفعال تنجز في ظروف ملائمة أعمالا ولا توصف بصدق ولا كذب، وإنما يحكم عليها بالتوفيق، والإخفاق، أو موفقة، وغير موفقة.

ومهدت هذه الأفكار الطريق لنظرية أفعال الكلام لب النظرية التداولية، ثم بدأت في التطور، ولم تستو علما وتخصصا يعتد به في الدرس اللساني المعاصر إلا في العقد السابع من القرن العشرين. بعد أن عكف على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي لجامعة أكسفورد (Oxford)، وهم جون لانجشو أوستين (John Langshaw Austin) وجون سيرل (John.Searle) وبول هيرت جرايس (Paul.Herbert.Grice)، وكان هؤلاء الثلاثة من مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية (natural language) أو العادية (ordinary) في مقابل اللغة الشكلية الصورية (formal language) التي يمثلها كارناب (Carnap)، وكانوا جميعا مهتمين بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها، وكان هذا من صميم البحث التداولي<sup>(1)</sup>. فكانت التداولية إذن، منعطفا كبيرا في مجال الدراسات اللسانية، حيث تحول اهتمام اللسانيين من دراسة اللغة بوصف نظامها الداخلي، إلى الاهتمام بالأبعاد التداولية للغة بالبحث في الشروط الخارج لغوية (extra linguistique) والمتعلقة بالسياق، والمقام، والمتكلمين، ومقاصدهم، والأفعال اللغوية وغيرها.

وإذا ما عدنا إلى معاجمنا وجدنا من جذر التداولية (د و ل): تداولنا الأمر: أخذناه بالدول. وقالوا: دواليك؛ أي مداولة على الأمر. ودالت الأيام؛ أي دارت، والله يداولها بين الناس. وتداولته الأيدي؛ أي أخذته هذه مرة، وهذه مرة<sup>(2)</sup>.

ويقول طه عبد الرحمن في استقراءه لمعاني الفعل "تداول": «من المعروف أن الفعل "تداول" في قولنا: "تداول الناس كذا بينهم" يفيد معنى "تناقله الناس، وأداروه فيما بينهم"، ومن المعروف أيضاً أن مفهوم "النقل" ومفهوم "الدوران" مستعملان في نطاق اللغة الملفوظة، كما أنهما مستعملان في نطاق التجربة المحسوسة، فيقال: "نقل الكلام عن قائله"، بمعنى رواه عنه، كما يقال: "نقل الشيء عن موضعه"

(1) - محمود أحمد نحلة، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، (د ط)، 2002، ص 9، 43.

(2) - ابن منظور، لسان العرب (مادة د و ل)، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي و...، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (د ط)، (د ت).

أي: حركه منه، ويقال: " دار على الألسن " بمعنى جرى عليها، كما يقال: " دار على الشيء " بمعنى طاف حوله، فالنقل والدوران يدلان بذلك في استخدامهما اللغوي على معنى النقلة بين الناطقين، أو قل معنى "التواصل" ويدلان في استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين، أو قل على معنى التفاعل، فيكون التداول جامعاً بين اثنين هما: **التواصل**، و**التفاعل**. فمقتضى " التداول " إذن، أن يكون القول موصولاً بالفعل<sup>(1)</sup>.

وتشير التداولية في الاصطلاح إلى درس جديد في اللسانيات إلا أنها لا تمتلك حدوداً واضحة، لاتساع مجالها في المنظومة الفكرية، وتبعاً لذلك تعدد المصطلحات العربية المقابلة للمصطلح الأجنبي (pragmatics) فكانت التداوليات، والمقامية، والذرائعية، والوظيفية، والاستعمالية، والتخاطبية، والتبادلية، والنفعية، وغيرها، بسبب تعدد مرجعيات الباحثين الفكرية والمعرفية، فصعب وضع مصطلح موحد قار يشمل مقولاتها ومجالاتها العديدة، إلا أن مصطلح التداولية هو المصطلح الشائع عند اللغويين واللسانيين من جهة، و كان أول من ترجم مصطلح ( pragmatics ) إلى التداولية هو طه عبد الرحمن<sup>(2)</sup>، وهو مصطلح يحيل على التفاعل، والحوار، والتخاطب، والتداول بين الأطراف المتلطفة من جهة أخرى. و استطاع كثير من اللسانيين أن يقدموا تعريفات للتداولية- لم تسلم على كثرتها من مأخذ- كان أحسنها طريقة ما تعامل به خليفة بوجادي مع المصطلح، حين عكف على جمع تلك التعريفات وتصنيفها في حقول، وإن تداخل بعضها ببعض تداخلاً شديداً يستحيل معه إدراج تعريف في حقل واحد، ولهذا كان الاضطرار إلى تكرار بعض التحديدات:

أ. تعريفات ترتبط بحقل نشأة التفكير التداولي وتتفق على رصد أصلين لنشأة التفكير التداولي:

أولهما: حقل اللسانيات، حيث تعد التداولية استطالة لسانية أخرى للسانيات التلطف التي دشنها إميل بنفنيست ( E.Benveniste )، إذ إن التمييز الكبير لا يتم أبداً بين اللغة والكلام، ولكن بين الملفوظ الذي يقصد به ما يقال، والتلفظ كفعل القول<sup>(3)</sup>، ويعدها شارل موريس ثلاثة ثلاثة في إطار تقسيمه الثلاثي لعلم العلامات، وقال بأنها «جزء من السيميائية، وتعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات»<sup>(4)</sup>

(1) - طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1993، ص 244.

(2) - عمر بلخير، النص القرآني والمقاربة اللسانية التداولية، مداخلة ألقاها بمركز بحوث القرآن، جامعة ملايا، ماليزيا، 2015، ص 1

(3) - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ص 9.

(4) - صلاح إسماعيل، النظرية القصدية في المعنى عند جرابيس، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 25، الرسالة 230، دار

ثانيهما: يجعل حقل فلسفة اللغة العادية لدى أوستين وتلميذه سيرل نواة لتأسيس التداولية، ويحدد موقفها في التفكير الأنجلوسكسوني انطلاقاً من إشكالية أفعال الكلام التي طورت التفكير في آليات معالجة اللغة: الحجاج، وأنواع الخطاب...إلخ.

ب. تعريفات ترتبط بموضوع التداولية: تتفق في مجموعها على أن موضوع التداولية عموماً هو وظائف اللغة ودورها في تحقيق التواصل وشروط نجاح التخاطب، كما تهتم بالخطاب بعده «كل تعبير لغوي أيّاً كان حجمه أنتج في مقام معين، قصد القيام بغرض تواصلية معين»<sup>(1)</sup>، وتتفق على أن التداولية في عمومها تهتم بجميع شروط الخطاب، فيعرفها آن ماري ديلر (Anne Marie Diller) و فرانسواز ريكاناتي (Francois Récanati) كالتالي «التداولية هي دراسة استعمال اللغة في الخطاب، شهادة في ذلك على مقدرتها الخطابية»، وتهتم من هنا ببعض الأشكال اللسانية، التي لا يتحدد معناها، إلا من خلال استعمالها، ويعرض ريكاناتي تعريفاً إدماجياً لفرنسيس جاك (Francis Jacques) إذ «تتطرق التداولية إلى اللغة كظاهرة خطابية، وتواصلية، واجتماعية معاً»<sup>(2)</sup>، وتهتم بالكلام من حيث هو ملفوظات لغوية تهدف في العادة إلى الإسهام في الاتصال والتفاعل اللغوي، وهي من هذه الناحية بوصفها علماً «يختص بتحليل الأفعال الكلامية، ووظائف منطوقات لغوية وسماقتها في عملية الاتصال بوجه عام»<sup>(3)</sup>.

وتعنى التداولية «بدراسة كل جوانب المعنى التي تحملها النظريات الدلالية؛ فإذا اقتصر علم الدلالة على دراسة الأقوال التي تنطبق عليها شروط الصدق (Truth conditions)، فإن التداولية تعنى بما وراء ذلك مما لا تنطبق عليه هذه الشروط»<sup>(4)</sup>.

ونخلص من خلال هذه التعريفات إلى أن التداولية تتناول وظائف اللغة بعدها ظاهرة خطابية، وتواصلية، واجتماعية، وحجاجية، كما تهتم بجميع شروط الخطاب، والظروف، والملابسات التي يؤدي فيها المتكلمون خطاباتهم، والعلاقات بينهم، كما يرصد الآثار التي يُوجدها الخطاب أثناء التخاطب والتفاعل.

### ج. تعريفات ترتبط بالوظيفة (التواصل والأداء):

تعكف التداولية على دراسة كل العلاقات بين المنطوقات اللغوية وعمليات الاتصال والتفاعل<sup>(5)</sup>،

(1) - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الأمان، الرباط، 2001، ص 17.

(2) - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ص 8.

(3) - فان دايك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط 1، 2001،

ص 114.

(4) - محمود أحمد نحلة، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، ص 12.

(5) - انظر فان دايك، علم النص... ترجمة سعيد حسن بحيري، ص 115.

وعلى هذا تُعدُّ نظرية التواصل من أهم الركائز التي تقوم عليها التداولية، لهذا ارتبطت كثير من تحديدات التداولية بوظيفة التواصل ( إيصال كَمِّ من الأفكار والمعلومات وتبادلها بين مرسل ومتلق )، فهي بهذا فرع من اللسانيات يعنى بدراسة التواصل ( Communication ) بين المتكلم والمتلقي، أو بمعنى آخر يعنى بدراسة الرموز التي يستخدمها المتكلم في عملية التواصل، والعوامل المؤثرة في اختيار رموز معينة دون أخرى، والعلاقة بين الكلام وسياق حاله، وأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطب على الكلام<sup>(1)</sup>.

ويحددها باحث آخر تحديدا إجرائيا، على نحو يجعلها شديدة الارتباط بالتواصل، فتعمل التداولية على إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير التداولية من ثم جدية بأن تعرّف بأنه: " علم استعمال اللغة "، ويمكن أن نقول في تعريفها: « بأنها نسق معرفي استدلاي عام يعالج الملفوظات ضمن سياقاتها التلفظية، والخطابات ضمن أحوالها التخاطبية »<sup>(2)</sup>.

والتداولية هي دراسة للتواصل اللغوي بصفة خاصة، العلاقات بين الجمل والسياقات والأحوال التي استعملت فيها اللغة. ومن ثم فهي تدرس:

أ. كيفية تفسير الأقوال المستعملة، أو اعتمادها على المعرفة بالعالم الواقعي المحيط بالنص.

ب. كيفية فهم المتحدثين للأحداث الكلامية.

ج. كيفية تأثر تركيب الجمل بالعلاقة بين المتحدث والسامع<sup>(3)</sup>.

د. تعريفات ترتبط بحقل علاقتها بالعلوم الأخرى:

سُجِّل أقدم تعريف للتداولية باسم شارل موريس الذي سبق وأن أشرت له ويعتبر « التداولية جزءا من السيميائية، وتعالج العلاقة بين العلامات، ومستعملي هذه العلامات »<sup>(4)</sup>

وهي فرع من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم ( Speaker intention )، ودراسة معنى المتكلم ( Speaker meaning )، ويعرفها سفيز ( L.Sfez ) بأنها الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات، ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل<sup>(5)</sup>. كما أنها مرتبطة ارتباطا وثيقا باللسانيات الوظيفية لأنها تدرس اللغة من وجهة نظر وظيفية.

(1) - رمزي منير البعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص 390.

(2) - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2008، ص 25.

(3) - صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، الجزء1، دار قباء للطباعة، القاهرة، ط1، 2000، ص43

(4) - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ص9.

(5) - فليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007، ص 19.

ويرى فان دايك (Van Dijk) أنّ التداولية لا تستوي علما متكاملًا إلا في ظل علوم أخرى، وفي هذا الصدد يقول: إذا ما أريد أن تدرس بجدية كل العلاقات بين المنطوقات اللغوية، وعمليات الاتصال والتفاعل، فإنه يجب أن يعد علم اللغة النفسي، وعلم اللغة الاجتماعي، وجزء كبير من علم النفس وعلم الاجتماع ضمن البراجماتية<sup>(1)</sup>. ويشير في موضع آخر إلى أن التداولية إحدى مكونات علم العلامات، فهي «العلم الذي يعالج بصفة خاصة العلامات ونظام العلامات في شكل رموز ومعان وأوجه اتصال، وهي مكون إلى جانب علم النحو (تحليل العلاقات بين العلامات) وعلم الدلالة (تحليل العلاقات بين العلامات والمعاني والواقع الخارجي)<sup>(2)</sup>».

ولم تخل هذه التحديدات -على كثرتها - من مآخذ وملاحظات؛ بحيث يركز كلّ تحديد في كثير منها على جانب من جوانب التداولية، لهذا اختار لها أحد الباحثين تعريفاً رآه جامعاً، وهو «دراسة اللغة في الاستعمال (In use) أو التواصل (In interaction)؛ لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئاً متأسلاً في الكلمات وحدها، ولا مرتبطاً بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، وإنما صناعة المعنى تتمثل في تداول (Negotiation) اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، واجتماعي، ولغوي) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما»<sup>(3)</sup> فإذا قال شخص ما: الجوّ حارّ. قد يكون المراد "افتح النافذة أو شغل المكيف وغيرها"، وليس المقصود إخبار السامع بـ "الجوّ حارّ"، فالمتكلم كثيراً ما يعني أكثر ممّا يقول، ومن ثمّ كانت التداولية تبحث في كيفية اكتشاف السامع لمقاصد المتكلم (Speaker intentions).

## 2. الدرجات الثلاث للتداولية:

تدين التداولية للهلندي هانسون (Hansson) بما أسهم به من نظام وبرنامج تطوير سنة 1974، فهو أول من حاول التوحيد النسقي والربط بين مختلف الأجزاء (الدرجات)، ويتمثل هذا التوحيد وهذه التجزئة في تقسيم التداولية إلى ثلاث درجات متتابعة، ويشير المرور التدريجي التطوري إلى الدرجة الأعلى في السلم وعند كل درجة يؤخذ قسم من السياق بعين الاعتبار، ويثرى السياق كلما انتقل من الأبسط إلى الأعقد، فميز بين ثلاث درجات<sup>(4)</sup>:

أ. تداولية الدرجة الأولى: هي دراسة الرموز الإشارية، (أي المبهمات حتماً) كالضمائر وإشارات الزمان

(1) - فان ديك، علم النص، ترجمة سعيد حسن بحيري، ص 115.

(2) - المرجع نفسه، ص 115.

(3) - محمود أحمد نحلة، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، ص 14

(4) - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ص 38.

وعمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، دار الأمل، ط2، تيزي وزو، الجزائر، 2013، ص 13

والمكان ضمن ظروف استعمالها، ( أي سياق تلفظها )، وتتضح مرجعيتها في السياق الوجودي والإحالي، وهما: المخاطبون، ومحددات الفضاء والزمن.

**ب. تداولية الدرجة الثانية: المعنى الحرفي والمعنى التواصلي:** وهي دراسة الأسلوب الذي يرتبط فيه القول بقضية مطروحة، إنها تدرس كيفية انتقال الدلالة من المستوى التصريحي إلى المستوى التلميحى، لأن المعنى الحرفي يتميز عن المعنى الاستعاري أو المجازي، بالسعي نحو استخراج ومعرفة العمليات التي تكون سببا في ذلك؛ أما النظريات التي تتناول هذا النمط بالدراسة فهي نظرية قوانين الخطاب وأحكام ومسلمات المحادثة، وما ينبثق عنها من ظواهر خطابية كالاقتضاء، والتضمينات، والأقوال المضمره... والسياق في هذا النمط هو مجمل المعلومات والمعتقدات التي يشترك فيها المتخاطبون.

**ج. تداولية الدرجة الثالثة: نظرية أفعال اللغة:** وتمثل في الدراسات التي تدخل ضمن نظريات الأفعال الكلامية، التي تنطلق من مسلمة مفادها أن الأقوال الصادرة ضمن وضعيات محددة تتحول إلى أفعال ذات أبعاد اجتماعية؛ وتتدخل عوامل عديدة في تحديد سياق هذا النمط، منها الاجتماعية والفردية... فالفعل الكلامي لا يتحقق دائما بالصيغة اللغوية الموضوعة له، والسبب في ذلك يعود إلى تدخل عناصر من سياقات الأنماط الأخرى، فهذا النمط لا يستقل عن الأنماط الأخرى من حيث السياق وطبيعته.

### 3. جوانب التداولية: يتفق جلّ الباحثين على أن البحث التداولي يقوم على أربعة جوانب هي:

الإشارة (Deixis)، والافتراض السابق (Presupposition)، والاستلزام الحوارى (implicature Conve)، والأفعال الكلامية (Speech actes)، بالإضافة إلى جوانب وآليات أخرى تعد من صميم البحث التداولي مثل نظرية الملاءمة (Pertinence théorie)، والمقصدية (Intentionality)، والسياق (Contexte)، والحجاج (Argumentation).

### 1.3. الإشارات (المبهمات): وهي مجموعة العلامات التي لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب

التداولي؛ لأنها خالية من كل معنى في ذاتها، وبالرغم من ارتباطها بمرجع إلا أنه مرجع غير ثابت (1)، ولا يقتصر دور الإشارات في السياق التداولي على الظاهرة فقط، بل يتجاوزها إلى الأكثر حضورا في الخطاب، وهي المستقرة في بنيته العميقة (2). ويتفق أغلب الباحثين على أن الإشارات خمسة، وهذا إنجازها:

أ. الإشارات الشخصية (personal deictcs): يعد ضمير الحاضر (المتكلم والمخاطب) أوضح

الإشارات الدالة على شخص، وأما ضمير الغائب فلا يعتبر إشاريا إلا إذا كان حرا، أي لا يعرف

(1) - ابن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، ص 80

(2) - المرجع نفسه، ص 81.

مرجعه من السياق اللغوي وإلا خرج منها، ويلحق بها المنادى، وظاهر أنه لا يفهم إلا إذا اتضح المرجع الذي يشير إليه<sup>(1)</sup>.

ب. الإشارات الزمانية (temporal deictcs): وهي ما يشير إلى زمان يحدده السياق بالقياس إلى لحظة التلفظ التي تعد مرجع الإشارة الزمانية ومركزها، وتكاد تنحصر في ظروف الزمان، والأسماء الدالة عليه كأمس، واليوم، وغد، وبعد شهر...<sup>(2)</sup>

ج. الإشارات المكانية (spatial deictcs): وهي ما يشير إلى مكان يتحدّد بمعرفة موقع المتكلم وقت التكلم، واتجاهه، والاعتماد على السياق المادي المباشر (physical context immediate) الذي قيلت فيه. مثل أسماء الإشارة، وظروف المكان<sup>(3)</sup>.

د. إشارات الخطاب (discourse deictcs): وهي عبارات تذكر في النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم، قد يتحير في ترجيح رأي على رأي أو الوصول إلى مقطع اليقين في مناقشة أمر، فيقول: ومهما يكن من أمر، وقد يحتاج أن يستدرك على كلام سابق أو يضرب عنه فيستخدم: لكن أو بل، ويريد أن يرتب أمرا على أمر فيقول: من ثم وغيرها<sup>(4)</sup>

هـ. الإشارات الاجتماعية (social deictcs): وهي ألفاظ وتراكيب تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسمية أو علاقة ألفة ومودة أو مراعاة للمسافة الاجتماعية، كاستخدام " أنتم" في اللغة العربية للمفرد المخاطب، و"نحن" للمفرد المعظم لنفسه، واستعمال الألقاب وغيرها<sup>(5)</sup>.

2.3. الافتراض السابق (presupposition): وهو المعين اللغوي الذي يستقي منه المتكلم حين ينتج الخطاب، وعليه يعتمد المتلقي في تأويله، وهو من أبرز مفاهيم التداولية، ويعد ذا أهمية كبرى في كل تواصل لساني، إذ يخاطب المتكلم المتلقي على أساس مّا يفترض سلفا أنه معلوم له، واعتمادا على معطيات، وافتراضات معروفة يعترف بها كلٌّ منهما، لتحقيق عملية التواصل، وهذه الافتراضات المسبقة لا يصحّح بها المتكلمون، وتشكل خلفية التبليغ الضرورية لنجاح العملية التبليغية وهي محتواة في القول، سواء تلفّظ بهذا القول إثباتا أو نفيًا. وهكذا لو قمنا باختبار قول ما- ويدعى هذا القول اختبار النفي- فإن الافتراض

(1) - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 17 وما بعدها.

(2) - انظر المرجع نفسه، ص 19، 20.

(3) - انظر المرجع نفسه، ص 21 وما بعدها.

(4) - انظر المرجع نفسه، ص 24.

(5) - المرجع نفسه، ص 25 وما بعدها.



المسبق يظل صحيحا:

- اغلق النافذة.

- لا تغلق النافذة.

يتمثل الافتراض المسبق ههنا في كون النافذة مفتوحة (1).

**3.3 الاستلزام الحواري ( Conversational implicature ):** يعد الاستلزام الحواري واحدا من أهم الجوانب في الدرس التداولي، وكان ما ألهم بول هاربر جرايس ( Paul Herber Grice ) إلى هذه الفكرة هي أن الناس في حواراتهم يقولون ما يقصدون، أو يقصدون أكثر مما يقولون، أو يقصدون عكس ما يقولون. فرأى أن يوضح الاختلاف بين ما يقال ( what is said )، وما يقصد ( what is meant )؛ فما يقال هو المعنى الصريح، وما يقصد هو المعنى الضمني المستلزم، وهو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع بطريقة غير مباشرة اعتمادا على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال (2)، ولكي يُحكم جرايس سلامة التواصل بين المتخاطبين اقترح في (1975) نظريته المحادثية التي تنص على أن التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام هو مبدأ التعاون ( co-operative principle ) الذي يتعاون بموجبه كلٌّ من المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف من الخطاب، وهو مبدأ حوارى عام يشتمل على أربعة مبادئ (Maxims) (3):

1. مبدأ الكم (Quantity): قل ما هو ضروري دون زيادة أو نقصان .

2. مبدأ الكيف (Quality): قل ما يعتقد صوابه وصدقه، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه .

3. مبدأ المناسبة (Relevance): اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع.

4. مبدأ الطريقة (Manner): كن واضحا ومحددا:

أ. تجنب الغموض.

ب. تجنب اللبس.

ج. تحرّ الإيجاز.

د. تحرّ الترتيب.

(1) - انظر جيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر،

ص 34. ومحمود أحمد نحلة، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، ص 26

(2) - محمود أحمد نحلة، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، ص 33

(3) - المرجع نفسه، ص 34

يبني المخاطب خطابه على شكل مفارقات معتمدا في توصيله على مبدأ تداولي هو التعاون (التآزر)، وفيه قواعد تضمن الوضع المثالي لنجاح العملية التواصلية، لكن المتكلم كثيرا ما يخرق أحدها أو بعضها، ومع ذلك يظل التواصل قائما، معولا على هذا المبدأ؛ لأنه يفترض أن المخاطب يظل بدوره مشدودا إلى هذا المبدأ العام طيلة العملية الإنتاجية أو الإبداعية، ومعتمدا على حسن ظنه بمخاطبه في ملء فجوات الصورة وتفسير نتوءاتها لاستكمالها وتأويلها كما قصد المخاطب.

### 4.3. الأفعال الكلامية (Speech act):

استأثرت نظرية الأفعال الكلامية باهتمام كثير من الباحثين في حقل الدراسات التداولية، ونشأت ردًا على تصوّر فلاسفة الوضعية المنطقية القاصر<sup>(1)</sup> الذين توهموا حين افترضوا أن شأن الحكم في القضية، إمّا أن يصف حالة شيء ما، وإما أن يثبت واقعة عينية مما يعني أن حكم القضية إمّا أن يكون صادقا أو كاذبا<sup>(2)</sup>، حين رأوا أن وظيفة اللغة الأساسية تتمثل في تمثيل الواقع أو الذهن، ووصف الوقائع الموجودة في العالم الخارجي بعبارات إخبارية، ثم يكون الحكم بعد ذلك على هذه بالصدق إذا طابقت الواقع، وبالكذب إن لم تطابقه، فإذا لم تطابق العبارة الواقع، فليس من الممكن الحكم عليها بصدق أو كذب، وهي من ثمّ لا معنى لها<sup>(2)</sup>، ويخرجون بذلك معظم أنواع الخطاب الأدبي والديني والأخلاقي من اللغة فهمي بمعيارهم لا معنى لها.

كما حمل كثير من الفلاسفة مثل لودفيغ فتجنشتاين (Ludwig. Wettgenstein)، ورسل

(Russell)، وأوستين على فلاسفة الوضعية المنطقية، ورأوا أن وظيفة اللغة لا تقتصر دائما على تقرير الوقائع أو وصفها، لكنها تؤدي وظائف أخرى كالأمر، والاستفهام والتمني، والشكر، والتهنئة، والتحذير، وغيرها مما يسميه العرب أساليب إنشائية، لكنّ أوستين أنكر عليهم ذلك، ورأى أنّ هناك نوعا آخر من العبارات يشبه العبارات الوظيفية في تركيبها، لكنه لا يصف وقائع العالم، ولا يوصف بصدق أو كذب، وإنما تؤدي أو تنجز أفعالا فتوصف بالتوفيق أو الإخفاق<sup>(3)</sup>. ولهذا ميز بين نوعين من الأفعال: الأول: أفعال إخبارية (Constative): وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة، وتسمى كذلك أفعالا تقريرية.

الثاني: أفعال أدائية أو إنشائية (Performative): وهي أفعال لا يمكن أن تنجز أو تؤدي إلا بتوفر

(1) - أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1991، ص13

(2) - انظر محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص42

(3) - المرجع نفسه، ص43.

عناصر مقامية وشروط مناسبة لإنجازها في ظروف ملائمة كالإرادة، والقدرة، والقصد، وحسن النية، وصدقها، وتوفر مختلف الظروف الطبيعية، والمقتضيات الاجتماعية للعمل اللغوي المنجز، ونجاح هذه الأفعال، وفشلها متوقف على مدى توفر هذه الشروط وانتفائها، وهي أفعال لا توصف بصدق ولا كذب، بل تكون صائبة (happy)، أو خائبة (unhappy) ويدخل فيها التسمية، والوصية، والاعتذار، والرهان، والنصح، والوعد.

ومن هنا تأسست نظرية أفعال الكلام لتعالج تصورا قاصرا كان يحصر وظيفة اللغة في الوصف، والإخبار، فهذه النظرة الشطر، ولنظرية أفعال الكلام الشطر الباقي، حتى يحاط باللغة، « فالاستعمال اللغوي ليس إبراز منطوق لغوي ما فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معين في الوقت نفسه»<sup>(1)</sup>

**1.4.3. مفهوم فعل الكلام:** يعد الفعل الكلامي (Speech act) نواة مركزية في الدرس التداولي، إذ تؤكد التداولية أنّ الاستعمال اللغوي ليس إبراز منطوق لغوي ما فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معين في الوقت نفسه [...] وعلى هذا توجد أحداث كثيرة نجزها من خلال نطق جملة أو نص ما، أي باللغة: مثل التهديد، والرجاء، والزعم، والسؤال، والنصح، والاثام، والتبرئة، والتمني، والشكوى...<sup>(2)</sup>، وهي بإيجاز ما ننجزه بالتلفظ « إحداث التلفظ هو إنجاز لفعل وإنشاء لحدث»<sup>(3)</sup>.

وقد توصل أوستين في آخر مرحلة من مراحل بحثه إلى تقسيم الفعل الكلامي الكامل (Acte de discours intégrale) إلى ثلاثة أفعال فرعية على النحو الآتي:

أ. الفعل اللفظي (Acte locutoire):

ويراد به «إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة»<sup>(4)</sup>، ويشتمل على

أفعال لغوية فرعية تمثل المستويات اللغوية المشهورة الصوتي، والتركيب، والدلالي، وهي:

أ. الفعل الصوتي: وهو إنجاز فعل التلفظ بأصوات مقروعة من مخارج معلومة.

ب. الفعل التركيبي: وهو النطق بكلمات تنتمي إلى معجم معلوم ذي تركيب مخصوص طبقا لنحو معين.

ج. الفعل الدلالي: إن قول شيء ما هو بوجه عام إنجاز الاستعمال وأداء النطق، أو ما تركب من وحدات

(1) - فان دايك، علم النص، ترجمة سعيد حسن بحيري، ص 118.

خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، المؤسسة العربية للتوزيع، ط1، 2001، ص 494.

(2) - المرجع نفسه، ص118، 119.

(3) - أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة عبد القادر قنيني، ص17.

(4) - Austin . Quand dire c'est faire. P 109 -

دالة على معنى معيّن على وجه ما، ويشير إلى مرجع معلوم على نحو ما<sup>(1)</sup>. ويمكن إيجاز الفعل اللفظي في الشكل الآتي:

**الفعل اللفظي = الفعل الصوتي + الفعل التركيبي + الفعل الدلالي.**

**ب. الفعل الإنجازي (Acte illocutoire):**

وهو «عمل ينجز بقول ما»<sup>(2)</sup> أو هو ما يقصده المتكلم بالقول<sup>(3)</sup>، ويرتبط الفعل الإنجازي ارتباطاً وثيقاً بمقصديّة المتكلم، وعلى المتلقي أن يبذل جهداً كافياً للوصول إليها، واقترح أوستين تسمية الوظائف اللسانية الثاوية خلف الأفعال الكلامية بالقوى الإنجازية، ومن أمثلة ذلك: السؤال، وإجابة السؤال، وإصدار تأكيد، وتحذير، ووعد، وأمر، وشهادة في محكمة...

**ج. الفعل التأثري (Acte perlocutoire):**

وهو ما يحدثه الفاعل طبقاً لقوله شيئاً ما، يكون إنفاذه تاماً، وقت الفراغ منه، كالحمل على الاعتقاد، والوصول إلى الإقناع والترك، والتضليل<sup>(4)</sup>. وإيجاز يقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع جسدياً أو فكرياً أو شعورياً. وسمّاه أوستين "الفعل الناتج عن القول"<sup>(5)</sup>. وتفطنّ الباحث نفسه إلى أن الفعل اللفظي لا ينعقد الكلام إلا به، والفعل التأثري لا يلزم الأفعال جميعها، فمنها ما لا تأثير له في السامع، فوجه اهتمامه إلى الفعل الإنجازي حتى غدا لب هذه النظرية فأصبحت تعرف به أيضاً، وتسمى "الأفعال الإنجازية". ويمكن تلخيص الفعل الكلامي الكامل في المعادلة الآتية:

**الفعل الكلامي الكامل = الفعل اللفظي + الفعل الإنجازي + الفعل التأثري.**

وأعاد سيرل تقسيم الأفعال الكلامية، فأضاف قسماً إلى تقسيمات أوستين فجعلها أربعة<sup>(6)</sup>:

(1) - أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة عبد القادر قنيني، ص 111، 112.

(2) - المرجع نفسه، ص 113

(3) - محمود أحمد نحلة، نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية، مجلة الدراسات اللغوية، مجلد 1، عدد 1، 1999، ص 167

(4) - أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة عبد القادر قنيني، ص 131

(5) - انظر محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 45، 46

مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 55 وما بعدها.

(6) - انظر خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص 80.

### 1. فعل التلفظ (الصوتي والتركيب)

2. الفعل القضوي ويسمى الإحالي (propositional act): وهو يشتمل على المتحدث

عنه أو المرجع (reference)، والمتحدث به أو الخبر (predication).

### 3. الفعل الإنجازي.

### 4. الفعل التأثري

وجعل الفعل الإنجازي قسمين؛ مباشرا وغير مباشر:

أ. **الفعل الإنجازي المباشر:** يمثل الفعل المباشر عند سيرل الفعل الذي تطابق قوته الإنجازية مراد المتكلم،

فيكون معنى ما ينطقه مطابقا مطابقة تامة وحرفية لما يريد، وهو يتمثل في معاني الكلمات التي تتكون منها الجملة، وقواعد التأليف التي تنتظم بها الكلمات في الجملة، ويستطيع السامع أن يصل إلى مراد المتكلم بإدراكه لهذين العنصرين معا<sup>(1)</sup>. ويفترض في الفعل الإنجازي المباشر ألا يكون بحاجة إلى تبيين لأي معنى إضافي، فهو يقدم منطوقا محددًا واضحًا، لا يحتاج المتلقي في إدراكه إلى تأويل. وعُرف أيضا بأنه «الفعل الذي يتلفظ به المتكلم في خطابه، وهو يعني حرفيا ما يقول، وفي هذه الحالة يكون المتكلم قاصدا أن ينتج

أثرا إنجازيا في المتلقي، ويقصد أن ينتج هذا الأثر من خلال جعله المتلقي يدرك قصده في الإنتاج»<sup>(2)</sup>

ب. **الفعل الإنجازي غير المباشر:** حين يكون الأمر بسيطا، يتلفظ المتكلم بجملة، ليقتصد الدلالة بالضبط

على ما يقوله حرفيا، أما حين تتعدد الأمور فإن معنى الجملة كما هي، والمعنى الذي يتلفظ به المتكلم، يتوقفان عن التغطية، وندخل من ثم العالم السحري، الذي تكون مظاهره شراكا، إذ ينزلق تحت العشب

الأخضر ثعبان السخرية، والإيحاء، والتلميح، ومضمرات الالتباس، والمعاني المزدوجة.

وهكذا يجتمع التأدب الرهيف، والتهكم الماكر، وتتكون طبقة مهمة لهذه الحالات عند أولئك

الذين يتلفظ أحدهم بجملة، يريد أن يقول بها بالضبط ما يقول، ويريد أن يقول كذلك شيئا آخر<sup>(3)</sup>. وهو

الفعل الذي تخالف فيه قوته الإنجازية مراد المتكلم. وذكر سيرل المثال الآتي بيانا للأفعال الإنجازية غير

المباشرة: إذا قال رجل لرفيق له على المائدة: هل تناولني الملح؟ فهذا فعل إنجازي غير مباشر، إذ قوته

الإنجازية الأصلية تدل على الاستفهام الذي يحتاج إلى جواب، وهو مصدر دليل الاستفهام "هل" لكن

الاستفهام غير مراد المتكلم، بل هو طلب مهذب يؤدي معنى فعل إنجازي مباشر هو: تناولني الملح<sup>(4)</sup>،

(1) - انظر محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 80، 81

(2) - ابن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب. ص 135

(3) - أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ص 71

(4) - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة للبحث اللغوي المعاصر، ص 50.

فالفاعل الإنجازي يؤدي على نحو غير مباشر من خلال فعل إنجازي آخر، وعرفه أحد الباحثين بأنه « استراتيجية لغوية تلميحية يعبر بها المتكلم عن القصد بما يغير معنى الخطاب الحرفي، لينجز بها أكثر مما يقوله، إذ يتجاوز قصده مجرد المعنى الحرفي للخطاب، فيعبر عنه بغير ما يقف عنده اللفظ مستثمرا في ذلك عناصر السياق»<sup>(1)</sup>. هذا التحديد يطرح مشكلة دلالية هي كيف يمكن أن يحقق الخطاب غاية إبلاغه تواصلية، مع أن حمولته المعنوية تخالف مقاصد منتجه؟ وكيف يتقبل المتلقي خطابا معتما ويتفاعل معه؟، كيف يمكن للمتكلم أن يقول شيئا ما، وهو يقصد ما يقوله تماما، ولكنه بالإضافة إلى ذلك يقصد شيئا آخر؟ ومن ثم معرفة كيف يمكن للمتلقي أن يتقبل فعلا كلاميا معتما، ويتفاعل معه، مع أن ما يسمعه يدلّ على شيء آخر؟

يستطيع المتكلم أن يبلغ المتلقي أكثر مما يقوله بالفعل، باستناده إلى معلومات خلفية، لغوية أو غير لغوية مشتركة بينهما، وباستناده إلى مقدرات المتلقي العقلية والاستدلالية يجب سيرل: «إذ يبلغ المتكلم المستمع في أفعال اللغة غير المباشرة، وبما فيه الكفاية، بأن ما يقوله فعلا يعتمد على خلفية إخبار متبادل ومتقاسم، وإخبار لساني وغير لساني، وعلى قدرة استدلال عقلي للمستمع»<sup>(2)</sup> لكي ينتج المتكلم فعلا كلاميا غير مباشر يتبع الخطوات الآتية :

1. إدراك أن معنى الخطاب الحرفي لن يناسب السياق، ولن يعبر عن القصد المراد، فيختار التعبير وفق أسلوب التلفظ بالأفعال الإنجازية غير المباشرة.

2. البحث عن آلية مناسبة ينتج بها خطابا ليبلغ قصده.

3. اختيار الآلية التي تؤدي المعنى المستلزم من الخطاب، والمغاير للمعنى الحرفي.

ويمكن القول بعد عرض ما سبق: إن المعنى الذي يتضمنه الفعل المباشر يعبر عن المعنى الحرفي للجملة، ولكن لا يعتمد عليه فقط، إذ لا بد من لجوء المتلقي إلى الاستدلالات العقلية المرتبطة بالسياق، حتى يتمكن من تأويل الكلام ليتحقق له الفهم الكامل والصحيح لمضمونه، لأن المتلقي عند تأويله يلغي أفعال الكلام التي تحرق مبادئ الحوار (الكم، الكيف، المناسبة، الطريقة)، ويختار فعلا كلاميا أكثر ملاءمة ومناسبة لتلك المبادئ، ومن ثم لا يتمسك إلا بالتأويلات التي تكون مطابقة لها، حتى يصل للمعنى المقصود من الكلام.

وللاستلزام الحوارية عند جرائس خواصّ تميزه عن غيره من أنواع الاستلزام الأخرى، فقد استطاع

(1) - ابن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، ص 370

(2) - أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ص 72

أن يضع يده على الخواص الآتية<sup>(1)</sup>:

أ. الاستلزام **ممكن إلغائه** (Defeasible)، ويكون ذلك عادة بإضافة قول يسد الطرق أمام الاستلزام أو يحول دونه، وإمكان الإلغاء هذا هو أهم اختلاف بين المعنى الصريح والمعنى الضمني، وهو الذي يمكن المتكلم من أن ينكر ما يستلزمه كلامه.

ب. الاستلزام **لا يقبل الانفصال** (Non-detachable) **عن المحتوى الدلالي**، والمقصود أن الاستلزام الحوارى يستصحب المعنى الأصلي في مختلف المقامات، وهذه الخاصية هي التي تميز الاستلزام الحوارى عن غيره من أنواع الاستدلال التداولى مثل الافتراض المسبق (Presupposition).

ج. الاستلزام **متغير**، والمقصود بالتغير أن التعبير الواحد يمكن أن يؤدي إلى استلزمات مختلفة في سياقات مختلفة.

د. الاستلزام **يمكن تقديره** (Calculability) والمراد به أن المخاطب يقوم بعمليات ذهنية استدلالية تتفاوت بساطة وتعقيدا، ويتبع خطوات محسوبة يسير بها خطوة خطوة نحو ما يستلزمه الكلام.

اقترح جوايس تصنيفا عاما للمعاني التي يمكن أن تحملها العبارات اللغوية، وتشمل المعنى المقامى الذي تستلزمه جملة ما، ويقوم هذا التصنيف على المقابلات الآتية<sup>(2)</sup>:

وتنقسم الحمولة الدلالية للعبارة اللغوية إلى معان صريحة وأخرى ضمنية؛ وتعد **معاني صريحة** المعاني المدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها، في حين تعد **ضمنية** المعاني التي لا تدل عليها صيغة الجملة. تشمل حمولة المعاني الصريحة:

أ. **المحتوى القضوي** (معاني مفردات الجملة مضموما بعضها إلى بعض).

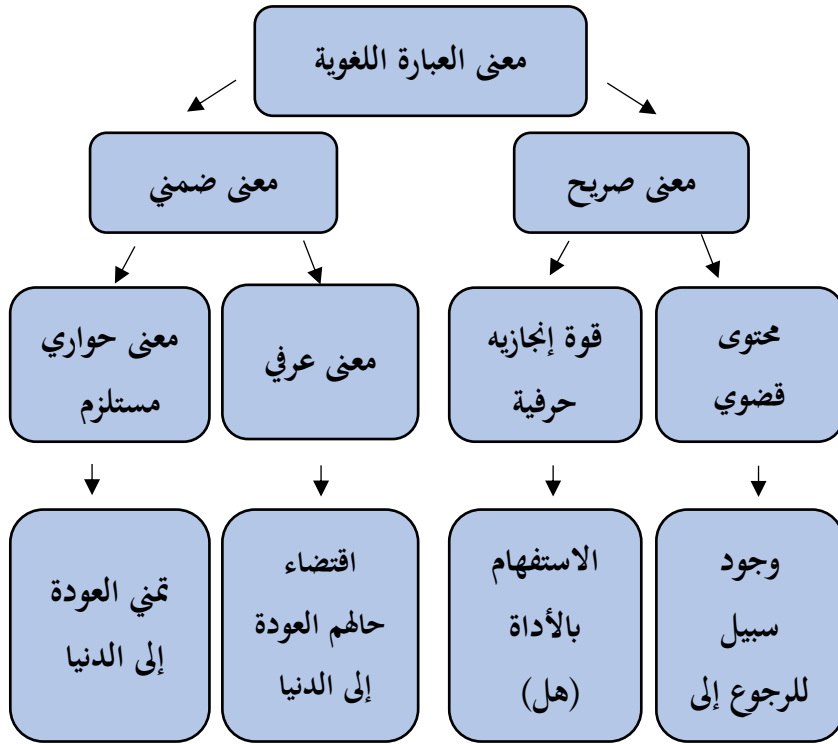
ب. **القوة الإنجازية الحرفية** (القوة الإنجازية المؤشر لها بصيغة الجملة كالاستفهام، والأمر، والإخبار... والمعاني الضمنية صنفان: **معان عرفية**، و**معان حوارية** (أو سياقية). تعدّ معاني **عرفية** المعاني المرتبطة بالجملة ارتباطا يجعلها لا تتغير بتغير السياقات، في حين تعدّ معاني **حوارية** المعاني التي تتولد طبقا للسياقات أو المقامات التي تنجز فيها الجملة. من المعاني المتضمنة عرفا المعنى المقتضى أو الاقتضاء. ويمكن إيضاح هذا التصور مع التمثيل له<sup>(3)</sup> بالآية القرآنية: «يَقُولُونَ هَلْ إِيَّ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ»<sup>(4)</sup>.

(1) - محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 38، 39.

(2) - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، دار الكتاب الجديدة، ط2، 2010، ص 27، 28.

(3) - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 49.

(4) - (سورة الشورى: الآية 44).



### 2.4.3. أصناف الأفعال الكلامية<sup>(1)</sup>: ووضع محمود أحمد نخلة تقسيما عربيا للأفعال الكلامية مستفيدا

من تقسيمات أوستين وسيرل، وهي:

أ. الإيقاعات: وهي التي يكون إيقاع الفعل فيها مقارنا للفظه في الوجود بمجرد النطق به، فأنت توقع بالقول فعلا، وينبغي أن تتسع لتشمل أفعال البيع، والشراء، والهبة، والوصية، والوقف، والزواج، والطلاق، والإقرار...ويكون إيقاع الفعل بها صريحا، أو ضمنيا.

ب. التوجيهيات أو الطلبيات (Directives): وهي كل الأفعال الكلامية الدالة على الطلب بغض النظر عن صيغتها، والغرض الإنجازي منها هو التأثير في المتكلم ليفعل شيئا أو يخبر عن شيء، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات (world to words)، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الرغبة الصادقة، ويدخل في هذا الصنف الأمر، والنصح، والاستعطاف، والتشجيع، والمرجع فيها هو المخاطب.

ج. الإخباريات (Assertives): وينبغي أن تقتصر على الأفعال التي تصف وقائع وأحداثا في العالم الخارجي. والغرض الإنجازي لهذا النوع من الأفعال هو نقل الوقائع نقلا آمينا، وإذا تحققت الأمانة، تحقق شرط الإخلاص، وبهما يكون الفعل الإنجازي ناجحا أو تاما، وأفعال هذا الصنف كلها تحمل الصدق والكذب، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات الى العالم (words to world)، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في النقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها.

(1) - انظر محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 49، 50.



د. الالتزاميات ( commissives ) : ويقصد بها المتكلم الالتزام طوعا بفعل شيء للمخاطب في المستقبل بحيث يكون المتكلم مخلصا في كلامه عازما على الوفاء بما التزم به كأفعال الوعد، والوعيد، والمعاهدة، والضمان، والإنذار... واتجاه المطابقة في هذا النوع من الأفعال من العالم الى الكلمات، والمرجع فيها هو المتكلم.

هـ. التعبيرات ( Expressives ) : وهي التي يعبر بها المتكلم عن مشاعره في حالات الرضا، والغضب، والسرور، والحزن، والنجاح، والفشل... وليس من اللازم ان تقتصر هذه الأفعال على ما هو خاص بالمتكلم من الاحداث، بل تتعداها الى ما يحدث للمشاركين في الفعل وتنعكس آثاره النفسية والشعورية على المتكلم كأفعال الشكر، والاعتذار، والتهنئة، والندم، والحسرة، والشوق، والكره... وليس لهذا النوع اتجاه للمطابقة إذ يغني عنه شرط الإخلاص فإذا تحقق الشرط أنجز الفعل إنجازا ناجحا.

ويمكن القول مما تقدم: إن الزمخشري أَلّف مقامات في الوعظ لكنه كان في مقاماته بعيدا كل البعد عن تمثّل المقامة بمفهومه المتواضع عليه، بل كان قريبا من مفهوم "المقامات" بدلالاتها المرتبطة بمقامات الزهاد، والوعاظ، والخطباء.

لم تلتزم الزمخشري في مقاماته بقوانين المقامة الأنموذج التي أرسى بديع الزمان الهمذاني، خاصة في الموضوع والبنية الحكائية، وهذا ما طرح إشكالية تجنيسها عند النقاد والباحثين، لذلك لم ينسبها نسبة حقيقية إلى المقامة، بل نسبها إلى الرسائل، أو أحاديث الوعاظ، ومنهم من لم يجرؤ على نسبتها. لكن الزمخشري سماها مقامات.

يستهدف الزمخشري بمقاماته الوعظية إلى الحفر في نفس المتلقي، لذلك سلك مسلكا تداوليا حجاجيا من أجل التأثير فيه وإقناعه بمواعظه ليصلح حاله، ويغيّر واقعه.

الفصل الأول

# المقصديّة في مقامات الزمخشريّ

تمهيد

1 . المقصدية دلالات وإشكاليات

2 . المقصدية في مقامات الزمخشري .

3 . الأفعال الكلامية التوجيهية

في مقامات الزمخشري

## مُهَيْد

تعدّ المقصدية لبّ العملية التواصلية، وشرطا أساسيا في عملية الإنتاج والتأويل، وتقع في منطقة وسطى بين طرفي عملية التخاطب؛ تحرك عملية الإنتاج، وتفتح الباب على القراءة والتأويل، فلا تواصل ناجح دون وجود مقصدية، وهي من أهم الأسس التي تقوم عليها مباحث الدرس التداولي، وركيزة كل فعل كلامي؛ تتحكم فيه، وتحدد نوعه، وتعطيه معناه، وتحضر في الكلام فيضيئ، وتغيب فتغشاه الضبابية، ويلقّه الغموض، ويتحول إلى طلاس، وتميّز صدق الخبر من كذبه، وبها يترتب على العمل الأجر أو الوزر.

أولا: المقصدية دلالات وإشكاليات.

### 1. مفهوم المقصدية.

تعود المقصدية معجميا إلى الجذر (ق ص د) الذي يشير إلى الاعتزام، والتوجه، والهدوء، والنهوض نحو الشيء<sup>(1)</sup>، واستعمل القصد مرادفا لـ "البيان" في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾<sup>(2)</sup>، أي: على الله تبيين الطريق المستقيم. ومعنى الاتجاه، هو قصدك وقصدك أي تُجاهك ومعنى القرب، فالقاصد هو القريب، ومعنى المراد، فسّموا ما طال، ووفر قصيدا أي مرادا مقصودا.

واستعملت كثير من المعاجم العربية القصد مرادفا للمعنى، جاء في المعجم نفسه في مادة (ع ن ا) قيل: معنى قول جبريل عليه السلام في خطابه للرسول ﷺ: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ يَعْزِيكَ» أي: يقصدك. ويقال عَنَيْتُ فلانا عَنَيْتًا أي قَصَدْتُهُ. ومن تَعْنِي بقولك، أي: من تَقْصِدُ؟ عَنَانِي أمرُك أي: قَصَدَنِي<sup>(3)</sup>، وروى الأزهري عن أحمد قال: المعنى والتفسير والتأويل واحد. وَعَنَيْتُ بالقول كذا: أردت. وَمَعْنَى كل كلام وَمَعْنَاتُهُ، وَمَعْنَيْتُهُ مَقْصِدُهُ، والاسم العناء. وَعَنَيْتُ بكلامي كذا أي أردته وقصدته<sup>(4)</sup>، وعنى بقوله كذا، أي: أراد<sup>(5)</sup>، وجاء في المعجم الوسيط في مادة (ع ن ا) عَنَى بالقول كذا عَنِيَّةً وَعِنَايَةً: أرادته وقصدته. وفي مادة (ن و ي) نوى الأمر نية: قصده وعزم عليه. ويقال: نويت منزل كذا، ونويت أمرا. ويقال: نواه الله بخير: قصده به، وأوصله إليه<sup>(6)</sup>.

وتعني كلمة (Intention) في المعجم الفرنسي LAROUSSE: objectif, but, désir, dessein.

(1) - ابن منظور، لسان العرب (مادة: ق ص د)، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، (مادة: ق ص د)

(2) - (سورة النحل: الآية 9).

(3) - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، (مادة: ع ن ا).

(4) - الرمخشري، أساس البلاغة (مادة: ع ن ا)، تحقيق باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988..

(5) - الرازي، مختار الصحاح، تحقيق وترتيب محمود خاطر، مادة (ع ن ا)، دار الحديث، القاهرة، مصر، (دط)، (دت).

(6) - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (مادة عنا ونوى). مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2014..

Visées, et volonté<sup>(1)</sup>.

تدور إذن، مادة " ق ص د " في المعاجم العربية والغربية على معان عدة هي: الإرادة، والاعتزام، والتوجه، والنهوض، والنحو، والنية، والمعنى، والإرادة، والوصول، والرغبة، والهدف.

ويعدّ التعريف الاصطلاحي للمقصدية امتدادا لمعناه المعجمي، بل وينقل منه حرفيا أحيانا، ويمكن معالجة المصطلح في ثنائيات: القصد والمعنى، والقصد والنية، والقصد والإرادة، والقصد والغرض. أ. القصد بمفهوم المعنى: تخفى الأفكار، والمعاني، والمقاصد، والآراء والاعتقادات، « فلا تعرف إلا بالقول، أو ما يقوم مقام القول من شاهد الحال »<sup>(2)</sup>.

ويشير كثير من اللغويين والأصوليين إلى أن القصد هو المعنى، يقول الجرجاني: «وجملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصفة، إن لم يُقَدِّم فيه ما قُدِّم، ولم يُؤَخَّر ما أُخِّر، وبدئ بالذي تُنِّي به، أو ثني بالذي تُلْتَّ به، لم تحصل لك تلك الصورة، أو تلك الصفة. وإذا كان كذلك، فينبغي أن تنظر إلى الذي يقصد واضع الكلام أن يحصل له من الصورة والصفة: أي الألفاظ يحصل له ذلك أم في معاني الألفاظ؟ وليس في الإمكان أن يشك عاقل إذا نظر، أن ليس ذلك في الألفاظ»<sup>(3)</sup>، ويعني أنّ المقصود هو المعاني. ويجعل أبو هلال العسكري « المعنى هو القصد الذي يقع به القول على وجه دون وجه»<sup>(4)</sup>. ويقال: عَنَيْتُ بالكلام كذا أي: قَصَدْتُ<sup>(5)</sup>، وأصلحت العرب الألفاظ من أجل المعاني؛ «فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود»<sup>(6)</sup>.

ونجد الدلالة نفسها عند المتأخرين، يقول ابن عاشور: « المعاني والحِكْم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها »<sup>(7)</sup>. ويعتبر طه عبد الرحمن القصد هو المعنى ذاته « فقد يكون مقصود القول عندهم هو المعنى المطابقي، أي: تمام ما دلّ عليه تركيبه، أو يكون هو المعنى التضميني، أي: بعض ما دلّ عليه هذا التركيب أو يكون هو المعنى الالتزامي »<sup>(8)</sup>.

ولا يختلف القصد عن المعنى عند الباحثين الغربيين كذلك، فيرى لاينز ( Lyons ) أنّ « هناك

(1) - Le petit LAROUSSE, édition Larousse, France , 2020

(2) - انظر ابن جني عثمان، الخصائص، الجزء 1، تحقيق عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، مصر، (د ط)، (د ت)، ص 33.

(3) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط 3، 1992، ص 364

(4) - أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق لجنة إحياء التراث، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط 4، 1980، ص 26

(5) - ابن فارس، الصحاحي في فقه اللغة العربية... تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط 1، 1993، ص 198

(6) - الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم، الموافقات في أصول الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2004، ص 268

(7) - محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط 1، 2012، ص 82..

(8) - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1998، ص 103

علاقة جوهريّة ولو أنّها غير مباشرة بين ما يعنيه المرء وما يقصده، وبين ما تعنيه عرفاً الكلمات التي يستخدمها<sup>(1)</sup> ويعني هذا أنه يميّز بين القصد والمعنى، والمواضعة، ولكنها متعلقة على نحو من الأنحاء.

ويشترط القصد في الدلالة، فهي تعني فهم مقصود المتكلم، لا فهم المعنى مطلقاً، بخلاف المنطقيين الذين يرونها فهم المعنى مطلقاً سواء أأراد المتكلم أم لم يرد، وقيل: ليس المراد أن القصد معتبر عندهم في أصل الدلالة حتى يتوجه أن الدلالة ليست إلا فهم المعنى من اللفظ، بل إنّها غير معتبرة إذا لم يقارن القصد، فكأنه لا يكون مدلولاً عندهم<sup>(2)</sup>، إنه لا يريد المعنى في حد ذاته، وإنما يجعله دليلاً على المعنى غير الظاهر، وبعبارة أخرى لا يريد المعنى الذي يحدده الوضع اللغوي، بل المعنى الذي قصده المتكلم<sup>(3)</sup> أو معنى المعنى بتعبير الجرجاني، وبالتالي فإنّ النظم في هذه الحالة يتجاوز المعنى الوضعي ويستصحبه ويجعله دليلاً على المعنى التضميني أو الالتزامي، ليتوافق مع غرض المتكلم أو قصده.

### ب. القصد بمفهوم النية:

وتعدّ المقصدية إحدى مقومات النص الأساسية، باعتبار أن لكل منتج خطاب غاية يسعى إلى بلوغها، أو نيةً يريد تجسيدها، ويتداخل القصد والنية عند كثير من اللغويين والعلماء وخاصة الفقهاء، إذ تنجز الأحكام الشرعية تبعاً لقصد المكلف ونيته خاصة عندما يكون الحدث الكلامي كناية، من أجل ذلك حمل ابن القيم على من أفتي بطلاق امرأة قال لها زوجها: إذا أذنت لك في الخروج إلى الحَمَامِ فأنت طالق، فتهيات للخروج إلى الحَمَامِ، فقال لها: اخرجي وسترين. ولم يكن قصده من قوله الإذن بل التهديد، فأخذ المفتي بظاهر اللفظ دون وقوف على قصد المتكلم، فأفتى بما لم يأذن به الله ورسوله، ولا أحد من أئمة الإسلام، ولهذا حذر ابن القيم من مغبة إهمال قصد الكلام فقال: «إياك أن تهمل قصد المتكلم ونيته وعرفه، فتجني عليه وعلى الشريعة، وتنسب إليها ما هي بريئة منه، وتلزم الحالف والمقرّ والناذر والعاقِد ما لم يلزمه الله ورسوله به»<sup>(4)</sup>، ويذكر أحد فلاسفة اللغة العرب في أثناء حديثه عن تراتب المقصدية: أن الحجة تنطوي على طبقات من القصود (بمعنى النيات) وطبقات من المقاصد (بمعنى الأهداف)<sup>(5)</sup>، ويرى باحث

(1) - جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987، ص15

(2) - انظر التهانوي محمد بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق علي درجوج، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط1، 1996،

ص792، 793

(3) - سعيد حسن بحيري، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2005، ص208

(4) - انظر ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق مشهور ابن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، السعودية، ط1،

ص51-54

(5) - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص259

آخر « أن القصد يستمد وجوده من أن كل فعل كلامي يفترض فيه وجود نية للتوصيل والإبلاغ »<sup>(1)</sup>.  
 ويجعل أحد الباحثين القصد مرادفا للنية أحيانا، « وأن هناك علاقة ذاتية وربما أكثر مباشرة بين ما  
 يعنيه المرء وبين ما ينوي قوله »<sup>(2)</sup>، ويرى آخر أنّ المخاطب عندما يريد أن ينجز عملا ما، لا بدّ من  
 استحضار النية أو القصد مع الحدث « هو أننا ننجز مع الحدث عملا محددًا عن وعي وتحكم... وبعبارة  
 أخرى لدينا مع الحدث نية أو قصد لإنجاز العمل »<sup>(3)</sup>، ويرى النية جزءا جوهريا من الأحداث لا تنجز من  
 أجل ذاتها، وإنما يتحقق من خلالها أو بها شيء آخر، ففي أثناء إنجاز حدث ما فإنه يكون لدينا هدف  
 محدد أمام أعيننا، يكون لدينا تعيين لهدف أو نية محددة، ويتضمن مصطلح نية ( Absicht ). ويجب أن  
 نفرق بين النوايا والمقاصد؛ إذ إن المقصد ينسحب فقط على إنجاز عمل بعينه على حين تنسحب النية  
 على الوظيفة التي يمكن أن تكون لهذا العمل أو هذا الحدث، فيمكنني أن أنجز الحدث (الغمز بالعين) عن  
 وعي، وإن لم توجد لدي نية لتقديم علامة لشخص آخر، أما حدث "فتح الباب" فإني أنجزه بنية أن أدخل  
 أو أخرج، ومن ثم فأغلب الأحداث التي نقوم بها تتضمن نية<sup>(4)</sup>. ويعلق فان دايك على مصطلح نية  
 فيقول: « إن الفارق بين مصطلحي ( Absicht ) و ( Intention ) دقيق للغاية، وربما يكون ما اخترته أقرب  
 إلى المراد، وربما يقتضي السياق في مواضع أخرى أن يترجم ( Absicht ) إلى قصد أيضا، وجمعها قصود،  
 وفي الوقت نفسه نلتزم بترجمة ( Intention ) إلى مقصد، وجمعها مقاصد »<sup>(5)</sup>. ويعالج القصد من زاوية أصوله  
 الظاهراتية (Phénoménologie) التي تسمح بإدراك الفعل كنية تتموضع بين وجود: التقدير والإعجاز<sup>(6)</sup>.

**ج. القصد بمفهوم الإرادة:**

ويجعل كثير من اللغويين العرب القصد مرادفا للإرادة، إذ « المعنى هو القصد والمراد »<sup>(7)</sup>، ويعتبرون  
 القصد مختصا بفعل القاصد دون فعل غيره، والإرادة غير مختصة بأحد الفعلين دون الآخر، والقصد أيضا  
 إرادة الفعل في حال إيجاده فقط، وإذا تقدمته بأوقات لم يسمّ قصدا ألا ترى أنه لا يصحّ أن تقول: قصدت

(1) - انظر محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، (دط)، 2008، ص 96

(2) - جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، ص 15

(3) - فان دايك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسن بحيري، ص 122

(4) - المرجع نفسه، ص 123.

(5) - المرجع نفسه، ص 123.

(6) - سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط 1، 1985، ص 178

(7) - ابن فارس، الصحاحي في فقه اللغة العربية... تحقيق عمر فاروق الطباع، دار مكتبة المعارف، بيروت، ط 1، 1993، ص 198

أن أزورك غدا<sup>(1)</sup> و«المعنى يتكون من خلال الفهم الذاتي والشعور القصدي الآني بإزائه»<sup>(2)</sup>. كما أن أي حدث كلامي وأي تواصل إنساني لا بد أن يتوافر فيه عنصر القصد؛ «فلا يتكلم المتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد، وهذا القصد كما يرى الأصوليون محدد عند المتكلم وثابت لا يتغير، وهو لذلك يتخذ من الوسائل الكلامية والمقامية ما يعين السامع على إدراك ما يريد، ولكن مراتب السامعين تتفاوت في إدراك مقصود المتكلمين تبعاً لتفاوت قدراتهم العقلية، واللغوية، والثقافية»<sup>(3)</sup>، فالقصد إذن، مرتبط بالفعل الآني والفاعل له، بينما تنصرف الإرادة إلى الفاعل وغيره، وتتعلق بالأفعال عبر الأزمنة الثلاثة؛ يفعل الإنسان أشياء كثيرة، ولكننا لا ندرى أخيراً يريد بها أم شرّاً؟ ويفعل فعلاً واحداً، وقد يترتب على فعله الثواب أو العقاب، تبعاً لقصده وإرادته، فعندما يدفع الخُطْبُ للمرأة مالا وأراد صدقاً عُذَّ ذلك نكاحاً، وإذا أراد به غير ذلك عُذَّ سفاحاً. ومن استدان ديناً ولم ينو الوفاء به، عدَّ سارقاً. ويؤثر القصد بمعنى إرادة فعل الشيء في الحكم على نفسه، فتصبح الأفعال تابعة للمقاصد الباطنة لدى فاعلها، لا تابعة لشكلها الظاهري فقط<sup>(4)</sup>.

ومن طريف ما اختص به اللسان العربي أن يجعل لمدلول القصدية أسماء ثلاثة كلَّها تفيد لغة واصطلاحاً مفهوم القصد، وهي بالذات: المعنى، والمراد، والمقصود<sup>(5)</sup>.

د. القصد بمفهوم الغرض: ويجعل العرب كذلك المقاصد مرادفة للأغراض، فالناس لا يكلم بعضهم بعضاً إلا تعريفاً وتعبيراً عن أغراضهم؛ يقول الجرجاني: «لا يخفى على من له أدنى تمييز أن الأغراض التي تكون للناس في ذلك لا تعرف من الألفاظ، لكن تكون المعاني الحاصلة من مجموع الكلام أدلة على الأغراض والمقاصد»<sup>(6)</sup>، ويقول في موضع آخر من كتابه: «مما يعلم ببدايته المعقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده»<sup>(7)</sup>، ومن المعلوم أن التعاطف كشاف الترادف والتقارب الدلالي في كثير من التراكيب اللغوية عندما يهدف المتكلم إلى توضيح المعاني وتفسيرها، ونجد القصد بمعنى الغرض كذلك في تحديد ابن جني اللغة «هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»<sup>(8)</sup>.

(1) - أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، ص 126

(2) - رافع سامح، الفينومينولوجيا عند هوسرل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط 1، 1991، ص 134

(3) - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، (د ط) 2002، ص 89

(4) - ابن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، ص 189.

(5) - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 215

(6) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 441

(7) - المرجع نفسه، ص 530

(8) - ابن جني، الخصائص، الجزء 1، تحقيق عبد الحكيم بن محمد، ص 44.

## هـ. تحديدات أخرى:

وتعددت مفاهيم المقصدية أو المقصدية عند الباحثين بسبب تنوع مرجعياتهم الفكرية، وتعدّد العلوم التي استعملت فيها؛ ومما تعنيه أنها حركة باطنية نحو موضوع تدور في عقل المبدع وذهنه، فهي «توقّ ونزوع من الذات نحو الحصول على موضوع ذي قيمة»<sup>(1)</sup>، وهي - بهذا المفهوم - أساس كل عمل، وفعل، وتفاعل، فهي شرط ضروري لوجود أي عملية سيميائية، وتتضمن أطراف نزاع قد تكون متأبّية أو منقادة، ومهما يكن من أمر فإن هناك تفاعلاً يجري في فضاء وزمان معينين، ويتحقق فيهما عبر العلامات اللغوية وعرفها كذلك بأنها «مجموعة من الأسباب أو المثيرات التي تحرك الكاتب وتدفعه إلى إنجاز حدث لساني»<sup>(2)</sup>، ونعني بها ما يكون محركاً للمنتج من معتقدات، وظنون، وأوهام، لإنجاز كلامه، سواء أكانت مشعوراً بها أم غير مشعور، وهي نفسها تكون لدى المتلقي في حالة وجود عقد بينه وبين المنتج، وقد تكون مخالفة جزئياً أو كلياً في حالة عدم العقد، فالمقصدية إذن، ليست واحدة، لأن هناك قطبين يشاركان في صنع القرار اللغوي وهما المنتج والمتلقي في زمان ومكان معينين، وهو تعريف قريب من تعريف المدرسين الفلسفي بأنه «اتجاه الذهن نحو موضوع معين، وإدراكه له مباشرة يسمى القصد الأول، وتفكيره في هذا الإدراك يسمى القصد الثاني»<sup>(3)</sup>.

وفي الظاهرية هي مبدأ كل معرفة، وتشير إلى «أن المعنى يتكون من خلال الفهم الذاتي والشعور القصدى الآني بإزائه»، كما يتصل القصد بالعمل الإرادي من حيث العزم عليه وتحديد هدفه<sup>(4)</sup>.

ويميّز سورل بين المقصد والمقصدية؛ فالمقصد ما كان وراءه وعي، والمقصدية تجمع بين الوعي واللاوعي، وعرفها بأنها «خاصة عدة حالات عقلية وأحداث، وبسبب تلك الخاصة تتوجه تلك الحالات العقلية والأحداث إلى أو نحو الأشياء والحالات الواقعية في العالم»<sup>(5)</sup>، والحالات العقلية المشار إليها هي الاعتقاد، والخوف، والتمني، والرغبة، والحب، والكراهية... كل هذه الحالات وراءها مقصدية، لكن هناك حالات عقلية وأحداث أخرى مثل: النزفة والاكنتاب ليست كذلك، كما أن المقصدية تكون لغوية وغير لغوية، سابقة أو حاصلة أثناء العمل، ويرى أن المقصدية هي التي تتحكم في الأفعال الكلامية، وتحدد أشكالها، وتخلق إمكانيّة معناها.

(1) - محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990، ص28

(2) - المرجع نفسه، ص83، 82.

(3) - مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص288

(4) - المرجع نفسه، ص288

(5) - j. Searle, Intentionality; an essay in philosophy of mind, 1983



أما فان ديك فيعوزه التحديد الدقيق لمصطلح (المقاصد)، لكنه يفترض أنها تتعلق بأحوال أو أحداث عقلية محددة، تنسحب على العمل اللاحق لشخص ما. فهي من هذه الناحية يمكن أن تقارن بخطة أو برنامج (أجزاء غير ملموسة Software) وهو ما يحتاج إلى تنشيط عضلات وأجهزة ... (أدوات مادية Hardware)، والتنسيق بينهما وفق نماذج ثابتة على نحو ما (1).

وعرفها دييوغرانند ( R. Debeaugrande ) بأنها اتجاه منتج النص إلى أن تؤلف مجموعة الوقائع نصا متضاماً متقارناً ذا نفع عملي في تحقيق مقاصده، أي في نشر معرفة أو بلوغ هدف يتعين من خلال خطة ما(2). كما يشير المصطلح بالمعنى الأوسع إلى إحداث تأثيرات على جمهور ما من خلال التعرف على مقصده، وجميع الطرق التي يستغلها منتجو النصوص من أجل متابعة مقاصدهم وتحقيقها(3)، فالمقصدية عنده تشير إلى نقل المعارف وانتخاب الوسائل والاستراتيجيات من أجل إنتاج نص متسق منسجم يهدف إلى التأثير في المتلقي في ظروف خاصة.

واهتم تيار فلاسفة أوكسفورد بأحد الجوانب الأساسية في التداولية، وهو دراسة الأفعال الكلامية، ويقوم هذا الاتجاه على فرضية مؤداها: أن الكلام يقصد به تبادل المعلومات، مع القيام بفعل محكوم بقواعد مضبوطة في الوقت نفسه، وهذا الفعل يهدف إلى تحويل " وضع المتلقي وتغيير نظام معتقداته ومواقفه السلوكية، فالفعل الإنجازي مرتبط بقوة تعبيرية أي الصيغة التي يخرج بها الكلام، كأن يكون وعداً، أو حظاً، أو تهديداً، أو التماساً، أو تقريراً... وما ينتج عن هذه القوة من تأثير في معتقدات المتلقي، ومواقفه، وسلوكه، سواء كان التأثير واقعا أو مؤملا. على أنه لا يحصل التأثير إلا بفهم التعبير، والاعتراف به من قبل المتلقي، ولذلك فإنه لا بد من توافر مفهوم المقصدية الذي يعني: الدلالة والفهم، «فالدلالة تعني ضرورة قصد التواصل من قبل المرسل، والفهم يعني الاعتراف من قبل المتلقي، بقصد تواصل المرسل»(4)

وعلى العموم فإن فكرة القصد متعددة المشارب؛ إذ تتجاذبها أطراف مختلفة كلها تنزل منزلة مادة القصد وموضوعه في الوقت نفسه.

- فهو قصد للمواضعة من حيث هي مبدأ كلي وقانوني شامل للظاهرة اللغوية إطلاقاً.
- وهو قصد لمواضعة مخصوصة بوصفها مجموعة السنن التي تتشكل بها اللغة المعينة في ذلك المقام المحدد.

(1) - فان ديك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسن بجيري، ص 122، 123

(2) - روبرت دييوغرانند، ولفغانغ دريسلر، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، دار الكتاب، ط1، 1992، ص30.

(3) - انظر المرجع نفسه، ص157، 158

(4) - J. Lyons, Sémantique linguistique, Larousse, Paris, 1980, p. 351

- وهو قصد للمخاطبة باعتبار أن تجسيم سنن المواضعة في خطاب إبلاغي إنما يتخذ لنفسه غاية هي تكريسه للمحاورة.

- وهو قصد للفائدة حيث إن علة الحدث الإبلاغي، وغايته لا تتمثلان إلا في إيصال شحنة دلالية لتتحقق عملية الإخبار بين طرفي الحوار.

- وهو قصد للمتقبل بما أن المتكلم لا ييثر خبره إلا وهو مرسل إيّاه لمن يتجه به إليه سواء انحصر عدداً أم اتسع أم استعصى عن الحصر، ولا يمنع شيء من ذلك أنه مقصود بالخبر<sup>(1)</sup>.  
ومهما يكن من أمر فإن المقصدية دالة على المعنى، أو النية، أو الإرادة، أو الغرض، أو الهدف، أو غيرها فهي حركة باطنية نحو موضوع معين تتجسد في لغة تصطبغ بصبغتها وتعطيها شكلها النهائي. غير أن القصد وحده لا يكفي لإنجاز الحدث الاتصالي، بل لا بد من مراعاة المواضعة وأطر الاتصال. وبقي أن يطرح السؤال، هل المقصدية خاصة بالمخاطب، له السلطة المطلقة على الخطاب ومن ثم على المخاطب أن يدعن، أم أن للمخاطب حظاً في إنتاج النص؟ تتوزع المقصدية بين المتكلم والمتلقي، وتقع في منطقة وسطى بينهما. فقد قالت الدراسات التي اعتنت بالمقصدية في بداية الأمر بتفوق المتكلم الذي يصدر أمره فينفذ دون تردد، في ظل توفّر شروط، كالأوامر الدينية والعسكرية. ولكن دراسات أخرى خففت من غلواء هذا الاتجاه الميكانيكي، وأعادت الاعتبار للمتلقي، فرأت ألا فرق بين محوري عملية التخاطب إلا من حيث الأخذ بزمام المبادرة، وذهبت أبحاث أخرى إلى جعل المتكلم لعبة في يد متلقيه، ومن ثم فهو يكيف خطابه بحسب رغباته ويصير ناطقاً باسمه<sup>(2)</sup>.

## 2. أهمية المقصدية:

يحصّر العرب مدلول اللفظ في فهم المعنى المقصود، لا فهم المعنى مطلقاً، ولهذا كان «للقصد أهمية كبيرة في أي تفسير نظري لمعاني الوحدات الكلامية اللغوية»<sup>(3)</sup>، فهو الذي يبلور المعاني كما هي عند المتكلم، ولكي تنجح العملية التواصلية والإبداعية لا بد من تحقق فهم المتلقي وإدراكه قصد المتكلم، لهذا يجب المتكلم أن ينتخب القوالب ويختار الاستراتيجية التي تعبر عن مقاصده بدقة حتى لا تفهم على غير قصده ومراده «لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع»<sup>(4)</sup>، أخبر أبو أحمد عن الصولي

(1) - عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص 147.

(2) - انظر محمد مفتاح، دينامية النص، ص 46.

(3) - جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، ص 15.

(4) - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، (دط)، 2008، ص 56.

أن رجلاً أنشد ابن هرمة:

بِاللَّهِ رَبِّكَ إِنْ دَخَلْتَ فَقُلْ لَهَا هَذَا ابْنُ هَرْمَةَ قَائِمًا بِالْبَابِ . (الكامل)

فقال: ما كذا قلت؟ أكنت أتصدّق؟ فقال: فقاعدا. قال: أكنت أبول. قال: فماذا؟ قال: واقفا... ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى<sup>(1)</sup>. لذلك نجد العرب لا يهتمون بالكلام الموشى واللفظ الكريم إلا إذا بان معناه، ووضح مغزاه، وجلا قصده.

ولا يقف دور القصد عند إيجاد العلاقة الدلالية في العلامة اللغوية بين الدال والمدلول، بل يمتد إلى استعمالها في الخطاب لاحقاً، و«الكلام يتعلق بالمعاني والفوائد بالمواضعة لا لشيء من أحواله وهو قبل المواضعة إذ لا اختصاص له، ولهذا جاز في الاسم الواحد أن تختلف مسمياته لاختلاف اللغات، وهو بعد وقوع التواضع يحتاج إلى قصد المتكلم له، واستعماله فيما قرره المواضعة، ولا يلزم على هذا أن تكون المواضعة لا تأثير لها، لأن فائدة المواضعة هي تمييز الصيغة التي متى أردنا مثلاً أن نأمر قصدناها، وفائدة القصد أن تتعلق تلك العبارة بالمأمور، وتؤثر في كونه أمراً له، فالمواضعة تجري مجرى شحذ السكين وتقويم الآلات، والقصد يجري مجرى استعمال الآلات بحسب ذلك الإعداد»<sup>(2)</sup>.

وتتأكد أهمية القصدية في الخطاب الأدبي الذي تهيمن عليه الوظيفة الشعرية، وتهزّ العلاقة الوضعية بين الدال والمدلول، ويتجاوز الخطاب معناه الحرفي، لأن المرسل يُضلل أحياناً المتلقي، فينجز أحداثاً خطيرة، أو يفهمه فهماً مخالفاً تماماً لمراد المتكلم، وينغلق أحياناً، فلا يفتح إلا بمعرفة قصد المرسل، وفحص آلياته المستعملة في الخطاب على مستوى المفردة المعروفة المعاني، ثم ينشئ بينهما علاقة جديدة هي العلاقة المجازية، فهو في هذه الحالة مضطر إلى إعلان القصد، كأن تمدح شخصاً فتقول له: أنت حصان، وأنت جمل، وأنت أسد.

- أنا لست حيواناً، لم تخاطبني هكذا؟

- أخي، لا تغضب. أنا أقصد أنك رجل قوي، شديد التحمل، شجاع<sup>(3)</sup>.

ويروي مولى لعنيسة بن سعيد بن العاص أنه دخل معه على الحجاج... فدخلت عليه امرأة، فقال لها: يا ليلي ما أتى بك؟ فقالت: إخالف النجوم، وقلة الغيوم، وكلب البرد، وشدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرغد... ثم قال: يا غلام اذهب إلى فلان وقل له: اقطع لسانها، فذهب بها، فقال له: يقول لك الأمير: اقطع لسانها، فأمر بإحضار الحجام، فعلمت أنه فهم الأمر على غير قصد الحجاج، وفهم المعنى الحرفي له، فكاد أن

(1) - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1989، ص83.

(2) - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص42، 43.

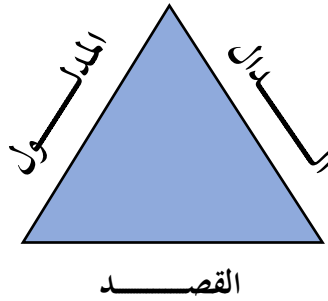
(3) - انظر ابن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، ص184.

يرديها، فالتفتت إليه، وقالت له: ثكلتك أمك! أما سمعت ما قال؟ إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة، فبعث إليه يستثبته، فاستشاط الحجاج غضبا، وهمم بقطع لسانه، وقال: ارددها، فلما دخلت عليه قالت: كاد وأمانة الله يقطع مَقُولتي...<sup>(1)</sup>. استعمل الحجاج تعبير " قطع اللسان " مجازيا، لكن المرسل إليه لم يفقه إلا المعنى الحرفي المتداول، ولم يفهم قصد الحجاج، ولم يحقق مقبوليته لدى المتلقي، فكاد يقطع لسان ليلي الأخيلية قطعاً حقيقياً لذلك همم الحجاج بمعاينة الحجام، وقطع رقبته.

ونجد في مقابل هذه القصة قصة أخرى بطلها الخليل بن أحمد الفراهيدي والأصمعي، يروى أن الأصمعي ذهب إلى الخليل يطلب العروض، ومكث فترة فلم يفلح حتى يئس الخليل من فلاحه، فقال له يوماً متلظفاً في صرفه: يا أبا سعيد، كيف تقطع قول الشاعر:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعَهُ وَجَاوِزَهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ. ( الوافر )

فذهب الأصمعي ولم يرجع، وعجب الخليل من فطنته<sup>(2)</sup>. فتحققت مقبولية الخطاب ونجح التواصل، رغم أن الاستراتيجية فيه تلميحية (مبدأ التأدب)، بسبب التأويل الموضوعي لمقصدية المخاطب. وهناك صنفٌ علاماتٍ لا يتحدد معناها إلا من خلال القصد، مثل الرمز (...)، إذ يرى تيار سيميائيات التواصل ( لويس بريطو L.Prieto ، وجورج مونا G.Mounin ، وأندري مارتني A.Martinet ، وإريك بويسنس E.Buysens ) في الدليل الدال، والمدلول، والقصد<sup>(3)</sup>.



وأن وظيفة اللسان الأساسية هي التواصل، ولا تختص هذه الوظيفة بالألسنة، وإنما توجد أيضا في البنيات السيميائية التي تشكلها الأنواع السنّية غير اللسانية غير أن هذا التواصل مشروط بالمقصدية وإرادة

(1) - انظر أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، الجزء 2، مطبعة مصطفى الباني الحلبي، مصر، ط1، 1933، ص390-392.

(2) - الخطيب التبريزي، كتاب الكافي في العروض والقوافي، تحقيق الحسّاني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1994، ص307.

(3) - مارسيلو داسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد حميداني... أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1987، ص7.

المتكلم التأثير في الغير<sup>(1)</sup>، وفي هذا السياق جاء تعريف لي روير للعلامة بأنها « حركة يقصد بها الاتصال بشخص ما، أو إعلامه بشيء ما »<sup>(2)</sup>.

وتسبق عملية التلفظ بأي حدث كلامي نص/خطاب عملية تخلق داخلي تكون في مستويين أفقي وعمودي، الأهمية فيه للعمودي حيث تتموضع المقصدية والمجتمعية اللتان يقومان بتأطير الحدث التلفظي والانتخاب من المحور الأفقي بما يناسب القصد والسياق، فإذا انتهى إلى المتلقي موافقا المقصدية نجحت عملية التواصل، وإن حدث تشويش أو تحريف أو تصحيف في مستوى ما عند النقل، تلقى المخاطب الخطاب على غير قصد المخاطب، ويفشل التواصل إذا لم تتبع العملية تقويمات، لذا فإن جزءا من الفرق بين اللغة والأنواع الأخرى من السلوك الاتصالي مستمد من القصد والعرف<sup>(3)</sup>.

وتتحكم المقصدية في الفعل الكلامي فتحدد شكله وتخلق إمكانية معناه، ويؤكد سيرل أن المواضع الاجتماعية والقواعد وسياقات المنطوق تؤدي دورا أساسيا في تحديد الفعل الكلامي، فليس المعنى حصيلة المقصدية الفردية فحسب، وإنما هو نتيجة للممارسات الاجتماعية أيضا، فالقدرة على فعل الكلام تتحقق في عقل المرء، أما إنجاز هذا الفعل فهو تعبير عن المقصدية، وكل من القدرة والإنجاز ممارسة اجتماعية<sup>(4)</sup>، ويتوقف إنجاز بعض الأفعال اللغوية على قصد المرسل ونيته، كصرف الألفاظ عن حقائقها إلى مجازاتها أو إلى بعض ما يصلح لها، كألفاظ الكنايات في الطلاق والعتاق والأيمان، فإنها تنصرف إلى المحتمل المنوي منها، وتترتب الأحكام الشرعية عليه، فلو قال: اعتدي أو استبرئي رحمك، أو أنت حرّة، أو تخيري، أو ما شابه ذلك، توقف وقوع الطلاق على النية<sup>(5)</sup>.

ولهذا شدّد الأصوليون على ضرورة اعتبار النيات والمقاصد في الألفاظ، وهو قول أئمة الفتوى من علماء الإسلام ... فمن قال لزوجته: أنت طالق البتة. وهو يريد أن يلحف على شيء ثم بدا له فترك اليمين، لا يلزمه شيء لأنه لم يرد طلاقها. وكذلك من أراد أن يقول فسبق لسانه فقال: أنت حرّة. لم تكن بذلك حرّة. كما لا يلتزم المخطئ والمكره بما أخطأ فيه أو أكره عليه من الأيمان والعقود، فالرجل الذي قال لما وجد راحلته: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» قالها من شدة الفرح، لم يكن كفرا، وإن نطق بصريح الكفر،

(1) - المرجع السابق، ص6

(2) - عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي، معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ص85.

(3) - جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، ص16.

(4) - سلطان زغلول، المقصدية... نظرية المعرفة وآفاق اللغة والأدب، صحيفة الرأي الأردنية، عدد 20/4/2012

(5) - يعقوب بن عبد الوهاب الباحسين، قاعدة الأمور بمقاصدها، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1999، ص94.

لأن ما نطق به عار من النية والقصد (1).

ويصطبغ الخطاب بصبغة المقصدية؛ فالمخاطب يجند جميع ما تتيحه له اللغة من إمكانيات من أجل تبليغ مقاصده وإحداث الأثر في المخاطب، إذ هناك ارتباط قائم بين معياري القصدية والمقبولية، فإذا كان مفهوم القصدية في الدراسات الحديثة يعني قصد منتج النص التأثير في المتلقي، فإن القرطاجني أكد هذا حين بيّن القصد من الشعر؛ فالشاعر حين ينقل مقاصده إلى الوجود، ويجوّلها إلى ملفوظات فإنه يعالجها أفقياً وعمودياً، كمّا ورتبة، حقيقة أو مجازاً من أجل إحداث الأثر في المتلقي، « فالشعر من شأنه أن يجلب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخيل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام، أو قوة صدقه أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك. وكل ذلك يقترن به من إغراب، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثيرها» (2).

ويشكّل ظهور نظرية أفعال اللغة صلة جديدة بين المقصدية والتداولية، فدون معرفة المقاصد لا يمكن أن يستدل بكلام المتكلم على ما يريد، لأن المواضعة وإن كانت ضرورية لجعل الكلام مفيداً إلا أنها غير كافية، إذ لا بدّ من اعتبار قصد المتكلم، لأن له دوراً بارزاً في ربط المتكلم بالمخاطب من خلال التأثير والتأثر أثناء تأدية الكلام، وفائدة الكلام مرتبطة بتوافر « مبدأ القصدية » وانتفائه، ومقتضاه « أنه لا كلام إلا مع وجود القصد »، وصيغته هي: « الأصل في الكلام القصد »، ومعلوم أن القصد من القول هو الذي يورث استلزاماته الصبغة السياقية أو المقامية التي نريد إبرازها (3)، فما ينطق به الناطق لا يمكن وصفه كلاماً إلا إذا اقترن بقصد مزدوج؛ قصد التوجه بمنطوقه إلى متلق، وقصد إفهامه معنى ما بهذا المنطوق، وهذا حدّ الخطاب، إذ « هو كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصوداً مخصوصاً » (4).

وفي العلاقة التخاطبية سوف لا تتحدد دلالة اللفظ المخاطب به بالمدلول الموضوع له والمحفوظ في المعاجم، وإنما بالقصد الذي يكون للمتكلم منه عند النطق به، والذي يدعو المستمع إلى تتبعه مقامياً، لا إلى تحقيقه معجمياً، وهي تتحدد من جانب المتكلم بالتوجه إلى المستمع، وبإفهامه مرادّه، ومن جانب

(1) - ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، مجلد4، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، جدة، السعودية، ط1، 1423هـ، ص447، 448.

(2) - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، (د ت)، ص71.

(3) - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص103.

(4) - المرجع نفسه، ص215.

المستمع بالتلقي من المتكلم وفهم مراده، والفائدة (مضمون القول أو المعلومة) التي ينقلها المتكلم إلى المخاطب هي على الأقل نقلان اثنان: أحدهما صريح يتعلق بالمعاني الظاهرة والحقيقية المستقلة عن مقامات الكلام، والثاني ضمني يتعلق بالمعاني المضمرة والمجازية المرتبطة بتلك المقامات، ومعلوم أن الأصل في هذا النقل الثاني هو ما ابتدأنا بإقراره، ألا وهو انبناء الكلام على القصد، فيكون معيار الفائدة فيه هو مقاصده لا ظواهره<sup>(1)</sup>، فالمقصدية هي ما يجعل المتكلم يحفظ الدلالة الأصلية، ويتعدّها إلى دلالة فرعية أو تبعية، فدلالة العبارة إذن، هي استلزام القول للمعنى المقصود من سياقه<sup>(2)</sup>، ويختار المتكلم من مستويات عدة رائده في ذلك المقصدية، وكأنها الإطار العام الذي يبرّر هذه الاختيارات سواء أكان ذلك في المستوى الصوتي، أو المعجمي، أو التركيبي، أو الدلالي، أو النمطي، أو في مستوى النوع الأدبي.

والمقصدية هي مفتاح القراءة والتأويل، فلا يستطيع أي متلق الوقوف على معاني النص ودلالاته، وتأويلها تأويلاً موضوعياً حتى يتعرف على مقصدية المتكلم، يقول هيرش (Hersh): «إن معرفة مقاصد المؤلف هي خطوة أولى للوصول إلى تأويل موضوعي للنص، وتتجلى مقاصده في قواعد اللغة التي يطلق عليها "مبدأ الاشتراك"»<sup>(3)</sup>، ثم نجد الفرق بين المعنى والدلالة؛ فالمعنى الذي يمثله نص هو ما يعنيه المؤلف من الأدلة، وأما الدلالة فتعني العلاقة بين المعنى والشخص أو المفهوم أو الوضع، أو أي شيء يمكن تحيُّله، والمعنى - عنده - ثابت، لأن مقاصد المؤلف التي صدر عنها هذا المعنى قد أعطيت بكيفية نهائية، أما المتغير فهو الدلالة التي يمنحها كل مؤول للنص وفق مقاصده؛ وبذلك يصبح المعنى هو موضوع الفهم والتأويل، أما الدلالة فهي موضوع الحكم والنقد، ومهما اختلفت التأويلات لا تتناقض، لأنها معتمدة على أرض معنوية مشتركة قابلة لإعادة الإنتاج، هي المقاصد<sup>(4)</sup>، وهو رأي محمود أحمد نخلة: لا يتكلم المتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد، وهذا القصد كما يرى الأصوليون محدد عند المتكلم وثابت لا يتغير، وهو لذلك يتخذ من الوسائل الكلامية والمقامية ما يعين السامع على إدراك ما يريد، ولكن مراتب السامعين تتفاوت في إدراك مقاصد المتكلمين تبعاً لتفاوت قدراتهم العقلية واللغوية والثقافية<sup>(5)</sup>، إذا انفتح النص على تأويلات عدة، وإن كانت مختلفة عُدت مقبولة لأنها اعتمدت على مقصد أو مقاصد واحدة.

فالمقصدية إذن، هي التي تتحكّم بكلّ فعل لغوي، وهي التي تحدّد شكله، وتخلق إمكانية معناه،

(1) - المرجع السابق، ص 215، 216.

(2) - المرجع نفسه، ص 103.

(3) - سلطان الزغلول، المقصدية... نظرية المعرفة وآفاق اللغة والأدب، صحيفة الرأي الأردنية، عدد 20/4/2012. ص 4

(4) - المرجع نفسه، ص 4

(5) - محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 89

وأما هي التي ترشح الدلالة، « فما يفهم من غير قصد من المتكلم لا يكون مدلولاً للفظ عندهم، فإن الدلالة عندهم هي فهم المراد (المقصود) لا فهم المعنى مطلقاً »<sup>(1)</sup>، لذلك جعلها أوستن وسيرل وغرايس معياراً أساسياً لتصنيف القوى المتضمنة في القول.

وبعد هذا البحث حقّ لنا أن نتساءل: إلى أي مدى يمكن الاعتماد على المقصدية في ترشيح دلالة الحدث اللساني؟ اختلف الباحثون في هذا وذهبوا لثلاثة مذاهب مختلفة، تطرّف اثنان وتوسّط ثالث: اعتدّ باحثون بالمقصدية كثيراً، ورأوا أنّها هي التي تتحكّم بكلّ فعل لغوي، وهي ضرورية وكافية وحدها لترشيح الدلالة، « فما يفهم من غير قصد من المتكلم لا يكون مدلولاً للفظ عندهم، فإن الدلالة عندهم هي فهم المراد (المقصود) لا فهم المعنى مطلقاً، وأنه لا كلام إلا مع وجود القصد، وصيغته هي: الأصل في الكلام القصد »<sup>(2)</sup>، وهي التي توجه عناصر أخرى كالمواضعة، والتفاعل، والسياق، وتجعلها تتضام وتتظافر وتتجه نحو مقصد عام؛ فهي التي تحدد الألفاظ الملائمة وتركيبها بطرق معينة لتؤدي المعنى العام المتوخى وهكذا، لا توظف لغة النص الأدبي بشكل عشوائي وفوضوي، بل تزخر بمجموعة من الدلالات السياقية، والتداولية، والحجاجية إقناعاً وتأثيراً. فكل ما في النص يدل ويحيل ويحمل وظائف سياقية متنوعة، سواء أكانت نصية داخلية أم مقامية خارجية<sup>(3)</sup>.

بينما نفى آخرون جدواها، ورأوا أنه يمكن أن يفهم المتلقي النصّ حتى حين الجهل بمقصدية المتكلم « والقصد في كلامهم عقيم لا ينتج شيئاً، وإنما جيء به لتوجيه القول بصلاحيّة الحكم عليه، وإلا فالقصد بمعناه الخصب مقتضاه أن يرى المرء في الشيء أمراً مغايراً للمعهود منه، بحيث يضيف عليه معنى جديداً يترتب على التوجه إليه، لأن مقتضى ذلك إدخال الموضوع في حيز الذات ولا جدوى من القصد الذي يرى في المرأة مرآة »<sup>(4)</sup>.

ويذكر محمد مفتاح أن المقصدية في النص ليست كمية ثابتة؛ تبرز، وتتضاءل، وتختفي «هناك نصوص دينية أمرّة أو ناهية، وأخرى بحاجة مقنعة، وثالثة متمصّصة لشخصية المتلقي ومتضرعة له، مثل هذه النصوص قد تتضاءل فيها المقصدية، أو تختفي في بعض المواقف الخطابية كحالات الحياء »<sup>(5)</sup>، كما أن هناك أحداثاً أخرى طبيعية أو غير طبيعية ينجزها المتكلم، ويريد بها غرضاً معيناً لكن المتلقي لا يدركها؛ كأن يترك

(1) - انظر التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ص 792.

(2) - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 103.

(3) - جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، ص 10، 11.

(4) - إدريس مقبول، البعد التداولي عند سيبويه، مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد 1، مجلد 33، 2004، ص 271.

(5) - انظر محمد مفتاح، دينامية النص، ص 46.



المصباح في المنزل مشتعلا رغبة في إيهاام اللص المحتمل بأنه في البيت، فهذا الحدث حقق هدفه لأن المتلقي المحتمل لم يدرك مقصد المرسل، ونجد مثل هذا في الآداب الرمزية وأساليب التورية وغيرها<sup>(1)</sup>. وبدوره ينتقد لاينز هذا الشرط أي المقصدية، ويرى «أنه ليس ضروريا ولا كافيا في تحديد الدلالة، وذلك أن المخاطب يمكن أن يفهم ما يريد أن يقول له المرسل دونما حاجة إلى معرفة المقصدية التي دعت المرسل إلى قول ما قال»<sup>(2)</sup>.

وتلطف آخرون فلم يجعلوها العلة الأولى والأخيرة في إنتاج النص وتأويله، ولا كافية -وحدها - لترشيح الدلالة، فهي عنصر إلى جانب **المواضعة (المجتمعية)**، و**سياق التلفظ**، و**التفاعل**<sup>(3)</sup> بين المتكلم والمتلقي، تسهم كلها مجتمعة في فهم النص.

ومن خلال هذا يمكن أن أقرر غير متجانف لهوى أن **المقصدية** وإن كانت مقوِّما أساسيا في ترشيح الدلالة إلا أنها لا تكفي وحدها، بل لا بدّ من توقُّر مقوِّمات أخرى ك**المواضعة والتفاعل**، و**السياق**، فإذا توافرت في النص كان الحدث اللساني الأكمل، وتحقّق الإبلاغ، ونجح التواصل.

#### ثانياً: المقصدية في مقامات الزمخشري:

أنشأ الزمخشري خمسين مقامة يعظ فيها نفسه، فهو إذن، مُخاطب ومُخاطَب في الوقت نفسه، ولكنه في الحقيقة يتوجه بها إلى كل من يريد ينتفع بها في مجال العلم والتقوى، فيقول: «لم يأتل فيما يعودُ على مُقْتَبِسِهَا بجليل النَّفْعِ وعظيم الجَدْوَى. في بابي العلم والتقوى من انتقاء ألفاظها. وإحكام أسجاعها وتفويف نسجها، وإبداع نظمها، وإيداعها المعاني التي تزيد المستبصر في دين الله استبصاراً، والمُعْتَبِر من أولي الأبواب اعتباراً»<sup>(4)</sup>. لذلك يمكن اعتبار مقاماته ضرباً من «التقاصد الداخلي، إذ يقصد المتكلم بمواعظه المستمع في قصده نفسه»<sup>(5)</sup>، وأنشأها على ثلاث مراحل، فصلت بين المرحلتين الأوليين المرضة الناهكة.

المرحلة الأولى: عندما صوّت به هاتف مناميّ، ونقّره في بعض ذمّنه، وإغفاءات الفجر فهاله، وفرّعه فأنشأ مقامة **الرضوان**، وأتبعها بأخوات قلائل.

المرحلة الثانية: وكانت بعد ما أصيب بالمرضة الناهكة التي كانت في شهر الله الأصم رجب الواقع في سنة

(1) - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص 164

(2) - John Lyons. Sémantique Linguistique. Larousse. Paris. 1980. P 351.

(3) - والمقصود به علاقة المرسل بمتلقيه، سواء أكان ذلك المتلقي فرداً أو جماعة، موجوداً بالفعل أو بالقوة، ومن شأن هذه العلاقة أن تسلب المرسل السلطة المطلقة على إصدار خطابه بعجرفة أو لا مبالاة نحو الآخرين، وأن تدخله في دائرة القواعد الضمنية

أو العلانية، وأن تجعله يكيّف خطابه على قدر عقل متلقيه ليحصل التفاعل، ويستميل المتلقي وينال رضاه

(4) - الزمخشري، مقامات الزمخشري (من الخطبة)، ص 13، 14.

(5) - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 266

512 هـ، وحين منَّ الله عليه بالصحة عاد إلى رأس عمله في إنشاء المقامات حتى أتمَّها خمسين<sup>(1)</sup>.  
المرحلة الثالثة: وهي مرحلة تتأخر عن سابقتها منطقياً، وعملُ الزمخشري فيها هو شرح ما أشكل فيها من الألفاظ والمعاني حين أسعف طالب ذلك إلى طلبته<sup>(2)</sup>. وتشتمل المقامات على مقاصد دلالية ونصية؛ أبحث في الأولى عن تموضع الدلالة بين المواضع والمقصدية، وفي الثانية جملة من المقاصد النصية الضمنية والصریحة.

**1. المقصدية الدلالية:** يحتاج الإنسان إلى اللغة حين يقصد التواصل والتعبير عن أغراضه، ولا بدَّ حينئذ من الرجوع إلى المواضع المعجمية أو التركيبية، ولكن عندما ننع النظر فيها نجد أنها تتميز بالتعدد في المستوى الدلالي، يقول أبو حيان التوحيدي: «المعاني والأحوال التي تتصور للنفس كثيرة جداً، وأنها بلا نهاية. فأما الحروف الموضوعية الدالة بالتواطؤ، والمركبات منها، فمتناهية محصورة محصاة بالعدد. ومن الأحكام البيئية بدائه العقول، أن الكثير إذا قسم على القليل اشتركت عدة منها في واحدة لا محالة، فمن ههنا حدث الاتفاق في الاسم، وهو أن توجد لفظة واحدة دالة على معان كثيرة»<sup>(3)</sup>، فتراه يعقد علاقة سببية بين شمول المواضع لكل جداول اللغة من أبنية دلالية، وأنساق توزيعية من جهة، وتفاوت مراتب الخطاب إبلاغاً وتأثيراً من جهة أخرى، وقد هداه إلى تفكيك الظاهرة اللغوية بنيويًا إلى مستوى الأجزاء الأولية التي هي الألفاظ المفردة، ومستوى التأليف القائم بينها الذي هو سبكها في قوالب النحو، ثم مستوى تطابق الأجزاء والتأليف مع السياق الإخباري وهو مستوى ارتباط الكلام بالواقع الخارجي المتحدث عنه. والالتزام بالمواضع المتصلة بدلالة الألفاظ، وترتيبها يبلغ أقصاه في الخطاب الإبلاغي النفعي، بينما يضيق التقيد بها دلالة وترتيباً في الخطاب الأدبي والإنشائي<sup>(4)</sup> «أي إن احترام المواضع المتصلة بدلالة الألفاظ وصيغ الترتيب يبلغ أقصاه في الخطاب العادي الذي يهدف إلى مجرد الإبلاغ، ولكن التقيد بهذه المواضع يخف كلما ولج الإنسان باللغة حقل الإبداع الفني والخلق الأدبي»<sup>(4)</sup>، فيلتبس حينئذ الأمر على المتلقي، ويُشكّل عليه التأويل، ويزداد انغلاقاً في الخطابة وخاصة في الشعر عندما يضطر الناظم إلى وضع لفظ مكان لفظ دال على معناه بعينه؛ ليصحح به وزنه أو يعدل به أقسام كلامه<sup>(5)</sup>. وأحياناً تعطل المواضع الأصلية تماماً، وتحرم دلالتها

(1) - انظر الزمخشري، مقامات الزمخشري (من الخطبة)، ص 10 وما بعدها.

(2) - انظر المصدر نفسه (من المقدمة)، ص 7.

(3) - أبو حيان التوحيدي ومسكويه، الهوامل والشوامل، تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة

2001، ص 8

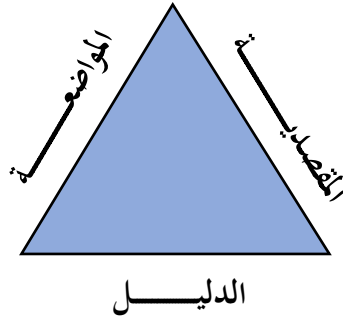
(4) - عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط 2، 1986، ص 129.

(5) - أبو حيان التوحيدي... الهوامل والشوامل، ص 8

الوضعية، وتلبس الألفاظ معاني جديدة لا يتوصل إليها حتى من طريق القياس، وتنشأ مواضع خاصة، ويمكن على هذا الأساس تصنيف المواضعة أصنافاً أربعة:

**الأول:** مواضعة أصل وتتم مباشرة من خلال المشاهدة، والإشارة، أو الوصف، وفيه تكون اللغة متطابقة في التساوي مع شحنة المواضعة.

**الثاني:** مواضعة فرع وتتم استدلالاً عن طريق القياس، والقياس قياس الغائب على الشاهد، لا يصح إلا إذا كانت هناك علاقة مشابهة (قرينة أو أمانة أو دليل أو وصف مناسب...) تجمع بين الشاهد والغائب، بين الأصل والفرع. وبالتالي فلا يجوز نقل لفظ من المعنى الذي وضع له أولاً بالمواضعة المباشرة إلى معنى آخر إلا إذا كانت هناك قرينة تسمح بذلك النقل. ومن هنا كانت شروط التأويل عند المعتزلة ثلاثة: " المواضعة وقصد المتكلم، والقرينة أو الدليل" والذي يسمح بنقل اسم إلى معنى آخر.



**الثالث:** مواضعة خاصة، وتتعلق بمجموعة لغوية تتواطأ على مصطلحات مستحدثة تتعلق بمجال معين، وهذه لا صلة لها بالصنفين السابقين، كمواضعات اللغويين، والأطباء، والصيادلة، والمهندسين، وغيرهم.

**الرابع:** مواضعة أخص وأضيق مجالاً، وتوضع في رأس الهرم لا يتعدى مجال استعمالها مجموعة المتواطئين كمواضعات اللصوص، والقادة العسكريين، وغيرهم. فقانون المواضعة هو المحرك لكل ضروب الكلام في أجناسه ودلالته وعلائق تراكيبه<sup>(1)</sup>.

والمواضعة سواء أكانت أصلاً أو فرعاً، خاصة أو أخص، لا بدّ منها لجعل الكلام مفيداً، لكنها تبقى أحوج إلى أمر ثان لا يقل أهمية عنها حتى تتحقق للكلام فائدته، وهي المقصدية، سواء أكانت مقصدية اصطلاح أم مقصدية استعمال<sup>(2)</sup> وبعد وقوع التواضع يحتاج إلى قصد المتكلم له واستعماله فيما قرره المواضعة<sup>(3)</sup> و«دون معرفة المقاصد لا يمكن أن يستدل بكلام المتكلم على ما يريد، لأن المواضعة وإن كانت ضرورية لجعل الكلام مفيداً، فهي غير كافية، إذ لا بد من اعتبار المتكلم أي قصده<sup>(3)</sup> أي أنّ

(1) - عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص 128.

(2) - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1982، ص 42، 43.

(3) - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 9، 2009، ص 68 - 70.

دلالة الألفاظ على المعاني تتوقف على المواضعة، ومقصدية المتكلم، وهما عنصران متداخلان متكاملان متلازمان يمثلان وجهي الدليل اللغوي، وهو بهما يدل، ودونهما أو بأحدهما لا يدل، أو تكون دلالاته ناقصة، «فالكلام قد يحصل من غير قصد فلا يدل، ومع القصد يدل ويفيد»<sup>(1)</sup>، ولن ينجح التواصل والإبلاغ، بهذين العنصرين فقط، وإنما يراعى بعد ذلك حال المتكلم وحال المتلقي علما وجهلا بالعنصرين السابقين حتى تتم الفائدة، وإلا كانت الألفاظ مجرد ترديدات بيغاوية، أو هذيان نائم، أو كلام مجنون، «وإنما اعتبر حال المتكلم لأنه لو تكلم به ولا يعرف المواضعة، أو عرفها ونطق بها على سبيل ما يؤديه الحافظ أو يحكيه الحاكي أو يتلقفه المتلقن أو تكلم به عن غير قصد، لم يدل. فإذا تكلم به وقصد وجه المواضعة فلا بد من كونه دالا إذا علم من حاله أنه يبين المقاصد»، وهكذا لا يكون الكلام مفيدا إلا إذا تقدمته المواضعة، والمقصدية وروعي فيه حال المتكلم وسياق الاستعمال.

ويحتوي النص الأدبي على مجموعة من المقاصد المباشرة والضمنية التي يعبر عنها المتكلم أو المتلقي أو هما معا، وتعبير آخر ثمة مقاصد أولية يعبر عنها الخطاب مباشرة، وتتجلى في المعتقدات والرغبات التي تكون لدى المتكلم؛ فهي إذن، تتعلق بالمرسل، فإذا كان شاعرا- مثلا - عبّر عن بعض مقاصده مثل الحب، والخوف، والاعتقاد، والتمني، والكراهية، وغيرها. وفي المقابل ثمة مقاصد ثانوية يمكن استقصاؤها والكشف عنها، تكون فيما يعرفه المتلقي من مقاصد المتكلم، الذي عليه أن يفهم مقاصد الشاعر المبدع، ويتعرف على ظروفه، وحالاته النفسية، والذهنية، والوجدانية، ومقاصد ثلاثية تنعكس في هدف المتكلم الذي يريد أن يجعل المتلقي يعترف بأنه يريد منه جوابا ملائما، وتوضيح ذلك أن الفعل الكلامي "اقرأ" يلي مقصدا أوليا يتجلى في رغبة الأمر سماع القراءة، ويعترف المأمور برغبة المرسل في سماع القراءة وهو مقصد ثانوي، ويريد الأمر أن ينتج عنه تلبية غالبا، أو رفض قليلا، وهذا مقصد ثلاثي<sup>(2)</sup>. يقول محمد مفتاح أن المقصدية ليست واحدة ما دام الفعل اللغوي شركة بين المنتج والمتلقي لذلك يتعين تفرع المقصدية إلى:

- أ. مقصدية المنتج والمتلقي الحاضرين اللذين بينهما ميثاق مُترضى عنه يحتوي على حقوق وواجبات.
- ب. مقصدية المنتج المضمر التي يحاول المتلقي المعاصر له وسع جهده استكشافها بناء على قرائن خارجية ونصية، قد يوفق تأويله لها أو يخيب، ولكن تأويله في نهاية المطاف هو نتيجة لمقصدية.
- ج. مقصدية المنتج المعلنة التي يحاول المتلقي الذي ليس بمعاصر أن يفهمها ويتأولها.
- د. مقصدية المنتج المضمر التي يسعى المتلقي- الذي ليس بمعاصر له - أن يستخرجها حسب تأويلها،

(1) - المرجع السابق، ص 68 - 70

(2) - انظر محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص 164. وجميل حمدادي، التداويات وتحليل الخطاب، ص 27

ولكن مهمته - حينئذ - عسيرة جدا<sup>(1)</sup>، هذا إذا أخذنا بنظرية المقصدية بالمعنى الضعيف المرن، عندما لا تحصل المطابقة بين مقصديتي المنتج والمتلقي.

ويعدّ المعنى صورة من القصدية اللغوية (المشتقة) والقصدية العقلية أو الباطنية (الأصلية) لتفكير المتكلم تنتقل إلى الكلمات والجمل والعلامات وهلمّ جرّاء، لكن كيف يكون حال هذه الصورة؟ هل هي صورة مطابقة للصورة الباطنية أم مشوهة؟ فكيف يتمكن المتلقي من قراءتها وتأويلها؟ وكيف يحدث التواصل والحال هكذا؟

لاحظ جرايس أن الناس في محادثاتهم يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر ممّا يقولون، وأحيانا يقصدون عكس ما يقولون؛ فجعل كل همّة إيضاح الفرق بين ما يقال ( what is said )، وما يقصد ( what is meant )؛ فما يقال هو ما تعنيه الكلمات العبارات بقيمها اللفظية ( Face values )، وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر، اعتمادا على أنّ السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال<sup>(2)</sup>. ويكون هذا على مستوى الحقيقة، بل ويشمل المجازي أيضا، وهو متحقق أيضا في كل مفارقة (irony)، ويراد بها عكس ما يقال، أو غير ما يتوقع.

وقد درست المقصدية في المعنى في هذا المبحث باقتضاب وفي نماذج معدودات بسبب تعرّضي لها في فصول الرسالة الأربع تجنّبا للتكرار.

إذا تأملت خطاب الزمخشري: « يَا أَبَا الْقَاسِمِ أزلْ نَفْسَكَ عَنْ صُحْبَةِ النَّاسِ وَاعْزِلْهَا. وَائْتِ فِرْعَانَ مِنْ فِرْعَانَ الْجَبَلِ فَأَنْزِلْهَا. وَلَدْ بِيْعُضِ الْكُهُوفِ وَالغَيْرَانِ. بَعِيدًا عَنِ الرُّفْقَاءِ وَالْجِيرَانِ »<sup>(3)</sup> وجدته خطابا عاديا، يعبر فيه المخاطب عمّا يقصد بلغة مباشرة، تحتفظ فيها الدوالّ بمعانيها الحرفية، لذلك يمكن أن تفهم دلالة الخطاب العامة دون الحاجة إلى كبير تأويل.

وتشير كلمة "حذافير" معجميا من خطابه: « فَأَمَّا الْقَانِعُ فَقَدْ قَدَّرَ مَبْلَغَ حَاجَتِهِ وَبَيَّنَّهُ. وَمَثَلُ مَقْدَارِ إِرْبِهِ وَعَيْنِهِ. وَذَلِكَ رَثُّ يُوَارِي سَوَاتِهِ. وَغَثُّ يُطْفِئُ سَوْرَتَهُ »<sup>(4)</sup>. فَإِذَا ظَفِرَ بِذَلِكَ فَقَدْ حَارَ النَّعِيمَ بِحَذَافِيرِهِ. وَأَصْبَحَ أَثْرَى مِنَ النُّعْمَانِ بِعَصَافِيرِهِ »<sup>(5)</sup> إلى الأعلى، والنواحي، والجوانب، وواحدتها حذّفار

(1) - محمد مفتاح، دينامية النص، ص 83

(2) - محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 33.

(3) - مقامات الزمخشري (العزلة: ص 89).

(4) - سوره: حدة جوعه وشدته.

(5) - مقامات الزمخشري (القناعة: ص 76).

وَحُدْفُور<sup>(1)</sup>، وَلَكِنَّ الْمَخَاطِبَ اسْتَعْمَلَهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى "جَمَلَةِ الشَّيْءِ"، وَهُوَ الْمَعْنَى الْاِقْتِضَائِي لِكَلِمَةِ "أَعْلَى"، لِأَنَّ الْأَعْلَى يَقْتَضِي شَمُولَ الْأَدْنَى، وَهُوَ مَا يَعْنِي الْجُمْلَةَ، أَي أَنَّ الْقَانِعَ يَجُوزُ النِّعِيمَ بِجَمَلَتِهِ، ثُمَّ يَعْقِبُ: وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حَيَزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَدَافِيرِهَا»<sup>(2)</sup>، فَقَدْ تَجَاوَزَ بِذَلِكَ مَعْنَى الْكَلِمَةِ الْوَضْعِي إِلَى مَعْنَى تَدَاوُلِي.

وَلَمْ يُوَضِّفِ الزَّمَخْشَرِيُّ الْخِطَابَ «يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ خِصَالَ الْخَيْرِ كِتْفَاحُ لَبْنَانٍ. كَيْفَمَا قَلْبَتَهَا دَعَتَكَ إِلَى نَفْسِهَا. وَإِنَّ خِصَالَ السُّوءِ كَحَسَكِ السَّعْدَانِ<sup>(3)</sup> أُنَى وَجْهَتَهَا نَهَتْكَ عَنْ مَسِّهَا»<sup>(4)</sup> لِمَجْرَدِ الْإِخْبَارِ وَالْوَصْفِ أَي وَصْفِ خِصَالِ الْخَيْرِ وَحَسَكِ السَّعْدَانِ، وَإِنَّمَا تَتَجَاوَزُ مَقْصِدِيَّتَهُ هَذِهِ الْوَضِيفَةُ، لِيَقْصِدَ بِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَقُولُ، فَهُوَ يَنْجِزُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ خِصَالَ الْخَيْرِ كِتْفَاحُ لَبْنَانٍ» فِعْلًا كَلَامِيًّا طَلْبِيًّا غَيْرَ مُبَاشِرٍ: افْعَلِ الْخَيْرَ، وَيَنْجِزُ بِ«إِنَّ خِصَالَ السُّوءِ كَحَسَكِ السَّعْدَانِ» فِعْلًا كَلَامِيًّا غَيْرَ مُبَاشِرٍ كَذَلِكَ، وَهُوَ: لَا تَفْعَلِ الشَّرَّ، وَكَانَ الْوَصْفُ حِجَّةَ الْمَخَاطِبِ لِإِقْنَاعِ مَخَاطَبِهِ.

وَأَرَادَ فِي قَوْلِهِ: «وَلَا تَكُنْ مُطَارَ الْقَلْبِ وَإِنْ لُقِيتَ بِمُبْهَجٍ. وَلَا مَحْلُولِ الْحَبْوَةِ وَإِنْ رُمِيتَ بِمُزْعَجٍ. وَكُنْ رَيْبَطَ الْجَأْشِ دُونَ الطَّوَارِقِ وَلَا تَهْلُ. وَتَلَقَّهَا بَيْنَ التَّمَاسِكِ وَلَا تَنْهَلْ»<sup>(5)</sup> «<sup>(6)</sup> أَنْ يَعْبرَ عَنِ شِدَّةِ الْفَرْحِ، وَالقَلْقِ، وَالشَّجَاعَةِ وَالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، فَلَمْ يَذْكُرْهَا بِأَلْفَاظِهَا الْمَوْضُوعَةَ لَهَا فِي اللُّغَةِ، لَكِنَّهُ عَمِدَ إِلَى مَعَانِ هِيَ رَدِيفَاتُهَا فِي الْوُجُودِ، وَأَوْمَأَ بِهَا إِلَيْهَا، وَجَعَلَهَا دَلِيلًا عَلَيْهَا، وَهِيَ: "مُطَارَ الْقَلْبِ"، وَ"مَحْلُولِ الْحَبْوَةِ"، وَ"رَيْبَطَ الْجَأْشِ"، وَجَعَلَهَا مَنَظَارًا بِيَدِ الْمُؤُولِ، وَأَدَاةً يَنْقِفُ بِهَا عَنِ مَعْنَى لِازِمٍ مُتَضَمِّنٍ فِيهَا، يُمَثِّلُ مَقْصِدِيَّةَ الْمَخَاطِبِ. وَبِهَا قَصِدَ أَكْثَرَ مِمَّا قَالَ.

وَإِذَا أَنْعَمْتَ النَّظَرَ فِي قَوْلِ الزَّمَخْشَرِيِّ: «يَا أَبَا الْقَاسِمِ. هَلْ لَكَ فِي جَاذِرِ جَاسِمٍ. إِنَّ أَنْعَمْتَ فَلَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِالْكَ. وَلَا وَصَلَ حِبَالَكَ. وَلَا فَضَّ فُو مِنْ مَاءِكَ بِالْحَقِّ وَنَبَهَكَ. وَعَضَّكَ بِالْمَلَامِ وَعَضَّكَ<sup>(7)</sup>»<sup>(8)</sup>. وَجَدْتَهُ يَسْأَلُ الْمَخَاطِبَ إِنْ كَانَ يَرِغِبُ فِي "جَاذِرِ جَاسِمٍ"، لَكِنَّ هَلْ يُمَثِّلُ هَذَا الْمَعْنَى مَقْصِدِيَّةَ الْمُتَلَقِّي،

(1) - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، مادة (ح ذ ر).

(2) - رواه الترمذي.

(3) - السعدان نبات تغزر عليه ألبان الإبل، وينبت متفرشا على الأرض، وهو كثير الحسك، ويقال: كأن جنبه على حسك السعدان، إذا كان قلقا متمللا.

(4) - مقامات الزمخشري (المرشد: ص 16).

(5) - تنهل: مستعار من انهيال الرمل وعدم تماسكه.

(6) - مقامات الزمخشري (التماسك: ص 201)

(7) - العضة: الشتم.

(8) - مقامات الزمخشري (الإناابة: ص 37).

وعندما يتأمل المخاطب الخطاب انصرف عن المعنى الحرفي لتعارضه مع السياق الذي يؤطر المقامات، وهو سياق "إنابة" والتي لا تكون إلا من ضلال، وعندئذ يحرض ملكته الفكرية والتأويلية ويستصحب المعنى الظاهري دليلاً على معنى آخر تكون منه التوبة، وبعد أن يقصي التأويلات الممكنة لا يبقى له إلا " الحوريات الحسنات"، وهي الدلالة التي تمثل مقصدية المخاطب. ومن ثم يصير المعنى "هل ترغب في الحسنات الحوريات؟" لكن السياق العام للمقامة لا يقبل بمثل هذا المعنى كذلك، فالمخاطب لا يسأل مخاطبه إن كان يرغب في الحسنات، ليواصل عملية الاستدلال، ليكتشف أنه توسل الاستفهام لإنجاز اللوم، أي يلومه إن كان لا يزال يرغب فيهن، ويصبو إليهن. ولوم المخاطب ذي السلطة يعدّ نهياً، فهو ينهيه عن الشوق إلى الحسنات والصبوة إليهن. إذن، فهو يريد أن يرغبه عنهن لا فيهن، لذلك أتبع المخاطب المعنى بخطاب تقويمي أو تصحيحي " إن أنعمت فلا أنعم الله بالك. ولا وصل حبالك"، وقصد المخاطب عكس ما يقول.

وقد يقصد الزمخشري المخاطب بكلام غيره، ويريه إياه في حال مخالفة لحاله، مراعاة لمبدأ التأدب مثلاً، كما في قوله: «وَالْعَبْدُ الصَّالِحُ مِنْ اسْتَحَبَّ رِقَّةَ الْحَالِ وَخَفَةَ الْحَاذِ. عَلَى الْمَرَاوِحَةِ بَيْنَ الرَّذْنِ وَاللَّادِ. وَاعْتَقَدَ أَنْ لَبَسَ الْحُسْرَوَائِيَّ مِنَ الْحُسْرَانِ»<sup>(1)</sup>، حيث يُعْرَضُ بِالْمَخَاطَبِ اسْتِمْرًا الْحَيَاةَ الْمُرْتَفَةَ فِي السُّكْنَى وَأَطْيَابِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالتَّاتَّقِ بِأَسْنَى الثِّيَابِ وَالتَّزَيَّنْ بِأَحْسَنِ الْحُلْلِ، ومع ذلك يعتقد أنه من الصالحين.

2. المقصدية النصية (الموضوعاتية): وأحاول في هذا المبحث الكشف عن المقاصد الموضوعاتية الأولية والثانوية التي تعبر عنها مقامات الزمخشري.

1.2. المقاصد الأولية: وهي المقاصد الصريحة التي أعلن عنها الزمخشري في خطبة كتابه، فذكر المقصد التربوي والمقصد التعليمي، فيقول: «انتدب للرجوع إلى رئاسِ عمله في إنشاءِ المقاماتِ حتى تَمَّمَهَا خَمْسِينَ مَقَامَةً يَعِظُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَبِنَهَاهَا أَنْ تَرُكْنَ إِلَى دَيْدِنِهَا الْأَوَّلِ بِفِكْرٍ فِيهِ وَذَكَرَ لَهُ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ التَّنَدِيمِ وَالتَّحْسُرِ، وَيَأْمُرُهَا أَنْ تَلَجَّ فِي الاسْتِقَامَةِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى، وَإِلْقَاءِ الشَّرَاشِرِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ مَا أَبْرَمَهُ مِنَ الْمِيثَاقِ وَأَكَّدَهُ مِنَ الْعَقْدِ فَعَلَ الْحَازِمَ الَّذِي اسْتِثْنَاهُ اللَّهُ فِي عَقْلِهِ وَفَضْلِهِ وَجِدِّهِ وَثَبَاتِهِ. مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَمْ يَأْتَلِ فِيمَا يَعُودُ عَلَى مُقْتَبِسِهَا بِجَلِيلِ النَّفْعِ وَعَظِيمِ الْجَدْوَى. فِي بَابِي الْعِلْمِ وَالتَّقْوَى مِنْ انْتِقَاءِ أَلْفَاطِهَا. وَإِحْكَامِ أَسْجَاعِهَا وَتَفْوِيفِ نَسْجِهَا، وَإِبْدَاعِ نَظْمِهَا، وَإِبْدَاعِهَا الْمَعَانِي الَّتِي تَزِيدُ الْمُسْتَبْصِرَ فِي دِينِ اللَّهِ اسْتِبْصَارًا، وَالمُعْتَبِرَ مِنْ أُولَى الْأَلْبَابِ اعْتِبَارًا»<sup>(2)</sup>.

(1) - مقامات الزمخشري (العفة: ص 102).

(2) - المصدر نفسه (خطبة الكتاب: ص 13، 14).

أ. المقصدية التربوية التوجيهية: أنشأ الزمخشري مقاماته ليعظ نفسه، وهو بعظته نفسه يعظ غيره، ويعدّ هذا المقصد رأس مقاصد الزمخشري من إنشاء مقاماته، وكان الوعظ والإرشاد الديني الداعي إلى إصلاح النفوس وتركيتها موضوع الخطابات الرئيس. ويتضمن مضامين فرعية عديدة مرتبطة به، وهي محاسبة النفس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والزهد في الدنيا، والبعد عن المعاصي، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، والتقوى، والاستقامة، والطاعة، والتوجه إلى الله، وفعل الخير، ومن نظرة خاطفة في عتبات المقامات (المراشد، والتقوى، والرّضوان، والارعواء، والزاد، والزهد، والإنابة، والحذر، والاعتبار، والتّسليم، والصّمت، والطاعة، والمنذرة، والاستقامة، والطيب، والقناعة، والتوقي، والظّلف، والعزلة، والعقّة، والنّدم، والولاية، والصّلاح، والإخلاص، والعمل، والتّوحيد، والعبادة، والتّصبر، والخشية، واجتناب الظلمة، والتّهجد، والدُّعاء، والتصدّق، والشُّكر، والأسوة، والنّصح، والمراقبة، والموت، والفرقان، والنّهي عن الهوى، والتّماسك، والشّهامة، والحمول، والعزم، والصّدق) نتعرّف على فحواها، وتبيّن مقاصدها، ونفهم معانيها قبل أن تبلغها الأبصار، أو تتلقاها الأسماع إلا قليلا منها، وهي الخمس الأخيرة من المقامات: النحو، والعروض، والقوافي، والديوان، وأيام العرب. وإن كانت هذه العناوين لا تشي بالمقصدية الأولية مباشرة كما في السابقات إلا أنها تؤدي وظيفة مزدوجة تربوية توجيهية وتعليمية، والتربوية أولى؛ فلم تكن الغاية التعليمية مقصودة لذاتها، وإنما يذكرها مُمثّلا بما لتوجيه ما، كما في مقامة النحو التي يقول فيها: «يا أبا القاسم أعجزت أن تكون مثل همزة الاستفهام. إذ أخذت على ضعفها صدر الكلام. لبتك أشبهتها متقدّما في الخير مع المتقدّمين. ولم تُشبه في تأخرك حرف التّأنيث والتّنوين. المتقدّم في الخير خطره أتم. وديدن العرب تقدّمه ما هو أهم»<sup>(1)</sup>، وينهى في مقامة العروض المشتغل بالعروض والمنشغل بها عن وجوه البر والخير، حين يقابل أبواب الخير بالمصطلحات العروضية المنبثقين عن جذر لغوي واحد. فيقول: «يا أبا القاسم لن تبُلغ أسباب الهدى بمعرفة الأسباب والأوتاد. أو يبلغ أسباب السموات فرعون ذو الأوتاد... من تعرّض لابتغاء صنوف الخير وضروبه. أعرض عن أعاريض الشّعير وأضرب عن ضروبه. لأن تنطق بكلمة فاضلة بين الحق والباطل فاضلة. خير من منطقتك في بيان الفاضلة والفاضلة»<sup>(2)</sup>.

ويقول في مقامة القافية: «استغن بكلمات الله الشافية عن التّكلم في حُدود القافية. فما يؤمنك أن يُورط بك في اقتراف جرّم. انتصارك لأخوي فرهود وجرّم»<sup>(3)</sup>.

(1) - المصدر السابق، (النحو: ص 218).

(2) - المصدر نفسه، (العروض: ص 224).

(3) - المصدر نفسه، (القوافي: ص 238).



ولم يقصد الزمخشري في مقامة أيام العرب الحادثة التاريخية لذاتها، وإنما وظَّفها بحذق واقتدار لاستخلاص العظة والاعتبار من خلال التمثيل، فيقول: «يا أبا القاسم استكف أن تشتري المتاع القليل الفاني بالملك الكبير والنعيم الخالد. فقد استكف أن يدفع ابنه عتبةً بمُحصين بنِ ضرارٍ شتيرٍ بنِ خالدٍ. وقد عرِضت عليه ثلاثٌ وقيل له اُختر. فلم يرض إلا أن يُعطي أعورَ بأعورٍ»<sup>(1)</sup>.

حيث استطاع الزمخشري بالاستراتيجية المباشرة أو التلميحية وبأسلوب شيق خطاب الذات، وأن يتغلغل إلى نفوس المتلقين وينفذ إلى سويداء القلوب. فجاءت مقاماته وعظا وتذكيرا وتنبها وزجرا، ولا يؤخر البيان عند الحاجة، ولا يرضى أن يرى في الناس خللا واعوجاجا، فكان قائما على إرشاد العقول، وتطهير القلوب، وتهذيب النفوس، وتثقيف الأذهان، وتنوير المدارك، وإماطة ما غشي الأفهام القاصرة من غياهب الجهالة، وتراث الضلالة، وحصنًا للقارئ على العمل بما فيها، ولذا نجده في كل مقاماته يتجه بكل ما أوتي من قوة إلى الحث على العمل الرافع والكلم الصاعد الذي يرضي الله.

وإذا كان المخاطب قد كان له الحظ الأوفى من مقاماته، فإن لنفسه نصيبا منها، حيث كان يذكرها برحمة الله ورضوانه، وبأنه يجدر به أن يعود إلى رحاب مولاه، راجيا رضاه، خاذلا هواه، زاهدا في دنياه، متعلقا بأخراه. ويأخذ نفسه بالشدة حتى لا تعود إلى سالف عهدها، وتكون توبته نصوحا.

ويعلمنا صريحة أمام الأئمة والأمة عن اعتزاله السلاطين، والحكام، والإقلاع عن مدحهم، والوقوف على أبايهم لالتماس العطيات والهبات، واستثمار الوقت في العمل الصالح والعلم النافع، لذلك نجده في مقامته الأخيرة يأخذ على نفسه العهد بأن يتفرغ لتعلم القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وما انبثق منهما من علوم وما يدور في فلكهما من معارف.

ونجده في مواضع يصرح أنه يتوجه بقسم منها إلى من هو خارج عنها، إنه أحد طلبته ومريديه، الذي طلب إليه أن يفسر له غامضها، ويوصي ذلك الطالب ألا يمكن من هذه المقامات إلا من هم أهل لها: «تحققت، أحسن الله توفيقك، رغبتك في ازدياد العلم وحرصك على ارتياد الحكمة واستيهاك للنظر في النصائح لما أنت متسمم به من حيازة منقبتين. وهما يثار الجدد على الهزل. والتهالك على الكلم الجزل. فأسعفتك إلى طلبتك من بيان ما أشكل عليك من أفاض النصائح ومعانيها. وأنا أقدم قبل الخوض في ذلك تنبيهك على ألا تطالع هذه النصائح إلا ملقيا فكرك إلى معانيها. محضرا ذهنك لأوامرها ونواهيها حتى يكون اقتباسك منها في أخلاقك. رافعا لك أوفر من استفادتك لبلاغتها وبراعتها، فقد علمت أن العمل ببعض ما فيها مما يهذب النفس ويظهر القلب، وتوصيتك ألا تمكّن منها إلا من يوازيك في صفتك. أو يدانيك من أولي الفضل والديانة. وأن ترأبأ بها عن أولئك الذين يحسبون أنهم يحسنون ولا يحسنون. لتكون

(1) - المصدر السابق (من المقدمة)، ص 7.

مَنْ الْعَمَالِ بِقَوْلِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ " لَا تَطْرُحُوا الدَّرَّ تَحْتَ أَرْجُلِ الْخَنَازِيرِ" (1).

ب. المقصدية التعليمية: تعدّ الغاية التعليمية من أولى ما يتغيها كتاب المقامات، ولم تغب هذا المقصدية عن الزمخشري فقد صرّح في مقدمة كتابه، بأنه وضع مقاماته لتكون درسا لغويا ينهل منه طلاب العلم، ما يتصل باللغة من أصل اللفظة، إلى اشتقاقها، إلى تطورها. من أفرادها إلى تركيبها، ومن استخدامها في الحقيقة، إلى المجاز، ومن المشترك إلى المترادف. والمقامات طافحة بأساليب اللغة والتعبير؛ من بيان وبديع، وفصاحة وبلاغة، ومكتنزة بضروب العروض، والحيل اللفظية، والزخارف الكلامية من سجع وطباق ومقابلة... عامرة بقواعد النحو والصرف... على نحو من الإيجاز حيناً، والاستفاضة والشرح حيناً آخر (2). وهذا الوصف العام للمقامة ينسحب تماما على مقامات الزمخشري، فلم تخل من هذا القصد، وإلى هذا قصد بقوله في مقدمة الكتاب: « ولم يأتل فيما يعودُ على مُقْتَبِسِهَا بجليل النفع وعظيم الجدوى. في باي العلم والتقوى من انتقاء ألفاظها. وإحكام أسجاعها وتفويف نسجها، وإبداع نظمها، وإبداع المعاني التي تزيد المستبصر في دين الله استبصاراً، والمُعْتَبِرَ من أولي الألباب اعتباراً» (3).

وبثّ الزمخشري في مقاماته علوما كثيرة كعلم البيان، والبديع، والعروض، والقافية، والنحو، والمنطق، والتاريخ، وغيرها. وهي ذات قصدية مزدوجة تربوية تعليمية، والتربوية أولى، فيقول: « وأنا أقدم قبل الخوض في ذلك تنبيهك على ألا تطالع هذه النصائح إلا ملقيا فكرك إلى معانيها. محضرا ذهنك لأوامرها ونواهيها حتى يكون اقتباسك منها في أخلاقك. رافعا لك أوفر من استفادتك لبلاغتها وبراعتها» (4)، وكان يشير إليها في المقامات إشارات عابرة لأنها غير مقصودة، ثم يعمد إليها فيشرحها باقتضاب في الهوامش.

2.2. المقاصد الثانوية: وهي المقاصد الضمنية التي لا يصرح بها النص، ولا يكشف عنها صراحة، ولكنها متضمنة في النص، ليس صعبا على القارئ الحذق التنبه إليها، ومنها مقصد المحاكاة والمقصد النقدي، والسياسي، والاجتماعي، والتاريخي.

أ. مقصدية المحاكاة: يرى أحد الباحثين أن الزمخشري أنشأ خمسين مقامة على غرار ما كتب الحريري « وهي وإن خالفت مقامات الحريري في الموضوعات والغاية، فإنها محاكاة لها في الأسلوب المسجع الحافل بالمحسنات» (5)، هذا وإن كانت محاكاة لها - فعلا - في التجنيس، والعدد، والأسلوب الموشى، والغاية

(1) - المصدر السابق، (من المقدمة)، ص 7

(2) - انظر أنعام الجندي، الرائد في الأدب العربي، الجزء 1، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986، ص 488.

(3) - مقامات الزمخشري، (من خطبة الكتاب؛ ص 13، 14).

(4) - المصدر نفسه، (من المقدمة: ص 7).

(5) - أحمد الحوفي، الزمخشري، ص 277.

التعليمية، فإنها لا تخلو من عناصر إبداع خاصة في المصطلحات والموضوعات والمقاصد والشخصيات، حيث نأى الزمخشري بفنّه عمّا كتبه سابقاه ( الهمداني والحريري )؛ فطرق موضوعات جديدة جدية لا هزل فيها، موضوعات هُدَى لا كُدى؛ قصد بها الوعظ والإرشاد والنصح والتوجيه.

ب. المقصدية النقدية: تشتمل المقدمة على آراء نقدية جديدة بالتقدير، يقول الزمخشري: « لتعلم أن ما سماه الناس البديع من تحسين الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع، لا يملح ولا يبرع حتى يوازي مصنوعه مطبوعه، وإلا فما قلق في أماكنه ونبأ عن مواقعه فمنبوذ بالعراء، مرفوض عند الخطباء والشعراء»<sup>(1)</sup>، فهو يرى أن الكلام لا يكون جميلا بمجرد اشتماله على المحسنات البديعية، بل يشترط فيه أن مطبوعة لا مصنوعة من غير إسراف، وألا يقصدها لذاتها بحيث تخفي وراء كثافتها معاني الألفاظ ودلالاتها، وقد أشبع الزمخشري السجع كلاما، فبيّن أهميته وطريقة الوقوف عليه، وما يجوز فيه من تغيير حتى يستقيم للكاتب ما يريد من توافق الفواصل في أواخر الجمل<sup>(2)</sup>.

ج. المقصدية الاجتماعية: انفتحت الدولة في العصر العباسي فصارت قبلة لأجناس كثيرة فارسية، وتركية، وسريانية، ورومية، وبربرية، وتمازج الجنس العربي والأعجمي، فوقع التفاعل، وكان التأثير، و«جرّ هذا التمازج انحطاطا أخلاقيا؛ فشاع التسري، وتعاطي المسكرات سرا وإعلانا. فقد عاقر الخمر حتى بعض الخلفاء، وكانوا يعقدون مجالس الشراب والغناء وحلقات الأنس. وتوافر الطلب على العلماء والشعراء، والمغنين، وأرباب الموسيقى فاتخذهم الأمراء، والأعيان ندماء»<sup>(3)</sup>. واتخذ المترفون خدما، وكان أكثرهم من الأرقاء، ومنهم غلمان يلبسون الحلل الجميلة، ويتزينون ويتعطرون كالنساء، و تغزل بهم الشعراء كأبي نواس، و كان من الرقيق أيضا غلاميات وهن جوارٍ حسانٌ يقصصن شعورهن ويلبسن ثياب الغلمان<sup>(4)</sup>، ولما مال الناس عن القيم الفاضلة والأخلاق الكريمة إلى حياة اللهو والترف والمجون، انبرى العلماء والأدباء يتصدون لهذا الفساد، ومنهم الزمخشري الذي وصف في مقامة العفة كاملة هذه الحياة بالتفصيل: السكن، والسكنى، والجارية، والغلام، والمطعم، والمركب فقال: « يا أبا القاسم بسأت نفسك بالشهوات فافطمها عن هذا البسوء. ولا تطعها إن النفس لأماراة بالسوء تطلب منك أن يكون مسكنها داراً قوراء. وسكنها مهأة حوراء. تجرّ في عرصتها فضول مرطها. وتمسّ عقوقها بهدّاب ريطها. وترقرق المسك السحيق في تراجمها. إذا لعبت فيها مع أترابها. تطلّع إليك من جانب الحدز. كما انجابت السماء عن شقة البدر. وأن

(1) - مقامات الزمخشري (من المقدمة)، ص 8.

(2) - هارون الربابعة وآخرون، مقامات الزمخشري: رؤية وتأصيل، ص 206.

(3) - حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البولسية، بيروت، لبنان، ط10، 1980، ص352 وما بعدها.

(4) - المرجع نفسه، ص 353

تكون سماء زواقيها منمقة بالرقم الزرّيبي. وأرضها منجدة بالبسط والزرايبي. وأنت مُتَكِي فيه على الأريكة. مع تركية كالتريكة. وتفتري عليك وصيفاً موصوفاً بالجمال. واصفاً للغزاة والغزال. مُقرطعاً مخنق الحصر [...]. وتساءلك أن تلبس ما يدق ويرق من حرّ الملابس. وما يروق ويفوق من الحلل والنفائس [...]. وتدعوك إلى أكل الطيب الناعم. من ألوان المطاعم. الدجاج المسمن بكسكز. والرّجراج بالسمن (...)<sup>(1)</sup>. من أجل هذا نجد المخاطب يحمل بشدة على من أسلموا القيادة لأنفسهم، وصاروا عبيد شهواتهم، وتنازلوا عن إنسانيتهم ليحيوا حياة بهيمية تزري بهم وتصمهم، لا عقل يردعهم، ولا أخلاق تمنعهم. ويدعوهم إلى حياة متواضعة يؤطرها الدين والتقوى، وأن تسود الدولة القيم الفاضلة، والأخلاق الكريمة.

د. المقصدية السياسية: بالرغم من كون الزمخشري أعجمياً إلا أنه كان خيراً من العرب في الدفاع عن العربية والعروبة بعد أن صارت راسخة عنده، وبعد أن رأى بلاط الخلافة صار موثلاً للشعراء والناجيين وأرباب الموسيقى والغناء وسواهم من السمار والندماء وأصحاب اللهو، واقترب من مركز الخلافة رهط كثير من مختلف الأجناس، وصار أمر المسلمين لكثير منهم، فتغلغل الفرس في صلب الدولة فكان منهم قواد، ووزراء، وحجّاب، وولاة، وكتاب<sup>(2)</sup> وحرّس، وأصبحت السلطة موزعة بين الفرس، والترك، ونساء القصر، والعرب، وولاة الأقاليم، فضعفت الدولة، ودب الفساد في أوصالها. وكان للزمخشري موقف حازم من السلاطين فقد أخذ الميثاق على نفسه أن يعتزلهم، وأن لا يطرق أبوابهم ولا أعوانهم، والأيمدحهم، ويقبل أعطيائهم فيقول: «ولا تُراجع الرّكون إلى أهل الحيف. وإنّ عرضوك على غرار السيف. وأجرّ لسانك أن تنطق بثناء لهم وامتداح. وسافر بمطعمك عن امتيار لهم وامتياخ. وقُل عقرى لمن يرفع عقيرته بالنشيد بين أيديهم. وتربت يدا من بسطهما إلى أعطيائهم وأياديهم. من وقف وقفاً لأحدهم على رُبع. فليغسل قدميه سبعين فضلاً عن سبع. ويحك لا يُرين جسمك في أبوابه. ولا يُجربن اسمك في ديوانه. ولا يخطون قدمك في إيوانه. وطيب نفسك عمّا ليس بطيب من أرزاقه. ولا تلوثها بالطمع في إرفاده وإرزاقه»<sup>(3)</sup>. وألا يوالي أحداً إلّا من كان ولياً لله «من لم يوال الله ومواليه فلا تطر حراه. ولا تُنخ راحلتك في ذراه»<sup>(4)</sup>.

ويهرب السلاطين المستهترين الغارقين في اللهو المنشغلين به عن تدبير الخلافة، فيذكرهم بالنهاية الأليمة ليزيد ابن عبد الملك بن مروان مع جاريته فينقل الحادثة: «اذكر المرؤاني وما مُني به من خطّة على

(1) - المرجع السابق، ص 353

(2) - المرجع نفسه، ص 350 وما بعدها.

(3) - مقامات الزمخشري، (اجتناب الظلمة: ص 149 وما بعدها).

(4) - المصدر نفسه، (الولاية: ص 112).

رأسه مصبوبة. حين غصت بحبة الرمان حبابته المحبوبة»<sup>(1)</sup>.

هـ. المقصدية التاريخية: المقامات صورة جزئية لعصر الزمخشري الذي شهد فسادا عاما في جميع نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية خاصة، ومنها مقامة أيام العرب التي تُعدّ وثيقة تاريخية، وسجلا ثريا، وخلاصة لحياة العرب قديما، تنقل أحداثا كثيرة كان العالم العربي مسرحا لها، يقول فيها مثلا «وإياك والإباء إذا نصحت. والشَّماسَ إذا استصلحت. فلو أطاع ذو الأسماء الثلاثة والكفى الثلاث صنوه. لما تنازعت ضباغ بني غطفان شلوه. ولو أطاع بشر بن عمرو بن مرثد ذا الكف الأشل. ما حلّ به وبعلقمة وحسان وشرحبيل ما حلّ. احتطّ في أمورك فلو احتطّ حمران بن ثعلبة لم ينطلق مع أسيريه اللدان. وبشر بن حجوان لم يلق ما لقي بقصوان حين أقبل على عضّ الإهام. ولم يغن عنه يا لعجل ويا لهمام»<sup>(2)</sup>. وواضح أن هذه الأحداث بالرغم من قيمتها التاريخية إلا أن الزمخشري لم يقصدها لذاتها، بل كان لها مقصد مزدوج تاريخي ووعظي، فبعد أن أفاد من أحداث أيام العرب وشخصها جعلها عظات وعبرا لمن يعتبر.

ثالثا: الأفعال الكلامية التوجيهية في مقامات الزمخشري:

يعدّ الخطاب الوعظي من الخطابات التوجيهية التي يمارس فيها المتكلم ضغوطا على المتلقي ليحمله على الإذعان والقبول بما يلين القلوب من النصح والحث على الخير، والتحذير من الشر، وعرف ابن سيده الوعظ بأنه: تذكيرك الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب. وفي الحديث: لأجعلنك عظة. أي موعظة وعبرة لغيرك<sup>(3)</sup>، وعرفه محمد رشيد رضا بأنه «الوصية بالحق والخير، واجتناب الباطل والشر، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب، فتبعث على الفعل والترك»<sup>(4)</sup>، وقد ورد الوعظ في القرآن الكريم بمعنى الأمر والنهي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾<sup>(5)</sup> أي: ما يؤمرون به: وقوله: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(6)</sup> أي: ينهاكم عنه، أما الوعظ فإنهم ينقلون في وعظهم أمر الله ونهيه مصحوبا بالترغيب والترهيب<sup>(7)</sup>.

ويوجّه المخاطب في هذا النوع من الخطابات خطابا سلطويا ضاغطا، حيث لا يهمله إلا تبليغ المخاطب مقاصده المباشرة أو غير مباشرة، إضافة إلى تحقيق أهدافه الخطابية، بأن يوجهه لإنجاز فعل

(1) - المصدر السابق، (الزهد: ص34). وتفصيل الحادثة في هامش الصفحة نفسها.

(2) - المصدر نفسه، تفصيل الحادثتين في شرح الزمخشري الهامشي، ص 259، 260.

(3) - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، (مادة: و ع ظ).

(4) - رضا محمد رشيد، تفسير المنار، الجزء 11، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، ص 328

(5) - (سورة النساء: الآية 66)

(6) - (سورة النور: الآية 17)

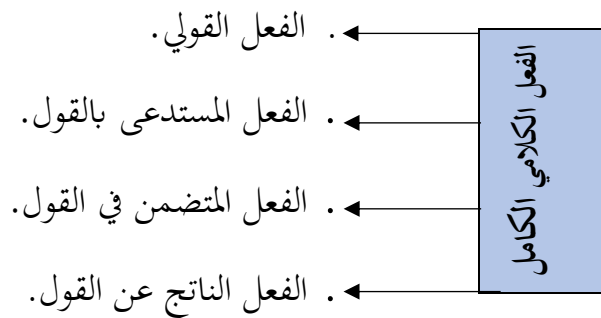
(7) - عبد الله بن رفود السفياني، الخطاب الوعظي ... مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ص31.

مستقبلي لمصلحته بنفعه من جهة، وبإبعاده عن الضرر من جهة أخرى. والمرسل إليه في هذه الاستراتيجية إما متخيّل وإما مُعَيّن.

حين يخاطب المتكلم مخاطباً مفترضا، فإنه يعتمد على المعرفة المسبقة بخصائص العالم المحيط بطرفي الخطاب، وهذا ما يعطي الخطاب صبغة العمومية والديمومة، وأمّا حين يوجه المرسل مخاطباً حاضرا لحظة إنتاج الخطاب، فإن التوجيه يختص به دون غيره، لأن السياق الذي يدور فيه هو سياق أكثر ضيقا؛ إذ تتدخل فيه سمات الفرد الشخصية، والمعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب<sup>(1)</sup>.

وللاستراتيجية التوجيهية وسائل لغوية عديدة منها الأمر بأدواته المختلفة، والنهي، والاستفهام، والإغراء والتحذير، والعرض، والتحضيض، والنداء، والخبر، وغيرها. وتعددت التوجيهات في المقامات، وتنوعت صيغها، جاء أكثرها على صيغ الطلب الأصلي "افعل" أو "لا تفعل".

1. التوجيه بالأمر: وحدّ الأمر كما هو عند الشاطبي « أنه استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه »<sup>(2)</sup>، أو « هو طلب فعل غير كفّ طلبا كائنا على وجه الاستعلاء والإلزام »<sup>(3)</sup>. وهو لطلب حصول ما في الخارج، أي ينقش الأمر في الذهن، ثم يطلب أن يحصل له مطابق في الخارج. وممّا يلفت النظر في تعريف الأصوليين الأمر بأنه " استدعاء الفعل بالقول " بأنهم على وعي مبكر بما يفعله القول، وهو تحديد تداولي دقيق يشبه تحديد أوستين للفعل الإنجازي (Acte illocutoire) « عمل ينجز بقول ما »<sup>(4)</sup>، وعلى الرغم من الشبه الشديد بين مصطلحي الأصوليين والمعاصرين فإن الفرق لا يبدو بسيطا بينهما، فقد ترتّب عنه زيادة في تفريع الفعل الكلامي، فصار رباعيا بإضافة «الفعل المستدعي بالقول» حسب رؤية خالد ميلاد<sup>(5)</sup> على الشكل الآتي:



(1) - المرجع السابق، ص 322 - 324

(2) - أبو المظفر منصور السمعاني، قواطع الأدلة في الأصول، الجزء 1، تحقيق محمد الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1997، ص 53.

(3) - السكاكي، المفتاح، ص 304. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الجزء 2، ص 81.

(4) - Austin. Quand dire c'est faire. p 109

(5) - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 186

أما في اللسانيات الحديثة فيذهب أوستين إلى « أنه من أرجح معاني الأمر كونه يجعل من التلفظ بالصيغة دلالة على الوجوب، أو الإباحة، أو التهديد، أو الحض، أو التعارض على وجه من الإضراب»<sup>(1)</sup>، والسياق هو الذي يحدد معنى مقصودا، لهذا اعتبر العلماء أن دلالة الوجوب والإلزام في الأمر والنهي لا تتحقق إلا بوجود شروط، بعضها لساني، وبعضها الآخر تداولي<sup>(2)</sup> .

أما الشروط اللسانية فهي:

أ. أن يكون الفعل تاما، أي حاملا لخبر تام.

ب. وأن تكون الصيغة المستعملة دالة على الأمر.

وأما التداولية: وترتبط بوضعية المتخاطبين مثل:

أ. سلطة المرسل (الاستعلاء)

ب. القدرة على إصدار الأمر.

ج. الإرادة في إصدار الأمر.

د. الاقتناع أو القصد.

وهذه الشروط بعضها يسبق عملية التلفظ بالصيغة (إصدار الأمر) وبعضها تال لها، ولا يكتمل الأمر إلا بالنجازية الفورية له، وبها فقط يتحقق الفعل التوجيهي المباشر. ويكون الأمر بصيغ اسمية، أو فعلية، أو أداتية، وشققوا من الأدوات حرفا واحدا هو اللام الجازمة<sup>(3)</sup>، ولا يجرى العلماء العرب الأمر على الصيغة فقط، ولا يحتكمون إليها وحدها في تنميط الأمرات، وإنما هي عندهم كثيرة متنوعة خاصة عند الأصوليين منها ما هو صريح، ومنها غير الصريح.

**التوجيه بالأمر الصريح:** اختلف في تحديد الصريح من الأمر بين القدامى والمحدثين؛ فإذا تعددت صيغ الأمر الصريح عند القدامى، فإن له عند أوستين صيغة واحدة هي: " أمرك"، وغيرها غير صريحة. وبعض المعاصرين يحدون الأمر الصريح في "التقرير"، و"المدح" على أن تراعى المقصدية في هذا الأخير<sup>(4)</sup>، وأقل ما يشترط في الأمر الدال على الوجوب الصيغة والسلطة<sup>(5)</sup>، وتتجاوز السلطة المفهوم التقليدي السياسي

(1) - أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة عبد القادر فنيبي، ص 91.

(2) - عمر بلخير، النص القرآني والمقاربة اللسانية التداولية، مركز بحوث القرآن، جامعة ملايا، ماليزيا، 2015، ص 15

(3) - السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987، ص318.

(4) - انظر مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص196.

(5) - ابن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص342.

والاجتماعي لتشمل سلطة العلم والمعرفة<sup>(1)</sup>.

أ. التوجيه بصيغة "افعل": والمقصود به كل فعل أمر، مجردا كان أم مزيدا، صحيحا أو معتلا، ولا يشترط فيه وزن "افعل". ومن توجيهات الزمخشري به قوله: «أقبل على نفسك فسُمها النَّظَرُ في العَوَاقِبِ. وَبَصَّرَهَا عَاقِبَةَ الحَذِرِ المُرَاقِبِ. وَنَاغَهَا بالتَّنْذِيرَةِ الهَادِيَةِ إلى المرَاشِدِ. وَنَادَاهَا إلى العَمَلِ الرَّافِعِ وَالكَلِمِ الصَّاعِدِ. وَأَجْمَهَا عَمَّا يَكَلِّمُ دِينَهَا وَيَثْلُمُ يَقِينَهَا. وَحَاسِبَهَا قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبَ وَعَاتِبَهَا قَبْلَ أَنْ تُعَاتَبَ. وَأَخْلَصَ اليَقِينَ، وَخَالَصَ المَتَّقِينَ. وَامشَ في جَادَّةِ الهَادِينَ الدَّالِينَ. وَخَالَفَ عَن بُنَيَاتِ طُرُقِ العَادِينَ الضَّالِّينَ. وَاعْلَمَ أَنَّ الحَامِلَ عَلَى الضَّالِّالِ صِلُ أَصْلَالِ»<sup>(2)</sup>.

اجتمعت في هذا الخطاب أفعال إنجازية ذات دلالات متكررة (أخلص وخالص)، أو مترادفة أو متقاربة (سم وبصّر)، أو متضادة (امش وخالف)، أو مختلفة أو متتابعة، (حاسب وعاتب)، و (ناد وناغ) أو اجتماع فعلين إنجازيين يكون الأول تمهيدا للثاني (أقبل وسُم)، أو فعلين إنجازيين أحدهما سبب والآخر نتيجة (اعلم وخالف)، وهذه أفعال كلامية مباشرة توجيهية (طلبية) تدل على معان صريحة تتكون حملتها الدلالية من محتويات قضوية تعبر عنها الجمل الفعلية الطلبية، وقوة إنجازية حرفية تتمثل في الوجوب لأنها أفعال أمر صريحة، لسلطة المخاطب، وعدم وجود سياق يصرف عن المعنى الأصلي.

خطَّ المخاطب بالأمر المكثف سراط الهداية، ثم دعاه إلى وجوب اتباعها وإصلاح نفسه ومحاسبتها حتى يسلم في الدنيا والآخرة.

ويقول: «يا أبا القاسم تبتل إلى الله، وخل ذكر الخصر المتبل. ورتل القرآن وعد عن صفة الثغر

المرتل. وأدر عينيك في وجوه الصلاح لتعلق أصلحها لا في وجوه الملاح لتعشق أصحبها. وابك على ما مضى في غير طاعة الله من شبابك. ودع البكاء على الطاعنين من أحبائك»<sup>(3)</sup>.

ويشتمل هذا الخطاب على أفعال كلامية مباشرة تعبر عن معان صريحة ذات قوة إنجازية حرفية، وهي وجوب القيام بالفعل على وجه الإلزام. فجمع المخاطب بين فعل هو نتيجة "تبتل" وأفعال تالية تحقق الفعل السابق، وهي بمثابة أسباب وشروط تحققه (ورتل القرآن، وعد، وأدر عينيك، وابك)، ووجه المخاطب المرسل إليه بتوجيهات طلبية وردت على صيغة الأمر "افعل"، يدعوه من خلالها إلى التوبة النصوح، ووجوب الانقطاع للعبادة، والسعي في وجوه الصلاح، وينهاه عن وصف النساء والتغزل بهن، والبكاء على الأحبة الطاعنين، لما فيها من انصراف عن الغاية التي خلق من أجلها.

(1) - المرجع السابق، ص ن.

(2) - مقامات الزمخشري، (المرشد: ص 18-20)

(3) - المصدر نفسه، (الطاعة: ص 58).



ب - التوجيه بصيغة "لتفعل"، وهي صيغة المضارع المسبوق بلام الأمر الجازمة، نحو: ليحضر زيد، وهي موضوعة لطلب الفعل استعلاء، لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك، وتوقف ما سواه على القرينة<sup>(1)</sup>.

يقول الرمخشري: « مَنْ وَقَفَ لِأَحَدِهِمْ وَقْفَةً عَلَى رِنْعٍ. فَلْيَغْسِلْ قَدَمَيْهِ سَبْعِينَ فَضْلاً عَنْ سَبْعٍ »<sup>(2)</sup>.

يشتمل التركيب على فعل كلامي "ليغسل" يدل على:

- قوة إنجازية حرفية تتمثل في الأمر بصيغة " ليفعل".

- وقوة إنجازية مستلزمة مقامياً تتمثل في تبكيت الواقف بباب السلطان والتشنيع به.

واستعمل المخاطب المضارع المسبوق بلام الطلب الجازمة "ليغسل" توجيهها للمخاطب بالأمر يركن إلى السلاطين الظلمة، ويمثل بين أيديهم راعاً أو مادحاً، حتى لا يتنجس، وإلا فليغسل قدميه سبعين فضلاً عن سبع، وهذا إشارة إلى أن الوقوف بباب السلطان أنجس مما يبلغ فيه الكلب، بل هو أشد، فلا تكفي سبع غسلات ليتطهر كما أوصى الرسول ﷺ « إِذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ، فَلْيَغْسَلْهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ، إِحْدَاهُنَّ بِالتُّرَابِ »<sup>(3)</sup>، بل سبعون. وفي هذا تعريض بالسلاطين الظلمة وتشنيع بهم، لأن النفس بقربهم والوقوف بين أيديهم أكثر عرضة للنجاسة من الإناء الذي يبلغ فيه الكلب.

ويقول في مقامة أخرى « فليملاً اليقينُ صدركَ بلاَ مخالِجةَ ريبٍ. ولاَ تزلَّ عنِ الإيمانِ بالغيبِ وعالمِ

الغيبِ »<sup>(4)</sup>.

ويشتمل هذا التركيب على فعل كلامي مباشر جاء على صيغة " ليفعل" لتدل على معني صريح ذي قوة إنجازية حرفية تتمثل في وجوب الإيمان اليقيني بالغيبيات، وعالم الغيب، لأن الأمر حقيقي.

ويوجه المخاطب المرسل إليه أمراً إياه أن يملأ قلبه يقيناً وإيماناً بالله والغيبيات بعد أن عرض عليه دلائل

القدرة والوحدانية (الكون، والفلك، وخلق الإنسان، والكائنات الحية، والقضاء والقدر).

ج- التوجيه باسم فعل الأمر: يتم التوجيه كذلك باسم الفعل، وهو: « اسم يدل على فعل معين، يتضمن

معناه، وزمنه، من غير أن يقبل علامته، أو يتأثر بالعوامل »<sup>(5)</sup>، ويتميز بميزتين ليستا للفعل الذي بمعناه هما:

الأولى: يختلف اسم الفعل عن الفعل الذي بمعناه في درجة الشدة للغرض المتضمن في القول، أي: إن اسم

(1) - انظر الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق عبد الحميد هندراوي، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، ط3، 2007،

(2) - مقامات الرمخشري، (اجتناب الظلمة: ص150).

(3) - رواه البخاري

(4) - مقامات الرمخشري، (التوحيد: ص130)

(5) - عباس حسن، النحو الوائي، الجزء4، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، 1979، ص142.

الفعل أقوى من الفعل الذي بمعناه في أداء المعنى، وأقدر على إبرازه كاملاً مع المبالغة فيه، فإذا دلّ "بُعْد" على البعد فقط، فإن "هيهات" يدل على بُعد جداً.

الثانية: أداء المعنى مع إيجاز اللفظ واختصاره، لالتزامه صورة واحدة رغم تغير مسنده نوعاً وعدداً خاصة ما كان مرتجلاً ومنقولاً<sup>(1)</sup>، ويعتمد المرسل في استعمال أسماء الأفعال على كفاءة المرسل إليه اللغوية والتداولية في تأويلها التأويل المناسب، وفهم قصده من الخطاب، كونه يدرك تماماً دلالة هذه الأسماء<sup>(2)</sup>.

واسم الفعل المقصود في الفعل التوجيهي هو اسم فعل الأمر لأن المقام مقام وعظ ونصح. ومن ذلك قول الزمخشري: «(إِيهَا<sup>(3)</sup> وَإِنْ صَدَرْتَ زَعَمْتُكَ عَنْ مَصْدُوقَةٍ. وَكَانَتْ كَلِمَتُكَ مَحْضَةً غَيْرَ مَمْدُوقَةٍ»<sup>(4)</sup>. ومنه استعمال "هات" اسم فعل أمر بمعنى أعط. و"هلم" اسم فعل أمر بمعنى: أقبل، وتعال، وإئت، وهات وأحضر. في قوله: «(هَاتِ سُلْطَانَكَ<sup>(5)</sup> فِيمَا ارْتَكَبْتَ. وَهَلِّمْ بُرْهَانَكَ فِيمَا احْتَقَبْتَ»<sup>(6)</sup>.

ومنه استعمال "رؤيد" («واعلم أن رويداً تلحقها كاف الخطاب، وهي في موضع افعال، وذلك كقولك رويدك زيدا، ورويدكم زيدا. وهذه الكاف التي لحقت رويداً إنما لحقت لتبين المخاطب المخصوص، لأن رويد تعود للواحد وللجميع، والذكر والأنثى، وإنما أدخل الكاف حين خاف التباس من يعني بمن لا يعني»<sup>(7)</sup>، ويستعمل غالباً متصلاً بكاف الخطاب الحرفية، وهو «اسم فعل أمر بمعنى تمهل وأمهل، نقل عن مصدر الفعل الرباعي "أرود" إرواد" ثم صُغِرَ المصدر تصغيراً ترخيماً بحذف حروفه الزائدة فصار على: "رؤيداً" ثم نقل بغير تنوين إلى اسم الفعل رؤيد»<sup>(8)</sup>، يقول الزمخشري: «(فَرُؤَيْدُكَ بَعْضَ هَذَا الْحِرْصِ الشَّدِيدِ. عَلَى تَشْيِيدِ الْبِنَاءِ الْجَدِيدِ»<sup>(9)</sup>.

وتشتمل التراكيب الثلاثة على أفعال كلامية مباشرة ذات قوى إنجازية مباشرة هي الأمر تعبر عنها أسماء أفعال أمر (إِيهَا، وهات، وهلم، ورويد)، لكن الطلب في التركيب الثاني "هات سُلْطَانَكَ فِيمَا

(1) - انظر المرجع السابق، الجزء 4، ص 142، 143

(2) - ابن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 348.

(3) - إِيهَا: اسم فعل أمر: بمعنى، زدني. فإن كان مبنياً على الكسر بغير تنوين فمعناه: زدني من حديث خاص معروف لنا، أما مع التنوين، فالمراد: زدني من حديث أي حديث، بغير تقيد بنوع معين.

(4) - مقامات الزمخشري، (الصمت: ص 56).

(5) - السلطان: الحجة والبرهان.

(6) - مقامات الزمخشري، (الدعاء: ص 157).

(7) - سيبويه عمرو بن عثمان، الكتاب، الجزء 1، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 2004، ص 244.

(8) - عباس حسن، النحو الوائى، ص 149.

(9) - مقامات الزمخشري، (الاعتبار: ص 47).

اَزْتَكَبْتُ. هَلُمَّ بُرْهَانَكَ فِيمَا اَحْتَقَبْتُ" إضافة إلى المعنى الحرفي يعبر عن قوة إنجازية غير مباشرة يدل عليها السياق استنادا على مبدأ التعاون هي التعجيز، إذ المخاطب أعجز من أن يأتي بحجج يبرر بها ما ارتكب وما احتقب.

يأمر المتكلم المخاطب في التركيب الأول بالاستزادة من أعمال الخير التي سوف تضمن له النجاة يوم العرض، بشرط أن يصدق عزمه، وتخلص كلمته.

ويأمره في الثاني بأن يحتج لجنايات ومعاص ارتكبتها، ويحسبها من الصالحات، ويبرهن على أفعال قلده الناس فيها، فضل وأضل.

وفي الثالث بأن يتمهل، ويُطَفِّف من حرصه على بناء الدار الفانية، ويغفل عن تشييد الدار الباقية.

ومنه استعمال "عليك"، وهو اسم فعل أمر بمعنى "الزم" أو "تمسك" أو "اعتصم" حسب السياقات.

وقد كثرت توجيهات الزمخشري بهذه الصيغة كثرة لافتة في المدونة، ومنها قوله: ((عَلَيْكَ بَأَثَارٍ مَنْ قَبْلَكَ مَمَّنْ تَعَزَّزَ بِالْبُرُوجِ الْمَشِيدَةِ. وَاعْتَصَمَ بِالصُّرُوحِ الْمُمَرَّدَةِ. وَتَجَبَّرَ فِي الْقُصُورِ الْمَنْجَدَةِ. ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا رَاغِمًا))<sup>(1)</sup>.

ورد في التركيب فعل كلامي غير مباشر "عليك بأثار"، وهو أمر جاء بصيغة اسم فعل أمر معدول

عن الجار والمجرور، وهذه الصيغة أقوى من فعل الأمر "الزم"، دلالة على الطلب، حيث تحمل دلالة "الزم

بشدة". والمتأمل في الطلب به، يجد المخاطب قد خرق مبدأي الكيفية والمناسبة، إذ قال ما يعتقد كذبه،

ولم يستعمل كلاما مناسباً للموضوع (الوعظ والنصح)، والمفروض في هذا المتكلم أنه ملتزم بمبدأ التعاون فلا

يريد بالمخاطب خداعا ولا تضليلا، إذ يمتنع إجراء الأمر الصريح لعدم مطابقته لمقام الوعظ والنصح، فلا

بد من البحث عن دلالة تستلزم المقام، فيهديه عقله بوساطة الاستدلال المنطقي وتضييق مجال التأويلات

بالسياق حتى لا يبقى له إلا تأويل واحد مناسب لمقصدية المتكلم، وهو السخرية والتهكم، وهو نهي

بالأمر، وهي من وسائل الاستراتيجية التلميحية في التوجيه.

يتوجه الزمخشري إلى المخاطب بأسلوب تهكمي ساخر يطلب منه أن يقتفي آثار الملوك والجبارين

الذين لم يشفع لهم الجاه والسلطان، فخرجوا من الدنيا أذلاء صاغرين، والخطاب في السطح إغراء، وفي

العمق تحذير ونصح.

د. التوجيه بالمصدر النائب عن فعل الأمر: في جميع اللغات ومنها العربية تختزل بعض عناصر الجملة

اللازمة في السياق العادي، على أن يفهم معنى العنصر المحذوف نتيجة لضرورة استقامة السياق النحوي

(1) - المصدر السابق (الصمت: ص 58).

والدلالي، وهو مجاز يعود إلى نزعة الاقتصاد في الكلام، مادام المقصود مفهوماً من السياق<sup>(1)</sup>، ومنها الطلب بالمصدر النائب عن عامل محذوف (فعل أمر). ومن توجيهات المخاطب به في المدونة: «تُرِيدُ - وَيُحْكُ - أَنْ تُصِرَّ عَلَى مَا فَعَلْتَ. وَأَنْ تُشِيعَ<sup>(2)</sup> النَّارَ الَّتِي أَشَعَلْتَ. مَهَلًا مَهَلًا فَلَسْتَ لَذَلِكَ أَهْلًا<sup>(3)</sup>».

ويعبر هذا الفعل التلظي عن قوة إنجازية مباشرة، وهي الأمر، مؤشراً عليها بفعل أمر محذوف يدل عليه اللفظ البديل "مهلاً"، ويسهل تقديره بقولنا: مهلاً. أي تمهل، والغرض الإنجازي للفعل اللفظي هو توجيه المخاطب بالأمر يصير على المعاصي التي تزيد النار ذكاءً واشتعالاً، فلا يقوى على احتمالها.

ويظهر الفعل الكلامي "مهلاً مهلاً" في شكل أمر على صورة مصدر منصوب بفعله المحذوف يحمل دلالة حرفية ذات قوة إنجازية، تتمثل في الوجوب، لأن الأمر على حقيقته، لسلطة الأمر ودلالة السياق الداخلي على ذلك من خلال توظيفه ضمائر المخاطب المتصلة، وإغلاظ النصيح مثل قوله: "ويحك" و"ولست لذلك أهلاً"، أي: تمهل فلست قادراً على احتمال النار التي تريد أن تزيدها لظىً وذكاءً بإصرارك على المعاصي.

وبالإضافة إلى صيغ الأمر المعروفة، يعبر المرسل عنه بالألفاظ عدة تدل على معنى الندب بقوله: نذبتك ورعبتك، وافعل فإنه خير لك. وعلى معنى الوجوب بقوله: أوجبت عليك، أو فرضت، أو حثمت فافعل، فإن تركت فأنت معاقب، وما يجري مجراه. وهذه الألفاظ الدالة على معنى الأمر تسمى أمراً<sup>(4)</sup>.

وذكر بعض الأصوليين: [...] أن قول الشارع: أمرتكم بكذا، أو أنتم مأمورون بكذا، أو قول الصحابي: أمرت بكذا، كل ذلك صيغ دالة على الأمر. وإذا قال: أوجبت عليكم، أو فرضت عليكم، أو أمرتكم بكذا، وأنتم معاقبون على تركه، فكل ذلك يدل على الأمر<sup>(5)</sup>.

ولا ينحصر المعجم الدال على الأمر في الألفاظ السابقة الذكر فقط، وإنما يمتد ليستوعب كل لفظ يدل على الأمر. ومنه معجمة "الأمر" في قول الزمخشري: «أَصْفِهِ فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْكَ إِلَّا الْأَصْفَى. وَأَخْفِ دُعَاءَهُ فَقَدْ أَمَرَكَ بِالْإِخْفَا<sup>(6)</sup>»، لم يوجه المخاطب أمراً بصيغة الأمر المعروفة "افعل"، وإنما بالفعل "أمر". وفي التركيب فعل كلامي طلي "أمرك بالإخفا"، ويشتمل فعل التلظي على صيغة أمر غير أصلية

(1) - صلاح فضل، انظر بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 276

(2) - شيع النار: ألقى عليها ما يذكيها وحقيقته اتبع وقودها الدفاق لتشتعل.

(3) - مقامات الزمخشري (الإنباء: ص 40).

(4) - محمد الغزالي، المستصقى من علم الأصول، تحقيق أحمد زكي حماد، دار الميمان، الرياض، السعودية، ص 384

(5) - المرجع نفسه، ص 387.

(6) - مقامات الزمخشري (التهجد: ص 153)

"أمر"، وتعبّر عن قوة إنجازية حرفية، وهي الأمر، المؤشر عليه بالوحدة المعجمية "أمر"، والغرض الإنجازي للأمر هو التأثير في المخاطب وتوجيهه إلى إخفاء الدعاء وعدم الجهر به.

ومنه أيضا الصيغة الصرفية "مأمور" في قول الزمخشري: «فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ مَأْمُورٌ بِالْغَضِّ مِنَ الْبَصْرِ. وَحَذَفِ فَضُولَ النَّظْرِ. وَبِأَنَّ تَجَعَلَ الصَّمْتَ مِنْ ذَيْدِنِكَ وَدِينِكَ»<sup>(1)</sup>، وجّه المخاطب بصيغة اسم المفعول "مأمور" مشتقا من "أمر"، تشتمل الفعل التلّفي "أنتك مأمور بالغض من البصر" على قوة إنجازية مباشرة هي الأمر مؤشرا عليه بصيغة غير صريحة هي "مأمور". والغرض الإنجازي للأمر هو التأثير في المخاطب وتوجيهه إلى غضّ البصر، وحذف فضول النظر، وجعل الصمت ديدنا وديننا في المستقبل. ووظّف المخاطب أفعال التفضيل "ألزم" الذي يدل على الوجوب، فقال: «فَغَيْبَةُ الْأَخِ الْمُسْلِمِ مِنْ تَعَاطِي الْكَاسِ أَحْرَمَ. وَالْإِمْسَاكُ عَنْ عَرْضِهِ مِنْ تَرْكِ الْمَعَاوِرَةِ أَلْزَمَ»<sup>(2)</sup>، حيث عبر المخاطب باللفظ "ألزم" عن معنى صريح ذي قوة إنجازية حرفية، وهي الأمر الدال على الإلزام، كون الأوامر صادرة عن ذي سلطة علمية، والغرض الإنجازي للأمر هو توجيه المخاطب بوجوب ترك غيبة المسلم ولزوم المحافظة على عرضه، فلا يسلقه بلسان حديد.

وتقع بنية الشرط بين الخبرية والإنشائية<sup>(3)</sup>، لكن تمام حسان صنفها ضمن الأساليب الإنشائية<sup>(4)</sup>، وفي هذه البنية يُعلّق معنى بمعنى آخر، ويتوقف حصوله عليه، فيمكن اعتبار ما يتوقف عليه المطلوب أمرا غير صريح في بعض السياقات، كقول الزمخشري: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا يُتَعَلَّمُ. لِأَنَّهُ إِلَى الْعَمَلِ سُلَّمٌ، كَمَا أَنَّ الْعَمَلَ إِلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ ذَرِيْعَةٌ. وَلَوْلَاهُمَا مَا عِلْمٌ عِلْمٌ، وَلَا شَرِيْعَةٌ شَرِيْعَةٌ»<sup>(5)</sup>. يتوقف وجود العلم على التعلّم، والشريعة على العمل بها، لهذا يصيران مأمورا بهما أمرا غير صريح، أي: "تعلّم العلم" و"اعمل بالشريعة" لأن الشرائع إنما نزلت للعمل بها لا لحفظها.

ومن أدوات الطلب الفعلية في اللغة العربية «الأمر بالجار والمجرور، أو بالظرف في سياق الأمر، وذلك اتكاء على المعرفة اللغوية التي في ذهن طرفي الخطاب من معرفة تراكيب الجمل التامة، وبالتالي استلزام الحذف في بنية الخطاب، وبتوظيف المعرفة المشتركة بينهما»<sup>(6)</sup>. ومما وجه به المخاطب بالجار والمجرور قوله:

(1) - المصدر السابق (التوقي: ص 80)

(2) - المصدر نفسه (الصمت: ص 56)

(3) - محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 304.

(4) - انظر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الجزء 2، ص 83. وتمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 244.

(5) - مقامات الزمخشري (العمل: ص 127).

(6) - ابن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، ص 347، 348.

« عَلَى رَسَلِكَ حَتَّى يَنْحَنِي عُضُنُ الْقَامَةِ. وَيَبْرُقَ عُضُنُ الْمَاهِمَةِ. وَتَرَى التُّنُومَةَ نِعَامَةً »<sup>(1)</sup>، ويشتمل التركيب على فعل كلامي مباشر "على رسلك" وهو أمر بشبه الجملة، أي: ترسل، ويحمل دلالة صريحة ذات قوة إنجازية حرفية، والإرشاد والتوجيه، لأن الأمر حقيقي.

كما يحمل الأمر قوة إنجازية مستلزمة، وهي التهكم الذي يصرف إليه السياق الداخلي والخارجي، لأن المخاطب خرق مسلمة الملاءمة (لتكن مشاركتك ملائمة) ذلك أن الأمر "على رسلك" لا يناسب الموضوع لكن مبدأ التعاون بين المتخاطبين يدفع المتلقي إلى البحث عن معنى فرعي مستلزم مسترشداً بالسياق. والتهكم من الوسائل اللغوية التلميحية في التوجيه.

يتهكم المرسل من المرسل إليه، بعد أن استبعد انتهاءه عن صبواته، فأمره متهكما أن يمشي الهويني إلى التوبة حتى ينكس في الخلق، ويصاب بالوهن، فيقعد عن التوبة النصوح.

وتبدأ الحركة في فعل الأمر من الداخل إلى الخارج، من الذهن إلى العالم، إذا يحاول المخاطب أن يوجد به واقعا متصوّراً في ذهنه بالاعتماد على رصيده الفكري المستلهم من روح النصوص الدينية، وخبرات السابقين، والانتقال به من عالم خال من كل خير، إلى عالم حافل بكل برّ، وبمجرد ما يحرك المخاطب ذو السلطة لسانه بالصيغة "افعل"، حتى تجد المخاطب يتحرك في حركة عكسية لواقعه، فيحدث الانقلاب المرجو، ويرتسم الواقع المأمول، ويملاً الكون بالخيرات والمبرات.

وتعكس الأمريات المكتنفة واقعا مريراً، وصورة مجتمعية حالكة، اعترتها الغفلة، والتفريط في حقّ الله، وحقّ النفس، وحقّ المجتمع. وأكثر المخاطب من توظيفها مستهدفاً إيجاد الفرد الصالح والمجتمع الصالح. وتعبّر صيغة "افعل" عن مشاعر المخاطب الإنسانية الرقيقة المشحونة عنفاً، تعكسها أوامر صريحة كثيفة خلت من المجاملة تستهدف إصلاح الفرد والمجتمع.

## 2. التوجيه بالنهي:

النهي من الأفعال الطلبية التوجيهية، وتتمثل إنتاجيته في طلب الكف عن الفعل، أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام، وحقيقته كما عرفه علماء الأصول «استدعاء ترك الفعل بالقول ممن هو دونه على سبيل الوجوب»<sup>(2)</sup>، وقيل في تعريفه أيضاً: «هو قول القائل لغيره: "لا تفعل" على وجه الاستعلاء»<sup>(3)</sup>، وصيغته الأصلية واحدة "لا تفعل"، وهي الفعل المضارع المجرد أو المزيد المجزوم بـ"لا الناهية"، و«هو لطلب

(1) - مقامات الزمخشري، (الارعواء: ص28).

(2) - الشيرازي، شرح اللمع في أول الفقه، مجلد2، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988، ص291.

(3) - أبو المظفر منصور السمعاني، قواطع الأدلة في الأصول، ص 138

الحصول في الخارج، حيث تنقش في ذهنك ثم تطلب أن يحصل له مطابق في الخارج»<sup>(1)</sup> وحقّه الفور. وهو بصيغته الأصلية محذو به حذو الأمر في أنّ أصل استعمال: لا تفعل، أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور، فإن صادف ذلك أفاد الوجوب، وإلا أفاد طلب الترك فحسب<sup>(2)</sup>.

ويلغي ابن القيم التمييز بين النهي والأمر، ويعتبر الأمر حذوا للنهي حال التلفظ به، فإذا نهي المخاطب عن شيء أمر بضده، فيقول: «المطلوب بالنهي فعل الضد، فإنه هو المقدور والمقصود للنهي، فإنه قد ناه عن الفاحشة طلبا للعفة، وهي المأمور بها، وإنما ناه عن الظلم طلبا للعدل، وهو المأمور به»<sup>(3)</sup>، ويعني أن الأمر في النهي فعل متضمن في القول، وهو الذي يمثل مقصدية النهي. ويستعمل النهي لتوجيه الحاضر والغائب بخلاف الأمر الذي يوجه به الحاضر فقط، ويكثر في الخطابات العامة.

ويرى الأصولي «أنّ النهي يقتضي الترك على الفور، وعلى الدوام غالبا، بخلاف الأمر الذي يقتضي فعل المأمور به مرة واحدة، ولا يقتضي الفور إلا بدليل»<sup>(4)</sup>، وصيغة النهي واحدة "لا تفعل"، واستعمالها وحدها قليل في المدونة. وأورد الزمخشري في قوله: «لَا تَخْلُقْ<sup>(5)</sup> أَدِيمَ وَجْهِكَ إِلَّا عِنْدَ مَنْ خَلَقَهُ وَخَلَقَكَ. وَلَا تَسْتَرْزِقْ إِلَّا مَنْ رَزَقَهُ، وَإِنْ شَاءَ رَزَقَكَ»<sup>(6)</sup>.

يعبر الفعل التلفظي "لا تخلق أديم وجهك" و "لا تسترزق إلا من رزقه" عن قوة إنجازية حرفية، وهي النهي الصريح المؤشر عليه بصيغة النهي الأصلية "لا تفعل"، والغرض الإنجازي للفعل التلفظي هو التأثير في المخاطب ليترك فعلا واقعا يقوم به، أي ترك التذلل، وبذل ماء الوجه في الاستجداء والتسؤل. كما يعبر عن قوة إنجازية مستلزمة مقاميا، وهي النصح الإرشاد لأن الغرض الأساسي للنهي في الأصل هو التحريم، وهذان لا يجري عليهما حكم الأصل، إنما هما من الأخلاق التي ينبغي تجنبها، وفعلهما لا يترتب عليه عقاب، ولدلالة المقام والسياق عليه.

وفي المقابل كثر النهي بـ "لا تفعل" في المدونة مؤكدا بـ "نون التوكيد" لتصير "لا تفعلن"، وهو بهذه الصيغة يعد فعلا كلاميا يمكن إدراجه في قسم الطلبات والتقريبات، وهذا مؤشر تداولي على أن النهي هنا يعلو النهي السابق درجة، لأن فيه توكيدا، والتوكيد كان نتيجة لمعرفة المرسل بالمرسل إليه، وبغناصير

(1) - الطيبي، التبيان في البيان، ص 83.

(2) - السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، ص 320

(3) - ابن قيم الجوزية، الفوائد، تحقيق فواز أحمد زمرلي، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر العاصمة، ط1، 2006، ص 237

(4) - أبو المظفر منصور السمعاني، قواطع الأدلة في الأصول، ص 139

(5) - خلق الثوب خلوقه وخلوقا إذا بلي، ومعنى إخلق أديم الوجه وهو بشرته: الذهاب بمائه وطراءته إذا ابتدل بالسؤال.

(6) - مقامات الزمخشري (القناعة: ص73)

السياق جيدا، خاصة وأن المخاطب يُلحّ في طلب الترك من المخاطب لصعوبة تركه، وإزالة ما علق بنفسه من شكوك وأوهام، وإماطة ما خالجهما من شبهات، أو لأنه متردد أو منكر.

ومن الأفعال التوجيهية الدالة على النهي المؤكد قول الزمخشري: (( أَيُّهَا الْعَاقِلُ لَا يُعْجِبَنَّكَ هَذَا الْمَاءُ (1) وَالرُّؤْتُقُ. فَإِنَّهُ صَفْوٌ مَحْبُوبٌ تَحْتَهُ الرَّتْقُ (2). وَلَا يَغْرُنُّكَ هَذَا الرُّوَاءُ (3) الْمُونِقُ (4). فَوَرَاءَهُ الْبَلَاءُ الْمُوْبِقُ (5). ))

يشتمل هذا التركيب على فعلين كلاميين طلييين " لَا يُعْجِبَنَّكَ ... " و " لَا يَغْرُنُّكَ ... "، وهما فعلاعلان يعبران عن قوة إنجازية حرفية هي النهي الصريح الدال عليه بصيغة " لا تفعل "، والغرض الإنجازي من الفعل التلفظي هو طلب ترك الإعجاب ببهارج الدنيا، وترك الاغترار بحسنها. كما يحتمل الخطاب قوة إنجازية مستلزمة مستفادة من سياق الخطاب، وهي النصح والإرشاد.

ويمكن تصنيف الفعلين في مجموعة الأفعال التقريرية حسب تصنيف سيرل لأنّ الفعلين مؤكداان بنون التوكيد الثقيلة، فالقوة الإنجازية للتركيب هي التقرير، والغرض الإنجازي من تأكيد الفعل هو الإلحاح في طلب الترك، وحمل المخاطب على ترك الإعجاب بالدنيا والاعترار بها.

ويؤكد المخاطب للمرسل إليه طلبه بألا يفتتن بزهرة الدنيا وزخارفها، فصفوها مكدر بأذى. وألا يغره حسن منظرها ونضارتها، لأنها دار بلى.

ومثله قوله: (( لَا يَصْدُنُّكَ إِبَارُ (6) السُّحُقِ (7) الْجُبَّارِ (8) عَنِ التَّبْتُلِ إِلَى الْمَلِكِ الْجُبَّارِ (9) )).

اشتمل التركيب على فعل كلامي طليي تقريري " لا يصدنك ... " في صورة نهي صريح، حيث ينهى المتكلم عن انشغاله بالغراسة عن طاعة الله وعبادته. وتتشكل الحمولة الدلالية لهذا الفعل الإنجازي من: قوة إنجازية حرفية، وهي النهي الصريح المؤشر إليه بصيغة " لا تفعل ". وقوة إنجازية مستلزمة مقاميا، وهي النصح والإرشاد.

وتعبر عن النهي بالإضافة إلى صيغته الصريحة المعروفة ألفاظ وتراكيب كثيرة تصنف في خانة النهي

(1) - الماء: البهاء والآس.

(2) - الرتق: الكدر.

(3) - الرواء: المنظر.

(4) - المونق: أتق الشيء إذا عظم حسنه

(5) - مقامات الزمخشري (الرضوان: ص24).

(6) - إبار النخل: أي تلقيحها.

(7) - السُّحُقُ: ج السحوق وهي النخلة التي بعدت في الارتفاع.

(8) - الجُبَّار: العظام الطوال من النخل، الواحدة جبارة.

(9) - مقامات الزمخشري، (الاعتبار: ص48).



غير الصريح، «ومنها: حرم، وحظر، ومنع، ونهى»<sup>(1)</sup>، وودع، وترك، وكفى، ويذكر سيبويه «أن "حسبك" فيها معنى النهي»<sup>(2)</sup>.

نهي المخاطب عن غيبة المسلم باستعمال لفظ يدل على النهي، وهو "أحرم" المشتقة من الحرمة والحرام وهو أبلغ في الدلالة على النهي من صيغته الأصلية، حين قال: «فَغَيْبَةُ الْمُسْلِمِ مِنْ تَعَاطِي الْكَأْسِ أَحْرَمٌ»<sup>(3)</sup>، ويعبر هذا الفعل التلغظي عن فعل إنجازي مباشر، وهو المنع أو النهي، المؤشر عليه بالمعجمة "أحرم"، والغرض الإنجازي منه: هو أن غيبة المسلم أشد حرمة من شرب الكأس، وهو من حيث درجة الشدة في الممنوعات يقع أعلى سلم المنع أو النهي، حيث إن التحريم هو الأكثر شدة من بين الأغراض المتضمنة في المنع أو النهي. فالمخاطب يوازن بين ممنوعين أو منهيين عنهما، وهما الغيبة وشرب الخمر فيجعل الغيبة الأشد حرمة بينهما خلافاً لاعتقاد.

الغيبة شرب الخمر	التحريم	الغيب
	الكرهية التحريمية	
	الكرهية التنزيهية	

ووظف في الفعل اللفظي " «وَأَبُكْ عَلَيَّ مَا مَضَى فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ مِنْ شَبَابِكَ. وَدَعِ الْبُكَاءَ عَلَيَّ الظَّاعِنِينَ مِنْ أَحْبَابِكَ»»<sup>(4)</sup> الوحدة المعجمية "ودع" بمعنى ترك. ليعبر بها عن قوة إنجازية مباشرة، وهي النهي غير الصريح المؤشر له بغير صيغته الأصلية "دع"، كما يمكن تحميل الفعل التلغظي معنى مستلزماً بالاستناد على المقام، والعلاقة بين الطرفين، وهو اللوم، والعتاب، الذي يخدم بطريقة غير مباشرة الاستراتيجية التوجيهية.

والغرض الإنجازي من الفعل اللفظي هو طلب ترك البكاء على أحبائه الراحلين، والبكاء على شبابه الذي أفناه في غير طاعة الله.

(1) - ابن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، ص 351.

(2) - سيبويه، الكتاب، الجزء 1، ص 330

(3) - مقامات الزمخشري، (الصمت: ص 56).

(4) - المصدر نفسه (الطاعة: ص 58).

ونهى كذلك بـ "اترك" وهو طلب يستدعي الترك، وهي دلالة النهي، وإن كان على صيغة الأمر، في قوله: «يا أبا القاسم اترك الدنيا قبل أن تترك. وافركها قبل أن تفرك»<sup>(1)</sup>

كما نهي بـ "حسبك" في الفعل التلظي «حَسْبُكَ مَا أوردَكَ إياه من الموارد. وَمَا صَبَّ في الأعراض من الصَّوَارِدِ»<sup>(2)</sup>. اشتمل التركيب على فعل كلامي مباشر: "حسبك ما أوردك من الموارد" في صورة نهي غير صريح، وقوته الإنجازية هي النهي المؤشّر عليه بالصيغة "حسبك"، وتؤدي معنى مستلزما مقاميا هو اللوم، والغرض الإنجازي من الفعل التلظي هو طلب المتكلم من المخاطب أن يكفّ لسانه عن ثلب أعراض الناس، وأن يكفيه ما أورده من المهالك. وهو بذلك يدعو إلى قيم خلقية، وتربوية تسهم في التماسك الاجتماعي.

ويبدل على النهي ما يفيد تقبيح فعل أو فاعله كالفعل "قبح" أو أحد اشتقاقاته مثل الذي في مقامة الاستقامة «قبيحٌ بمثلِكَ أن يَحيِدَ عن الحقِّ ويَصِيفُ. وبطيشٍ سهْمُهُ عن القرطاسِ ويحيِفُ»<sup>(3)</sup>. ويحمل الفعل التلظي قوة إنجازية مباشرة، وهي النهي غير الصريح المؤشّر عليه بالمعجمة "قبيح" إذ إن تقبيح الفعل يعد من النهي، وإلى جانبها قوة إنجازية مستلزمة، وهي الإنكار لدلالة السياق والمقام عليه، والغرض الإنجازي للملفوظ هو تقبيح حيّد المخاطب عن الحق، وعدوله عنه، وإنكار ذلك عليه.

ومما يفيد النهي وصف ذي السلطة الشيء بأنه شرّ، كقول الزمخشري: «فَرُبَّ كَبِيرٍ منْ عِلْمَاءِ الرَّسِّ»<sup>(4)</sup>. هو شرٌّ من أصحاب الرّس. وكم من ماهرٍ في معرفة الغلّو والتّعدّي»<sup>(5)</sup>. هو من أهل الغلّو في الباطل والتّعدّي»<sup>(6)</sup>. ينجز الزمخشري بالخبر إنشاء طليبا، وفعلا كلاميا توجيهيا ذا قوة إنجازية مباشرة، وهي النهي غير الصريح المؤشّر عليه بالمعجمة "شرّ"، أي: لا تشغل بالعروض. وفي الجزء الثاني حوّل الإنشاء غير الطلبي إلى طلبي وفعل كلامي طلبي ذي قوة إنجازية مباشرة هي النهي المؤشّر عليه بتقبيح الفاعل "هو من أهل الغلو". ينهي الزمخشري المخاطب عن الاشتغال بالعروض لأنها شرّ وغلّو.

ويبدل عليه كذلك ما يستوجب ذمّا أو وعيدا، كقول الزمخشري: «أَيَّةَ نارٍ شَبَّبتَ على كِبِدِكَ إذْ

(1) - المصدر السابق، (الزاد: ص30).

(2) - المصدر نفسه (الصمت: ص57)

(3) - المصدر نفسه (الاستقامة: ص67) .

(4) - الرس: فتحة الذي قبل التأسيس.

(5) - التّعدّي: هو حركة التي للمضمر المذكر التي هي ساكنة في الوقف. "لما رأيت الدهر جمًّا خيلهو" الواو هو التعدي.

(6) - مقامات الزمخشري، (القوافي: ص245)

شَبَّبْتُ<sup>(1)</sup>. وَإِلَى أَيْ عَارٍ نَسَبْتَ نَفْسَكَ حِينَ نَسَبْتُ. وَغَايَةُ الْحَزِي وَالشَّنَارِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْعَارِ وَالنَّارِ. إِنَّ صَاحِبَ الْغَزْلِ وَالنَّسِيبِ. لَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ نَصِيبٍ<sup>(2)</sup>، يعبر الفعل التلظي عن قوة إنجازية مباشرة وهي النهي غير الصريح. كأنه قال: لا تشبب، ولا تنسب، لأنهما سببان موجبان للنار والعار.

وإذا كان المخاطب في " افعل " ينقل تصورا منقوشا في ذهنه اعتمادا على سلطته، ثم يسلمه على السامع الذي عليه أن ينفذ فوراً وآلياً، ليوجد واقعا مطابقاً أو مقارباً لما في الذهن، فإنه في هذه الصيغة " لا تفعل " يعدم بها واقعا سلبياً منحرفاً متجسداً في أفعال المخاطب - حسب تصوره - باعتماد السلطة نفسها، ويريد أن يصحح بها مسارا في مستويات عدة: الديني، والسلوكي، والاجتماعي، والسياسي... وكما سبقت الإشارة، فإن أكثر صيغ النهي أوردها المخاطب مؤكدة في المدونة، وهذا يشي بثقة المخاطب بنجاعة التوجيهات والنصائح التي يسديها إلى المخاطب، وهو مصر على إحداث التغيير في مخاطبه، حريص على أن يزيل ما علق في نفسه من شكوك، وإمالة ما خالجه من شبهات، والتأثير في السامع، ومن ثم تتحقق مقصدية، كما تدل على أن السامع شخصية متأبئة عصية على المخاطب، فهو إما متردد في قبول التوجيهات، وإما منكر لها، ولهذا أكد النهي بأداة أو أكثر. ويواجه المخاطب بالمخاطب مجتمعاً منحرفاً مترفاً لاهياً انشغل بدياه عن أخراه طامعاً في إصلاحه والسير به إلى بر الأمان..

### 3. التوجيه بالتحذير والإغراء:

تستعمل اللغة العادية تداولياً في مواقف اتصالية واقعية، بالاستناد إلى عناصر سياقية تساعد على الفهم، ونجاح الاتصال مجموعة من التواضعات والقواعد، ومنها قاعدة الحذف؛ حين يعمد المتكلم عند صياغة الكلام إلى اختصار العبارات كمياً حين يقدر أن المخاطب قادر على استرجاعها عند التأويل اعتماداً على المعرفة المختزلة في ذهنه، ويمكن يفهم مقاصدها دونه؛ أي «ما يحذف لأنه معلوم من الكلام، وهذا الحذف للاختصار والإيجاز لضرورة السرعة في الحديث»<sup>(3)</sup>، والمقصود هنا التحذير والإغراء. ويظهر البعد التداولي لهذا الأسلوب في الأدوات اللسانية التي يلجأ إليها المرسل كحذف الفعل وفاعله، وذكر المفعول به وجوباً، وتكراره أحياناً، بالإضافة إلى التنعيم الخاص الذي يصاحب التلظ

(1) - التشبيب هو أن يتذكر الشاعر أيام شببته، وأن يقول: ولقد ألهو ولقد أروح وكنت أفعل يقدم هذا قبل الخوض في غرضه، ثم كثر في التغزل في المرأة وذكر محاسنها (معجم الرائد). والنسب هو أن تنسب المرأة ويرفع نسبها ثم اتسع ليدل على الشعر الرقيق المتغزل فيه بالنساء.

(2) - مقامات الرمخشري، (اجتناب الظلمة: ص148)

(3) - علي حجي الصراف، في البراجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2010، ص108

بالأسلوبين، ويميز بينهما، وهو أمر لا يمكن تصوره أو حدوثه إلا في كلام منطوق حيّ، يضاف إليها الوسائل غير اللسانية كمراعاة المقام بكل ظروفه وملابساته، وهما من الأفعال الكلامية صنف الأمريات حسب نموذج سيرل، لأنهما يحملان المخاطب على أداء فعل معين أو تركه، بأسلوب غاية في الإيجاز على قاعدة تقليل الكلام، فإذا رغب المتكلم من المخاطب في أن يتجنب أمراً مكروها أدى رغبته تلك بالتحذير، وإذا أراد منه أن يفعل أمراً محموداً أدى له تلك الرغبة بالإغراء.

أما التحذير، فهو آلية توجيهية توسلها المخاطب لإصلاح حال المخاطب، ويتعلق الأمر بمخاطب حاضر عند إنجاز الفعل التلفظي، وحدّه اللغويون بأنه: «تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليجتنبه»<sup>(1)</sup>، أو «تنبيه المخاطب على أمر يجب الاحتراز منه»<sup>(2)</sup>. ويجذف من بنية التحذير الفعل وفاعله ويقدر: إحذر، بإِزْرٍ، باِعِدْ، نَحِّ، اِتَّقِ، قَهْ (هاء السكت) حسب السياق اللغوي، وله صور عديدة منها<sup>(3)</sup>:  
 أ. ذكر المحذر منه (وهو: الأمر المكروه) اسماً ظاهراً دون تكرار أو عطف.  
 ب. ذكر المحذر منه اسماً ظاهراً مكرراً أو معطوفاً عليه بالواو دون غيرها.  
 ج. ذكر اسم ظاهر مختوم بكاف الخطاب للمحذّر.

د. ذكر اسم ظاهر مختوم بكاف الخطاب للمحذّر، ويعطف عليه المحذر منه بالواو دون غيرها.  
 هـ. ذكر المحذّر ضميراً منصوباً للخطاب هو: إياك وفروعه، وبعده المحذّر منه مسبوقاً بالواو، أو غير مسبوق بها، أو مجروراً بالحرف "من". واعتمد في تحليل هذا الأسلوب على رؤية ابن عاشور لأسلوب التحذير الذي يرى أنه يشتمل على فعلين كلاميين متداخلين: أحدهما التحذير، والآخر الوعيد. وتصور سيرل الذي يرى «أنهما فعلاّن كلاميان الأول مباشر، وهو التحذير، والثاني غير مباشر هو الوعيد»<sup>(4)</sup>. وكثرت صورة التحذير الأخيرة في المدونة، اخترت منها قول الزمخشري: «إِيَّاكَ وَالْمَلَأَحَاتِ»<sup>(5)</sup> فَإِنَّمَا تُوَعِّرُ صَدُورَ الْإِخْوَانِ، وَتُنَبِّئُ أَصُولَ الْأَضْغَانِ، وَتُوقِدُ نِيرَانَ الْفِتْنَةِ وَالشَّرِّ، وَتُوبِسُّ الْأَرْحَامَ الْمَبْلُوءَةَ بِالْبِرِّ»<sup>(6)</sup>، حيث اشتمل الفعل التلفظي "إِيَّاكَ وَالْمَلَأَحَاتِ" على فعلين كلاميين متداخلين:  
 أحدهما: فعل كلامي مباشر يعبر عن قوة إنجازية حرفية، هي التحذير المؤشر عليه بصيغة "إِيَّاكَ"،

(1) \_ عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 2001، ص 152.

(2) \_ ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، الجزء 2، دار القلم، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت) ص 300.

(3) \_ انظر عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 4، ص 126 وما بعدها.

(4) \_ انظر مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 261.

(5) \_ الملاحات: جمع ملاحاة وهي الخصام، والنزاع، والملاومة.

(6) \_ مقامات الزمخشري (أيام العرب: ص 272).

والغرض الإنجازي هو تحذير المخاطب ودعوته إلى ترك الملاحظة، لأثرها السيء على المجتمع فهي تقطع الأرحام، وتفرق بين الإخوان والخلائن.

وثانيهما: فعل كلامي غير مباشر ذو قوة إنجازية ضمنية هي الوعيد بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

والمخاطب إذ يحذر مخاطبه من الملاحظة، يوضح له بالحجة علة التحذير، ويسلك به مسلكا حجاجيا ليؤثر عليه ليرعوى، ويعدل عن سلوكه "توغر صدور الإخوان، وتنبت أصول الأضغان... وتوبس الأرحام المبلولة بالبر" ليصير فعلا كلاميا توجيهيا إيضاحيا (Directif expositif)

و« التحذير باللفظ الصريح أولى وأقوى من صيغته الضمنية. إلا أن المحذر لا يلجأ إليها إلا بعد

استنفاذ سبل الوعظ والنصح الأخرى»<sup>(1)</sup>. كالتحذير بـ "احذر" مثلا، كالتي في قول الرمخشري:

إِذَا كُنْتَ فَرْدًا لَا بَمَرَأَى وَمَسْمَعٍ      مِنْ النَّاسِ فَاخْذَرْ مُنْشَى السَّمْعِ وَالْبَصْرِ ( الطويل )  
وَلَا تَرْتَكِبْ مَا لَوْ ذَرَاهُ ابْنُ آدَمَ      لَبَرَقَ خَدَيْكَ التَّشْوُرُ<sup>(2)</sup> وَالْحَقْفَرُ  
مَسَاوِيكَ تَخْفِيهَا حِذَارًا مِنَ الْوَرَى      أَلَيْسَ إِلَهُ الْخَلْقِ أَخْلَقَ بِالْحَذَرِ<sup>(3)</sup>

يعبر الفعل التلفظي " احذر منشى السمع والبصر" عن قوة إنجازية حرفية هي التحذير الصريح المؤشر عليه بصيغة الفعل " احذر " والغرض الإنجازي لهذا الأسلوب هو تخويف المخاطب حضوريا وشفهيا من عقاب الله وعذابه، وتحذيره من الغفلة عن مراقبة الله. وقوة إنجازية ضمنية، وهي الوعيد، ويعني " ترهيب المخالف والعاصي وتحذيره من عقاب الله، وزجره عما نهي عنه".

ومثله قوله: « واحذر لسانك فإنه سبُعٌ أو أفرسٌ »<sup>(4)</sup>، إذ يشتمل الفعل الكلامي على قوة إنجازية صريحة، وهي تخويف المخاطب وتحذيره من آفات اللسان، لأنه أشد خطرا على صاحبه من السباع العادية، وقوة إنجازية غير مباشرة، وهي الوعيد، أي: إيعاد المخاطب إذا لم يصن لسانه بالعذاب، فقد ورد عن رسول الله ﷺ فيما روى معاذ رضي الله عنه أنه قال له: « أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ »، قلت: بلى يا رسول الله، قال: « رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ »، ثم قال: « أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُفْلُهُ » قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: « كُفٌّ عَلَيْكَ هَذَا » قلت يا رسول الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: « تَكَلَّمْتُكَ أُمَّكَ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ

(1) - انظر ابن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، ص 357.

(2) - التشوُّر: الافتضاح والحزي.

(3) - مقامات الرمخشري (المراقبة: ص181).

(4) - المصدر نفسه (الصمت: 57).

إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»<sup>(1)</sup>.

وأما الإغراء: فهو بدوره أحد آليات التوجيه، وهو حركة عكسية للتحذير، إذ هو تنبيه المخاطب على أمر محبوب ليفعله. وهو كذلك «أمر المخاطب بلزوم ما يحمد [به]»<sup>(2)</sup>، «لا على سبيل الإلزام، وإنما على سبيل الترغيب والتشويق»<sup>(3)</sup>. وهو فعل كلامي يصنفه أوستين في التوجيهات، وله صور عدة منها: أ. ذكر المعرّى به دون تكرار أو عطف (مفرد). ب. ذكر المعرّى به مكررا.

ج. ذكر المعرّى به ومعطوفا عليه بالواو. واستعمل المخاطب صورا قليلة لهذا الأسلوب وردت على صورتين الأوليين، أحصيت حالة واحدة استعمل فيها المعرّى به مفردا في قوله:

والأنسُ أن تنأى عن الإنسِ ( السريع )	الإنسُ مشتقٌّ من الأنسِ
على ذئابٍ منهم طلسٍ	ثيابهم مُلسٌ ولكنها
عنهم وقُلْ أفلتِ يا نفسِ	نفسك فاغنمها وشرِّدِ بها
للفرسِ بينَ الظفرِ والضرسِ <sup>(4)</sup>	إن لم تُشرِّدِها تجدها لقي

يشتمل الفعل التلظي "نفسك فاغنمها" على قوة إنجازية مباشرة هي الإغراء المؤشر عليها بالملفوظ "نفسك" بالاتكاء على المقام والسياق، والغرض الإنجازي هو دعوة المخاطب إلى لزوم النفس، والنأي بها عن ذئاب الإنس، صونا لها حتى تسلم، ولا تكون غرضا يرمى من كل جارحة وكاسرة. بالإضافة إلى قوة إنجازية غير مباشرة وهي الوعد أي وعد من يصلح نفسه بالسلامة في الدنيا والنجاة في الآخرة.

وأما المعرّى به المكرر دون عطف فقد قلّت صوره في المدونة، اخترت منها قول الزمخشري: «يا هذا الجدّ الجدّ فقد بلغت الأشد، وخلفت ثنبة الأربعين، وهزّ القتيير<sup>(5)</sup> لداتك أجمعين»<sup>(6)</sup>. يعبر الفعل اللفظي "الجدّ الجدّ" بدوره عن قوة إنجازية صريحة هي الإغراء مؤشرا عليه بتكيب فعلي لم يذكر فيه إلا المفعول به، وحذف الفعل لأنه مفهوم من الكلام ودلالة السياق عليه "الزم مثلا".

(1) \_ رواه الترمذي.

(2) \_ ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، الجزء2، ص 301

(4) \_ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، الجزء3، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط 18، 1986، ص 16.

(5) \_ مقامات الزمخشري، (العزلة: ص95).

(5) \_ هز القتيير: وخط فيه الشيب وخالطه.

(6) \_ مقامات الزمخشري، (الإنابة: 39).

والغرض الإنجازي الكامن فيه هو التأثير في المخاطب، ودعوته إلى لزوم الجد فيما بقي من حياته بعد أن بلغ أشده، وأوتي رشده، واستحكم عقله، وصرف صفوة عمره في اللهو واتباع الهوى. ويعبر كذلك عن قوة إنجازية أخرى ضمنية هي الوعد، أي: وعد من لزم الجد بالنجاح والفلاح. وكرر المخاطب المغربي به إلحاحا على المخاطب ليلزم الجد في الحياة خاصة، وأنه قد بلغ الأشد فيكون الفعل الكلامي توجيهيا تقريريا (Directif assertif).

ويكون الإغراء والتحذير أيضا بالوصف بالحسن أو القبح، في حدود شروط معلومة، وسياق معين، وينجز المخاطب به فعلا كلاميا غير مباشر، مثل قول الزمخشري: «يا أبا القاسم إن خصال الخير كُتْفَاحِ لبنان. كَيْفَمَا قَلْبَتْهَا دَعَتْكَ إِلَى نَفْسِهَا. وَإِنَّ خِصَالَ السُّوءِ كَحَسَكِ السَّعْدَانِ<sup>(1)</sup>. أُنَى وَجْهَتَهَا نَهَتْكَ عَنْ مَسِيَّتِهَا<sup>(2)</sup>».

ليس المقصود بخطاب الزمخشري مجرد الوصف، بل يرمي إلى إنجاز فعل كلامي طلي أو توجيهي: الزم الخير، احذر الشر. وبهذه الاستراتيجية يمارس المخاطب ضغطا على المتلقي، ويدعوه إلى استخلاص الإغراء والتحذير بنفسه، وهذا أدعى إلى قبوله بالخطاب، ومن ثم تنفيذه، لأنه «مما استخلصه ذهنه، ووصل إليه، وأصبح بذلك محاورا المتكلم ومساهما في إنتاج الأمر والنهي إلى جانبه، ومشاركا له في إصداره<sup>(3)</sup>».

#### 4. التوجيه بالعرض والتحضيض:

قد يوجه المرسل المرسل إليه إلى فعل شيء في المستقبل، سبق إليه فعله في الماضي ولكنه فعل يشوبه النقص، ويعتوره القصور، من وجهة نظر المرسل على الأقل. عندئذ يوجه المخاطب إلى تدارك ذلك النقص بطريقتين مختلفتين من حيث درجة الشدة للغرض المتضمن في القول، ففي العرض يكون الطلب بلين، وفي التحضيض يكون بشدة، كما أنك «في العرض تعرض عليه الشيء لينظر فيه، وفي التحضيض تقول: الأولى لك أن تفعل، فلا يفوتتك<sup>(4)</sup>»، والسياق هو الفيصل بينهما، ومن أدواته في العربية: هلا، ولولا، ولوما، وألا، وألا، وأما، ولو أحيانا.

أ. العرض: هو طلب يشتمل على كثير من التلطف والملاينة والترفق. فهو عند ابن هشام «طلب الشيء

(1) - السعدان نبات تغزر عليه ألبان الإبل، وينبت متفرشا على الأرض، وهو كثير الحسك، ويقال: كأن جنبه على حسك السعدان، إذا كان قلقا متمللا.

(2) - مقامات الزمخشري (المرشد: ص 16).

(3) - انظر خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص 178.

(4) - المرادي، الجنى الداني، ص 382.

بلين<sup>(1)</sup>، أو « هو الترغيب في فعل شيء أو تركه ترغيباً مقروناً بالعطف والملاينة، ويظهر هذا في اختيار الكلمات، وفي نغم الصوت<sup>(2)</sup>، وأحرفه: ألا، وأما، ولو. وهذه الأحرف لا بد أن يليها فعل مضارع ظاهر أو مقدر، « فإن دخلت على الفعل الماضي خلّصت زمنه للمستقبل بشرط أن تكون للعرض، فاللفظ ماض والمعنى مستقبلي كقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾<sup>(3)</sup> أي فلولا ينفر<sup>(4)</sup>. وقد استعمله المخاطب قليلاً في المدونة، ومن ذلك قوله: «حَقُّكَ لَوْ فَطِنْتَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ أُيُّهَا الْجَامِدُ الْبَائِسُ. وَالْقَنُوطُ الْيَائِسُ<sup>(5)</sup>. يحوّل السياق دلالة "فطن" الزمنية إلى المستقبل "يفطن" لأنه عرض. ويشتمل الخطاب على فعل كلامي توجيهي " لو فطنت... " يحمل قوة إنجازية حرفية هي العرض، والمؤشر عليه بالأداة "لو"، والغرض الإنجازي هو طلب لين من المخاطب أن يتفطن لما هو عليه، وأن يستيقظ من الغلظة، ويهرع إلى الأعمال الصالحة.

ب. التحضيض: وهو « طلب مقترن بشدة وعنف، ويظهران غالباً في اختيار كلمات جزلة قوية، وفي نبرات الصوت<sup>(6)</sup>، ومن أدواته: هلاً، ولولا، ولو أحياناً، ولا بد أن يليها فعل مضارع، فإن يليها فعل ماض خلصت دلالته للمستقبل بشرط أن تدل على التحضيض. ومثاله قول الزمخشري في مقامة الحذر: « هَلَّا جعلتها مُثَلَّةً قُدَّامَ نَاطِرِيكَ كَأَنَّكَ تَشَاهِدُ عَيْنَهَا. وَكَأَنَّهُ لَا بَرَزَخَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا<sup>(7)</sup>».

يمثل الفعل التلقضي " هَلَّا جعلتها مُثَلَّةً... " فعلاً كلامياً مباشراً ذا قوة إنجازية مباشرة هي التحضيض، تؤشر عليه الأداة "هلاً"، فالغرض الإنجازي منه هو حضّ المخاطب على تمثّل النار كأنه يرى حقيقتها رأي العين، فيجتنب ما يؤدي إليها.

ويعبر عن قوة إنجازية مستلزمة مقامياً، وهي اللوم والتحذير، أي: لوم المخاطب الغافل عن النار، الغارق في الشهوات وتحذيره من عذابها، بهدف إصلاح حاله، ليحسن مآله.

## 5. التوجيه بالاستفهام:

يرتبط مفهوم الاستفهام بواقع استعمال اللغة، ويعد من الآليات اللغوية التوجيهية، يوجه به المرسل

(1) - ابن هشام، مغني اللبيب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د ط) 2007، ص 75

(2) - مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، الجزء 3، ص 260.

(3) - (سورة التوبة: الآية 122).

(4) - انظر عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 4، ص 514

(5) - مقامات الزمخشري، (النصح، ص 175).

(6) - انظر عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 4، ص 369، و هامش ص 514

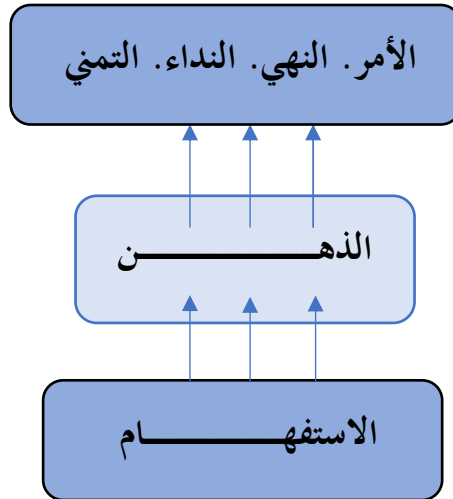
(7) - مقامات الزمخشري (الحذر: ص 44).



المرسل إليه إلى تصور ذهني نسبته معلومة أو مجهولة، ويطلب منه الإجابة عنه، ومن ثم فإن المرسل حسب هذه الآلية يسيطر على مجريات الأحداث، ويسيطر على ذهن المرسل إليه، ويوجه الخطاب نحو الجهة التي يريدتها هو، لا ما يريد غيره، وتعدّ الأسئلة المغلقة من أهم أدوات التوجيه. والاستفهام هو الاستخبار، وهو طلب خبر ما ليس عندك ... ومنهم من فرّق بينهما فالاستخبار ما سبق أولاً، ولم يفهم حق الفهم، فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهاماً<sup>(1)</sup>، و«هو استعلام ما في ضمير المخاطب»<sup>(2)</sup>، وقيل: «هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشئيين، أو لا وقوعها، فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور»<sup>(3)</sup>، والمطلوب حصوله في الذهن، إما أن يكون حكماً بشي على شيء أو لا يكون...<sup>(4)</sup>.

وعند إنعام النظر في التحديدات السابقة للاستفهام سواء أكان استعلاماً أم استخباراً أم سؤالاً أم ترتيباً يتضح لنا:

أولاً: أن حركة المعنى في الاستفهام تتجه من الخارج إلى الذهن، أي من السطح إلى العمق، بينما هي في الأساليب الطلبية الأخرى تتجه من الذهن إلى الخارج، أي من العمق إلى السطح، و«الفرق بين الطلب في الاستفهام، وبين الطلب في الأمر، والنهي، والنداء واضح؛ فإنك في الاستفهام تطلب ما هو في الخارج ليحصل في ذهنك نقش له مطابق وفيما سواه تنقش في ذهنك، ثم تطلب أن يحصل له مطابق، فنقش الذهن في الأول تابع، وفي الثاني متبوع»<sup>(5)</sup>.



(1) - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 326.

(2) - الشريف الجرجاني، التعريفات، ص43

(3) - المرجع نفسه، ص43

(4) - السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، ص303

(5) - المرجع نفسه، ص304.

ثانياً: الاستفهام بوصفه غرضاً إبلاغياً متعلقاً بالتحقق وعدمه في التصور والتصديق معاً، أو بمصطلحات المعاصرين " فعلاً كلامياً استعلامياً" يقوم بوظيفة تواصلية في غاية الأهمية.

ثالثاً: لكي يكون الاستفهام فعلاً كلامياً ناجحاً، بحيث لا يفقد هويته الإنجازية، يصنع أفعالاً اجتماعية، ويحقق شرط الإفادة الذي يتوخى المتكلم إيصاله إلى المخاطب، وضع له النحاة قيوداً تجعله يمكن لهذا المبدأ التداولي (الفائدة) فلا يستفهم عن جملة الشرط، ولا عن الطلب أمراً كان أو نهياً، ولا عن التعجب، ولا عن الدعاء، ولا عن الجملة المؤكدة بـ " أنْ أو إنّ "، ولا يستفهم بـ " هل " خاصة عن اسم بعده فعل، لأن « معنى الاستفهام يتناقض، أو يتنافر على أقل تقدير مع معانيها، ويندرج ذلك في إطار ما جعله سيرل مقوِّضاً للقوة الإنجازية للفعل الكلامي»<sup>(1)</sup>.

ويجعل كثير من الباحثين الحجاجية من وظائف الأساليب الإنشائية، خاصة عندما تعزز حججاً أخرى « والأساليب الإنشائية - ومنها الاستفهام - تضطلع بدور هام في العملية الحجاجية؛ إذ كثيراً ما تنبني الحجة بأسلوب إنشائي، وكثيراً ما تعضد الأساليب الإنشائية حججاً قائمة بالذات»<sup>(2)</sup>. بما توفره من إثارة، وما تثيره من عواطف، ومشاعر، وأحاسيس، وتشحن من ثمة بطاقة حجاجية هامة، لأن إثارة المشاعر ركيزة كثيراً ما يقوم عليها الخطاب الحجاجي، وهو ما أكده بيار أوليران ( Pierre Oléron ) في قوله: « الأمر والتهديد وإثارة مشاعر الخوف كلها حجج، لأنها دون أن تحدد آلياً الموقف توفر الأسباب الداعية لاختيار هذا الموقف»<sup>(3)</sup>

فبالأساليب الإنشائية هي القوالب المناسبة التي تمكن المخاطب من إفراغ المحتويات النفسية والمشاعر القلقة المضطربة، والتوجيهات التربوية، وربط الحوار بينه وبين المتلقي، فيكون لها الصدى، وتكون بأوقع. أعلق وأوقع.

### الاستفهام المباشر والاستفهام المقامي:

إذا استعملت أدوات الاستفهام في معانيها الأصلية (طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل) كان الاستفهام مباشراً أو حقيقياً، أما إذا استفهم عن شيء مع العلم به كان الاستفهام مقامياً، يفهم من سياق الكلام بمعونة قرائن الأحوال، وفي الاستفهام المقامي لا يريد المتكلم الفهم لنفسه، وإنما يريد به تفهيم المخاطب أو السامع. و« يمكن اختزال العناصر التداولية الواصفة لظاهرة الاستفهام في: المخاطب/ الغرض

(1) - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 244.

(2) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 139.

(3) - Oléron Pierre, L'argumentation, Presses universitaires de France, 1993, P21

نقلاً من الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 139 - 140

أو القصد/ والمخاطب/ المقام أو السياق، وبحسب هذه التراتبية وعند استخدام الاستفهام المباشر يستغني المخاطب عن المقام لمعرفة قصد المخاطب، ويكتفي بدلالات لفظية، ولا يعني هذا أن الاستفهام المباشر له مقام معدوم أو محدود، بل المقام عنصر مستهلك في وصف الاستفهام الحقيقي. أما عند استخدام الاستفهام المقامي، فالمقام عنصر جوهري فيه يعتمد عليه المخاطب في فهم غرض المخاطب وقصده<sup>(1)</sup> ولم يحسم اللغويون في تأويل الاستفهام المقامي، فجعلوا للأداة في أسلوب استفهام واحد أكثر من معنى مقامي، أو معنى ضمني، وهذا التعدد المعنوي هو تعدد تنوع وثناء لا تعدد خلط واضطراب - كما يتهيأ لكثير من الباحثين- فالثناء ليس إذن، في خيال المؤول، بل هو في المقام نفسه، والتنوع ليس عائداً إلى اختلاف التأويلات الفردية الخاصة، بقدر ما هو عائداً إلى تنوع الدلالات المقامية.

ولا تعدّ حروف الاستفهام مجرد دلالات ومضامين لغوية، وإنما «هي أفعال كلامية ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف اجتماعية أو ذاتية بالكلمات، أي ترمي إلى التأثير في المخاطب...»<sup>(2)</sup>، ولهذا نجد الأداة الواحدة - شأنها شأن الصيغة - قد تتعدد معانيها، وتستعمل للتعبير عن الفعل الإنجازي المباشر ضمن سياقات محددة، وقد تستعمل للتعبير عن أفعال إنجازية غير مباشرة يستدل عليها من أطر الحديث والسياق ولا سيما السياق الاجتماعي، والمعرفة المشتركة وغيرها، ولقد لاحظ بعض الباحثين أننا نتواصل بالأفعال غير المباشرة أكثر من تواصلنا بالأفعال الإنجازية المباشرة، فالأفعال الإنجازية التي لا تستخدم إلا مباشرة قليلة جداً. وكذلك الحال في المدونة محل الدراسة.

أ. الاستفهام المباشر: وهو استعمال ما في ذهن المخاطب. أو طلب إفهام أو إعلام بما جهل لدى السائل، أي: تكون دلالته حرفية. واستعمله الزمخشري قليلاً في المدونة، ومنه قوله: «فما عُدْرَكَ في أن تُرْقِلَ كُلَّ هَذَا الْإِرْقَالَ<sup>(3)</sup> إِلَى الشَّقَاءِ وَطُولِ الْحَرَمَانِ. وَأَنْ تُغَدَّ<sup>(4)</sup> كُلَّ هَذَا الْإِعْدَاذِ إِلَى النَّارِ وَغَضَبِ الرَّحْمَنِ»<sup>(5)</sup>.

ما دام السياق لا يصرف عن الاستفهام الحقيقي، فإن المتلقي يفهم أن المخاطب يستعلم عمّا في ذهنه عن العذر الذي يمكن أن يبرّر به غيّه وضلاله. ومن هذا المنطلق فإن أسلوب الاستفهام يشتمل على

(1) - خديجة الشنقيطي، تأصيل النظرية الفرضية الإنجازية في الفكر اللغوي العربي القديم من خلال أسلوب الأمر والاستفهام (دراسة

وصفية تحليلية)، جامعة طيبة، المملكة العربية السعودية، 2012، ص 148 وما بعدها

(2) - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 266.

(3) - الإرقال: الإسراع.

(4) - تُغَدَّ: يقال جاء مغدًا أي مسرعاً.

(5) - مقامات الزمخشري، (الرضوان: ص 23).

فعل كلامي مباشر يتألف - حسب تصور جرايس - من:

معنى صريح: استعمال الزمخشري عما يعتذر به المخاطب المرقل إلى النار.

ومحتوى قضوي<sup>(1)</sup>: العذر الذي جعل المخاطب يسرع إلى النار.

وقوة إنجازية حرفية: هي الاستفهام، والمؤشر عليه بـ " ما الاستفهامية " وعلامة الاستفهام (؟)

لكن السياق في النص المكتوب لا يحسم معنى محددًا، فقد يستطيل الاستفهام متجاوزًا الاستعلام عما في ذهن المخاطب، ليفيد معنى مستلزمًا أو أكثر، لذلك يمكن أن نلتمس في الاستفهام السابق دلالة التعجب، والنفي، والعتاب؛ يتعجب الزمخشري من مخاطب يبّر ما يوجب الشقاء والحرمان وعذاب النار، وينفي وجود مبرر وعذر واحد مقبول لما يستجلبها، كما يعاتبه على غيّه وضلاله. وهي القوة الإنجازية المستلزمة للأسلوب الاستفهامي.

وغرض إنجازي: هو استعمال المتكلم عما يعتذر به المخاطب المرقل إلى موجبات الشقاء وعذاب النار.

ب. الاستفهام المقامي (غير المباشر):

وهو الاستفهام الشكلي الذي توسّله المخاطب من أجل الإخبار أو توجيه تعليمات للمخاطب لأن المقصود بهذا النوع من الاستفهام هو المخاطب، ويجرى لتحقيق أغراض تواصلية ووظائف خطابية، ومعان مستلزمة تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال وأطر الحديث. وهي أغلب استفهامات المخاطب في المدونة اخترت منها قول المخاطب: « أَلَيْسَ اللهُ وَحْدَهُ أَجَلٌ مِنَ الْخَلَائِقِ وَأَعْلَى. وَأَخْلَقَ بِأَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ وَأَوْفَى؟ »<sup>(2)</sup>. يشتمل التركيب حسب تصوّر سيرل على فعل كلامي غير مباشر، ويتكون من:

أ. فعل تلقضي: أليس الله وحده أجل من الخلائق وأعلى؟

ب. وقوة إنجازية حرفية: وهو الاستفهام المدلول عليه بصيغة التركيب، ومؤشر عليه بأداة الاستفهام "الهمزة وعلامة الاستفهام (؟)".

ج. وقوة إنجازية مستلزمة: وتتمثل في التقرير، لأن المتكلم يريد من المخاطب أكثر مما قال، بالاعتماد على السياق، ومبدأ التعاون.

د. وغرض إنجازي: وهو تقرير المخاطب بأن الله وحده هو الأجل، وهو وحده الأجدر بالاستحياء منه. والاستفهام قوله: « هَلْ رَأَيْتَ - فِي عُمْرِكَ وَ أَنْتَ بَيْنَ أَلْفِ نَفْسٍ مُسْلِمَةٍ [...] وَقَدْ نَعَقَ<sup>(3)</sup> الْمُؤَذِّنُ -

(1) - وهو مجموع معاني مفردات الجملة مضموم بعضها إلى بعض في علاقة إسناد، أو هو المعنى الأصلي للقضية التي تقوم على

متحدث عنه (مرجع)، ومتحدث به (خبر)

(2) - مقامات الزمخشري، (المراقبة: ص 180).

(3) - نعق المؤذن ونعر: أي رفع صوته بالأذان.

شَخْصًا قَدْ تَحَيَّرَ؟ أَوْ وَجْهًا قَدْ تَغَيَّرَ؟ أَوْ جَبِينًا قَدْ عَرِقَ؟ أَوْ جَفْنًا قَدْ شَرِقَ؟ وَهَلْ شَعَرَتْ بِصَدْرٍ يَزْفَرُ وَقَلْبٍ يَجِبُ؟ وَهَلْ أَحْسَسْتَ أَحَدًا يُؤَدِي بَعْضَ مَا يَجِبُ؟<sup>(1)</sup>

هل رأيت في عمرك شخصا قد تحيّر؟ هذا فعل إنجازي غير مباشر إذ معناه الحرفي هو الاستفهام، وهو مصدر بالدليل الإنجازي (Illocutionary indicator) أو المؤشر "هل" وعلامة الاستفهام، لكن الاستفهام ليس مراد المتكلم، إذ لا ينتظر من المخاطب أن يجير جوابا بنعم أو لا، بل مراده أن يقاسمه نفي الحكم، وهو عدم رؤية مسلم تحير وقد نودي إلى الصلاة، ويظهر إذن، أن الفعل الإنجازي السابق هو فعل إنجازي غير مباشر، إذ تخالف قوته الإنجازية الحرفية (الاستفهام) قوته الإنجازية المستلزمة (النفي) التي هي قصد المتكلم. أي: نفي رؤيته مسلما قد خفَّ إلى الصلاة، وهو يسمع الأذان أو أحدا يؤدي بعض الواجبات، وهذا تصوير للاستهتار بالقيم والتفريط في الواجبات التي وصل إليها المجتمع في العصر العباسي. ومنها قوله: «أَمَّا عِلْمُ الْمَعَانِي فَمَنْ مُسَاجِلُهُ<sup>(2)</sup> وَمُسَانِيهِ؟. وَمَنْ يَغُوصُ عَلَيَّ مَعَانٍ كَمَعَانِيهِ؟»<sup>(3)</sup>

في النص فعل كلامي غير مباشر، وهو النفي، نفي وجود مُبارٍ له ومساجل في علم المعاني، ووجود من تكون معانيه أعمق من معاني فتاه أي ممدوحه، وهو كذلك التعظيم، فلا شك أن من ترفض مباراته ومنافسته عظيم. فالنفي والتعظيم فعلا متضمنان في النص أو مفهومان من خلال السياق، وتتمثل الحمولة الدلالية لهذا الفعل الكلامي في قوة إنجازية حرفية هي الاستفهام المؤشر عليها بأداة الاستفهام "من"، وعلامة الاستفهام، وتنطوي هذه القوة على قوة إنجازية مستلزمة مقاميا هي النفي والتعظيم. ونستنتج من خلال هذا أن أسلوب الاستفهام قد يكون له أكثر من معنى مقامي مستلزم. ومرد هذا إما إلى تحول مقامات الاستعمال، وإما إلى تناسل المعاني المقامية الأصلية إلى معان فرعية متولدة منها، ويسمى الناتج الدلالي حينئذ «معنى معنى معنى الصيغة»<sup>(4)</sup>، وتعلق بالمعاني والمقاصد الضمنية التي تم العدول عن بعضها إلى بعض.

وتتولد عن الاستفهام المقامي معان خبرية، وهي الأكثر استعمالا، كما يعبر عن معان إنشائية أخرى كالعرض، والتحضيض، والتمني، والأمر، والنهي. ومن الإنشاء الذي تولد عن الاستفهام المقامي قول الزمخشري: «هَلْ لَكَ فِي جَادِرِ جَاسِمٍ»<sup>(5)</sup>؟ في الملفوظ فعل كلامي غير مباشر، ويتكون من:

(1) - مقامات الزمخشري، (الحشبة: ص144).

(2) - مساجله: مباريه.

(3) - مقامات الزمخشري (العمل: ص123).

(4) - انظر محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، الجزء2، ص870.

(5) - مقامات الزمخشري، (الإنباء: ص37).

فعل تلفظي: هو " هل لك في جآذرِ جاسم؟ "

قوة إنجازية حرفية: هي الاستفهام المؤشر عليه بدليل القوة الإنجازية " هل " التي تفيد التصديق حصراً،  
وعلاوة الاستفهام؟

قوة إنجازية ضمنية مستلزمة مقامياً: وهي العرض، ويتولد عنه التهكم، والنهي عندما يكتشف المخاطب أن المتكلم قد خرق مبدأ المناسبة، فالطلب لا يناسب تماماً موضوع الخطاب، وهو " الإنابة " فما يدعوه إليه المتكلم غواية، وليس هداية، والمخاطب يفترض أن المتكلم ملتزم بمبدأ التعاون، أي أنه لا يريد به خداعاً، ولا تضليلاً، ليكتشف بعد تضييق المقامات وإقصاء بعضها حتى لا يبقى له أنه لا يريد إلا أن يرغبه في جآذر جاسم، ويعرضها عليه على سبيل التهكم، ومن ثمَّ النهي.

الاستفهام ← العرض ← التهكم ← النهي.

وأما الغرض الإنجازي، فيتمثل في نهي المخاطب عن غيِّه، وترغيبه عن الحسنات، وعدم التشبيب بهن، والمخاطب بهذا يقصد عكس ما يقول.

وفي الجدول أسفله سردية لخطابات استفهامية مقامية أخرى تجنّباً لتكرار التحليلات.

الغرض الإنجازي	القوة الإنجازية المستلزمة	القوة الإنجازية الحرفية	المحتوى القضوي	الفعل التلفظي
لوم المخاطب على تقصيره في جنب الله	اللوم والعتاب	الاستفهام المؤشر عليه بـ " ما " و "؟"	المخاطب مقصر .	يا أبا القاسم العمرُ قصيرٌ، وإلى الله المصيرُ . فما هَذَا التقصيرُ؟ (1).
تعجب المخاطب من المتهالك على الدينا رغم يقينه بفنائها .	التعجب	الاستفهام المؤشر عليه بـ " ما " و "؟"	المخاطب متهالك على الدنيا	مَا لَكَ لَا تَرْفُضُ هَذِهِ الْفَانِيَةَ رَفْضًا؟ (2)
حمل المخاطب على الإقرار بأن الله تعالى وأوليائه ييغضون الدنيا ويمقتونها .	التقرير	الاستفهام المؤشر عليه بالهمزة و "؟"	الله تعالى وأوليأؤه ييغضون الدنيا، ويمقتونها .	ألم تَرَ كيفَ أَبْغَضَهَا اللهُ؟ وَأَبْغَضَهَا أَوْلِيَاؤُهُ؟ وَمَقَّتَهَا وَمَقَّتَهَا أَوْلِيَاؤُهُ؟ (3).
تحقير شأن المخاطب الذي لا يعرف قيمة لباس التقوى على الإطلاق .	التحقير والاستبعاد	الاستفهام المؤشر عليه بـ " أين " و "؟"	المخاطب لا يعرف قيمة حلة التقوى، التي هي أعلى من لباس الذهب .	أَيْنَ أَنْتَ مِنْ الْحُلَّةِ الَّتِي لَا يَعْبَأُ لِابْسِئِهَا بِنَسِيجِ الذَّهَبِ عَلَى كَتِفِي بَعْضِ الْمُلُوكِ؟ (4).
العرض على المخاطب بقبول تلقي خبر عن كل ذليل وحقير مبتذل	العرض والتشويق	الاستفهام المؤشر عليه بالهمزة و "؟"	المخاطب يريد إخبار السامع بكل محتقر ذليل .	ألا أَخْبِرُكَ بِكُلِّ مَهَانَ مَمْتَهَنٍ، فِي قَبْضَةِ الذَّلِّ مَرْتَهَنٍ؟ (5).

(1) - مقامات الزمخشري، (التقوى: ص21).

(2) - المصدر نفسه، (الزهد: ص33).

(3) - المصدر نفسه، (الزهد: ص33).

(4) - المصدر نفسه، (العفة: ص103).

(5) - المصدر نفسه، (العبادة: ص131).

هل شعرت بصدري يزفرُ وقلبٍ يجِبُ؟ وهل أحسستَ أحدًا يؤدي بعضَ ما يجِبُ؟ <sup>(1)</sup> .	إذا كان المخاطب قد شعر بصدر يزفر، وقلب يضطرب	الاستفهام المؤشر عليه بـ "هل" و "؟"	النفى	نفى شعور المخاطب بزفير الصدر، ووجيب القلب، ونفى إحساسه بوجود من يؤدي واجباته.
أَيَّ خَطْبٍ عَلَى رَأْسِهِ غَضِبَ؟ وَلِكِفَايَةِ أَيِّ مُهِمِّ مَنِ الْمُهْمَاتِ نُصِبَ؟ <sup>(2)</sup> .	خطب ألم بالمحكي عنه.	الاستفهام المؤشر عليه بـ "أي" و "؟"	التهويل	التهويل لشأن الخطب الذي ألمَّ بالمخاطب.
فَمَنْ هُمْ إِنْ تَبَصَّرْتَ - يَا غَافِلٌ - جَلَالَتِهِ الَّتِي الْبَصَائِرُ دُونَهَا حَيْرَى؟ <sup>(3)</sup> .	المخاطب يجلُّ المجرمين من دون الله.	الاستفهام المؤشر عليه بـ "من" و "؟"	التحقير	التحقير لشأن المجرمين الذين يجلهم المخاطب دون الله الذي لا تدرك البصائر كنه جلالته.
أَيْنَ عِنكَ زَمَانُ الْإِنْتِهَاءِ؟ <sup>(4)</sup> .	المخاطب لا ينتهي عن الصبوات	الاستفهام المؤشر عليه بـ "أين" و "؟"	الاستبعاد	استبعاد المخاطب زمان انتهاء المخاطب عن صبواته
هَلْ لَكَ فِي جَاذِرِ جَاسِمٍ؟ <sup>(5)</sup> .	إذا كان للمخاطب رغبة في جاذر جاسم.	الاستفهام المؤشر عليه بـ "هل" و "؟"	التهكم والسخرية	التهكم بالمخاطب حين رغبه المخاطب في غواية في مقام الإنابة.

(1) \_ المصدر السابق، (الخشية: ص144).

(2) \_ المصدر نفسه، (العبادة: ص133).

(3) \_ المصدر نفسه، (المراقبة: ص180).

(4) \_ المصدر نفسه، (الارعواء: ص28).

(5) \_ المصدر نفسه، (الإنابة: ص37).



الإنكار على المخاطب إرادته الإصرار على ما فعل.	الإنكار (إنكار توبيخي)	الاستفهام المؤشر عليه بالهمزة و"؟"	المخاطب يريد أن يصبر على ما فعل.	أبعدا عطلت شببتك في التغزل والتشبيب [...] تُريد- ويحك - أن تُصبرَ على ما فعلت؟ (1).
تحسّر المخاطب على ذهاب أيام لهوه بجزوى، وإحياء أيام القيق واللوى.	التحسّر	الاستفهام المؤشر عليه بـ "أين" و "؟"	ذهاب الأيام الخوالي بجزوى، والتذكير بأيام العقيق واللوى	تقول أين أيامنا بجزوى، ومن لنا بأيام العقيق واللوى؟ (2).
كثيرة هي العظاات التي وعظ بها المخاطب لكنه لم يتعظ بها. وكثير شعره الغزلي والمدحي.	التكثير	الاستفهام المؤشر عليه بـ "كم" و "كأين" و "؟"	المخاطب يعظ ولا يتعظ، ويتغزل بالنساء ويمدح الدخيل والنسيب.	وكم من عظة ضرب بها وجهك فوجدتها أبرد من جمد. ووجدتلك أقسى من جلمد؟ (3) وكأين لك من تشبيب ونسيب (4). وتخلص إلى امتداح دخيل أو نسيب؟ ومن كلمة مخزية شاعرة وقافية طنانة ناعرة؟ (5)

يشير هذا الجدول إلى أن المخاطب قد أكثر من الاستفهامات، ولكنها غير استعلامية، وإنما تعبر عن حملات نفسية شتى (سخط، وإعجاب، وتعجب، وتعظيم، وتحقير، وإنكار ... ) انتابت الزمخشري، فانطلق بها لسانه في لحظة يقظة وإبداع، أو يتحسسها المتلقي من خلال المقام، فيكون ذلك إيذاناً له بالفعل أو الترك.

(1) \_ المصدر السابق (الإثابة: ص 40).

(2) \_ المصدر نفسه، (الطاعة: ص 61).

(3) \_ المصدر نفسه، (النصح: ص 176).

(4) \_ النسيب في الشعر: الرقيق منه، المتغزل به في النساء.

(5) \_ مقامات الزمخشري، (اجتناب الظلمة: ص 147).

يجد المتأمل في استفهامات الزمخشري أنه لم يوظفها بدلالاتها الحرفية المباشرة كما في أغلب الأوامر والنواهي، وإنما استعملها ضمنية مقامية في الغالب، لأنه يستهدف بها المخاطب، ليتساق مع الخطاب مع الغرض العام للمقامات وهو الوعظ، والتوجيه، وجلّ الأغراض التي حملها الزمخشري إلى المخاطب هي حمولات نفسية يطلب من المتلقي ملاحظة رسومها عليه كي يعدّل بها سلوكه بالتحلي أو التخلي، ولا يحسم التحليل التداولي للجملة الاستفهامية معنى مقاميا واحدا، فهو يتمدّد أحيانا إلى أكثر من معنى تداولي، لتعدد السياقات في النصوص المكتوبة، وصعوبة تحديد سياق واحد يعوّل عليه عند التحليل.

## 6. التوجيه بالنداء:

وهو أحد آليات التوجيه، ويعني (( طلب إقبال المدعو على الداعي بحرف نائب مناب أدعو))<sup>(1)</sup>، أو هو (( توجيه الدعوة إلى المخاطب، وتبنيه للإصغاء، وسماع ما يريد المتكلم ))<sup>(2)</sup>، وهو (( لطلب الحصول في الخارج، فالمنادي ينقش في ذهنه، ثم يطلب أن يحصل مطابق له في الخارج ))<sup>(3)</sup>، ويصحب النداء - غالبا- الأمر، أو النهي، أو الاستفهام ... وكأن بالمنادي يهيئ شروط نجاح التواصل، حيث ينبّه الذهن، ويحرّك المشاعر، ويعدّ النفس ويهيئها لتلقي تلك المقاصد، فإذا جاء بعده الأمر، أو النهي، أو الاستفهام صادف ذهننا منتبها وحسنا واعيا ونفسا مهياً يقظة واعية، فيقع منها موقع الإصابة. ويرى أبو نصر الفارابي أن المنادى (( لفظة مفردة قرن بها حرف النداء، وإنما يكون حرف النداء من الحروف المصوّتة التي يمكن أن يُمدّد الصوت بها إذا احتيج به إلى ذلك، لبعده المنادى، أو لتقل في سمعه، أو لشغل نفسه بما يذهله عن المنادى ))<sup>(4)</sup>، وأدوات النداء كثيرة، توزعت على المنادى بحسب المقام، ومكانه المادي أو المعنوي من المنادى، يقول ابن مالك:

وَلِلْمُنَادَى النَّاءُ أَوْ كَالنَّاءِ " يَا      وَ أَيْ ، وَ آ " كَذَا " أَيَا " ثُمَّ " هَيَا " .

وَالهَمْزُ لِلدَّائِي، وَ " وَآ " لَمَنْ نَدَب      أَوْ " يَا " وَغَيْرُ " وَآ " لَدَى اللَّبْسِ اجْتُنِبَ <sup>(5)</sup>

ولعل السر في هذا التصنيف الوظيفي لأدوات النداء هو محاولة الربط بين أسلوب الخطاب وواقع الحال، لذا اشتمل ما ينادى به البعيد على حرف مد أو صائت طويل ما عدا " أي " لأن البعيد يحتاج على مد الصوت ليسمع المتلقي حتى ينجح التواصل بين الطرفين. ويرى باحثون أن " يا " مزدوجة السياق

(1) - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الجزء 2، ص 82.

(2) - عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 4، ص 1.

(3) - الطيبي، التبيان في البيان، ص 83.

(4) - أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط 2، 1990، ص 162.

(5) - ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، الجزء 2، ص 255.

تصلح لنداء القريب والبعيد، و" أي " للقريب.

والنداء تركيب طلبى يقصد به تنبيه المنادى، ودعوته للإقبال على المخاطب لإبلاغه أمرا يريد به بأدوات مخصوصة، وهو فعل كلامي يعتبر مدخلا لأفعال كلامية أخرى، هي المقصودة من تنبيه المنادى «فالنداء لا يطلب لذاته، وإنما يطلب لتحقيق غرض آخر أو أغراض أخرى، وعمل النداء من قبيل خاص، فهو ممهّد لسائر الأعمال اللغوية، أو لسائر المعاني والمقاصد وليس من قبيلها»<sup>(1)</sup>

ومما يلفت النظر في مقامات الزمخشري أنها افتتحت كلها بنداء ذاته المخاطبة بالكنية "يا أبا القاسم" إلا واحدة هي "مقامة التسليم"، ولعل السبب في ذلك أنه في جميع المقامات يتوجه بالخطاب إلى ذاته مباشرة فنجد المقصود بالنداء مرتباً بضمير المخاطب متصلاً أو منفصلاً أو مستتراً في أي موضع من المقامة، بينما في هذه المقامة (التسليم) يخاطبه تعريضاً أو تلميحاً، وبطريقة غير مباشرة خلت من أي إشارة إلى المخاطب، ومضمون المقامة لا يناسب صيغة النداء التي تدل على التوقير والتكريم.

وحين خاطب الزمخشري ذاته "يا أبا القاسم"، استعمل فيها جميعاً حرف النداء "يا" الذي يستعمل لنداء البعيد غير أنه نادى بها قريباً - ولهذا كانت نداءته مقامية-، والهدف منها إحداث الصدمة، إما لكون المتلقي نائماً لا يسمع الخطاب بنداء يصدع الأذان فيوقظ المخاطب الغافى، أو أن المخاطب غارق في غيّه ختم على قلبه لا يحركه إلا خطاب عنيف.

والمقصود بالنداء لا يكون إلا طلباً أو خيراً، لذلك أكثر ما ولي النداء في المدونة التوجيه (الطلب)، وهو إما فعليّ، وإما تركيبيّ، صريح أو ضمني.. وفي هذا الأسلوب خاصة أرى أنه يحمل فعلاً كلامياً مزدوجاً أحدهما يتعلق بالأداة والآخر بالمقصود بالنداء أو المنادى له بتعبير النحويين، لذلك لا ينبغي أن نتعسف عند تحليل البنية الخطابية الندائية، ونحمل النداء ما لا يحتمل من معان قد تكون بعيدة عن مقصدية المخاطب، بل نضم إليه عند تحليله جوابه أو المنادى له، باعتبار أن النداء وجوابه وحدة خطابية، وكلاً لا يتجزأ كما يرى اللغويون. لهذا راعيت عند قراءة بعض البنى الخطابية الندائية الافتتاحية أو الدواخلية الواردة في المدونة وتأويلها هذا الاعتبار.

أ. النداء للتنبيه. لم تغب وظيفة النداء عن الدارسين المعاصرين، فهو في نظرية رومان جاكسون (R. Jakobsson) أهم الأساليب التي تحقق الوظيفة الانتباهية (Fonction phatique)، يقول الزمخشري:

أَطْلُبُ أبا القاسمِ الحُمُولَ ودَعُ غَيْرَكَ يَطْلُبُ أسامِيًا وُكُنِّي<sup>(2)</sup>.

(1) - محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية، الجزء 2، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، (د ط)، 2001، ص 681.

(2) - مقامات الزمخشري، (الحمول: ص 210).

على الرغم من قرب المنادى من المخاطب إلا أنه دعاه بما يدعى البعيد، وذلك لمنزلة المخاطب ومكانته الرفيعة عند المنادي.

والنداء ليس مقصودا لذاته، وإنما هو تنبيه للمخاطب وتهيئة ذهنه لما يتلقاه بعده من مقاصد.

- فأما القوة الإنجازية الحرفية للفعل التلغظي "أبا القاسم" هي النداء.

- وأما القوة الإنجازية المستلزمة مقاميا هي التنبيه.

- وأما الغرض الإنجازي فهو تنبيه المخاطب بوجوب طلب الخمول، وعدم طلب الشهرة والذكر الحسن.

ب. النداء للنصح والإرشاد: يقول الزمخشري: «يا أبا القاسم أزل نفسك عن صحبة الناس واعزلها.

وأت فرعة من فراع الجبل فانزلها. ولذ ببعض الكهوف والغيران. بعيدا من الرفقاء والجيران. حيث لا تعلق

طرفك إلا بسوادك. ولا تجر مؤامرتك إلا مع فؤادك. ولا توصل إلى سمعك إلا همسك ومناجاتك»<sup>(1)</sup>.

ويتضمن الخطاب فعلا كلاميا متضمنا في القول، وهو النصح والإرشاد، حيث يحرص المخاطب

على توجيه المنادى بإسداء نصائح توجيهات تضمن له السلامة من الخلق في الدنيا، وتتمثل الحمولة

الدلالية لهذا الفعل الكلامي التوجيهي في:

أ. محتوى قضوي هو نداء المخاطب لإسماعه نصائح وإرشادات فعلية (أزل، وأت، ولد) أو تركية (لا

تجر، ولا توصل)، يجب عليه التقيد بها، ومضمونها هو وجوب اعتزال الناس، والانقطاع للعبادة.

ب. وقوة إنجازية حرفية هي النداء، والمؤشر عليه بالدليل "يا".

ج. وقوة إنجازية مستلزمة مقاميا، هي الوعظ والإرشاد.

ج. التخصيص: ويمثل النداء مرحلة ممهدة سرعان ما تطوى لينتقل المتكلم منها إلى المقصود من الكلام،

وهو المنادى له، واشترط النحاة منذ سيبويه في النداء «أن يكون متقدما على جوابه، وحرصوا على صون

هذا الشرط حرصا دفعهم إلى حمل ما تأخر منه على غير النداء لفوات موضعه، وعدم الحاجة إليه، واعتبروه

من قبيل التخصيص، أو التعظيم، أو غيرهما»<sup>(2)</sup>. ومن النداءات التي انتهكت فيها قاعدة الترتيب قول

الزمخشري: «فبشكر أية نعمة تنهض أيها العبد العاجز»<sup>(3)</sup>.

لما تبين له أن الضمير الفاعل للفعل "تنهض" مبهم، ويدل على عموم يخالطه إبهام يحتاج معه إلى

تخصيص وتوضيح، ولكي يتحدد المقصود به، خصصه بـ "أي" مع منعوتها، فصار المخاطب "الضمير"

معلوما، وهو الزمخشري لا غير. وتتمثل الحمولة الدلالية لهذا الفعل الكلامي "فبشكر أية نعمة تنهض أيها

(1) - المصدر السابق، (العزلة: ص 89)

(2) - انظر محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب ... ص 702

(3) - مقامات الزمخشري، (الشكر: ص 170).

العبد العاجز" في قوة إنجازية حرفية هي النداء المؤشر عليه بأداة نداء محذوفة، وقوة إنجازية مستلزمة مقامياً، وهي التخصيص والتحقيق. أي تخصيص المخاطب بالهوض بشكر النعمة لا غير.

د. النداء للتحقيق: مثل قوله: «إِنْ كُنْتَ يَا هَذَا مِنْ أَهْلِ التَّمْيِيزِ. فَمَيِّزْ بَيْنَ الْحَبْثِ وَالْإِبْرِيْزِ»<sup>(1)</sup>.

ينادي المخاطب قريباً حسناً بما ينادى البعيد "يا" من أجل تحقيق منادى لا يميّز بين جيد مُجد ووديء مُردٍ. وزيادة في الاحتقار والإذلال، عمد المخاطب إلى التكنية عن المنادى باسم الإشارة (اسم مبهم) القريب، ومناداته بما ينادى البعيد للدلالة على انحطاط منزلته درجته، ومن ثمّ هوانه وحقارته. ويتكون هذا الفعل الكلامي من:

فعل تلفظي: إِنْ كُنْتَ يَا هَذَا مِنْ أَهْلِ التَّمْيِيزِ. فَمَيِّزْ بَيْنَ الْحَبْثِ وَالْإِبْرِيْزِ.

وقوة إنجازية حرفية: هي النداء المؤشر عليه بالدليل الإنجازي "يا".

وقوة إنجازية مستلزمة مقامياً: هي التنبيه والتحقيق.

ومحتوى قضوي: هو تحقيقُ مخاطبٍ لا يميز الخير من الشر، والجيد من الرديء.

هـ. النداء للإعجاب: كقول المخاطب: «فَلِلَّهِ ذَرُّهُ مِنْ قِرَى غَيْرِ عَاتِمٍ. وَيَا لَهُ مِنْ جُودٍ يُمَثِّلُ جُودَ حَاتِمٍ»<sup>(2)</sup>.

ورد في هذا الخطاب فعل كلامي غير مباشر، ويتكون من:

قوة إنجازية حرفية هي النداء المؤشر عليه بـ "يا".

وقوة إنجازية مستلزمة هي التعجب (إعجاب).

ومحتوى قضوي. هو إعجاب المخاطب بجود من نوع خاص، لكنه يعادل جود حاتم هو من تلقى ضيفه بشتر يؤنس، وخلق يونق، وتحية تعلقو، وكلمة تحلو.

و. النداء للتذلل والدُّعاء. يقول الزمخشري: «يَا رَبِّ قَدْ فَضَحْتُ نَفْسِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ ... فَلَا تَفْضَحْنِي بَيْنَ

خَلْقِكَ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرِ»<sup>(3)</sup>.

نادى الداعي (المخاطب) القريب بما ينادى البعيد، ذلك أن المنادى جليل القدر خطير الشأن،

فكأن بعد درجته في العظم بعداً في المسافة، ولذلك اختار المتكلم في ندائه الحرف الموضوع لنداء البعيد

ليشير إلى هذا الشأن الرفيع. ويشتمل الخطاب على فعل كلامي غير مباشر "يا رب قد فضحت نفسي فلا

تفضحني" وتتكون حملته الدلالية من:

محتوى قضوي: المخاطب يفضح نفسه، ويريد ألا يفضح. فهو دعوة الداعي ربه متذلاً بان يستره فلا

(1) - المصدر السابق، (الشهامة: ص 204).

(2) - المصدر نفسه، (التصدق: ص 161).

(3) - المصدر نفسه، (الدعاء: ص 158).

يفضحه بين خلقه يوم العرض.

وقوة إنجازية حرفية. هي النداء المصدر بدليل القوة الإنجازية " يا "، وهو حرف النداء.

وقوة إنجازية ضمنية مستلزمة مقاميا. هي التذلل والدعاء.

ويشتمل التركيب على إنشاءين وخبر؛ بعد أن يقر المتكلم مؤكدا بأنه قد فضح نفسه، يدعو ربا في عليائه أن يسدل عليه ستائر الستر فلا يفضحه بين خلقه.

ز. النداء للزجر: في قوله: (( يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَتَّامَ تَلْهُوٍ وَتَلْعَبٍ. وَغُرَابُ الْبَيْنِ فَوْقَكَ يَنْعَبُ ))<sup>(1)</sup>.

نزل المخاطب أبا القاسم منزلة البعيد، وهو منه قريب لأنه غافل عن الأجل القريب، وطالت حياة لهوه ولعبه، وهذا هو الفعل الدلالي للخطاب، ويمثل فعلا كلاميا غير مباشر تتكون حملته الدلالية من قوة إنجازية حرفية هي النداء المؤشر عليه بـ " يا "، وقوة إنجازية مستلزمة هي الزجر. والغرض الإنجازي هو زجر أبي القاسم ونهيه عن إنفاق حياته واستهلاكها في اللهو، وأجله يحوم حوله.

ح. النداء للاستغاثة: يقول الزمخشري: (( وَبِشْرٍ بِنُ حَجْوَانَ لَمْ يَلْقَ مَا لَقِيَ بِقُصْوَانَ. حِينَ أَقْبَلَ عَلَى عَضِّ الْإِبْهَامِ. وَلَمْ يَغْنِ عَنْهُ يَا لِعَجَلٍ وَيَا لَهْمَامٍ ))<sup>(2)</sup>.

اشتمل الخطاب على فعل كلامي غير مباشر " يا لعجل، ويا لهمام "، وتتكون حملته الدلالية من:

- قوة إنجازية حرفية. هي: النداء مصدر بالدليل " يا ".

- وقوة إنجازية مستلزمة مقاميا. هي الاستغاثة.

- وأما الغرض الإنجازي. فهو استغاثة بشر بن حجون عجلا وهما، لكنهما لم يخفيا إليه لينصره فقتل.

ط. النداء للذم: مثل ما ورد في المدونة (( نَادِ أُمَّ الشُّعْرَاءِ يَا حَبَاثِ. وَعَجَلٍ طَلَّاقَهَا بِالثَّلَاثِ ))<sup>(3)</sup>.

وتشتمل هذه البنية الخطابية على فعل كلامي غير مباشر يتكون من قوة إنجازية حرفية هي النداء المؤشر عليه بـ " يا "، وقوة إنجازية مستلزمة مقاميا هي الذم والشتم. ويتمثل الغرض الإنجازي للتركيب في ذم المنادى حين وصفه بالخبت، وعييره بالدون.

ي. النداء للإغراء: مثل قول الزمخشري: (( يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ خِصَالَ الْحَيْرِ كَنْفَاحِ بُنَّانٍ ))<sup>(4)</sup>.

ورد في الخطاب فعل كلامي غير مباشر، وهو النداء المكون من أداة النداء والمنادى، وجواب النداء أو المنادى له، وتشتمل حملته الدلالية على قوة إنجازية حرفية هي النداء المؤشر عليه بأداة النداء " يا "، وقوة

(1) - المصدر السابق، (الصلاح: ص 114).

(2) - المصدر نفسه، (أيام العرب: ص 261).

(3) - المصدر نفسه، (اجتناب الظلمة: ص 149).

(4) - المصدر نفسه، (المراشد: ص 16).

إنجازية مستلزمة مقاميا هي الإغراء، وتشتمل القوة الإنجازية على غرض إنجازي هو إغراء المنادى بفعل الخير لأنه زينة المرء، ودليل على طيبة معدنه، وصدق إيمانه.

ك. النداء للتهويل والتعظيم. كقول الزمخشري: «يا لها محنة ما أضربها. ويا لها فتنة وقى الله شرها»<sup>(1)</sup>. ويشتمل أسلوب النداء على قوة إنجازية غير مباشرة، وهي: التهويل والتعظيم.

ل. النداء للإشفاق: من قوله: «فأذاقك من بلائه مسة خفيفة إلا أنها طحنت يا مسكين متناكب وصلبك»<sup>(2)</sup>.

م. النداء للتوبيخ: وهي القوة الإنجازية غير المباشرة لنداء الزمخشري مخاطبه في الخطاب: «يا خابط

عشوات الغي. ويا صريع نشوات البغي. ويا معطل صفايا عمره. متوليا عن أمر المتولي لأمره. ويا متناقلا

عما يجب فيه الانكماش. ويا آمن كبو ليس بعدها انتعاش... خفض قليلا من غلوائك. وأدل من

معاصاتك لارغوائك. وشتر عن ساق الجد في ترك الهزل...»<sup>(3)</sup>.

إن أسلوب النداء يعتبر بساطا وتمهيدا يؤسس لعملية التخاطب، يحفز المنادى، وينبه ذهنه، ويحرك مشاعره، ويهيئ نفسه لتلقي مقاصده، فإذا جاء بعده الأمر، أو النهي، أو الاستفهام صادف نفسا مهياة يقظة واعية، فيقع فيها موقع الإصابة، وتكون ردة فعلها إيجابية، وهذا ما يؤكد حرص المخاطب على إنجاح عملية التوصل، وتحقيق فائدة الخطاب في المخاطب، وهذه من الوظائف التداولية لهذا الأسلوب.

ويؤدي المخاطب بالأداة أغراضا تداولية أخرى تفهم من السياق كإشعار المنادى بالتحقير أو التعظيم أو التجب أو التعجب أو الذم أو الدعاء وغيره.

ونخلص في نهاية هذا الفصل إلى أن الزمخشري أوسق مقاماته مقاصد عدة ضمنية وصريحة وعلى رأسها المقصد التربوي التوجيهي، ولكي يبلغه المتلقي انتخب له الاستراتيجية التوجيهية تتمثل في الأفعال الكلامية الطلبية وجلها مباشر كما في الأمرات والمنهيات وهذا يعكس الحملة العنيفة التي شنّها على نفسه والمجتمع الغارقين في اللهو والغي، ومعظمها غير مباشر كما في الاستفهام لأنه لا يستعلم لنفسه، وإنما يستهدف به المخاطب، وحرصا منه على تحقيق مقاصده في المتلقي ونجاح التواصل والإبلاغ يجعل لطلباته مهادا ذا وظيفة مزدوجة انتباهية لم تخل منها مقامة، كما لا تعدم الوظيفة التداولية بما تتضمنه من أغراض ومقاصد على غرار أسلوب الاستفهام.

(1) - المصدر السابق، (العزلة: ص 95).

(2) - المصدر نفسه، (الشكر: ص 169).

(3) - المصدر نفسه، (العزم: ص 211).

## الفصل الثاني

# تداولية التركيب النحوي في مقامات الزمخشري

### تمهيد

1 . العلاقة بين النحو والتداولية .

2 . تداولية التركيب النحوي في مقامات الزمخشري .

أ . تداولية التعريف والتنكير في مقامات الزمخشري .

ب . تداولية التقديم والتأخير في مقامات الزمخشري .

ج . تداولية الذكر والحذف في مقامات الزمخشري .



نسعى في هذا الفصل إلى تحليل تراكيب المقامات النحوية من وجهة نظر تداولية، للوصول إلى دلالاتها، والكشف عن المقاصد والغايات التي تصاحبها عند الإخلال بالقواعد النحوية الأصلية، والانحراف عن السنن اللغوية الثابتة كمًّا ورتبة أثناء الأداء اللغوي، يعني أنه يعالج ظواهر التعريف والتنكير، والنفي والإثبات، والذكر والحذف، والتقديم والتأخير وغيرها، وفي كل حالة يرصد المعاني المستلزمة المصانئة للمعاني الحرفية انطلاقًا من تنوع المقامات التي ينجز فيها الخطاب، مع إمكانية استعمال تركيب ما في أكثر من مقام أو سياق واحد، لخصوصية الخطاب المكتوب المفتوح.

### أولاً: النحو والتداولية:

لم يفصل النحاة القدامى والمحدثون بين المبنى والمعنى في التحليل النحوي للجملة. ولم يخل تحليلهم من ملاحظات وشروط تعدد اليوم أهمّ المبادئ التداولية وأبرزها، ومنها مبدأ **القصد**، أي: قصد المتكلم أو غرضه من الخطاب، ومراعاة حال السامع ضمن ما أطلقوا عليه مبدأ **الإفادة**، وهي الفائدة التي يجنيها المخاطب من الخطاب، و**السياق** الذي يؤطر الكلام، ومدى نجاح التواصل اللغوي ...

ولم يفهموا اللغة على أنها مجرد منظومة من القواعد المجردة، وإنما هي لفظ معين يؤديه متكلم معين في مقام معين لآداء غرض إبلاغي (أو تواصلية) معين<sup>(1)</sup>، لذلك جعلوا الهدف من النظم هو تأدية المعنى، وفهم الكلام وإفهامه، وتوخي إفادة المخاطب فحوى الخطاب، وكان هذا المبرر الأساس لوضع علم النحو. فقد حدّه أحد اللغويين بأنه «**معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً**»<sup>(2)</sup>، وبيّن أنّ «**الغرض الأصلي من وضع الكلم هو التركيب، لامتناع وضعها إلا لفائدة، وامتناع الفائدة فيها غير مركبة، لامتناع استعمالها من أجل إفادتها المسميات لاستلزام الدور، لتوقف إفادتها لها على العلم بكونها مختصة بها، غير مستوية النسبة إليها وإلى غيرها**»<sup>(3)</sup>.

ورأى آخر أنّ كلّ ما يمدل به اللسان خبراً كان أم إنشأ، وأفاد فائدة فهو كلام على كل حال: «**أما الكلام فهو كل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه. وهو الذي يسميه النحويون الجمل، نحو زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفي الدار أبوك، وصه، ومه، ورويد، وحاء، وعاء في الأصوات، وحسّ، ولبّ، وأفّ، وأوّه. فكل لفظ مستقل بنفسه، وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام**»<sup>(4)</sup>. وحتى تحديده اللغة ينطوي على قيم تداولية، وأهمها أنّ اللغة ذات قيمة نفعية، فهي وسيلة تواصل وتعبير عن الأغراض «**أما حدّها: فإنّها**

(1) - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2008، ص217.

(2) - السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، ص75

(3) - المرجع نفسه، ص141

(4) - ابن جني، الخصائص، الجزء1، تحقيق عبد الحكيم بن محمد، ص31.

أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»<sup>(1)</sup>، وهو نفسه ما ذهب إليه شارح الألفية عند تفسيره تحديد ابن مالك (ت 672 هـ) الكلام، وما يتألف منه:

كلامنا لفظ مفيد: كاستقم واسم، وفعل، ثم حرف الكلم.

فقال: الكلام المصطلح عليه عند النحاة عبارة عن «اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها»<sup>(2)</sup>، وفي تصور لغويينا ونحاتنا أنه لا تحصل الفائدة من الخطاب على الوجه الذي يغلب على الظن أن يكون مراد المتكلم وقصده. إلا باستيفاء بعض الشروط التي يكون بها الكلام كلاماً أي خطاباً متكاملًا يحمل رسالة إبلاغية وتواصلية واضحة يريد المتكلم إيصالها إلى المخاطب. ومن أهم هذه الشروط التي تحقق الفائدة لدى المتلقي نذكر أمرين:

أ. ثبوت معنى دلالي عام للجمله؛ فالملفوظ لا يسمى جملة ولا كلاماً، حتى يكون له معنى يفهمه السامع، وإلا عُدَّ لغواً، وينبغي أن يكون هذا المعنى أمراً مشتركاً بين الناطقين بذلك اللسان كلهم، بحيث يفهمونه على حد سواء لأن فهمه هو هدف العملية التواصلية.

ب. اكتمال النسبة الكلامية للجمله؛ فتحصل للسامع فائدة من الكلام يكتفي بها، بأن تكون عناصر العبارة معيّنة ودالّة<sup>(3)</sup>.

وهكذا سار النحاة المحدثون على سمت القدامى، حيث عرّف نحويُّ الجملة بأنها «الصورة اللفظية الصغرى للكلام المفيد في أية لغة من اللغات، وهي المركب الذي يبين المتكلم به أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها في ذهنه، ثم هي الوسيلة التي تنقل ما جال في ذهن المتكلم إلى ذهن السامع»<sup>(4)</sup>، وعرف آخر الكلام (أو الجملة) بأنه «ما تركب من كلمتين أو أكثر، وله معنى مفيد مستقل... فلا بد في الكلام من أمرين معاً؛ هما " التركيب " و"الإفادة المستقلة"»<sup>(5)</sup>.

ويتألف الكلام العربي بالضرورة من عمّد (المسندات والمسندات إليها)، فإذا شك لغويونا في عجزها عن إصابة المعنى أو تحقيق الفائدة، تجاوزوا العمّد إلى الفضلات أو التكميلات، لأنها تكمل النسبة الكلامية الأساسية المؤتلفة من أجل توضيح مبهم، أو تفسير مشكل، أو تفصيل مجمل، أو إقناع متردد.

(1) - المرجع السابق، ص 44.

(2) - ابن عقيل، شرح ألفية ابن مالك، الجزء 1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، لبنان، ط 2، (د ت)، ص 13، 14.

(3) - انظرمسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 230 وما بعدها.

(4) - مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1986، ص 31.

(5) - عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 1، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 6، ص 15.

ويعدّ القصد الركن الأساس في عملية التواصل، ويراد به -في تصور النحاة - « الغاية التواصلية التي يريد المتكلم تحقيقها من الخطاب»<sup>(1)</sup>، ولكي يتحقق القصد منه يشترط أن يكون واضحاً حتى لا يضطر المتكلم به إلى الإضافات التوضيحية أو التصحيحية [...]، ومقدوراً على تأويله، وبدوره يجتهد المتلقي في الوصول إلى مقاصد المتكلم، حتى يكتسب التواصل استمراريته، وقد اعتمد النحاة العرب ولا سيما الوظيفيين منهم، على مبدأ مراعاة غرض المتكلم من كلامه بوصفه قرينة تداولية قويّة على مراده في الدراسة اللغوية، فجعله عبد القاهر الجرجاني هذا المبدأ الفيصل بين المعنى المقصود والمعنى اللاحق عند تلقي الخطاب، و« مثال ذلك إن قدرت في بيت أبي تمام:

لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لِعَابُهُ وَأُرْيُ الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ. ( الوافر )

أن " لعابُ الافاعي " مبتدأ، و " لعابُهُ " خبر، كما يوهم الظاهر، أفسدت عليه كلامه، وأبطلت الصورة التي أرادها فيه. وذلك أن الغرض أن يشبه مداد قلمه بلعاب الأفاعي، على معنى أنه إذا كتب في إقامة السياسات أتلّف به النفوس، وكذلك الغرض أن يشبه مداده بأري الجنّى، على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصلوات أوصل به إلى النفوس ما تحلو مذاقته عندها، وأدخل السرور واللذة عليها. وهذا المعنى إنما يكون إذا كان " لعابه " مبتدأ، و "لعاب الأفاعي " خبراً<sup>(2)</sup>، فيجب عند التحليل النحوي للتركيب، ومحاولة تأويلها فهم الغرض من الكلام ومراعاة المتكلم وحال السامع، وإلّا فسد التحليل والتأويل وانقطع التواصل.

ويميز اللسانيون ومنهم سبيربر (Sperber)، وولسن (Wilson) بين نوعين من المقاصد:

أ. المقصد الإخباري: أي ما يقصده المتكلم من نقل معرفة أو معلومة معينة إلى مخاطبه.

ب. المقصد التواصلية: أي ما يقصد إليه المتكلم من حمل لمخاطبه على معرفة مقصده الإخباري<sup>(3)</sup>

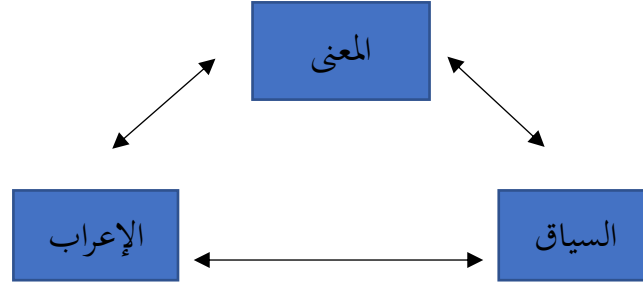
وأما السياق فهو غمامة الدوال، وهو الذي يقود الدوال ويوجهها إلى مدلولات محددة دون الالتفات إلى كل المعاني الممكنة، وهو كذلك مجموع الاعتبارات والظروف التي تصاحب النشاط اللغوي، وتؤثر فيه من الخارج، بحيث لا تتحدد دلالة الكلام، ولا تنكشف أغراض المتكلم إلا في ظلها؛ وفي ظل ارتباطه بها، ويرى هايمس (Haims) أن السياق يضطلع بدور مزدوج فهو يحصر مجال التأويلات الممكنة... ويدعم التأويل المقصود. فالكلمة كما يقول ستيفان أولمان (Stephan Olman) ليست إلا وحدة تدخل في

(1) - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 247

(2) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 371.

(3) - بلقاسم محمد حمام، الملامح التداولية في النحو العربي، مجلة الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، مجلد 26، عدد 2، 2014

تشكيل المعنى، بينما يتحدد المعنى بالسياق، ووجودها لا يتحدد إلا في السياق. و«لما كان معنى الكلام متوقفا بدرجة كبيرة على معرفة سياقه الخارجي والنحوي، فإن الإعراب نفسه الذي هو آلية لتحصيل المعنى يقوم على السياق، ويمكن أن يتغير بتغيره»<sup>(1)</sup>.



والسياق في مجال النحو هو الفيصل في المواضع التي يحتمل فيها اللفظ أكثر من دلالة، كما أنه يغني في مواضع كثيرة عن ذكر اللفظ، بحيث يؤدي الوظيفة التواصلية بامتياز، من ذلك ما ذكره سيبويه، في باب حذف الفعل، رغم أن الفعل عمدة في الكلام، ودونه لا يستقيم<sup>(2)</sup>

ويعنى علم التراكيب (syntax) بـ«دراسة العلاقات الشكلية بين العلامات بعضها مع بعض»<sup>(3)</sup>، أي: يهتم بالتركيب الداخلي للجملة، مركزا بشكل خاص على علاقة عناصر الجملة بعضها ببعض، والتي تحكمها ضوابط وقواعد عرفية لا يجوز الخروج عنها، ومخالفة تلك القواعد والقوالب والخروج عن هيئة التراكيب المألوفة بتقديم أو تأخير أو حذف يؤدي إلى إنتاج دلالة غير صحيحة ولا مقبولة، عندئذ يعمد النحاة إلى تأويل العبارة تأويلا ينسجم مع ما وضعوه من قواعد تصنيفية.

وعلى الرغم من اهتمام علم النحو العربي بتنظيم سياق التركيب الداخلي، إلا أن دوره لا يهمل في مجال التحليل التداولي، فالعلاقات القواعدية التي تسيطر على نص ما، والتي تتحكم في عملية البناء اللغوي، من خلال ترابط عناصره التركيبية، ما هي إلا خطوة أولى نحو عملية التأويل والتفسير، بعد أن يتجاوز حدود المادة اللغوية، إلى ما يحيط بها من ملابسات عامة وقرائن خارجية. ومن المعروف أيضا «أن المعنى النحوي له أهمية كبيرة في عملية التحليل التداولي، فالبعد التداولي حاضر بمجرد ما ندخل لمفهوم القاعدة النحوية، التي تعد نقطة البداية للفهم التداولي، بوصف التداولية هدفا متطورا لدلالة التراكيب»<sup>(4)</sup>.

(1) - إدريس مقبول، البعد التداولي عند سيبويه، ص 255.

(2) - بلقاسم محمد حمام، الملامح التداولية في النحو العربي، ص 109 وما بعدها.

(3) - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 9.

(4) - أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط 1،

ويعد النحو والتداولية حقلين متكاملين في الدراسات اللغوية، إذ «يعتمد التفسير التداولي على المظاهر الاتصالية للغة، فبينما تكون التفسيرات النحوية شكلية أساسا تتحرك التداولية على المستوى الأدائي للجملة. ويعرف المعنى في التداولية بالإحالة على المتكلم أو مستخدم اللغة، بينما المعنى دلاليا يعرف بأنه أحد خصائص الجملة في لغة معينة بصورة مجردة عن موقف معين أو متكلم أو مستمع»<sup>(1)</sup>

وترتبط التداولية ارتباطا وثيقا بعلم الدلالة، إذ يدرس كلاهما المعنى، إلا ان التداولية تعنى بالمعنى والاستعمال الوظيفي للغة، ومن ثم فهي تتناول وظيفة التواصل ومقاصد المتكلم، وما يتحقق لدى المستمع مستعينا بعوامل السياق والمقام، على حين تركز الدلالة على دراسة المعنى من خلال مستويات الدرس الأخرى، والتداولية مثل علم الدلالة تغوص في بحر المعاني، لأن المعنى يدفع المتكلم إلى صياغة التراكيب بكيفية خاصة حتى ينجح التواصل، وتتحقق مقصديته في المتلقي، لأن المتكلم حين يتلفظ بجملة ما فإن يحيل إلى واقع أو إلى حالة الأشياء، أو الموضوعات التي يتحدث عنها، وقد لا يكون هذا الواقع ممثلا في الجملة، ومن ثم يجب أن يؤخذ سياق التلفظ والعناصر الداخلة في تركيب الجملة بعين الاعتبار<sup>(2)</sup>. وإيضاح ذلك نسوق التركيب الآتي: إذا قال لك شخص في سياق محدد: أ هذه سيارتك؟ فالسياق الذي ألقى فيه السؤال لا يدع مجالا للشك في أن " هذه " تشير إلى شيء محدد هو السيارة، وأن الضمير " الكاف " يشير إليك، وعلى الرغم من أنه ليس هناك مشكلة في فهم معنى الكلام (وهو المستوى الأول من معنى المتكلم)، فإنك حتى هذه اللحظة قد لا تكون وصلت إلى معنى المتكلم أو فهم القوة ( Force ) التي تكمن خلف هذا السؤال، هل المتكلم يريد إجابة عن سؤاله بنعم أو لا، أو أنه يخرج عن هذا المعنى الحقيقي إلى مقصود آخر هو التعبير عن اللوم لأن سيارتك سدت طريق المرور على السيارات الأخرى؟ وهذا هو معنى المتكلم<sup>(3)</sup> الذي يمثل مقصديته من الكلام.

وتهتم التداولية بتحديد مكونات القدرة التواصلية، وتذهب إلى عدم تطابق الصيغة النحوية وحدث الكلام، إذ لا علاقة تلازم بين الشكل النحوي للجملة، وما تحققه من حدث كلامي؛ فالجملة وحدة لغوية تتحدد بعناصرها الشكلية، لكن التداولية تدرسها بوصفها وحدة للتواصل، فهي الأداء وليست القدرة، ومثلما درست النظريات اللسانية مستويات الجملة التركيبية، والصوتية، والدلالية للكشف عن مجموعة

(1) - أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2،

2004، ص 187

(2) - نادية رمضان النجار، الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1،

2013، ص 17

(3) - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 13

القوانين العامة التي تتحكم في طبيعة العلاقات بين الكلمات في الجملة. توجهت الدراسات التداولية نحو السياق للكشف عن مجموعة القوانين العامة التي تتحكم بتحديد دلالة المنطوق سياقيا.

وعلى الرغم من أن النحاة شغلوا بالمقال وأصوله التركيبية إلا أنهم عنوا بالمقام الخارجي، وما يحيط بالظاهرة اللغوية من ملابسات تكتنفها تتصل بالمتكلم أو المخاطب أو ظروف الكلام؛ إلا أن هذه العناية جاءت بقدر، وذلك في معرض الكلام عن الفهم والإفهام<sup>(1)</sup>

وأولت التداولية أهمية كبيرة للظروف غير اللغوية المسؤولة عن صحة التعبير، والمتعلقة بالسياق، والمقام، والمتكلمين، ومقاصدهم، ومسوغات الاستعمال، والأفعال اللغوية، وبعبارة التوليديين أصبحت جزءا من دراسة الأداء اللغوي.

**اللحن التداولي:** تقوم بنية الجملة في النحو العربي على ركنين أساسيين هما (المسند والمسند إليه)، وفضلات. وكلٌّ منها تؤدي وظائف ثلاثا؛ تركيبية، ودلالية، وتداولية.

يقوم نظام الجملة الإسمية على: مسند إليه (م إ) + مسند (م) + فضلة(ف).

المبتدأ + الخبر + الفضلة.

ويقوم نظام الجملة الفعلية على: مسند (م) + مسند إليه (م إ) + فضلة(ف).

فعل + فاعل + فضلة.

فعل + نائب فاعل + فضلة.

وفصل الوظيفيون أبواب التراكيب، فجعلوا لكل باب وظيفة أو بُعدا تركيبيا أو دلاليا أو تداوليا. أمّا الأبعاد التركيبية: المبتدأ (ويبنى عليه الكلام)، والخبر (وهو المبني على المبتدأ)، والفاعل (ويبنى عليه الفعل المقدم عليه)، ويشاركه نائب الفاعل (وهو جزء أساسي بعد حذف الفاعل). والمفعول به (ويحتاج إليه الفعل إذا كان متعديا).

وأما الأبعاد الدلالية: الخبر (يصير به المبتدأ كلاما)، والفاعل (هو من قام بالفعل)، والمفعول به (هو ما يقع عليه فعل الفاعل)، والمفعول المطلق (يؤكد الفعل أو يبين نوعه أو عدده). والمفعول لأجله (يبين علة الفعل)، و المفعول فيه (هو زمان أو مكان وقوع الفعل)، والمفعول معه (بعد واو للتنصيص على المعية)، والحال (يبين هيئة صاحبه)، والتمييز (يرفع الإبهام عن جملة أو مفرد)، والمستثنى (إخراج بعض من كلّ)...

(2) - كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي مدخل، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ( د ط ) ( د ت )، ص 97

وأما الأبعاد التداولية: فالمبتدأ (معرفة المخاطب)، والخبر (محط فائدة السامع)، والتمييز (تنبيه المخاطب على المراد بالنص على أحد محتملاته)، والمنادى (طلب إقبال المخاطب بحرف ناب مناب الفعل)، والتوكيد (تمكين المعنى في نفس المخاطب، وإزالة الاحتمال في التأويل)<sup>(1)</sup>.

وقد يعدل عن هذا النظام أفقياً أو عمودياً، فيتمخض عنه حدث لغوي جديد، يتعد بنظام اللغة عن القواعد العرفية، وينحرف بأسلوب الخطاب عن السنن اللغوية الشائعة، فيحدث في الخطاب انزياحاً يحقق للمتلقى متعة وفائدة<sup>(2)</sup>، وهذا من صلب اهتمام الدراسات التداولية النحوية، لكن هذه القواعد مرنة في صرامتها، توظف مستعمل اللغة، وتسمح له بأن يهتك ستارها، ويلحن فيها ليس في مستواها النحوي، أو الصرفي، أو الدلالي، لكن في المستوى التداولي التكلّمي... يُتصرّف في التركيب نظاماً ورتبة مع مراعاة شرط الإفادة والقبول، حيث أحصى سيبويه أقسام الكلام بحسب استعمال الناس له، وعقد له باباً سماه " هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة ". وذكر أنّ الكلام: "منه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب.

فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسأتيتك غدا.

وأما المحال فإن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا، وسأتيتك أمس.

وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر، ونحوه.

وأما المستقيم القبيح فإن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكى زيد يأتيتك...

وأما المحال الكذب فإن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس<sup>(3)</sup>.

واعتبر المنصف عاشور الباب "مجاله الدلالة وسياق التلفظ، وسمى ما حكم به سيبويه على النمط

الثالث "المستقيم الكذب، مثل: حملت الجبل" باللحن التداولي، إذ انخرمت فيه شروط المطابقة بين النسبة

الكلامية والنسبة الخارجية الواقعية، والنسبة العقلية كما يقول البلاغيون والتداوليون<sup>(4)</sup>. وخطّ أبو هلال

العسكري مسالك المتكلمين فيما يكون فيه خطأ المعاني وصوابها لمن يريد أن يتبع رسمه بالاعتماد

أو الامتناع. فيقول مستأنساً بتقسيم سيبويه وأمثله: "والمعاني على وجوه... ومنها ما هو مستقيم قبيح

نحو قولك: قد زيدا رأيت، وإنما قبح لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والاقتراب

والإسهاب وغيرها. ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب مثل قولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر،

(1) - عبد الحميد مصطفى السيد، دراسات في اللسانيات العربية، دار الحامد للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص120 وما بعدها.

(2) - انظر نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، الجزء1، ص205.

(3) - سيبويه، الكتاب، الجزء1، ص25، 26.

(4) - المرجع نفسه، ص246.

ومنها ما هو محال، كقولك: آتيك أمس. وأتيتك غدا [...] وللخطأ صور مختلفة... كقول امرئ القيس:

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبِيعَ الْقَدِيمَ بَعْسَعَسَا      كَأَنِّي أَنَادِي إِذْ أُكَلِّمُ أُخْرَسَا      (الطويل)

هذا من التشبيه الفاسد لأجل أنه لا يقال: كلمت حجرا. فلم يجب فكأنه كان حجرا.

وفي المقابل يُجَوِّد قول كثير عزة في امرأة:

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزُّ كُلُّ مُصِيبَةٍ      إِذَا وَطَّنتَ يَوْمًا لَهَا النَّفْسَ ذَلَّتِ      (الطويل)

كَأَنِّي أَنَادِي صَخْرَةً حِينَ أُعْرَضْتُ      مِنْ الصُّمِّ لَوْ تَمَشَّى بِهَا الْعَصْمُ زَلَّتْ

فشبه المرأة عند السكوت والتغافل بالصخرة ((1)).

ولو نعم النظر في ما هو كذب في قول سيبويه: "حملت الجبل" و"سوف أشرب ماء البحر غدا".

وفي ما هو فاسد وجيد في قول أبي هلال العسكري: "كلمت حجرا"، و"أنادي صخرة"، وجدنا هذه

التركيب صحيحة نحويا، لكنها كاذبة لأنها مخالفة الاعتقاد للخارج، وغير مطابقة للواقع. ولكن عندما

نحاول نتق الجبل، وشق البحر، وفطر الحجر نجدها تلبس مقصد المتكلم القابع فيها.

ويقول أحد الباحثين: ((إن الصدق والكذب تابعان للاعتقاد، فإذا لم يكن القائل معتقدا لقوله، فلا

يمكن الحكم عليه لا صدقا ولا كذبا، إذ ليس الصدق سوى موافقه الاعتقاد للواقع، وليس الكذب سوى

مخالفة هذا الاعتقاد للواقع، بدليل وجود الأقوال المجازية. فلو كان الصدق والكذب لازمين للقول بما هو

كذلك لكان القول المجازي كاذبا على الدوام، حيث إن معناه يخالف ظاهره، وإذا فرضنا أن الغالب على

الكلام الطبيعي أن يكون مجازيا، فقد صار التواصل به في حكم التكاذب، وصار التعامل به في حكم

التخاتل، وليس الأمر كذلك، وما ذلك إلا لأن الأصل في تصديق القول أو تكذيبه هو الاعتقاد الذي

تحتته ((2)).

ويرى موشلر (Moeshler) وربول (Reboul) (( أن المتكلم عندما ينتج المتكلم ملفوظا كاذبا،

فإنه يتلفظ بجملة لها قوة إنجازية (Une force illocutionnaire) إثباتية (Declarative) ومضمون قضوي

(Contenu propositionnel) يعلم المتكلم كذبه، ذلك أنه قادر على تأويله، وهذا يعني أنه قادر على

تحديد شروط الصدق لهذه الجملة [...] وهكذا فالتحديد الكامل لشروط الصدق يمر دفعة واحدة

بسيرورات تداولية، وينتمي إلى سيرورات لسانية وتداولية لتأويل الملفوظ)) (3).

(1) - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 85، 86.

(2) - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 52.

(3) - Dictionnaire Encyclopedique de Pragmatique. Ed. Seuil . p118, 119

نقلا عن إدريس مقبول، البعد التداولي عند سيبويه، ص 249



واهتم النحاة العرب بالأبعاد التداولية للخطاب، وناقشوها في ظواهر كالتعيين والعدول الرتبي والكمّي، والنفي والإثبات وغيرها. لكنني ركزت الدراسة منها على ظاهرة التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف لشيوعها في المقامات.

### ثانيا: تداولية التعريف والتنكير في مقامات الزمخشري:

يعني التعريف تخصيص شيء وتعيينه، وإذا رمت تعريفا له عند جمهور النحاة المتقدمين، فلن تجده واحدا عندهم، وكأنه شقّ عليهم، يقول ابن مالك: «من تعرّض لحد المعرفة عجز عن الوصول إليه دون استدراك عليه»<sup>(1)</sup>، واعترف آخر بأنه يصعب عليه وضع تعريف مضبوط له، ولا أدلّ على ذلك من أن معلّم النحاة الأول شق عليه تعريفه، فحين أراد تعريفه ذكر أنّ «التنكير ضد التعريف»<sup>(2)</sup>، فيكون: التعريف ضد التنكير قياسا على ذلك، وحتى إمام النحاة لم يحدّها، وإنما أشار إليها عندما ذكر المعرف بالألف واللام، وقال: «وإنما صار معرفة لأنك أردت بالألف واللام الشيء بعينه دون سائر أمته»<sup>(3)</sup>، لكن مع ذلك نجد من المتأخرين من لبس ثوب الجراءة، وحدّ المصطلح، فقال: «المعرفة ما وضع ليدل على شيء بعينه، وهي المضمّرات، والأعلام، والمبهمات، وما عرّف باللام، والمضاف إلى أحدهما»<sup>(4)</sup>. وعرفها محمد الجرجاني (ت 729هـ) بتبيان فائدة المعرفة فقال: «إنها (المعرفة) أخصّ من النكرة، وكلما كانت أخصّ، كانت أتمّ دلالةً على المراد، لكونه أقلّ احتمالا لغير المراد من النكرة»<sup>(5)</sup>، وهذا تعريف قريب من تعريف القزويني (ت 739هـ) حيث يربط التعريف بقيمته الإعلامية فمتى كان المسند إليه أوغل في التعريف ازدادت طاقته الإعلامية تماما وقوّة، وكلما كان أقرب إلى النكرة ضعفت إعلاميته، فيقول: «وأما تعريفه (المسند إليه) فلتكون الفائدة أتمّ؛ لأن احتمال تحقق الحكم متى كان أبعد كانت الفائدة في الإعلام به أقوى، ومتى كان أقرب كانت أضعف، وبُعده بحسب تخصيص المسند إليه. والمسند كلما ازداد تخصيصا ازداد الحكم بعدا، وكلما ازداد عموما ازداد الحكم قربا، وإن شئت فاعتبر حال الحكم في قولنا "شيء ما موجود" وفي قولنا: فلان بن فلان يحفظ الكتاب"، والتخصيص كماله بالتعريف»<sup>(6)</sup>.

(1) - ابن مالك، شرح التسهيل، الجزء 1، تحقيق عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر، مصر، ط 1، 1990،

(2) - الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين (مادة ن ك ر)، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية،

(3) - سيبويه، الكتاب، الجزء 2، ص 5

(4) - علي الجرجاني، التعريفات، تحقيق نصر الدين تونسي، شركة القدس للتصدير، القاهرة، مصر، ط 1، 2007، ص 348

(5) - محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دارا لكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2002، ص 39.

(6) - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق عبد الحميد هندراوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 3، 2007، ص 45.

وعرّف عباس حسن التعريف (التعيين) بأنه إزالة ما كان في النكرة من إبهام وشيوع، «والمعرفة اسم يدل على شيء واحد معين»<sup>(1)</sup>

ويكاد النحاة العرب يجمعون على أن اللفظ إنما يدل على التعريف بنفسه أو بقرينة زائدة عليه، و«المعرفة الحقيقية فيما ذكروه من المعارف هو العلم لأنه معرّف من غير الخارج، أي بنفسه، لأن دلالة على التعريف معجمية، أي بالوضع دون أن يعتمد على قرائن السياق والتركيب، أما بقية المعارف فتدل على معيّن بقرينة خارجية»<sup>(2)</sup> على هذا تكون المعرفة تامة وناقصة:

أما التامة: وهي التي تستقل بنفسها في الدلالة الكاملة على معين، كضمير المتكلم، والعلم... وأما الناقصة: وهي التي تحتاج في أداء تلك الدلالة الكاملة إلى شيء معها، كاسم الموصول؛ فإنه يحتاج إلى الصلة دائما<sup>(3)</sup>.

واهتم النحاة العرب بظاهرة التعيين بوصفها عنصرا هاما في إقامة أي تواصل لغوي مفيد، يحقق مبدأ الإفادة كشرط ضروري لعملية التواصل، وبمراعاة هذا القانون اللغوي راحوا يربطون بين مفهوم الإفادة ومقولة التعريف والتنكير في ظواهر وعلاقات نحوية كبرى كالإسناد وغيره، ورجعوا عن التلبس على المخاطب والإشكال عليه بما يعيق عملية التواصل، فقرروا ألا يفتتحوا كلامهم إلا بما تحصل به الفائدة التواصلية لدى المخاطب، وهو المعرفة. وقالوا: إنَّ الأصل في المسند إليه أن يكون معرفة لا نكرة لدى المتكلم والمتلقي على السواء، ولا يستقيم أن تخبر المخاطب عن المنكور، وكرهوا أن يقربوا باب لبس؛ لأنه من الصعب على النفس أن تتصور إثبات حكم لشيء مجهول لديها، إلا إذا كانت لديها معرفة مسبقة بذلك الشيء الذي تريد أن تحكم عليه بثبوت شيء في حقه سلبا أو إيجابا، ويرى سيبويه والنحاة من بعده أنه «لا يبدأ بما يكون فيه اللبس، وهو النكرة، ألا ترى أنك لو قلت: كان إنسان حليما، أو كان رجل منطلقا، كنت تُلبس، لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا إنسان هكذا، فكرهوا أن يبدأوا بما فيه اللبس، ويجعلوا المعرفة خبرا لما يكون فيه هذا اللبس»<sup>(4)</sup>، إذن، الأصل في المبتدأ (المسند إليه) أن يكون معرفة، والأصل في الخبر (المسند) أن يكون نكرة، وذلك لأنه لا فائدة من الإخبار عن النكرة المحضة، والابتداء

(1) \_ عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 1، ص 209.

(2) \_ عبد الجبار توأمة، القرائن المعنوية في النحو العربي، ص 255.

(3) \_ عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 1، هامش ص 213

(4) \_ سيبويه، الكتاب، الجزء 1، ص 48.

\*- يصف الشاعر تغير الزمان واطراح مراعاة الأنساب، والمراد بالألم هنا الأصل. يقول: لا تبالي بعد قيامك بنفسك واستغنائك عن أبويك من انتسبت إليه. وإنما ذكر الحول لذكره الظبي والحمار، لأنهما يستغنيان بأنفسهما بعد الحول. وشاهده كون اسم كان نكرة "ظبي" والخبر معرفة "ألمك".

بالنكرة يؤدي إلى اللبس. لكن هذه القاعدة ليست صارمة ولا تصمد كثيرا أمام الاستعمال، الذي يهزّ النظام، ويسوّغ للمتكلم البدء بالنكرة، وحملهم على ذلك أنه فعل بمنزلة ضرب، وأنه قد يُعلم إذا ذكرت زيدا، وجعلته خيرا، أنه صاحب الصّفة على ضعف من الكلام، كما في ضرب بيت خدّاش بن زهير:

فإنك لا تُبالي بعد حَوْلٍ أَظْبِيَّ كَانَ أُمَّكَ أَمْ حِمَارُ<sup>(1)</sup> (الوافر)

وشاهدُه كون "ظبيّ" اسم كان ورد نكرة، والخبر معرفة "أُمَّكَ".

لأن المتكلم وهو ينجز الفعل التلفظي، يوقع في نظام اللغة اضطرابا، يصبح هو نفسه انتظاما جديدا، وهو من الإمكانيات التي تسمح بها اللغة نفسها، فجاز إذن، الابتداء بالنكرة، مع ضرورة تحقق الثابت هو شرط الإفادة يقول ابن مالك:

ولا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تُفد: كعند زيد نكرة

وهل فتى فيكم؟ فما خِلُّ لنا ورجلٌ من الكرامِ عندنا<sup>(2)</sup>

لأجل ذلك استحسن الاسترأباضي قول القائل: «إذا حصلت الفائدة فأخبر عن أي نكرة شئت، وذلك لأن الغرض من الكلام إفادة المخاطب مضمون الكلام...»<sup>(3)</sup>.

وإذا علمنا أن الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة، فإنه لا يجوز الابتداء بالنكرة المحضة<sup>(4)</sup>، إلا في الشعر - وقد كثر في الشعر الحديث - وفي التراكيب الضعيفة، أو كان خبرها شبه جملة، أو كانت النكرة غير محضة وهي النكرة القريبة من المعرفة، وإنما تقترب النكرة من المعرفة بأحد شيئين:

- اختصاصها، كالنكرة الموصوفة...

- كونها في غاية العموم، نحو: ثمرة خير من جرادة.

ويفرق عبد القاهر الجرجاني بين البنى التركيبية مثل "زيد منطلق" و"زيد المنطلق" و"المنطلق زيد" باعتبار المقاصد والأغراض التي تترشح عن ظاهرة التعريف والتنكير بحسب الأحوال والسياقات فيكون في كل واحد منها غرض وفائدة لا تكون في الباقي فيقول: «اعلم أنك إذا قلت: "زيد منطلق"، كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلاقا كان، لا من زيد ولا من عمرو، فأنت تفيد ذلك ابتداء، وإذا قلت: "زيد المنطلق

(1) - المرجع السابق، ص 48

(2) - ابن عقيل، شرح ألفية ابن مالك، ص 215.

(3) - الاسترأباضي، شرح الكافية في النحو لابن الحاجب، الجزء 1، ص 203.

(4) - النكرة المحضة هي التي يكون معناها شائعا بين أفراد مدلولها، مع انطباقه على كل فرد، مثل كلمة «رجل» فإنها تصدق على كل فرد من أفراد الرجال، لعد وجود قيد يجعلها مقصورة على بعضهم، دون غيره. وتسمى كذلك "نكرة تامة" أي كاملة التنكير، لم تنقص درجة تنكيرها بسبب وجود نعت أو غيره مما يقيد إطلاقها ويخفف إبهامها.

" كان كلامك مع من عرف أن انطلاقاً كان، إما من زيد وإما من عمرو، فأنت تعلمه أنه كان من زَيْدٍ دون غيره ))<sup>(1)</sup>، وهذا يختلف عن قولك " المنطلق زيد " « فإذا قلت: " المنطلق زيد " يكون المعنى حينئذ على أنك رأيت إنساناً ينطلق بالبعد منك، فلم تثبتته، ولم تعلم أزيد هو أم عمرو؟، فقال لك صاحبك: " المنطلق زيد " أي هذا الشخص الذي تراه من بعد هو زيد ))<sup>(2)</sup>. فمدار التفريق بين هذه البنى هي المقاصد والأحوال؛ إذ لكل بنية معناها ومقصدها وغايتها التداولية، ولكل صيغة لفظية وظيفية وإبلاغية توجهها ملابسات الخطاب وأغراضه، ومن أبرز تلك الملابسات والأغراض مراعاة حال السامع والفائدة التي يجنيها المتلقي من الخطاب.

فالخبر الأول ابتدائي لم يعلم السامع من أصله أنه كان، وليس يقدر إن كان عَلِمَهُ، ولكنه لم يصل إلى القطع على أنه كان من زيد دون عمرو، وكان حاله في حاجة إلى من يثبت له لَزَيْدٍ. والثاني إذا كنت قد بُلِّغْتَ أنه كان من إنسان انطلق من موضع كذا في وقت كذا لغرض كذا، فجَوِّزْتَ أن يكون ذلك كان من زيد، فإذا قيل لك " زيد المنطلق " صار الذي كان معلوماً على جهة الجواز معلوماً على جهة الوجوب، ثم إن أرادوا تأكيد هذا الوجوب أدخلوا الضمير المسمى « فصلاً » بين الجزأين، وقالوا: " زيد هو المنطلق " .

ولهذا يرتبط مفهوم التنكير والتعريف ارتباطاً وثيقاً بمدى معرفة المتكلم والمخاطب بموضوع الحديث، فالمتكلم يختار من الوسائل التعبيرية ما يراه دالاً على نقل ما يريد إلى مخاطب يفترض فيه العلم بالشيء المراد أو الجهل به، ولقد أدرك النحاة أيضاً أثر العلم بحال المخاطب في التعريف أو التنكير فلفتوا إلى أن على المتكلم أن يراعي حال المخاطب، فإذا قدر علمه بالشيء استخدمه معرفة، وإذا قدر جهله به استخدمه نكرة ليعلمه به. فإذا ذكر له ما يعرف كان الكلام ضرباً من اللغو. يقول سيبويه: « فإذا قلت: زيد، فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك، وإنما ينتظر الخبر، فإذا قلت " حليماً "، فقد أعلمته مثل ما علمت ))<sup>(3)</sup>.

ويمثل المسند والمسند إليه نموذجاً دقيقاً للوظائف التي يبرز في حدها المعنى التداولي؛ فمعرفة المخاطب المبتدأ واستفادته الخبر بعدان رئيسان لا بد من تمتلئهما عند تعريفهما، ولكون الشائع في استعمال العرب للتركيب الاسمي الأصيل الابتداء بالمعرفة والاختبار عنه بالنكرة، نظر ابتداء الأبعاد التداولية لتعريف المسند

(1) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 177.

(2) - المرجع نفسه، ص 186.

(3) - سيبويه، الكتاب، الجزء 1، ص 48

إليه مكنتين بالشائع في المدونة. فما هي الأبعاد التداولية لتعريف المسند إليه وتنكيره؟ للإشارة فأني لم أكتف عند التحليل بتعريف المسند أو المسند إليه فقط بل تجاوزتهما إلى الفضلات.

### 1. الأبعاد التداولية لتعريف المسند إليه:

أ. تعريف المسند إليه بـ "ال": اختلف النحاة في أصل "ال": أ ثنائية هي أم أحادية؟ وبعبارة أخرى هل الأداة هي "ال"؟ أو اللام فقط؟ أو الهمزة فقط؟ قال النحاة القدامى والمحدثون بالآراء الثلاثة، لكن الأشهر الشائع هو الألف واللام "ال" معاً، وعليه المعتمد في هذه النوع من التعريف، يقول سيبويه: «وأما الألف واللام فنحو الرجل، والفرس، والبعير، وما أشبه ذلك. وإنما صار معرفة لأنك أردت بالألف واللام الشيء بعينه دون سائر أمته، لأنك إذا قلت: مررت برجل، فإنما زعمت أنك مررت بواحد ممن يقع عليه هذا الاسم، لا تريد رجلاً بعينه يعرفه المخاطب، وإذا أدخلت الألف واللام، فإنما تذكّره رجلاً قد عرفه، فتقول الرجل الذي أمره بكذا وكذا؛ لیتوهم الذي عهده ما تذكر من أمره»<sup>(1)</sup>.

والتعريف أو التعيين بالألف واللام نوعان: تعريف عهد، وتعريف جنس، وكلّ منهما ثلاثة أنواع:

أما "ال" العهدية فهي التي تدخل على النكرة فتفيدها درجةً من التعريف تجعل مدلولها فرداً معيناً بعد أن كان شائعاً مبهماً. وهي ثلاثة أقسام<sup>(2)</sup>:

**العهد الذكري:** هو أن يتقدم لمصحوب الألف واللام ذكر يكون نكرة صريحة أو كناية: فما كان فيه المذكور سابقاً نكرة صريحة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا. فَعَصَى فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾<sup>(3)</sup> وما كان نكرة كناية، كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾<sup>(4)</sup>، فـ "الألف واللام" التي في "الذَّكَرُ" للعهد الكنائي، إذ تقدمها مصحوبها كناية في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾<sup>(5)</sup>. ومثله قولك: عرفت قصةً وحديثاً، وبُعثت القصةً والحديث، وتحقق المعرفة العهدية في الخطابين وظيفتين أحدهما نصية والأخرى تداولية:

إذ تعتبر المعرفة العهدية "القصة" بمثابة ضمير يحيل إلى المرجع النكرة السابق "قصة"، و"ال"

(1) \_ المرجع السابق، الجزء 2، ص 5

(2) \_ عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 1، ص 423-324. ومحمود أحمد نحلة، التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل،

دار التوحي للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، (د ط)، 1997، ص 116

(3) \_ (سورة المزل: الآيتان 15، 16)

(4) \_ (سورة آل عمران: الآية 36)

(5) \_ (سورة آل عمران: الآية 35)

هي الرابطة بينهما، والدالة على اتصال الثانية بالأولى اتصالاً معنوياً. فإذا أضفنا إلى الإحالة التكرار كان ذلك سبباً إضافياً يعزز من نصية الخطاب واتساقه.

ويُعَدُّ التخصيص والتعيين من القيم التداولية، التي تسهم في نجاح التواصل، وحدوث الفهم والإفهام، حيث تخصّص المعرفة " القصة " مصحوبها النكرة " قصة "، وتحدد المقصود بها، وتصير معلومة المراد والدلالة بعدما كانت دالة على الشيوع والعموم.

**العهد العلمي (الذهني):** وهو أن يتقدم لمصحوب الألف واللام علم به ومعرفة قديمة قبل ذكره، ويحدد المراد منه، ويحصره في فرد معين. نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾<sup>(1)</sup> وقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾<sup>(2)</sup>، إذ الغار والشجرة معلومان عندهم. ومما دلّ عليه في المدونة قول الزمخشري: « هَكَذَا أَمَرَنِي الْأَمِيرُ وَأَبْجَدُّ مِنْ هَذَا أَوْعَزَّ وَأَشَارَ. وَلَوْ وَصَفْتُ لَكُمْ وَصَايَاهُ إِلَيَّ مَا بَلَغَتِ الْمَعْشَارَ »<sup>(3)</sup>.

يخبر المخاطب المتلقي: أن الأمير الذي أمره وأوصاه معرفة مشتركة سابقة، وأنه يعرفه كما يعرفه هو، هذا الأمير معهود في ذهن المتلقي كما هو معلوم عند المخاطب فـ "الألف واللام" تشير إلى الأمير السابق، وتدل عليه كأنها عنوانه، والمعرفة المشتركة والتعيين أو التخصيص شرط في كل عملية تواصل وإبلاغ ناجحين.

**العهد الحضورى:** وهو أن يكون مصحوب الألف واللام حاضراً وقت التكلم، فيكون ابتداء الكلام خلال وقوع المدلول وفي أثنائه، نحو قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾<sup>(4)</sup> أي اليوم الحاضر، وهو يوم عرفة. قال ابن عصفور: «ولا تقع هذه إلا بعد أسماء الإشارة نحو: "جاءني هذا الرجل" أو "أيّ" في النداء نحو: يا أيُّها الرجل " أو إذا الفجائية نحو: "خرجت فإذا الأسد" أو في اسم الزمان الحاضر "الآن" انتهى»<sup>(5)</sup>، و"الساعة"، و"الليلة"، و"اليوم". وتوسع باحثون في العهد الحضورى، وقالوا بأنه ما انطبق عليه التحديد لا حصر حاصر، كأن تقول لمن لم تره من قبل، ولم يتقدم له ذكر في الكلام: لا تشتم الرجل، وكان الرجل حاضراً مشاهداً، فتكون للعهد الحضورى. ومما استعمل فيه المخاطب " ال " للعهد الحضورى

(1) \_ (سورة التوبة: الآية 40)

(2) \_ (سورة الفتح: الآية 18)

(3) \_ مقامات الزمخشري، (العبادة: ص 133)

(4) \_ (سورة المائدة: الآية 3)

(5) - ابن هشام، مغني اللبيب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2007، ص 56.

قوله: (( وَاَعْلَمُ أَنَّكَ إِنْ تَعَصَيْهَا (النفس) السَّاعَةَ تَجِدُهَا بَعْدَ سَاعَتِكَ مِطْوَاعَةً ))<sup>(1)</sup>.  
 وقوله: (( وَذَلَّ لِرَبِّكَ الْيَوْمَ تَعَزَّ غَدًا. وَتَعَنَّ أَيَّامًا قَلِيلًا تَسْتَرْحُ أَبَدًا ))<sup>(2)</sup>.

يدل اسما الزمان "الساعة" و"اليوم" على حصول دلالتها الزمنية وتحقيقها، عند إنجاز الكلام، فإنجاز الخطاب؛ التوجيه بمعصية النفس والتذلل لله كان خلال وقوع اسمي الزمان السابقين وفي أثنائهما. ويحمل الدلالة نفسها المشار إليه والمنادى المعرفان بـ "ال" كما في قول الزمخشري: (( فَبِشْكْرِ آيَةِ نِعْمَةٍ تَنْهَضُ أَيُّهَا الْعَبْدُ الْعَاجِزُ. هَيْهَاتَ قَدْ حَجَزْتَ دُونَ ذَلِكَ الْحَوَاجِزِ ))<sup>(3)</sup>. ينكر المخاطب على عبد كفور جحود مخاطب مائل بين يديه قد عجز عن أداء واجب الشكر أو قصر فيه.  
 وقوله: (( إِذَا دَعَا أَحَدَكُمْ هَذَا الْمَلِكُ الْمُسْتَوِي، وَالسُّلْطَانُ الْمُسْتَعْلِي. رَاعَهُ ذَلِكَ رَوْعًا عَجِيبًا. وَامْتَلَأَ قَلْبُهُ زَفْرَةً وَوَجِيبًا. وَعَرَّتَهُ الرَّعْدَةُ وَالرَّعْشَةُ كَأَنَّهَا دُهِبِي وَشُغِلَ عَنْ نَفْسِهِ شُغْلًا ))<sup>(4)</sup>. يدل مصحوب "ال" "ملك" و"سلطان" على أنهما حاضران لحظة إنتاج إلى المخاطب.

وفي هذا الخطاب تتجلى النزعة العقلية للزمخشري، حيث وجه المخاطب باستعمال القياس، فإذا كان هذا حالك عندما يدعوك السلطان، ويتملكك الخوف والروع، وتعروك الرعدة والرعدة، من باب أولى أن يكون هذا حالك عندما يدعوك ملك الملوك والسلاطين الذي خلقك وخلقهم، ورزقك ورزقهم وهو الله تعالى. وليس أتم للفائدة إذن، من تواصل حاضر فيه المتلقي بين يدي مخاطبه عند إنتاج الخطاب.  
 وأما "ال" الجنسية فهي التي تدخل على نكرة فتفيد تعريف الجنس كله لا لتعريف فرد منه، وهي ثلاثة أنواع من ناحية دلالتها المعنوية<sup>(5)</sup>:

1. "ال" الاستغراقية ( استغراق الجنس): وهي التي تدخل لاستغراق الأفراد كلهم، وتشملهم وتحيط بهم إحاطة حقيقية لا مجاز فيها ولا مبالغة، وهي التي يصح إحلال "كل" محلها دون أن يتغير المعنى، أو الاستثناء مما دخلت عليه؛ لأنَّ المستثنى لا بد أن يكون جزءا من المستثنى منه؛ نحو قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾<sup>(6)</sup> ،

(1) \_ مقامات الزمخشري، (العفة: ص 101)

(2) \_ المصدر نفسه (العبادة: ص 134).

(3) \_ المصدر نفسه (الشكر: ص 170)

(4) \_ المصدر نفسه (الحشية: ص 141).

(5) \_ عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 1، هامش ص 426.

ومحمود أحمد نحلة، التعريف والتكثير بين الدلالة والشكل، ص 121.

(6) \_ (سورة العصر: الآيات 1-3)

أو يصح نعتة بالجمع ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾<sup>(1)</sup>، وذلك أن المعنى في قولك: " الشجاع موقى "، أنك تثبت الوقاية لكل ذات من صفتها الشجاعة، فهو في معنى قولك: الشجاعان كلهم مَوْقُونَ... ولكني أريد أنك تجعل الوقاية تستغرق الجنس، وتشمله، وتشيع فيه<sup>(2)</sup>. ومثلها في المدونة قول الزمخشري: « فَعَيَّبَةُ الْأَخِ الْمُسْلِمِ مِنْ تَعَاطِي الْكَأْسِ أَحْرَمَ. وَالْإِمْسَاكُ عَنْ عَرْضِهِ مِنْ تَرَكِ الْمُعَافَرَةِ الْأَزْمَ. إِنَّ الْمَغْتَابَ فَضُّ اللَّهِ فَمَه. يَأْكُلُ لَحْمَ الْمُغْتَابِ وَيَشْرَبُ دَمَهُ »<sup>(3)</sup>

إن " ال " المتصلة المغتاب يمكن تعويضها بـ " كل " الدالة على الشمول، فيصير التركيب: إن كل مغتاب فض الله فمه يأكل لحم أخيه... نهي الزمخشري المخاطب وحذره من غيبة كل أخ مسلم، لأنها شهوة الهدم، ودليل على الخسة والجن.

ومثلها قوله: « لَنْ يَرْجَحَ فِي الْمِيزَانِ الْمَدْخُولُ الْمُتَّحِلُّ. وَلَنْ يَجُوزَ عَلَى الصِّرَاطِ إِلَّا الْمُنْحُولُ الْمُتَّحِلُّ »<sup>(4)</sup>، نفي الرجحان في الميزان عام يستغرق كل مدخول به فساد، كما أن إثبات المرور على الصراط يشمل كل منخول.

2. " ال " الكماليّة (استغراق الصفات والخصائص): وهي التي تدخل على واحد من الجنس فتجعله يستغرق خصائص الأفراد، أو لشمول بعض ما يصلح له اللفظ، وضابطه أن يصح فيه وقوع " كل " موقع الألف واللام مجازاً ومبالغة لا حقيقة، فالأول كقولك: أنت الرجل علما، أي الكامل في هذه الصفة؛ إذ لو قيل: أنت كل رجل علما لصح على المجاز، بمعنى أنه اجتمع فيه كل ما تفرق في غيره من حيث كماله في العلم، ولا اعتداد بعلم غيره لقصوره عن رتبة الكمال.

والثاني لو قلت: جمع الأمير الصاغة، فـ " كل " تقع موقع الألف واللام مجازاً، ولكن ليست لشمول الخصائص، وإنما لشمول بعض ما يصلح له اللفظ، وهو صاغة بلد الأمير أو صاغة مملكته دون من عداهم، وهذا النوع يشتهر بما سبق، وما يعول عليه في التحليل النحوي إنما هو السياق وحده. ومثاله الألف واللام المتصلتان بالاسم " لباس " من التركيب « وَمَا هِيَ إِلَّا لِبَاسُ التَّقْوَى الَّذِي هُوَ اللَّبَاسُ »<sup>(5)</sup> دخلت " ال " على " لباس "، وأراد به أنه اختبر كل الألبسة، فلم يجد الستر الذي وجدته في التقوى في كل الألبسة مجتمعة، وهذا يعني أن لباس التقوى هو اللباس الكامل مبالغة.

(1) \_ (سورة النور: من الآية 31)

(2) \_ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 196

(3) \_ مقامات الزمخشري (الصمت: ص 57).

(4) \_ المصدر نفسه (الإخلاص: ص 120)

(5) \_ المصدر نفسه (العفة: ص 103)



ومثله قوله: « وَالْحُرُّ عَزُوفٌ عَزُوفٌ. لِمَوَارِدِ السُّوءِ عَيْوُفٌ »<sup>(1)</sup>. أي الإنسان الكامل الحرية، هو الذي يجمع الحرية من أطرافها ويخلص جوهرها، ويُرسِّخ فيه أصلها، واجتمع فيه كل ما تفرق منها في الناس، ولا اعتداد بحريه غيره لقصورها عن رتبة الكمال على سبيل المجاز والمبالغة. فيبين له أنه اختبر الحرية في كل الناس، فلم يجد أحدا بينهم من هو أكمل حريةً مثلما تصورها في إنسان يحيا مترفعا عما يزري به صبورا يكره أن يرد موارد السوء.

**3. "ال" الحقيقية أو الماهية أو الطبيعة:** وهي « التي تفيد أن الجنس يراد به حقيقته القائمة في الذهن، ومادته التي تكون منها في العقل بغير نظر إلى ما ينطبق عليه من أفراد قليلة أو كثيرة، ومن غير اعتبار لعددها، أو لصفة عرضية طارئة عليها »<sup>(2)</sup>، كقولك الرجل خير من المرأة، أي جنس الرجال من حيث هو خير من المرأة ولا تريد أن كلَّ رجل خير من كل امرأة، ونحو قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾<sup>(3)</sup> أي جعلنا كل شيء من هذه الحقيقة " الماء " لا من ماء آخر، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبُّ ﴾<sup>(4)</sup> أي الذئب الحيوان المعروف لا ذئب بشري. ومن أمثلة " ال " الدالة على الحقيقة والماهية المتصلة بالاسمين: " الحجر " و " الصخرة " في قول الزمخشري: « وَكَمْ مِنْ عِظَةٍ ضُرِبَ بِهَا وَجْهٌ فَوَجَدَهَا أَبْرَدَ مِنْ جَمْدٍ. وَوَجَدْتُكَ أَقْسَى مِنْ جَلْمَدٍ. لَمْ تُعْتَصِرْ مِنْ جَبِينِكَ رَشْحَةً مِنْ حَيَاءٍ، وَلَا مِنْ وَجْتِكَ قَطْرَةً مِنْ مَاءٍ، عَلَى أَنَّ الْحَجَرَ الصَّلْدَ قَدْ بَيَّضُ. وَالصَّخْرَةَ الصَّمَاءَ قَدْ تَبَيَّضُ »<sup>(5)</sup>. ف " ال " المتصلة بـ " حجر " و " صخرة " تفيد الدلالة على حقيقتيهما القائمة في الذهن، ومادتهما التي تكوِّنا منها، فهما الحجر والصخرة المعروفان في الحقيقة لا غير.

ومثلها " ال " المتصلة بكلمة "جمرة" في قوله: « هَذَا وَإِنَّ الْجَمْرَةَ وَالْقَطْرَةَ »<sup>(6)</sup> كِلْتَاهُمَا هِنَةٌ يَسِيرَةٌ. وَمُدَّةٌ إِيْلَاهُمَا سَاعَةٌ قَصِيرَةٌ »<sup>(7)</sup>. فالمقصود بها حقيقتها المعروفة بها.

وتمثل الجملة أصغر وحدة في عملية التواصل لهذا اشترط فيها اللغويون قدامى ومحدثين الصحة النحوية والإفادة، ولعلمهم تساهلوا في شرط الصحة النحوية مادام مبدأ الإفادة قائما، وحرصا منهم على

(1) \_ المصدر السابق (الطيب: ص 69)

(2) \_ عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 1، ص 427.

(3) \_ (سورة الأنبياء: الآية 30)

(4) \_ (سورة يوسف: الآية 13)

(5) \_ مقامات الزمخشري، (النصح: ص 177).

(6) \_ القطرة: الداهية

(7) \_ مقامات الزمخشري (الأسوة: ص 172).

نجاح التواصل والإبلاغ اشتراطوا في المسند إليه التعريف بأي أداة من أدواته، ومنها التعريف بالألف واللام سواء دلت على العهد الذكري، أو الحضورى، أو الذهني، أو على استغراق الجنس، أو بيان كماله أو حقيقته، وهذه الدلالات ليست موضوعة للألف واللام، وإنما تتحدد بالاستعمال بمعونة السياق ثم تسبغها على الأسماء النكرات الموصولة بها، ولهذا تتعدد دلالاتها في دال واحد، ونجد بعضها أقوى وأتم في الإفادة، خاصة ما دل منها على العهد الحضورى لحصول دلالاتها بالتزامن مع لحظة إنتاج الخطاب. وفي المقابل رغبا عن التنكير لما فيه من تلبس على المخاطب وتعطيل لعملية التواصل والإبلاغ.

### ب. تعريف المسند إليه بالضمير:

ويسمى الضمير كذلك المضمرة والكناية والمكنى، وهو: «اسم جامد يدل على حاضر أو مخاطب أو غائب، ويسمى ضمير المتكلم والمخاطب "ضمير حضور" لأن صاحبه لا بد أن يكون حاضرا وقت النطق به»<sup>(1)</sup>. ونظم ابن مالك في هذا:

فما لذي غَيْبَةٍ أو حُضُورٍ      كَأَنْتَ، وَهُوَ سَمٌّ بِالضَّمِيرِ  
وذو اتصال منه ما لا يبتدا      ولا يلي إلا اختيارا أبدا  
كالياء والكاف من ابني أكرمك      والياء والها من "سليبه ما ملك" <sup>(2)</sup>.

ولا يضمير المتكلم الاسم إلا وقد علم السامع عوده؛ فلا تقول: أكرمك حتى يعلم المكرم المكرم الذي يعود عليه الضمير، ولذلك كان الضمير معرفة. و«إنما صار الإضمار معرفة. لأنك إنما تضمير اسما بعد ما تعلم أن من يُجَدِّثُ قد عرف من تعني وما تعني، وأنتك تريد شيئا يعلمه»<sup>(3)</sup>.

ويرى النحاة أن الضمائر كلها دلت على الغيبة أو الحضور لا تخلو من إبهام وغموض، فهي تحتاج إلى ما يزيل إبهامها، ويفسر غموضها، «فأما المتكلم والمخاطب فيفسرهما وجود صاحبهما وقت الكلام، فهو حاضر (والحاضر لا يكون إلا معينا) يتكلم بنفسه، أو حاضر يكلمه غيره مباشرة، وأما ضمير الغائب فصاحبه غير معروف، لأنه غير حاضر ولا مشاهد، فلا بد لهذا الضمير من شيء يفسره، ويوضح المراد منه»<sup>(4)</sup>. فالأصل في الخطاب أن يكون لمعين مشاهد، وقد يكون غير مشاهد إذا كان مستحضرا في القلب.

ويتكفى تعريف المسند إليه بالإضمار على المقام الصِّيَاغِيّ، مراعاة لخصوصية مقامات التلغظ، إذ يحتاج مقام التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى الضمائر للتعبير عنه أفضل مما يعبر عنه بالمرجع الخاص به،

(1) - عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 1، ص 217 وما بعدها.

(2) - ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، الجزء 1، ص 88.

(3) - سيوييه، الكتاب، الجزء 2، ص 6.

(4) - عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 1، ص 255

لكون المقام مقام إضمار، وأحصيت ثلاثة مقامات يستعمل فيها المسند إليه مضمرا، وهي «مقام التكلم، ومقام الخطاب ومقام الغيبة» (1).

وأكثر الزمخشري من استعمال ضمير المخاطب متصلا ومنفصلا ومستترا لأن المقام مقام خطاب، والمخاطب مواجه المخاطب لحظة إنتاج الكلام، ومما يبرر هذه الكثرة كون الخطاب توجيهيا مباشرا يستهدف نصح المخاطب وإرشاده. كما في قوله: «لَا تَمْنَعُ خَيْرِكَ لِأَنَّهُ نَذْرٌ. وَلَا دَرَكَ لِأَنَّهُ مَزْرٌ. فَرُبَّمَا تَنَاوَلْتَ الْمُعْتَرَّ بِالْحَفْنَةِ. وَأَنْتَ أَفْضَلُ مِنَ الْقَارِي فِي الْجَفْنَةِ. وَرُبَّمَا رَضَخْتَ الْيَتِيمَ بِالْقَيْرَاطِ وَأَطَعَمْتَهُ الْفِدْرَةَ. وَأَنْتَ أَكْرَمُ مِمَّنْ عَقَرَ وَتَمَّنَّ سَبْقَ الْبَدْرَةَ. الْمُتَصَدِّقُ لَوَجْهِ اللَّهِ بِقَطْمِيرٍ. فَوْقَ الْمُتَخَرِّقِ لِأَعْيُنِ النَّاسِ بِفَنَاطِيرٍ. وَعَجَّلَ مَا تَهَبَّ فَإِنَّ مَا عَجَّلْتَ وَإِنْ قَلَّ. خَيْرٌ مِمَّا أَجَلْتَ وَإِنْ جَلَّ» (2). فاعل "لا تمنع" و"عجل" و"تهب" ضمير مخاطب مستتر "أنت"، وفاعل "تناول" و"رضخ" و"أطعم" و"عجل" و"أجل" ضمير مخاطب متصل "تاء المخاطب".

وتدلّ معظم استعمالات الزمخشري لضمير الخطاب "أنت" منفصلا على الذم والتحقير وسلطة المخاطب. كقوله: «فَرُبَّمَا تَنَاوَلْتَ الْمُعْتَرَّ بِالْحَفْنَةِ. أَنْتَ أَفْضَلُ مِنَ الْقَارِي فِي الْجَفْنَةِ» (3) يذمه على بخله وهو الغني. وقوله: «فَأَنْتَ عَاصِيًا أَقْوَى قُوَّةً مِنَ الْفِيلِ، وَ مَحْمُولًا عَلَى الطَّاعَةِ أضعفُ مِنْ رَأْيِ الْفِيلِ» (4).

ويأتي المسند إليه ضمير غيبة، إذا كان المقام مقام غيبة، والمتكلم يتحدث عن غائب كقول الزمخشري: «فَإِذَا أَنْشَأَ يَأْكُلُ لَحْمَ أَخِيهِ بِالتَّقِيصَةِ وَالتَّلْبِ. وَيَلْغُ فِي دَمِهِ الْحَرَامَ وَوُلُوعَ الْكَلْبِ. وَيُصَوِّبُ وَيُصَعِّدُ فِي تَمْرِيْقِ فَرَوْتِهِ. وَيَقُومُ وَيَقْعُدُ فِي قَرَعِ مَرَوْتِهِ. وَيَخْلَطُ ذَلِكَ بِاسْتِهْزَاءٍ مُتَتَابِعٍ. وَاسْتِغْرَابٍ مُتَدَافِعٍ. لَمْ يَمْلِكْ حِينَئِذٍ عِنَانَهُ. وَلَمْ يُثْبِطْ عَنْ اسْتِهْزَائِهِ جُنَانَهُ» (5). حيث إنّ فاعل الأفعال (أنشأ، ويأكل، ويلغ، ويصوب، ويصعد، ويقوم، ويقعد، ويخلط، ولم يملك، ولم يثبط) كلها ضمير غيبة مستتر "هو" لأن المقام مقام غيبة، والمخاطب يوجه السامع بطريقة غير مباشرة مراعاة لمبدأ التأدب.

ويأتي المسند إليه ضمير متكلم، إذا كان المقام مقام تكلم، وقلّ حضور هذا الضمير في المدونة. مثل قول الزمخشري: «أَلَا أَخْبَرُكَ بِكُلِّ مُهَانَ مَمْتَهَنٍ. فِي قَبْضَةِ الدَّلِّ مُرْتَهَنٍ» (6).

(1) \_ القزويني، الإيضاح، ص 45. ومحمد الجرجاني، الإشارات والتبسيهات، ص 39.

(2) \_ مقامات الزمخشري، (التصدق: ص163)

(3) \_ المصدر نفسه، ص ن

(4) \_ المصدر نفسه، (النصح: ص176)

(5) \_ المصدر نفسه (العزلة: ص93)..

(6) \_ المصدر نفسه (العبادة: ص131).

وقوله: (( يا ربِّ قد فَصَحْتُ نَفْسِي بَيْنَكَ وَبَيْنِي. وَقَدْ أَطْلَعْتُ عَلَى عَيْبِي وَشَيْبِي. وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ دَخَلِي وَسِرِّي الْخَبِيثُ ))<sup>(1)</sup>

وقوله: (( طَلِقِ الْقَائِلَةَ بَمَلءِ فِيهَا: أَنَا غَدَارَةٌ غَرَّارَةٌ. خِتَالَةٌ خِتَارَةٌ ))<sup>(2)</sup>.

حيث استعمل الزمخشري لهذا المقام الضمير المستتر "أنا" والمتصل "الناء المتحركة" والمنفصل "أنا".  
وتحتمل ضمائر المتكلم في الخطابات السابقة إضافة إلى دلالاتها الوضعية دلالات هامشية قد تكون المقصودة من الخطاب، وهي إظهار التحسر والندم كما في التركيب الثاني، والفخر في الثالث.  
ويبدو أن متابعة اللغويين لسياق التعريف بالإضمار قد اقتضت على ما يبدو على ما حتمته المواضع من الدلالة على التكلم أو الخطاب أو الغيبة حيث أفادوا منها ربطها بالسياق دون أن يوجهوا نظرهم إلى التعامل مع الضمير مطلقاً، فإن له دلالات سياقية بالغة الأهمية إلى جانب دلالاته العامة، وقالوا: إن الأصل في الخطاب أن يكون وارداً على جهة التعيين، ولكن قد يعدل عن هذا تحت إكراهات الاستعمال، فيخاطب غير المشاهد المائل كما ورد في مقامة الدعاء: (( يا ربِّ قد فَصَحْتُ نَفْسِي بَيْنَكَ وَبَيْنِي. وَقَدْ أَطْلَعْتُ عَلَى عَيْبِي وَشَيْبِي. وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ دَخَلِي وَسِرِّي الْخَبِيثُ. وَعَرَفْتَ قِصَّتِي وَحَدِيثِي. وَبَسَّ الْقِصَّةَ وَالْحَدِيثُ... عَلَى أَتْكَ دُونَ قِنَاعِ كُلِّ مُتَقَنَّعٍ. وَوَرَاءَ لِثَامِ كُلِّ مُتَلَفِّعٍ. فَلَا تَفْضُخْنِي بَيْنَ خَلْقِكَ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ... فَاعْطِفْ بِكَرَمِكَ عَلَى عَبْدِكَ. فَلَا خَيْرَ عِنْدَهُ إِلَّا مِنْ عِنْدِكَ ))<sup>(3)</sup>

يدعو المتكلم رباً غير مشاهد، ولا مائل، وهو المسند إلى الفعلين "لا تفضخني" و"اعطف"، لكنه حاضر دائماً بالإضمار في الخطاب لأنه مستحضر في قلب المخاطب وذهنه، لا يغيب عنه أبداً كأنه رأي عين.

وقد يتجاوز الزمخشري بالخطاب مخاطباً معيناً، فيخاطب بـ "الأنت" غير معيّن، فالكلام لك والمقصود العموم. مثل قوله: (( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ أَبْغَضَهَا اللَّهُ وَأَبْغَضَهَا أَنْبِيَآؤُهُ؟ وَمَقَتَّهَا وَمَقَتَّهَا أَوْلِيَآؤُهُ ))<sup>(4)</sup>.

يواجه المتكلم مخاطباً بعينه، لكنه أخرج الخطاب في صورة العمومية والعالمية، فكل متلقٍ معني بالتوجيه، والمقصود به هو تحقير صورة الدنيا، وأنها قد تناهت في الظهور، وبلغت الغاية في الانكشاف والسفور، حتى امتنع خفاؤها، فلا تختص بها رؤية راء مختص به، بل كلُّ من يكون منه رؤية داخل في هذا الخطاب. ومثله قول الزمخشري:

(1) \_ المصدر السابق (الدعاء: ص158).

(2) \_ المصدر نفسه (الزاد: ص33).

(3) \_ المصدر نفسه (الدعاء: ص158، 159).

(4) \_ المصدر نفسه (الزهد: ص33).

والأنس أن تنأى عن الإنس ( السريع )	الإنس مشتق من الأنس
على ذئابٍ منهم طلس	ثيابهم ملسٌ ولكنها
عنهم وقل: أفلت يا نفس	نفسك فاغنمها وشرِّد بها
للقرس بين الظفر والضرس <sup>(1)</sup> .	إن لم تشرِّدْها تجدها لقي

وجه المخاطب الخطاب إلى مخاطب معين مائل حاضر " نفسك فاغنمها، إن لم تشردها تجدها لقي... وهذا هو ظاهره، ولكنه يحتمل التعميم من غير تعيين، فالظاهر أن المتكلم ينصح مخاطبا معيناً بوجود اعتزال الناس وقايةً لنفسه، وفي الحقيقة هو يتعداه ليشمل كل نفس تأذت بصحبة الفاسدين، وفسدت بفسادهم، ويدعوها إلى اعتزال الناس لتغنم. يخاطب إذن، الزمخشري الجماعة بمخاطبة الواحد، ويحذرهما من صحبة الفاسدين. وهذه هي قوته الإنجازية المستلزمة مقامياً.

وإذا كان مقام الخطاب مقام تردد أو إنكار، وأراد المتكلم إثبات نسبة المسند إلى المسند إليه فلن يجد سبيلاً إلى ذلك إلا بإيراد المخاطب مضمرًا متصلًا بأداة توكيد، مثل قول الزمخشري: «هاتِ سلطانَكَ فيما ارتكبتَ. وهلمَّ برهانك فيما احتقبتَ. هيئات لا سلطانَ إلا أنك أظعتَ الشيطانَ. وكلاً ولا بُرهانَ. إلا أنك أخذتَ العاجلَ بما عَزَّ وَهَانَ»<sup>(2)</sup>.

وقوله: «يا أبا القاسم، إنك لفي موقفٍ صعبٍ بين حوِيَّةٍ ركبْتَهَا. وبين تَوِيَّةٍ تُبْتَهَا»<sup>(3)</sup>. فرض مقام الخطاب على المخاطب وضع المضمر موضع المظهر، ثم أكده بـ"أَنَّ" و"إِنَّ" واللام " ليزداد المخاطب اهتماماً بالخبر، ويقنع به، فيعالج تردده في الأول، وإنكاره في الثاني. وهذه هي قوة الخطاب الإنجازية المستلزمة مقامياً.

والأصل في الضمير - كما أشرنا سابقاً - أن يسبقه مرجعه، لكن الاستعمال الخاص يتجاوز الأصل، فيسبق الضمير المرجع، كما في قول الزمخشري: «هي الصدقة تصيبُ بها عبادةُ الذين إنما استقرضك من أجلهم. ونبهك بذلك على نباهة فضلهم. وتعمد بها المتعفين. ولا ترزأ نصيب المتكفين»<sup>(4)</sup>. حيث ذكر المخاطب الضمير أولاً (هي)، ثم أتبعه بالمرجع البعدي (الصدقة)؛ أي ذكر الشيء مبهماً أولاً، ثم فسره تالياً، مما يجعل شوق النفس إليه أشد، وتطلعها إلى تفسيره أقوى، وذكر الشيء مرتين مبهماً ومفسراً، يكون به فهمه وإدراكه له أوضح. وهذا يهدف إلى تفخيم المرجع، وإخطار المتلقي بأنه ذو بال، وتمكينه

(1) - المصدر السابق (العزلة: ص 95).

(2) - المصدر نفسه (الدعاء: ص 157).

(3) - المصدر نفسه (الندم: ص 105).

(4) - المصدر نفسه (التصدق: ص 163).

في نفسه، وتشويقه إليه، وترغيبه فيه، مما يحفره إلى البذل والعطاء والتصدق على المتعفين والمتكففين. وقد يوضع المضمَر موضع المظهر للتفخيم والدلالة على سمو شأن المقصود به، ولاشتهاره ووضوحه حتى كأنه صار معرفة، وكان المرجع دائم الحضور في الذهن لا ينسى أبداً، كقول الزمخشري في مقامة التوحيد: «**قَدِ اسْتَأْتَرَهُ هُوَ بِالْأَوْلِيَّةِ وَالْقَدَمِ. وَهَذِهِ كُلُّهَا مُحَدَّثَاتٌ عَن عَدَمٍ**»<sup>(1)</sup>.

وقوله في مقامة المراقبة: «**أَلَيْسَ هُوَ وَحْدَهُ أَجَلٌ مِنَ الْخَلَائِقِ وَأَعْلَى. وَأَخْلَقَ بَأْنَ يُسْتَحْيَا مِنْهُ وَأَوَّلَى**»<sup>(2)</sup>. وضع المتكلم الضمير موضع لفظ الجلالة "الله" ادعاءً أنه لا يغيب عن فكر السامع وباله لحظة من ليل أو نهار، وأنَّ اللبس مأمون بترك المرجع، ووضع المضمَر بدله، لأن المرجع يتحدد بصفات تفرّد بها (الوحدانية، والأولية، والقدم...).

ويُزاد ضمير الغائب الذي يطلق عليه النحاة "ضمير الفصل" أو "ضمير العماد" أحياناً بين المعاني الأساسية «**ليفصل في الأمر حين الشك، واختفاء القرينة... فيرفع الإبهام ويُزيل اللبس، بسبب دلالاته على أن الاسم بعده هو الخبر لما قبله من مبتدأ، أو ما أصله المبتدأ، وليس صفة، ولا بدلاً، ولا غيرهما من التوابع، والمكملات التي ليست أصلية في المعنى الأساسي**»<sup>(3)</sup>. كالضمير "هو" الذي في قول الزمخشري: «**ذَلِكَ هُوَ الْمُظَنُّونُ بِأَشْبَاهِكَ مِنْ أَوْلَى الشَّهَامَةِ وَالْحَزْمِ. وَأَضْرَابِكَ مِنْ ذَوِي الْجَدِّ وَالْعَزْمِ**»<sup>(4)</sup>. وظيفته الضمير "هو" توضيح المعنى، وإزالة اللبس، والغموض عن معنى التركيب في أن "المظنون" معنى أساسي فيه، وهو الخبر، وليس بدلاً. فلولا الضمير لبقى المتلقي ينتظر فائدة التركيب، وبحضوره تحددت الدلالة، وحسمت الفائدة.

### ج. تعريف المسند إليه بالإشارة:

تعد أسماء الإشارة من المبهمات «**لوقوعها على كل شيء، من حيوان، أو نبات، أو جماد، وعدم دلالتها على شيء معين، مفصل، مستقل، إلا بأمر خارج عن لفظها، فلا يزول إبهامها إلا بمصاحب لفظها من إشارة حسية، ولذلك يكثر بعدها مجيء النعت، أو البدل، أو عطف البيان، لإزالة إبهامها، ومنع اللبس عنها**»<sup>(5)</sup>، و «**إنما صارت معرفة لأنها أسماء إشارة إلى الشيء دون سائر أمته**»<sup>(6)</sup>.

(1) \_ المصدر السابق (التوحيد: ص130).

(2) \_ المصدر نفسه (المراقبة: ص 180).

(3) \_ عباس حسن، النحو الوافي، الجزء1، ص 244

(4) \_ مقامات الزمخشري، (الطيب: ص 71).

(5) \_ انظر عباس حسن، النحو الوافي، الجزء1، ص 338، 339.

(6) \_ سيبويه، الكتاب، الجزء2، ص5.

وتستخدم أسماء الإشارة لتعيين محسوس مشاهد، وتحديدته في جنسه من جهة العين، ومن جهة القلب، وتكون على ثلاث مراتب: قريب ومتوسط وبعيد؛ فما خلا من الكاف واللام فهو القريب، وما كان فيه فهو البعيد، وما كان فيه الكاف وحدها فهو المتوسط. ولكي أجنب البحث ملل الخوض في هذه التفاصيل اعتمدت تصنيف ابن مالك الذي يجعل للمشار إليه ربتين: قري وبعدي فقط. فبعدهما يذكر أسماء الإشارة مجردة من الكاف واللام يقول:

وبأولى أشْرُ جمع مطلقاً والمد أُولَى، ولدى البُعد انطقاً  
بالكاف حرفاً: دون لام، أو معه واللام إن قَدَّمتْها ممتنعاً (1)

ويعبر المسند إليه المعرف باسم الإشارة عن قيم تداولية تتحدد بسياقات الكلام، ومسالك معانيه بالكشف عن مضمرة دلالاتها، إذ تتكفل الإشارة بإحضار المسند إليه في ذهن المتلقي، فتميّزه أكمل ما يكون التمييز، ويبدو في غاية الوضوح، حين تحدده بإشارة حسية. ولم أكتف بملاحظة المسند إليه معرفة باسم الإشارة، وإنما تجاوزت إلى بعض المكملات أو الفضلات.

وإذا كان الأصل في أسماء الإشارة هو تحديد المشار إليه الحسي المشاهد، وإحضاره في ذهن السامع، إلا أنها تتجاوز هذه الدلالة لتعبر عن قيم تداولية كثيرة، وتستلزم قوى إنجازية مقامياً، وأبرزها:

1. كمال العناية به وتمييزه أكمل تمييز، لصحة إحضاره في ذهن السامع بواسطة الإشارة حسياً. والتمييز الأكمل تمييز إنما هو الذات، وهذا يقتضي أنه أعرف المعارف، من حيث إنه يتضمن إشارة حسية مفسرة بإشارة الجوارح (2)، كقول الزمخشري في مقامة أيام العرب: «كُنْ فِي حِمَايَةِ حَقِيقَةِ دِينِكَ. وَالذَّبِّ عَنْهَا بِسَيْفِكَ وَيَمِينِكَ. أَحْمَى مِنْ رَبِيعَةَ بْنِ مُكَدَّمٍ أَخِي بَنِي فِرَاسٍ. ذَاكَ اللَّيْثُ الْهَزَامُ الْغَرَّاسُ» (3)

المسند إليه في التركيب اسم ذات محسوس بين يقع في منظور المخاطب، والإشارة إليه جعلته أكثر بروزاً ووضوحاً وبيانا، وهذه الإضافة لا تكون إلا باسم الإشارة، بالإضافة إلى التعيين والبيان يفيد تعريف المسند إليه باسم الإشارة دلالة المدح ناشئة من الإشارة إليه بما يفيد البعد دلالة على أن المشار إليه بمكان من المتكلم، ثم نعته بصيغ المبالغة "الهزّام" و"الغراس".

2. التعظيم بالبعد: ومن أجل تحقيق القيمة ذاتها، يعرف المخاطب المسند إليه باسم الإشارة البعيد من أجل إبراز علو مكان المشار إليه وسمو مقامه ومن ثم عظمة شأنه، كقول الزمخشري: «أولئك الذين من تشبّه بهم فقد فاز وسُعد. وفَرَغَ ذُوَابَةَ الْعِزِّ وَصَعِدَ. فاستوفى الله يهدك لذلك الطريق. ويجعلك رفيق ذلك

(1) ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج1، ص131.

(2) التفتازاني سعد الدين، التجريد في علم المعاني، الجزء2، مطبعة السعادة، مصر، 1331هـ، ص87

(3) مقامات الزمخشري، (أيام العرب: ص263).

«الطريق»<sup>(1)</sup>. أشار المخاطب إلى عباد الله باسم الإشارة، ليميّزهم من السواد الذين معهم، وأشار إليهم بما يشار به للبعيد لمقامهم عنده وعظمة شأنهم، وهي القوة الإنجازية المستلزمة مقامياً. أشار المخاطب باسم الإشارة البعيد "أولئك" إلى عباد باعوا أنفسهم لله، وحبسوها على المجاهدة في سبيله، أولئك أعظم خلق الله، وخيار الناس، بدلالة مخاطبتهم بـ "أولئك"، وهذه هي القيمة التداولية لهذا الخطاب. ومثله قوله:

طوبى لعبدٍ بجبلٍ اللهُ مُعْتَصِمُهُ	على صراطٍ سويٍّ ثابتٍ قدُمُهُ (البيسط)
رثّ اللباسِ جديدِ القلبِ مُسْتَرٍ	في الأرضِ مشتهرٍ فوقَ السَّماءِ سِمُهُ
إذا العيونُ اجْتَلَتْهُ في بَدَاذِتِهِ	تعلو نواظِرُها عَنْهُ و تَقْتَحِمُهُ
مَا زَالَ يَسْتَحْقِرُ الدُّنْيَا بِهَمَّتِهِ	حَتَّى تَرَقَّتْ إِلَى الأُخْرَى بِهِ هَمُّهُ
فَذَاكَ أعْظَمُ مَنْ ذِي التَّاجِ مُتَكِنًا	على النَّمَارِقِ مُحْتَفَى بِهِ حَشْمُهُ <sup>(2)</sup>

أشار المخاطب إلى المسند إليه باسم الإشارة "ذاك" الدال على البعد دلالة على علو مكان المشار إليه (المسند إليه)، من أجل مدحه وتعظيمه. والتعظيم هو القيمة التداولية المستلزمة مقامياً.

**3. التفضيع:** التفضيع تعظيم، ولكنه بالسلبيات ألزم، وبالجرمة أصدق. كقول الزمخشري: «... بَلْ حَرَمَاهُ مَا يُفْتَأُ بِهِ اللّهَاتُ. وَقَدْ اسْتَعَاثَ بِسَقْفِهِ فَأَبْيَا أَنْ يُعَاثَ. فَتَعَاوَرَاهُ بِأَسْيَافِهِمَا وَهُوَ يَلْهَثُ حَرَّةً. وَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمَا بِفَعْلِ ابْنِي حُرَّة»<sup>(3)</sup>.

إذ يشنع على فتية هذيل عندما جاءا شيئا إمرأ، وقتلا ابن عاصية عمرا. ودل على هذا المعنى اسم الإشارة البعيد بمعونة السياق.

والتعظيم والتفخيم والتفضيع قيم التركيب التداولية، عبّر عنها المخاطب بتوظيف اسم الإشارة القريب إذا كان المشار إليه غير مشاهد أو بعيد مكانيا لكنه قريب وجدانيا، أو ينزل القريب منزلة البعيد، ويخاطبه بما يختص به.

**4. التحقير بالقرب:** يلجأ المتكلم أحيانا إلى تعريف المسند إليه لتحقيق قصده بتحقيقه وتهوين أمره، رائده في ذلك مقام الخطاب، كقول الزمخشري: «يا أبا القاسم ما بالك وبأل من ترى. ممن يدب على وجه الثرى. إذا دعا أحدكم هذا الملك المستولي، والسلطان المستعلي. راعه ذلك روعًا عجيبا. وامتلا قلبه زفرة»

(1) \_ المصدر السابق (الإسوة: ص171).

(2) \_ المصدر نفسه (الزهد: ص36).

(3) \_ المصدر نفسه (أيام العرب: ص264).



وَوَجِيبًا))<sup>(1)</sup>. أشار المخاطب إلى المسند إليه "الملك" باسم الإشارة "هذا" دلالة على قربه ودنوه من المخاطب، وهذا لا يكون في الواقع، خاصة وأن الملك مستول ومستعل، وهذا خرق لمبدأ الملاءمة، مما يضطر المتلقي إلى البحث عن دلالة أخرى مستندا إلى مبدأ التعاون ليكتشف الدلالة المقصودة بتقريب المشار إليه، وهي التحقير لينسجم مع السياق اللغوي والمقام حيث ألف الزمخشري مقاماته بعد أن تحامى مجالس الخلفاء والأمراء.

وكذلك عند الإحالة القبليّة على "دعاء الملك"، فقد عرف المسند إليه باسم الإشارة المختص بالبعيد "ذلك" للدلالة على التهويل. وهذه هي قوة التركيب الإنجازية.

5. التحقير بالبعد: وينتج هذه الدلالة اسم الإشارة البعيد. كقول الزمخشري:

العقلُ هادٍ بصيرٌ لا يزيغُ إلى      بصيرةٍ عن سدادِ الرأْيِ مَأْفُوكِهِ (البيسط)  
وَمَنْ يَقْدَهُ هَوَاهُ فِي خِرَامَتِهِ      فَذَاكَ بَيْنَ ذَوِي الْأَلْبَابِ أَضْحُوكِهِ<sup>(2)</sup>.

أشار المخاطب إلى مُتَّبِعِ هَوَاهُ باسم الإشارة البعيد "ذاك" دلالة على حقارته، وبعده عنه معنويا وعن قلوب الناس معنويا وزمانيا؛ لأن المخاطب يتوقع ما يكون عليه أمر الإنسان حين يتبع هواه، فيحيا بينهم مقيتا بغيضا، وللسياق والفعل المضارع دور في تحديد دلالات الخطاب، وتمثل القوة الإنجازية للتركيب في التحقير.

6. الاستنكار والاستغراب: يعرف المسند إليه باسم الإشارة للدلالة على سبيل إظهار الاستنكار والاستغراب، كقول الزمخشري: ((فما هذه الجسارة، ولا جسر إلى النجاة إلا أن تجني. وَمَنْ غَرَسَ الْقَتَادَ لَمْ يَجْنِ مِنْهُ الثَّمَرَ وَلَنْ يَجْنِي))<sup>(3)</sup>. يستنكر المخاطب على المخاطب تجاسره على نفسه، وإسرافه في اللهو والشهوات، ثم طلبه النجاة بأعمال الفجار، وإنما تطلب النجاة بسلوك مسالكها.

7. ادعاء ظهور المعنوي كالمحسوس إشارة لأهميته، وهذا لا يكون إلا في المعنويات، أو ما هو غير ظاهر، ومما يدل على هذا المعنى قول الزمخشري: ((أَيُّهَا الْعَاقِلُ لَا يُعْجِبَنَّكَ هَذَا الْمَاءُ وَالرُّوْتَقُ. فَإِنَّهُ صَفْوٌ مَحْبُودٌ تَحْتَهُ الرَّنْقُ. وَلَا يَغْرَنُّكَ هَذَا الرُّوَاءُ الْمُوْتَقُ. فَوَرَاءَهُ الْبَلَاءُ الْمُوْبِقُ))<sup>(4)</sup>.

حيث يشير المخاطب إلى أمور معنوية (الماء، والرونق) بما يُشار إلى المحسوسات، فأخرج المعنوي

(1) \_ المصدر السابق (الخشية: ص141).

(2) \_ المصدر نفسه (النهى عن الهوى: ص198).

(3) \_ المصدر نفسه (الدعاء: ص156).

(4) \_ المصدر نفسه (الرضوان: ص24).

في صورة الحسبي إشارة إلى أهميته وخطورته؛ إذ لا يفتن العاقل إلا البهاء والآس (زهرة الدنيا، وزخارفها) بما يجر عليه من البلاء المهلك.

ومثلها قوله في مقامة الارعواء: «فَأَمَّا وَمِيعَةُ الشَّبِيبةِ مَعَكَ. فَإِنْ صَاحَ بِكَ وَاعْظُ فَلَأَسْمَعُكَ. هَذِهِ حَبَائِلُهُ وَمَصَائِدُهُ. وَحَيْلُهُ وَمَكَائِدُهُ. وَالْعَجَبُ مِنْكَ أَنْتَ تَسْتَلِدُّ الْوُقُوعَ فِيهَا. وَإِنْ لَمْ تَرْجُ الْخِلَاصَ مِنْهَا»<sup>(1)</sup>. عرّف المخاطب المسند إليه بالإشارة للدلالة نفسها، حتى أن المخاطب لا يعرف مداخل الشيطان ومكائده إلا إذا تم تعيينها له بإشارة. ولا يعرف إلا ما كان قريباً منه جلياً، فلا يعلم خفياً، لذلك وظف اسم الإشارة الدال على القرب.

**8. التنبيه:** والناتج الدلالي في هذا السياق مشروط بتعقيب المشار إليه بأوصافه، على معنى أنه جدير بما يرد يعده<sup>(2)</sup>. يقول الزمخشري من البسيط:

تَعْلُو نَوَاطِرُهَا عَنْهُ وَتَقْتَحِمُهُ (البسيط)	إِذَا الْعُيُونُ اجْتَلَتْهُ فِي بَدَاذِتِهِ
حَتَّى تَرَقَّتْ إِلَى الْأُخْرَى بِهِ هِمُّهُ	مَا زَالَ يَسْتَحْقِرُ الدُّنْيَا بِهَمَّتِهِ
عَلَى النَّمَارِقِ مُحْتَفَى بِهِ حَشْمُهُ <sup>(3)</sup>	فَذَاكَ أَعْظَمُ مِنْ ذِي التَّاجِ مُتَكِنًا

وصف المخاطب الرجل بأنه زاهد في الدنيا؛ باداً الهيئة، رث الثياب، تعلوه العيون وتتجاوزته احتقاراً وازدراء، ثم أشار إليه بـ "ذاك"، وفي هذه الإشارة تنبيه على أنه يستحق الحكم المسند، وجدير بأن يكون عظيماً وأعلى مقاماً من الملوك.

**9. التعريض بغباوة المخاطب حتى كأن الأشياء لا تتميز لديه إلا بالإشارة الحسية.** ويكون بتعيين ما هو حسبي، أو تحديد ما هو معنوي. كالذي في مقامة الارعواء «فَأَمَّا وَمِيعَةُ الشَّبِيبةِ مَعَكَ. فَإِنْ صَاحَ بِكَ وَاعْظُ فَلَأَسْمَعُكَ. هَذِهِ حَبَائِلُهُ وَمَصَائِدُهُ. وَحَيْلُهُ وَمَكَائِدُهُ. وَالْعَجَبُ مِنْكَ أَنْتَ تَسْتَلِدُّ الْوُقُوعَ فِيهَا. وَإِنْ لَمْ تَرْجُ الْخِلَاصَ مِنْهَا»<sup>(4)</sup>.

وكأن المخاطب لا يعرف مداخل الشيطان ومكائده إلا إذا تم تعيينها له بإشارة، لذلك لجأ المتكلم إلى تحديد المسند إليه بالإشارة تعريضاً بغباوة السامع، على معنى أن قواه الإدراكية لا تستوعب الأمور إلا بتعيينه بالإشارة إليها، فهو كالذي يبصر، ولكنه لا يرى إلا المحسوسات، لا يرى من الأمور إلا ما كان أوضح من الوضوح. وهذه هي قوة التركيب الإنجازية، وقيمتها التداولية.

(1) \_ المصدر السابق (الارعواء: ص 29).

(2) \_ محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط 1، 1997، ص 232.

(3) \_ مقامات الزمخشري (الزهد: ص 36).

(4) \_ المصدر نفسه (الارعواء: ص 29).

إنَّ تعريف المسند إليه باسم الإشارة سواء أكان للقريب أو البعيد يكون للتعبير عن قيم تداولية، تحددها سياقات الكلام، عندما تتجاوز الإرادة الاستعمالية القواعد المعيارية، وهذه الإرادة زائدة على اللغوية، لأنها مرتبطة بالأحوال، فتننتج دلالات جديدة، مثل: التعظيم، والتحقير، والتفضيع، والتعريض، والتنبيه، والاستغراب وغيرها، وهي في الدرس التداولي الحديث قوى إنجازيه مستلزمه سياقيًا.

د. تعريف المسند إليه بالموصول: الموصول هو اسم « غامض المعنى، ومبهم الدلالة »<sup>(1)</sup>، لا يتحدد علم المخاطب عنه إلا بذكر جملة أو شبه جملة تتأخر عنه وجوبا تزيل إبهامه، وتوضح غموضه، وتعيّن مدلوله، وتفصل مجمله، وتجعله كامل الفائدة، وتسمى "صلة الموصول"، فإذا قيل: الذي كان معنا بالأمس رجل عالم. لزم أن يكون معناها معهودا مفصلا للمخاطب أو بمنزلة المعهود المفصل<sup>(2)</sup>. أي معروفا له، تفصيلا، لا إجمالاً، وأنه اختص بشيء معين، لأن الغرض من الصلة أن توضح للمخاطب اسم الموصول المبهم بما كان يعرفه قبل مجيء اسم الموصول من اتصافه بمضمون الجملة ولهذا عدّ النحويّ الموصول جزءاً، وصلته جزءاً آخر. بينما يراها البلاغيّ « وحدة معنوية، وكتلة واحدة لا تقبل التجزئ »<sup>(3)</sup>.

في حين انصبت أغلب الدراسات التداولية على الصلة، وجعلوا ما تتضمنه من دلالات ووظائف لاسم الموصول، وتحدد النواتج الدلالية بالالتكاء على مختلف المقامات والسياقات التي تستعمل فيها. ولما كانت دلالة الموصول لا تتعين إلا من الخارج، صعب حسم دلالة واحدة له، وما توصلت إليه من معان ودلالات لاسم الموصول ليست حاسمة وربما تعددت، وكان الصواب في غير ما ثبت.

1. التفخيم: ويقصدون به التعظيم والتهويل.

الأصل في الصلة أن تكون معلومة معهودة لدى المخاطب، ولكن « قد يعدل عن هذا الأصل إلى الإبهام لأجل تلك النكتة، أي تعظيم المسند إليه أو تهويله، وذكر النحاة أن الصلة يشترط فيها أن تكون معهودة إلا في مقام التعظيم والتهويل »<sup>(4)</sup>، يقول الزمخشري: « وَكَانَ الَّذِي رَمَاهُ ( تأبط شرا ) غَلَامًا غِرًّا »<sup>(5)</sup>. أجهم المخاطب الصلة "رماه" والموصول مبهم في الأصل، وهذا ما يدل على تعظيم المسند إليه. وقوله كذلك:

أثْنُ عَلَى رَبِّ الْبَشَرِ عَلَى الَّذِي أَعْطَى الشَّبْرَ (الرجز)

(1) \_ انظر عباس حسن، النحو الواقي، الجزء1، ص 340 وما بعدها.

(2) \_ عباس حسن، النحو الواقي، الجزء1، ص 375.

(3) \_ انظر بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، الجزء1، دار العلم للملايين، ط9، 2004، ص 130.

(4) \_ الدسوقي، حاشية الدسوقي على شرح السعد، الجزء1، ص 306.

(5) \_ مقامات الزمخشري (أيام العرب: ص 275).

## أَعطَى الَّذِي عَيَّ الْوَرَى بِحَصْرِهِ وَلَا حَصْرًا<sup>(1)</sup>

وأكثر ما يحمل هذه الدلالة الموصول "ما" - كما ذكر النحاة - لما فيه من إهام، لدلالته على العموم، يضاف إليه الصلة المبهمة كما في قول الزمخشري: «وَلَوْ أَطَاعَ بَشْرٌ بَنُ عَمْرٍو بَنُ مَرْثَدٍ ذَا الْكَفِّ الْأَثَلِ. لَمَا حَلَّ بِهِ وَبِعَلْقَمَةٍ وَحَسَنَانَ وَشُرْحَيْلٍ مَا حَلَّ»<sup>(2)</sup>. تفتقر الصلة "حل" إلى المسند إليه والمكمّلات، وهذا ما يجعلها مبهمة. ممّا يفسح المجال واسعا أمام الفكر والخيال ليتوهم من العظمة والهول أبلغ حدوده، وأبعد كنهه، مما يرشّح دلالتها على التفضيم والتهويل، ويقويها، كأنه قال: حلّ به أمر عظيم مهول.

2. التشويق إلى الخبر: وتتحقق هذه الدلالة عندما تحذف الصلة أو تبهم. كالحطاب السابق «وَكَانَ الَّذِي رَمَاهُ غَلَامًا غِرًّا». فالمخاطب هنا يتطلع إلى معرفة اسم من أصاب "تأبط شرا"، ويحمل الحطاب دلالة أخرى بالشرط السابق، وهو إخفاء الأمر عن غير المخاطب. فالمخاطب يستهدف ألاّ يتجاوز الخبر المخاطب وكأنه سر، وكذلك تعظيم شأن المحكوم به، أي: الخبر هنا "الغلام الغر".

3. زيادة التقرير: أي التحقيق والتثبيت، واختُلف في المقرّر. أهو المسند أم المسند إليه، أم هو الغرض المسوق الكلام له؟ فمنهم من قال بأنه المسند، ومنهم من قال بأنه المسند إليه. وقيل: إنه الغرض المسوق الكلام له، وقد يورد المخاطب فضلا من الكلام، ولكنه في الحقيقة ذو فضل في تحقق ذلك السر، وهو زيادة التقرير.

ومّا ورد في تحقيق المسند (الخبر) وتقريره، قول الزمخشري: «وإن أردت التّرين من الثيابِ بأسنّاهَا. ومن الحُللِ بِحُسْنِهَا. فأين أنت من الحُلّة التي لا يعبأ لأبسّها بنسيجِ الذهبِ على عَطْفِي بَعْضِ الْمُلُوكِ. وكأنّه في عَيْنِهِ سَحْقُ عِبَاءٍ عَلَى كَتْفِي صُعُوكِ. وَمَا هِيَ إِلَّا لِبَاسُ التَّقْوَى. الَّذِي هُوَ اللَّبَاسُ»<sup>(3)</sup> يقرّر المخاطب أنّ أفضل ما يتحلّى به الإنسان ويتأنق ليست أحسن الحلل ولا أسنى البدل، وإمّا يكون التّقوى لا غير. وأكّد هذا بطريقتين من طرق التأكيد، وهما "النفى وإلّا" و"ال".

4. الحث على الترحم: جاء في مقامة الموت قوله: «وَأَيْنَ مِنْ انْتَضِيَتْ مِنْ صُلْبِهِ ثُمَّ أَعْمَدَكَ الْهُوَى فِي قَلْبِهِ. فَكُنْتَ أَحْصَ بَفُؤَادِهِ مِنْ سَوَادِهِ. لِفِرْطِ مِقْتِنِهِ لَكَ وَوِدَادِهِ. أَبَاكَ وَأَبِي كُلِّ خَيْرٍ لَكَ وَفِيكَ. وَرَبَّكَ وَحَبَاكَ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْ مَبَاغِيكَ...»<sup>(4)</sup>. يُدكّر المخاطب المتلقي بأفضال أبيه، ليرحم عليه.

(1) - المصدر السابق (اجتتاب الظلمة: ص 151)

(2) - المصدر نفسه (أيام العرب: ص 257).

(3) - المصدر نفسه (العفة: ص 103).

(4) - المصدر نفسه (الموت: ص 185).

5. الاتكاء على حضور المخاطب الذي ينحصر علمه عن المسند إليه في الصلة: ويحقق نكتتين تتجلى فيهما مقصدية المتكلم، وهما:

1.5. التعرُّض للخبر: قد يستعمل الموصول ليكون ذريعة إلى التعرض للخبر<sup>(1)</sup>. كالتركيب الذي في مقامة التسليم: «إِنَّ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ. رَكَّبَ فِيكَ عَقْلَكَ وَهَوَاكَ. وَهَمَّا فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ دَلِيلَاكَ»<sup>(2)</sup>. استخدم المخاطب الموصول "الذي" في التركيب ليكون وسيلة إلى ذكر الصلة "خلقك فسواك"، وذكر الصلة وسيلة إلى تعظيم الخبر "ركب فيك عقلك وهواك". ولولا الصلة ما توصل إلى تعظيم الخبر.

2.5. تنبيه المخاطب على خطأ: وينتج التركيب السابق هذه الدلالة أيضا بالاعتماد على السياق، فيؤتى بالموصول لتنبية المخاطب على غلط في اعتقاده أو اعتقاد غيره، فإن الصلة هي المنبهة على أن المتلقي خطأ في اعتقاده، حيث تتضمن جملة الصلة الخلق السوي للإنسان يتطلب أن يُركَّب فيه عقل وقلب معا لا قلب فقط، وهذا هو اعتقاد المخاطب الخاطئ الذي نشأت عنه عبودية المخاطب لهواه، أو استحبابه للهوى على العقل.

6. الإيماء إلى وجه بناء الخبر: عرّف المخاطب المسند إليه بالموصولية، ليومئ بذلك إلى وجه بناء الخبر الذي تنبيه عليه، ويتفرّع عن هذا اعتبارات لطيفة منها:

أ. سبب بناء الخبر<sup>(3)</sup>.

ب. التعريض بالتعظيم لشأن الخبر.

ج. التعريض بالإهانة لشأن غير الخبر<sup>(4)</sup>. وغيرها.

1.6. سبب بناء الخبر: يومئ المخاطب إلى أن الخبر المبني على اسم الموصول أمر من جنس العقاب والإذلال، فيذكر شيئا في أول حديثه يستطيع أن يدرك الفطن ما يجيء بعده؛ فيشير إلى نوع الخبر بالمدح، أو الذم، أو العقاب، أو النتيجة، أو غير ذلك، فيتفطن المتلقي من فاتحة الكلام إلى خاتمته، ويدرك ما تومئ إليه من المقاصد<sup>(5)</sup>. كقول الزمخشري: «(والذي بين دَفْيِهِ قَلْبٌ هَوَاءٌ. قَدْ تَيَاسَرَتْهُ الشَّهَوَاتُ وَالْأَهْوَاءُ. لَا اسْتَبْصَارَ يَزْعُهُ. وَلَا رُوِيَّةَ تَرْدَعُهُ. لَا يَعْرِفُ الْغَثَاةَ وَالسَّمْنَ إِلَّا فِي بَدْنِهِ وَمَاشِيَتِهِ. وَلَا يَفْطَنُ لِلْقَلَّةِ إِلَّا فِي

(1) محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص230.

(2) مقامات الزمخشري (النهى عن الهوى: ص194).

(3) محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات، ص40

(4) انظر السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، ص182.

(5) أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ط2، ص117.

ضبيته وحاشيته<sup>(1)</sup>. ويدرك المتلقي الحضيف أن الخبر ( قد تياسرته الشهوات والأهواء ) مبني على الموصول (الذي بين دفيه قلب هواء) فالخبر من جنس الموصول، ومبني عليه. فالذي يُفْرغ قلبه أو يتركه فارغاً، وذو اللب يدرك أنه سيملاً بالشهوات والأهواء لا محالة، لأن الطبيعة تأبى الفراغ. والمقدمات السلبية تؤدي إلى نتائج سلبية.

بالإضافة إلى هذه الدلالة، فإن تعمُّد المخاطبِ إِبْهَامِ المسند إليه خلافاً للأصل، والإخبار عنه بصفات سلبية مكثفة يحقق دلالة هامشية أخرى: هي التوبيخ.

2.6. التعريض بالنعظيم لشأن الخبر: كالذي في مقامة أيام العرب ((وكانَ الَّذِي رَمَاهُ (تَأْبَطُ شَرًّا) غَلامًا غَرًّا))<sup>(2)</sup>، يشير مضمون الصلة "رمى تأبط شراً"، وهو الشاعر الصعلوك بطل الغارات إلى أن الخبر من جنس المرميِّ، بطل مثله، وفي هذا تعريض بتعظيم شأن هذا الخبر، أي: أن هذا الغلام الغر بطل عظيم كالعظيم الذي رمى.

3.6. التعريض بالإهانة لشأن غير الخبر: وفي التركيب نفسه يمكن قلب الخبر فيكون وسيلة إلى التعريض بالإهانة والإذلال إلى شأن غير الخبر، فيومئى به إلى أن الذي تمكَّن منه "غلام غرّ" فأرداه، ليس من البطولة في شيء، وإنما هو جبان خوار مهان ذليل.

7. الإبهام: إذا كانت الصلة مبهمة ارتد إبهامها الموصول، فلا تقدم أي معلومة عن اسم الموصول، فيكون اسم الموصول مبهما إبهاما يستغرق كل شيء. كقول الزمخشري في مقامة الشهامة: ((معَهُ مَا يَكْفُهُ وَيَقْفُهُ فلا يَكْفُ ولا يَقْفُ. وما يَصُدُّهُ وَيَصْدِفُهُ. فلا يَصُدُّ ولا يَصْدِفُ))<sup>(3)</sup>. يدل اسم الموصول "ما" على معنى مشترك، وجاءت الصلة بعده "يَكْفُهُ وَيَقْفُهُ" و "يَصُدُّهُ وَيَصْدِفُهُ" جملاً فعلية المسند فيها ضمير مبهم الدلالة لتتراكب المبهمات، فلا يجني المخاطب فائدة، ولكن المخاطب لم يرد أن يبهم مجرد الإبهام، وإنما يريد أن معه كل شيء يكفه ويقفه. ولكن المخاطب يقصد العقل خلافاً لما يدل عليه التركيب من العموم.

هـ. تعريف المسند إليه بالإضافة:

المعرف بالإضافة هو (( اسم نكرة أضيف إلى أحد المعارف، فاكتسب التعريف بإضافته ))<sup>(4)</sup>، والإضافة قسمان: محضة وغير محضة.

(1) - مقامات الزمخشري (التسليم: ص52).

(2) - المصدر نفسه (أيام العرب: ص275).

(3) - المصدر نفسه (الشهامة: ص204).

(4) - مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، الجزء1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط 18، 1986، ص 154.

فأما **المحضة** وتسمى معنوية أو حقيقية: وهي ما كان الاتصال فيها قويا لأصلاتها، ولأن المضاف خال - غالباً - من ضمير مستتر يفصل بينهما، وتفيد المضاف تخصيصاً إذا كان المضاف إليه نكرة، نحو "هذا غلام امرأة"، وتعريفاً إذا كان المضاف إليه معرفة، نحو "هذا غلام زيد".

وأما **غير المحضة**، وتسمى لفظية أو مجازية: وهي ما كانت على تقدير الانفصال، ويغلب أن يكون المضاف فيها وصفاً عاملاً دالاً على الحال، أو الاستقبال، أو الدوام، ويسمى هذا الوصف: بالمشبه للفعل المضارع "يفعل" في العمل والدلالة الزمنية، وينحصر في اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة. وهذه الإضافة لا تفيد الاسم الأول تخصيصاً ولا تعريفاً نحو: هذا راجينا الآن وغداً، وهذا مُرَوِّعُ القلب، وهذا عظيمُ الأمل<sup>(1)</sup>. ونشير إلى «أن علماء البلاغة عدّوا المتضامين كلمة واحدة، أو كلاً لا ينفصل»<sup>(2)</sup>. والمقصدية الأصلية من تعريف الاسم بالإضافة هو تعريفه أو تخصيصه، إضافة إلى هذا المقصد فإنها تحقق مقاصد أخرى أهمها:

1. وأما الحالة التي يقتضي فيها التعريف بالإضافة، فهي «متى لم يكن للمتكلم إلى إحضاره في ذهن السامع طريق سواها أصلاً، كقولك: غلام زيد. إن لم يكن عندك منه شيء سواه، أو عند سامعك، أو طريق سواها أخصر، والمقام مقام اختصار»<sup>(3)</sup>. كقول الزمخشري:

**هَوَاكَ أَعْمَى فَلَا تَجْعَلْهُ مَتَّبِعًا**      **لَا يَعْتَسِفُ بِكَ عَنْ بَيْضَاءَ مَسْلُوكَهُ** (البيسط)  
**أَتْرَكُهُ وَأَمَشَ عَلَى آثَارِ عَقْلِكَ فِي**      **مَحْجَّةٍ مِثْلَهَا لَيْسَتْ بِمَتْرُوكِهِ**<sup>(4)</sup>

فليس للمتكلم من طريق أخصر يحضر به المخاطب دلالة "الهوى الذي هو لك" في ذهن السامع سوى طريق واحد هو التضاييف "هواك" إذ الوزن يجتّم على المخاطب الإضافة، ومقام النصيح يلح عليه بالإيجاز حتى لا يمل ويكون للنصيحة أثر عكسي.

2. **إغناؤها عن التفصيل:**

1.2. **إغناؤها عن تفصيل متعذر:** ويلجأ المتكلم إلى تعريف المسند بالإضافة إذا شقَّ عليه تفصيل المضاف

إذا كان التفصيل متعذراً مستحيلاً أو متعسّراً، كقول الزمخشري: «**قَدْ حَدَلْتُهُ قَوْمُهُ** (ذو الجوشن) **بُنُو الصَّبَاب**»<sup>(5)</sup>، تغني الإضافة عن تعداد قوم ذي الجوشن، وذكرهم واحداً واحداً، لتعذر ذلك عليه بسبب

(1) - انظر عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 3، ص 1 وما بعدها. وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، الجزء 2، ص 44 وما بعدها.

(2) - بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، الجزء 1، ص 133.

(3) - السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، ص 186.

(4) - مقامات الزمخشري (النهى عن الهوى، ص 197)

(5) - المصدر نفسه (أيام العرب: ص 275).

بعد المسافة الزمنية بين الحادثة التاريخية وسياق الخطاب .

2.2. إغناؤها عن تفصيل مُتَعَسَّر: إذا لم يكن تفصيل المسند إليه متعذرا ولا مستحيلا، ولكنه ممكن يصعب تفصيله كقوله:

مساويك تُخفيها حذاراً من الورى أليس إله الخلق أخلق بالحدَر<sup>(1)</sup>. ( الطويل )

مساويء المخاطب مفصلة في متصور المتكلم، لكنه ذكرها مجملة لأنه يصعب تفصيلها لكثرة يعسر معها الذكر والتفصيل، أو لأن التفصيل مستكره، لستر المخاطب بإخفاء المسند إليه (المضاف) عن غير المخاطب من السامعين إكراما له.

3. التعظيم والتحقير: يستجلب أحد المتضامين المحمود أو المذموم التعظيم أو التحقير إلى الآخر.

1.3. التعظيم لشأن المضاف: ويستهدف بالتضاييف أحيانا إنشاء التعظيم لشأن المسند إليه، كقول الزمخشري: (( يا أبا القاسم نعم الله عليك لا تُحصِرُ ولا تُحصَى. ومن يقدرُ على حصر الرَّمْلِ وإحصاءِ الحصى ))<sup>(2)</sup>. أضاف المخاطب كلمة " نعم " وهي المضاف إلى لفظ الجلالة " الله " من أجل تعظيمها. وتتضمن الدلالة نفسها كلمة " كتاب " المضافة إلى لفظ الجلالة " الله "، في قوله: (( اجعل كتاب الله نجيبك فنعمة النجى ))<sup>(3)</sup>

2.3. التعظيم لشأن المضاف إليه: ويستهدف التضاييف أيضا تعظيم شأن المضاف إليه. كقول

الزمخشري: (( فغيبَةُ الأخِ المسلمِ مِنْ تَعَاطِي الكأسِ أَحْرَمُ ))<sup>(4)</sup>. الغيبة كبيرة من الكبائر توجب العقاب الرباني، وهي محرمة تحريما عاما بالإجماع، أيّا كان المغتاب، وتزداد الغيبة حرمة إذا كان المغتاب<sup>(5)</sup> أخا مسلما خاصة، فهذا الاهتمام الخاص يشعر المتلقي بعظمة " الأخ المسلم " وهو المضاف إليه. ومثله قوله: (( لعمرُك إنَّ ما تَرُمُّهُ الورَقَاءُ مِنْ ثَلَاثَةِ أعواد. وما شيدُهُ فرعونُ ذُو الأوتاد. سيانِ عندَ مَنْ فَكَرَ في العواقبِ. وتأمَّلِ آثارَ هذا الدَّورِ المتعاقبِ ))<sup>(6)</sup>. أقسم المخاطب بطول عمر المخاطب (المضاف إليه)، وهذا يوحي بتعظيمه لشأنه.

(1) \_ المصدر السابق (المراقبة: ص 181).

(2) \_ المصدر نفسه (الشكر: ص 164).

(3) \_ المصدر نفسه (الفرقان: ص 187).

(4) \_ المصدر نفسه (الصمت: ص 56).

(5) \_ "المغتاب" تستعمل هذه الصيغة اسم فاعل واسم مفعول.

(6) \_ مقامات الزمخشري (العفة: ص 101).



3.3. تحقير المضاف إليه: وضابطه أن يضاف الاسم إلى مستحقر، فيحقر بحقارته، كقول الزمخشري: (( فَلَوَ أَطَاعَ ذُو الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ وَالْكُنَى الثَّلَاثِ صِنْوَهُ. لَمَا تَنَازَعَتْ ضِبَاعُ بَنِي غَطَفَانَ شِلْوَهُ ))<sup>(1)</sup>، أضيف بنو غطفان إلى "ضباع"، وهي أقدر المخلوقات، يضرب بها المثل في التطفل والافتيات على فضلات غيرها، من أجل تحقيرهم وتوبيخهم.

وقوله: (( لَقَدْ أَضَلَّتْ هَمَّتَكَ فِي وَادِي الشَّعْرِ فَأَصِخْ لِمُنْشِدِهَا، وَإِنْ أَنْشَدَتْ نَفَاثَاتُ الشُّعْرَاءِ فَلَا تُصْغِرْ إِلَى مُنْشِدِهَا، نَادِ أُمَّ الشُّعْرَاءِ يَا حَبَاثِ، وَعَجِّلْ بِنَاتَهَا بِالثَّلَاثِ ))<sup>(2)</sup>. حيث حقر المخاطب "الشعراء" بإضافتهم إلى منكور مستحقر وهو: نفاثات الساحر.

4.3. التعظيم لشأن غير المضاف والمضاف إليه: وربما قصد المخاطب بالتضاييف تعظيم أو تحقير غير المتضاييفين، فيُعظّم أو يُحَقِّر من خلاهما طرفا ثالثا غيرهما. مثل قول الزمخشري:

والعز أن يلوي على الصبر الذي يمشي ثواب الله تحت لوائه. (الكامل)

حيث يقصد المخاطب بالتضاييف تعظيم "الصبر" المضاف ضميرا إلى لواء.

4. إفادة الرحمة وقرب المنزلة: وسماه السيوطي الترفيق. كالذي في مقامة التماسك: (( إِنْ هَفَا أَحْوَكُ فَعَابَتْهُ بِالْإِغْضَاءِ. وَإِنْ أَسْحَطَكَ فَعَابَتْهُ بِالْإِرْضَاءِ. وَإِنْ اسْتُطِيرَ صَاحِبُكَ، وَثَارَ ثَائِرُهُ فَوَلَّهِ مِنْكَ سَاكِنَا طَائِرُهُ ))<sup>(3)</sup>. أضيف "الأخ" إلى "كاف الخطاب" دلالة على أنه من شأن الأخ أن يرحم أخاه لما بينهما من وشيجة رحم، وقربة دم، وللمقصدية نفسها إضافة "صاحب" إلى "كاف الخطاب" هكذا ينبغي أن يعامل الصديق صديقه. ويفيد المسند إليه في التركيب كذلك "التمعية" حيث تصرفه عن أخ أو صاحب معين. "أي إخفاء الأمر عن غير المخاطب من السامعين".

5. الذم والاستهزاء: الأصل في العلم أنه لا يجوز إضافته؛ لأن الإضافة لا تفيد تعريفه أو تخصيصا أو إيضاحا لأنه معرفة بنفسه، فليس في حاجة جديدة إليها... إلا إذا وجد داع بلاغي فإنه يجري مجرى النكرات، وسائر الأسماء المبهمة الشائعة، فتدخله "أل" المعرفة، ويضاف... وقد يكون الأثر البلاغي المدح أو الذم أو تقليل الاشتراك وزيادة التعيين والتحديد والإيضاح<sup>(4)</sup> كالتضاييف الموجود في قول الزمخشري: (( اذْكَرَ الْمُرَوَائِيَّ وَمَا مُنِي بِهِ مِنْ حُطَّةٍ عَلَى رَأْسِهِ مَصْبُوءَةٌ. حِينَ غُصَّتْ بِحَبَّةِ الرُّمَانِ حُبَابَتُهُ الْمُحْبُوءَةُ ))<sup>(5)</sup>.

(1) \_ المصدر السابق (أيام العرب: ص 259).

(2) \_ المصدر نفسه (اجتناب الظلمة: ص 149).

(3) \_ المصدر نفسه (التماسك: ص 201).

(4) \_ انظر عباس حسن، النحو الوائي، الجزء 1، هامش ص 294.

(5) \_ مقامات الزمخشري (الزهد: ص 35).

أجرى المخاطب العلم "حباة" حبيبة يزيد بن عبد الملك بن مروان مجرى النكرة ثم سلك مسلكا آخر في تعريفه وهو الإضافة لإنشاء دلالة الدم اتكاءً على السياق.

6. الاستغراق والتعميم: حين يضاف المسند إليه إضافة هي من خواص الجنس دون الفرد، كقول الزمخشري: «لَيْكُنْ عَمَلُكَ دِيمَةً، فَلَيْسَ لِلْعَمَلِ الْأَبْتَرِ قِيمَةً»<sup>(1)</sup>، أي ليكن كل عملك متواصلا مستمرا، فالحكم لا يسري على عمل محدد دون آخر، وإنما يشمل كل عمل.

و. تعريف المسند إليه بالعلمية:

العلم هو «اللفظ الذي يدل على معين، بحسب وضعه<sup>(2)</sup>، بلا قرينه<sup>(3)</sup> كخالد وفاطمة ودمشق والنيل. ومنه أسماء البلاد، والأشخاص، والدول، والقبائل، والأنهار، والبحار، والجبال»<sup>(4)</sup>. فهو إذن، مقصور على مسماه، غني عن القرينة. وقيل في تعريفه كذلك: «إنه (العلم) ما علق على شيء بعينه غير متناول ما أشبهه، ولا يخلو من أن يكون اسما كزيد وجعفر، أو كنية كأبي عمرو وأم كلثوم، أو لقبا كبطة وقفة»<sup>(5)</sup>، ويشير هذا التعريف إلى أقسام العلم، وهي:

فأما العلم الاسم: فهو ما وضع لتعيين المسمى أولا، سواء أدل على مدح أو ذم، كسعيد وحنظلة، أو غيرهما كزيد وعمرو، وسواء أُصْدِرَ بـ "أب" أو "أم"، أم لم يصدّر بهما، فالعبرة بإسمية العلم إنما هو الوضع الأوّل.

وأما العلم الكنية: هو ما وضع ثانيا بعد الاسم، وصدّر بـ (أب أو أم)، (ابن أو بنت)، (أخ أو أخت)، (عمّ أو عمّة)، (خال أو خالة)، كأبي الفضل، وأم كلثوم، وابن مريم، وبنت الصديق... وأما العلم اللقب: هو ما وضع ثالثا أي بعد الكنية، وأشعر بمدح: كالرشيد وزين العابدين، أو ذم: كالأعشى والشنفرى، أو نسبة إلى عشيرة أو قبيلة أو بلدة أو قطر<sup>(6)</sup>: كأن يعرف الشخص بالهاشمي أو التميمي أو القسطيني أو الجزائري.

(1) \_ المصدر السابق (الاستقامة: ص66).

(2) \_ العلم يدل على معين بحسب وضعه، لأن الاشتراك بحسب الاتفاق لا يضر، كخليل المسمى به أشخاص كثيرون، فاشتراكهم في التسمية إنما كان بحسب الاتفاق والتصادف، لا بحسب الوضع، لأن كل واحد من الواضعين إنما وضع هذا الاسم لواحد بعينه.

(3) \_ العلم يعين مسماه بلا قرينة: أما بقية المعارف، فالضمير يعين مسماه بقرينة التكلم أو الخطاب أو الغيبة، واسم الإشارة يعينه بواسطة إشارة حسية أو معنوية. واسم الموصول يعينه بواسطة الجملة التي تذكر بعده. والمعرف بـ "أل" يعينه بواسطة النكرة المقصودة بالنداء تعينه بواسطة قصدتها به. والنكرة المضافة إلى معرفة تعينه بواسطة إضافته إليها. ( المرجع التالي ص109 )

(4) \_ انظر مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، الجزء1، ص109.

(5) \_ الزمخشري، المفصل في علم العربية، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص8.

(6) \_ انظر مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ص110. وعباس حسن، النحو الوافي، ص307، 308

والأصل أن يؤتى بالمسند إليه علما لإحضار معناه في ذهن السامع باسمه الخاص ليتميز عمّن عداه. ومع هذا قد يقصد أغراضا تواصلية، وأبعادا تداولية مراعاة للمقام ومقتضى حال المخاطب، ومنها:

1. التعظيم والإهانة: وأكثر ما يحقق هذا الغرض الأسماء، والكنى، والألقاب المحموده، والمذمومة<sup>(1)</sup>

1.1. المدح والتعظيم: ويتحقق بالأعلام المحموده كقول الزمخشري: «وكانَ ثابتُ أخو بني فُهْم، موصوفاً بثَبَاتِ القَدَمِ»<sup>(2)</sup>. استحضر المخاطب المسند إليه معرفا بالعلمية (ثابت) ليفيد به الأصل، وبعدا تداوليا آخر مستفادا من دلالة العلم هو المدح، وكان الاسم العلم اسما على مسمى فقد وصفه المخاطب بأنه كان موصوفا بـ " ثبات القدم ". وتتمثل القوة الإنجازية المستلزمة مقاميا للتركيب في المدح.

ومن أسماء الأعلام التي مدح بها " نافت " في قوله: « تقترحُ عليكِ وصيْفًا موصوفاً بالجمال، واصِفاً للغزاة والغزاة، مُقَرطَعًا مُخَنَقَ الحَصْرِ، يَنْفُثُ فِي عَقْدِ السِّحْرِ، اسْمُ أَبِيهِ يافِث، واسمُهُ نَافِث »<sup>(3)</sup>.

كان ممكنا أن يكتفي بوصف الوصيف بما وصف، لكنه زاد ذكر العلم الاسم " نافت " لإحضار معناه في ذهن المخاطب، ويضيف العلم بعدا تداوليا يستشف من دلالة العلم، وهي المدح، لأن النفث في السحر صنعة مليحة. فكان اسما على مسمى.

2.1. الذم والإهانة: ويكون بالأعلام المذمومة. كقول الزمخشري: «وتنكَّب التَّحْرِيدَ والإِيطَاءَ، والتَّضْمِينَ والإِكْفَاءَ، وما صنَع في ارتجازه أبو جهل، فهو السَّالمُ من كُلِّ خَطِئٍ وَجَهْلٍ»<sup>(4)</sup>، عدل المخاطب عن إحضار أبي جهل - وهو عمرو بن هشام، كان أشد الناس عداوة للرسول ﷺ، قتل في غزوة بدر في السنة الثالثة للهجرة - باسمه " عمرو بن هشام " إلى ذهن السامع، من أجل تحقيق بعد تداولي، وهو الذم والإهانة، ولا يستحق الذكر بالاسم. وارتجاز أبي جهل قوله:

بازلُ عامينِ حديثُ سِيِّ بمثلِ هذا ولَدنِّي أمِّي.

ومثله العلم الفضلة في التركيب «اذكُر المُرَوانِيَّ وما مُنيَ به من خُطَّةٍ على رأسِهِ مصبوبةً. حينَ عُصَّتْ بحبَّةِ الرُّمانِ حُبابُتُهُ المحبوبةً»<sup>(5)</sup>. المرواني هو يزيد بن عبد الملك بن مروان، ولأن المقام مقام تحذير وتحقير، فقد ترفع المخاطب عن ذكره بالاسم، وكان كرهه وبغضه له قد أثقل إجراءه على لسانه، وإتاما ذكره باللقب " المرواني " بغضا وذما.

(1) \_ انظر القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص46. ومحمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص230

(2) \_ مقامات الزمخشري (أيام العرب: ص275).

(3) \_ المصدر نفسه (العفة: ص99).

(4) \_ المصدر نفسه (القواصي: ص244).

(5) \_ المصدر نفسه (الزهد: ص35).

وكذلك العلم اللقب في قول الزمخشري: «**على أن القدر يُعَمِّي البصر والبصيرة، وتُظلم معه الآراء المستنيرة، وإلا فلم انتظم السهْم قلباً تَأبَطَ شراً**» (1) ((2)). يحمل اللقب " تأبط شرا" دلالة الذم والإهانة مستوحاة من معنى العلم اللقب ذاته.

2. **التبرك:** ويكون ذلك بالأعلام المقدسة أو المعظمة دينياً أو اجتماعياً، كعلم الجلالة، وأعلام الأنبياء، والأولياء الصالحين، فإن كثيراً من الناس يتبركون بهم، فيسمون بأسمائهم. ومثاله من التركيب السابق "اسم أبيه يافث" يضيف العلم الاسم " يافث" على الدلالة الأصلية دلالة سياقية، وهي " دلالة التبرك" لقدسية الاسم عند الأتراك؛ فالاسم " يافث" هو أحد أولاد نوح عليه السلام، وهو أبو الترك.

3. **التفاؤل والتشاؤم:** ترتبط كثير من أسماء الأعلام بهذه الدلالة، لأن الناس يختارون الأسماء التي تعبر عن التفاؤل، ويتجنبون الأسماء التي توحى بالتشاؤم.

ومما يرتبط بدلالة التفاؤل اسم العلم "شعل" في قول الزمخشري: «**فلو أن شِعلاً كان يقظان مُشتعل الضمير... لصلي بنار بني نفاثة**» (3)، و"بشر" في قوله: «**ولو أطاع بشر بن عمرو بن مرثد ذا الكف الأشل، لما حلَّ به و بعلقمة وحسان وشرحبيل ما حلَّ**» (4)، وهذه الدلالة من إيجاءات اسمي العلم ذاته. ومن أسماء الأعلام التي تحمل دلالة التشاؤم "الجعد" في قوله: «**ولا تنس ما فعل بأحد الصممتين مالِك، وما دفعتهُ إليه من المهالك، حين منَّ عليه الجعد، ثم غدرَ به مالِك من بعد**» (5) ويدل العلم على البخل واللؤم.

ومما أورده الزمخشري غير مسند إليه دالاً على معنى التشاؤم اسم العلم "الأسود" في قوله: «**وبغى على الأسود في ابنه شرحبيل، بالمكر الذي أصبح منه بسبيل**» (6)، إذ يدلّ السواد غالباً على الحزن والحرب.

2. **الأبعاد التداولية لتعريف المسند:**

الأصل في المسند أن يكون نكرة في التركيب الاسمي، لكنه قد يعدل عنه فيكون معرفة لأسباب تداولية أبرزها:

- (1) - **تأبط شرا:** (توفي حوالي 85 ق.هـ) ، أحد أشهر الشعراء الصعاليك ، اسمه ثابت بن جابر ، وتأبط شرا لقب عرف به، وقد ذكروا في ذلك أنه أخذ ذات يوم سيفاً تحت إبطه وخرج، حتى إذا سئلت أمه عنه أجابت: لا أدري، ولكن تأبط شرا وخرج " ( منير البعلبكي، معجم أعلام المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت، ط1، 1992، ص 135 )
- (2) - مقامات الزمخشري، (أيام العرب: ص 275).
- (3) - المصدر نفسه (أيام العرب: ص 274)
- (4) - المصدر نفسه (أيام العرب: ص 260)
- (5) - المصدر نفسه (أيام العرب: ص 262)
- (6) - المصدر نفسه (أيام العرب: ص 271)

**1. التخصيص:** وهو أن تقصر جنس المعنى الذي تفيده بالخبر على المخبر عنه<sup>(1)</sup>، لأنه لا يوجد إلا منه، أو على دعوى أنه لا يوجد إلا منه. كقول الزمخشري: «**فَهُوَ الْكَبِيرُ وَمَا خَلَاهُ إِلَيْهِ حَقِيرٌ. وَهُوَ الْعَنِيُّ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ فَقِيرٌ**»<sup>(2)</sup>. فالمعنى أن الكِبَر والعِنْيَ يجملتهما مقصوران عليه (الله) وحده، لا يتجاوزانه. ومثله قوله: «**فَهُوَ الْمَطَّلَعُ عَلَى مَا اسْتَكَنَّ مِنْ ضَمَائِرِكَ. وَمَا اجْتَنَّ فِي أَحْشَائِكَ مِنْ سَرَائِرِكَ**»<sup>(3)</sup>. أي أن الاطلاع على مكونات النفس وسرائرها مقصور على المسند إليه (الضمير "هو" العائد على الله تعالى) وحده لا يتجاوزه إلى غيره.

**2. المبالغة في قصر الصفة على الموصوف:** وهو «أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه، لقصدك المبالغة. وذلك قولك: "زيد هو الجواد" و"عمرو هو الشجاع" تريد أنه الكامل، إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره على أن يبلغ الكمال»<sup>(4)</sup>. جاء في المدونة قول الزمخشري: «**وَمَا هِيَ (الْحُلَّةُ) إِلَّا لِبَاسُ التَّقْوَى الَّذِي هُوَ اللَّبَاسُ**»<sup>(5)</sup>. فقد قصر المخاطب اللباس على التقوى، أي: من أراد لباساً حقيقياً ساتراً حق الستر مجسداً ومتمثلاً فليبصره في لباس التقوى، إلا أنه لا ينفي صفة عن غيره، لكنه لم يعتد بغيره من الألبسة، لأنها يعثورها النقص، وتقصّر عن بلوغ الكمال الذي بلغه المسند إليه "لباس التقوى"، إلا أن إبراد المسند "اللباس" معرفاً بـ"ال" أوهم السامع بأن اللباس الحقيقي الكامل يقتصر عليه وحده. وقد «تقصر جنس المعنى الذي تفيده بالخبر على المخبر عنه... على دعوى أنه لا يوجد إلا منه، ولا يكون ذلك إلا إذا قيدت المعنى بشيء يخصه، ويجعله في حكم نوع برأسه، وذلك كنحو أن يقيّد بالحال والصفة والوقت»<sup>(6)</sup>، كما في الخطاب: «**الْكَامِلُ هُوَ الْعَامِلُ الْحَامِلُ**»<sup>(7)</sup>»<sup>(8)</sup>. حيث قصر المخاطب معنى العمل المخلص المجرد من الشهرة والرياء على الإنسان الكامل، ويريد أن الكمال يختص بفئة خاصة من العمال، وهم الخاملون دون سواهم.

### 3. الأبعاد التداولية لتكثير المسند إليه:

- (1) \_ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 180.
- (2) \_ مقامات الزمخشري، (المراقبة: ص 181).
- (3) \_ المصدر نفسه، (الاخلاص: ص 119).
- (4) \_ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 179.
- (5) \_ مقامات الزمخشري، (العفة: ص 103).
- (6) \_ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 180.
- (7) \_ الخامل: خمل الرجل أي خفي ذكره وصيته.
- (8) \_ مقامات الزمخشري، (الخمول: ص 208).

النكرة اسم يدل على شيء غير معين. بسبب شيوعه بين أفراد كثيرة من نوعه تشابهه في حقيقته، ويصدق على كل منها اسمه. وأما مدلول النكرة ففرد شائع بين أفراد كثيرة. وهي قسمان نكرة محضة، ونكرة غير محضة.

أما المحضة - وتسمى تامة أو كاملة - وهي التي يكون مدلولها شائعا بين أفراد مدلولها، مع انطباقه على كل فرد، مثل كلمة "رجل"، فإنها تصدق على كل فرد من أفراد الرجال، لعدم وجود قيد يجعلها مقصورة على بعضهم دون غيره.

وأما النكرة غير المحضة (وتسمى ناقصة): وهي النكرة المقيدة كقولنا "رجل صالح" تنطبق على بعض أفراد من الرجال، وهم الصالحون دون غيرهم. فاكسبت بهذا التقييد شيئا من التخصيص والتحديد وقلة العدد بسبب الصفة التي بعدها، التي جعلتها أقل إبهاما وشيوعا من الأولى. والقيد في النكرة غير المحضة يكون صفة أو إضافة النكرة الجامدة إلى نكرة أخرى أو وقوعها حالا... (1).

وعرفها ابن هشام بأنها «عبارة عما شاع في جنس موجود أو مقدر، فالأول كرجل، لأنه موضوع لما كان حيوانا ناطقا ذكرا، فكلمما وجد من هذا الجنس واحد فهذا الاسم صادق عليه، والثاني كشمس، فإنها موضوعة لما كان كوكبا نهاريا ينسج ظهوره وجود الليل، فحقتها أن يصدق على متعدد كما أن رجلا كذلك، وإنما تخلف ذلك من عدم وجود أفراد لها في الخارج، ولو وجدت لكان هذا اللفظ صالحا لها، فإنه لم يوضع على أنه يكون خاصا كزيد وعمرو، وإنما وضع أسماء الأجناس» (2).

وهذا لا يعني أن التأليف بالنكرات ملبسٌ دائما، يمنع النظم منها فقط، مادامت لا تفيد، وخاصة إذا كانت مسندا إليها، وربما أنجز الخطاب بالتنكير ما لا ينجزه بالتعيين. «وقد يقفك التنكير والإبهام على تعريف يعجز عنه تعريف العلم، ويقصر عن صنيعه بيان القلم» (3). ووقف البلاغيون على مجموعة من اللطائف، والنكت، والدلالات التي يمكن أن تستفاد بالتنكير، يقول أحد اللغويين: «وقد يظن ظان أن المعرفة أجلى، وهي من النكرة أولى، ويخفى عليه أن الإبهام في مواطن خليق، وأن سلوك الإيضاح ليس بسلوك للطريق، خصوصا في موارد الوعد والوعيد، والمدح والذم اللذين من شأنهما التشديد، وعلّة ذلك أن مطامح الفكر متعددة المصادر بتعدد الموارد، والنكرة متكررة الأشخاص يتقاذف الذهن من مطالعها إلى مغاربها، وينظرها بالبصيرة من منسمها إلى غاربها، فيحصل في النفس لها فخامة، وتكتسي منه وسامة، وهذا

(1) - انظر عباس حسن، النحو الوائى، الجزء 1، ص 206 وهامش ص 213.

(2) - ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، تح محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ص 128

(3) - ابن الزمكاني، التبيان في علم البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني بغداد، ط 1، 1946، ص 52.

فيما ليس لمفرده مقدار محصور بخلاف المعرفة، فإنها لواحد بعينه يثبت الذهن عنده، ويسكن إليه<sup>(1)</sup>.  
وتكاد سياقات تنكير المسند إليه تتداخل مع سياقات تعريفه، إلا في بعض الاستعمالات التي تختص بها النكرة. فتحقق أغراضا وفوائد بلاغية، وأبعادا تداولية بمعونة السياق، وإفادة مقتضى الحال، وربما تعددت دلالات النكرة الواحدة لتمدد السياق واستطالته في النص المكتوب كالمندونة محل الدراسة. ومنها:  
**1. الأفراد:** أي أن يكون المقصود بتنكير المسند إليه فردا واحدا غير معين من الأفراد التي يصدق عليها مفهوم الاسم النكرة، وتدل كلمة "سيّد" في قول الزمخشري: «لَكَ سَيِّدٌ مَا أَجَلُّهُ ! وَأَنْتَ عَبْدٌ مَا أَذَلُّهُ»<sup>(2)</sup> على الأفراد والوحدة، أي لك سيّد واحد، ويضاف إلى هذه الدلالة دلالة أخرى وهي: التعظيم، للدلالة السياق عليها.

وكذلك قوله: «وَكَمْ مِنْ عِظَةٍ ضُرِبَ بِهَا وَجْهٌ فَوَجَدَتْهَا أَبْرَدَ مِنْ جَمْدٍ. وَوَجَدْتُكَ أَقْسَى مِنْ جَلْمَدٍ. لَمْ تُعْتَصِرْ مِنْ جَبِينِكَ رَشْحَةٌ مِنْ حَيَاءٍ. وَلَا مِنْ وَجْتِكَ قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ»<sup>(3)</sup>. يدل السياق العام للمقامة على دم مخاطب لا يتأثر بالمواعظ، وهذا ما يرشح النكرتين "رشحة" و"قطرة" للدلالة على الوحدة، يعني لا تعصر من جبينه ووجنته رشحة وقطرة واحدة، ومن المنطقي ألا يكون ما هو أكثر منهما، وهو الفعل الإنجازي المتضمن في القول، وبعض هذه القراءة ورود الصيغتين على وزن "فعله" الدال على المزة كما يقول الصرفيون.

**2. النوعية:** وقد يستعمل المسند إليه نكرة لإفادة النوع، أي الجنس المخصص بالوصف، كما في قول الزمخشري: «فَتَى طَيَّانٌ مِنَ الْمَنَاقِصِ وَالرِّذَائِلِ. رِيَّانٌ مِنَ الْمَنَاقِبِ وَالْفَضَائِلِ. إِنْ ذُكِرَ مَثْنُ اللَّغَةِ فَحِلْسٌ مِنْ أَخْلَاسِهِ»<sup>(4)</sup>. فالمسند إليه "فتى" جنس مخصص بالوصف "طيان" و"ريان" للدلالة على النوعية. وتحقق الدلالة نفسها النكرتان "كلمة" و"صالحة" في قوله: «وَإِنْ سَبَقَتْ لَكَ صَالِحَةٌ فِي النَّدْرِ شَيِّعَتْهَا بِمَا يُجْبِطُهَا. وَإِنْ صَعَدَتْ لَكَ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ أَبْرَدَتْ وَرَاءَهَا مَا يُجْبِطُهَا»<sup>(5)</sup>.

**3. التعظيم والتحقير:** ينكر المسند إليه ليدل على عظمة مدلوله أو حقارته؛ ووجه ذلك في الدلالة «أَنَّ الشَّيْءَ فِي التَّعْظِيمِ يَكُونُ مِنْ رَفْعَةِ الشَّأْنِ وَعُلُوِّ الطَّبَقَةِ إِلَى حَدِّ لَا يُمْكِنُ مَعَهُ أَنْ يُعْرَفَ، أَوْ يُبْلَغَ

(1) ابن الزمكاني، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، تحقيق خديجة الحديثي وأحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ص 136.

(2) مقامات الزمخشري، (الإخلاص: ص 118).

(3) المصدر نفسه (النصح: ص 177).

(4) المصدر نفسه (العمل: ص 121).

(5) المصدر نفسه (الإخلاص: ص 118).

مكانته<sup>(1)</sup> ويكون في التحقير للدلالة على دونية شأن المدلول وانحطاطه، بحيث لا يُلتفت إليه فلا يعرف، قياساً على ما سبق، ويكون مجهولاً في جنسه على كلا التقديرين والحالتين.

**1.3. التعظيم:** وقد ينتجه السياق، على معنى أن المسند إليه أعظم من أن يعرف. كما في التركيب ((**لله عبْدٌ لم يطْرُقْ بابَ ملكٍ ولم يَطَأْ عَتَبَتَهُ. ولم يلمَحْ ببصرِهِ مرْتَبَتَهُ**))<sup>(2)</sup>. وما دام المخاطب مادحاً، فلا ينتج السياق إلا التعظيم. فالعبد- بما عرف عنه من القناعة والزهد والخروج عن سلطان النفس- أعظم من أن يعرف. وتحمل الدلالة ذاتها الكلمات: قضاء، ونعمة، وأودية في قول الزمخشري:

أصْحَكَ بِالْعَلَّةِ الْمُضْنِيَّةِ      قِضَاءٌ تُرَدُّ لَهُ الْأَقْضِيَّةُ      (المقارب)  
فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الدَّاءَ فِي      تَمَادِيهِ أَشْفَى مِنَ الْأَدْوِيَةِ  
أَلَا إِنَّهَا نِعْمَةٌ لَوْ جَرَتْ      لَسَأَلْتُ بِأَيْسَرِهَا أَوْدِيَةَ<sup>(3)</sup>.

أفاد تنكير كلٍّ من المسند إليه " قضاء " و " أودية " والمسند " نعمة " في التركيب التعظيم، وذلك مفاد من السياق اللغوي والموقف؛ حيث إن "قضاء" مرجع الأفضية كلها، والنعمة اليسيرة تزخر منها الأودية وتمتد، فما بالك بأعظمها؟ ولكي تتحقق دلالة التعظيم في " نعمة " لا بد أن تكون مجاريها عظيمة، حتى تتحقق الدلالة المقصودة.

**2.3. التحقير:** ومعناه أن المسند إليه أحقر من أن يعرف. مثل كلمة "كِنَّ" في قول الزمخشري: ((

يَكْفِيكَ مِنَ الرُّوَاقِ الْمُزْخَرَفِ وَبِسَاطِهِ الْمُوَشَّى كِنَّ كَأَنَّهُ كِنَاسُ الْوَحْشِيِّ))<sup>(4)</sup>. ينتج السياق دلالة التحقير للكلمة، ويؤكد هذا الدلالة بالوصف بعدها، وهو الفعل الإنجازي المتضمن في القول.

**4. التكثر والتقليل:** وهذه الدلالة مبنية على ما قرره النحويون من أنّ النكرة قابلة للتكثير والتقليل، حيث إنّ الدال يكون من الكثرة أو القلة بحيث لا تعرف كميته ولا مقداره فيهما، ولا يحاط به إحصاء ولا حصر حتى صار كالنكرة. أو يعلم جهل المخاطب بهما، فيوحي إليه بها، ويرى أحد البلاغيين أنهما ((يكونان في الكميات والمقادير تحقيقاً))<sup>(5)</sup>.

**1.4. التكثر:** وتؤدي النكرة هذا الغرض (( إذا كان المنكّر كثيراً، حتى أنه لا يحتاج إلى تعريف))<sup>(6)</sup>، وما

(1) \_ انظر أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، تحقيق حسن محمد، دار الجيل، بيروت، (د ط)، (د ت)، ص 91

(2) \_ مقامات الزمخشري، (الظلف: ص 88).

(3) \_ المصدر نفسه (المنذرة: ص 65).

(4) \_ مقامات الزمخشري (العفة: ص 101).

(5) \_ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 91

(6) \_ محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 233.



يؤدي هذه الدلالة كلمة "سما" و "أرض" في قول الزمخشري: « وَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تُظَلِّكُمَا سَمَاءً فَاحْرِصْ . وَأَلَّا تُقَلِّكُمَا أَرْضًا فَافْتَرِضْ »<sup>(1)</sup>. حيث يعرض بجهل المخاطب كثرة السموات والأرضين، فعمد إلى تنكير السماء والأرض إشارة إلى كثرتهما، أي: لا تظلكما سما من السموات، ولا تقلكما أرض من الأرضين.

**2.4. التقليل:** على معنى أن ذلك المنكر قليل لدرجة أنه لا يحتاج لتعريف. كما في مقامة الأسوة: « يا أبا القاسم لله عباداً رهتوا بحق الله ذمهم . وعقدوا بانغواء رضوانه همهم »<sup>(2)</sup> نكر المخاطب المسند إليه " عباد " للدلالة على التقليل بمعونة السياق. أي: هم قليل من كثير ضمنوا قضاء حق الله، وجعلوا ذمهم رهائن ذلك. كقول الإمام علي عليه السلام: « ذمتي رهينة، وأنا به زعيم ». ومما يحقق هذه الدلالة في المكملات قول الزمخشري: « وَقُصَارَى ذَاكَ أَنَّهُ يَصِيبُهُ بِنَفْحَةٍ مِّنَ السُّحْتِ . وَرَضْخَةٌ مِّنَ الْحَرَامِ الْبُحْتِ . هَزَّ عَطْفَهُ وَنَشِطٌ »<sup>(3)</sup>. يدل تنكير المكملين "نفحة" و"رضخة" على التقليل، وذلك مستفاد من السياق، فمهما يتسحَّ ملكٌ على إنسان فهو قليل إذا ما قيس بفيوضات الله وعطاءاته.

والفرق بين التعظيم والتكثير؛ أن التعظيم بحسب رفعة الشأن وعلو الطبقة، وأن التكثير باعتبار الكميات والمقادير تحقيقاً كمياً، ويلاحظ ذلك الفرق أيضاً في التحقير والتقليل.

وعموماً فإن التنكير ترشُّح منه معانٍ مستلزمة تستفاد من سياق الحديث ومقام التلفظ، وهي معانٍ تمثل مقصدية المتكلم، وأكثرها مبني على دلالة التنكير الأصلية، وهذه المعاني النكرة تستخدم في مواضع لا يمكن أن يؤديها التعريف، وفي كثير من الأحيان عمداً إلى تنكير المعرفة ليحقق بعض الأغراض والدلالات الإضافية التي لا يمكن أن يؤديها الاسم وهو معرفة، بالإضافة إلى هذا تعدد معاني النكرة الواحدة، فتحدد دلالة نكرة بحسب ما رجح عند التأمل والتفكير، ومراعاة لمطلب التنويع.

### ثالثاً: تداولية التقديم والتأخير في مقامات الزمخشري:

من البين أن رتبة المسند إليه التقديم، لأنه المحكوم عليه، ورتبة المسند التأخير إذ هو المحكوم به، وما عداها متعلقات وتوابع، وتأتي تالية لهما في الرتبة، لكن الاستعمال الفردي قد يعرض لهذه السنن والقوانين فتنتهك أحياناً اعتباراتٍ يتطلَّبها السياق، ويدعو إلى تقديمها، وإن كان حقُّها التأخير، فيكون من الحسن إذن، تغيير هذا الأصل، والخروج عن النسق المألوف، ليكون العنصر المقدم مشيراً إلى الغرض الذي يؤدي إليه، ومترجماً عملاً يريد، يقول الجرجاني: « وجملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في شيء حتى

(1) \_ مقامات الزمخشري (الولاية: ص 112).

(2) \_ المصدر نفسه (الأسوة: ص 171).

(3) \_ المصدر نفسه (الظلف: ص 84).

يكون هناك قصد إلى صورة وصفة، إن لم يُقَدَّم فيه ما قُدِّم، ولم يُؤَخَّرْ ما أُخِّر، وبدئ بالذي تُثني به، أو ثني بالذي تُثَلِّث به، لم تحصل لك تلك الصورة، أو تلك الصفة»<sup>(1)</sup>.

والتقديم والتأخير حركة أفقية ينقل المتكلم بموجبها الدوال من مواضعها الأصلية إلى مواضع طارئة جديدة، ليكون الخطاب أكثر فنية، وأبلغ تعبيرية، وأوقع في المتلقي، وهذه الحركة ليست مزاجية تخضع لهوى المتكلم، وإنما هي حركة مضبوطة- لكنه ضبط جديد يسمح به النظام نفسه- محكومة بغايات الخطاب وأغراضه ومقاصد المخاطب، وسياق الحال والاستعمال، وبسببها يُعَلَّقُ الكلامُ بعضه ببعض، ويبنى بعضه على بعض، ويرتب في النطق بسبب ترتب معانيه في النفس، وفق ما تقتضيه قوانين النحو وأصوله (( بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضوع، وبحسب المعنى الذي تريد، والغرض الذي تؤمُّ ))<sup>(2)</sup>.

وترتبط مقولة التقديم والتأخير بالبعد المعنوي؛ فالبلاغي يحرص على كشف الإرادة الاستعمالية للتركيب المنجز، وهذه الإرادة شيء زائد على التركيب؛ لأنها مرتبطة بسياق الحال وموافقة لمقتضاه، فالقصد ليس مسلطاً على التركيب في ذاته فحسب، وإنما في خواصه، وينطلق من النظر إلى التراكيب على أساس صورتها الظاهرة المنجزة في إطار من التفاعل بينها وبين مقتضيات المقام، لذلك فإن حركة الدوال في تركيب منجز عمل قصدي، يقتضيه غرض بلاغي أو بعد نفسي، ويحقق دلالات ومعاني إضافية زائدة على دلالة التركيب الأصلي، (( فالقديم والتأخير هو باب كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترُّ لك عن بديعة، ويُفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يرووك مَسْمَعُهُ، وَيَلْطَفُ لَدَيْكَ مَوْقِعُهُ ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قُدِّم فيه شيء، وحوَّل اللَّفْظُ عن مكانٍ إلى مكانٍ ))<sup>(3)</sup>.

ومن ثمَّ نجد عبد القاهر الجرجاني يعيب على النحويين قصور نظرهم إلى ظاهرة التقديم والتأخير وغيرها من مقولات العدول الرُّثْبِيّ والكمي، وتهوين مزاياها واكتفائهم بحصر الدلالة في "الاهتمام والعناية"، كما ذكر سيبويه في تقديم المفعول على الفاعل (( كأهم [إنما] يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم في بيانه أعنى، وإن كان جميعاً يهملهم ويعنيانهم ))<sup>(4)</sup>، أو في الإفادة فقط؛ فيقال في بعضها مفيد وفي الأخرى غير مفيد. لا سيما وأن سياقات الاستعمال أكثر من أن تحصر فيهما: (( وقد وقع ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: (( إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم )) من غير أن يذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهم؟

(1) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، ص 364

(2) - المرجع نفسه، ص 87.

(3) - المرجع نفسه، ص 106

(4) - سيبويه، الكتاب، الجزء 1، ص 34

ولتخيّلهم ذلك قد صغُر أمر (( التقديم والتأخير)) في نفوسهم، وهَوَّنوا الخطب فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبّعهُ والنظر فيه ضرباً من التكلف، ولم تر ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه))<sup>(1)</sup>

والمعلوم أن التعديل في رتبة التركيب على مستوى العُمدات والقُضلات، إما أن يستتبع التغيير الرتبي تغيير حكمي للعنصر المعدول، وإما أن يثبت على حكمه مع تغيير رتبته، وهذا الذي عبّر عنه عبد القاهر الجرجاني بالتقديم على نيّة التأخير، والتقديم لا على نية التأخير، (( واعلم أن تقديم الشيء على وجهين: الأول: تقديم يقال: إنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقررتَه مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل، كقولك: «منطلق زيد» و«ضرب عمراً زيد» معلوم أن «منطلق» و«عمراً» لم يخرجوا بالتقديم عما كان عليه، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعاً بذلك، وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله، كما يكون إذا أُخّرت. والثاني: تقديم لا على نيّة التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له باباً غير بابه، وإعراباً غير إعرابه، وذلك أن تجيئ إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ، ويكون الآخر خبراً له، فتقدم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا، ومثاله ما تصنعه بزيد والمنطلق، حيث تقول مرة: «زيد المنطلق» وأخرى «المنطلق زيد» فأنت في هذا لم تقدم «المنطلق» على أن يكون متروكاً على حكمه الذي كان عليه مع التأخير فيكون خبر مبتدأ كما كان، بل على أن تنقله عن كونه خبراً إلى كونه مبتدأ، وكذلك لم تؤخر «زيداً» على أن يكون مبتدأ كما كان، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبراً))<sup>(2)</sup>.

ويعني هذا أنه لن يكون هناك تعديل رتبي بالتقديم والتأخير في عمدات التراكيب وفضلاتها إلا في حدود ما تسمح به قوانين النحو، وقصد المتكلم إلى تحقيق لطائف ومعان وأغراض إضافية بعد العناية والاهتمام، ومراعاة سياق الكلام، وعملي في هذا المبحث مركز أكثر على تقديم المسند والمسند إليه، وما تنبثق عن حركتهما من فوائد ودلالات ومقاصد تقصر أن تؤديها في مواقعها الأصلية.

## 1. الأبعاد التداولية لتقديم المسند إليه:

### 1.1. التقديم في الخبر الفعلي المثبت: مسند إليه (م إ) + مسند (م) مثبت.

يقدم المسند إليه المعرفة ثم يخبر عنه بالخبر الفعلي المثبت ((لرد على من زعم انفراد غيره به، أو مشاركته فيه كقولك: أنا كتبت في معنى فلان، وأنا سعيت في حاجته، لذلك إذا أردت التأكيد قلت للزاعم في الوجه الأول: أنا كتبت في معنى فلان لا غيري، ونحو ذلك. وفي الوجه الثاني: أنا كتبت في معنى فلان

(1) \_ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص108

(2) \_ المرجع نفسه، ص106.

وحددي، ونحو ذلك<sup>(1)</sup>. وعلى هذا يحقق تقديم المسند إليه فعله، وكان فاعل الفعل هو المسند إليه المقدم نفسه فائدتين:

**الأولى: التقديم للتأكيد والتحقيق،** إذا قدم المسند إليه وكان معرفة، وكان المسند ذا ضمير له، أن يقرر الحكم في ذهن السامع، ويؤكد به سبب تكراره سواء كان اسما ظاهرا أو مضمرا مستترا نحو: "زيد ركب" أو ضميرا منفصلا ومتصلا نحو: "أنا ركبت" و"أنت ركبت"، أو منفصلا ومستترا نحو: "هو ركب"<sup>(2)</sup>، فإذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدث عنه بفعل فقدّمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه، فقلت: "زيد قد فعل" و"أنا فعلت"، و"أنت فعلت"... وأنت تريد أن تحقق على السامع أنه قد فعل، وتمنعه من الشك، فأنت لذلك تبدأ بذكره، وتوقعه أولا [ومن قبل أن تذكر الفعل] في نفسه، لكي تباعده بذلك من الشبهة، وتمنعه من الإنكار أو من يظن بك الغلط أو التزئد<sup>(3)</sup>، ويؤد السكاكي كذلك التقوية إلى التكرار أي تكرار الإسناد حيث أسند الفعل إلى فاعله مرتين، مرة باعتباره مبتدأ، وأخرى باعتباره فاعلا. وهو رأي القزويني نفسه «وسبب تقويّه هو أن المبتدأ يستدعي أن يستند إلى شيء، فإذا جاء بعده ما يصلح أن يستند إليه صرفه إلى نفسه، فينعقد بينهما حكم، سواء كان خاليا عن ضميره، نحو: زيد غلامك، أو متضمنا له، نحو: "أنا عرفت"، و"أنت عرفت"، و"هو عرف"، أو "زيد عرف"، ثم إذا كان متضمنا لضمير صرفه ذلك الضمير إليه ثانيا؛ فيكتسي الحكم قوة؛ وسبب التقوية في الآراء السابقة لفظي وهو التكرار. بينما هو عند عبد القاهر الجرجاني يكمن في تراخي الإسناد: إن الاسم لا يؤتى به مجردا من العوامل إلا للحديث قد نوى إسناده إليه، فإذا قلت: "عبد الله" فقد أشعرت السامع بذلك أنك تريد الحديث عنه، فهذا توطئة له وتقدمة للإعلام به، فإذا جئت بالحديث فقلت "قام" مثلا دخل على القلب دخول المأنوس به، وذلك لا محالة أشد لثبوتة، وأنفى للشبهة، وأمنع للشك. وجملة الأمر أنه ليس إعلامك بالشيء بعتة مثل الإعلام به بعد التنبيه عليه، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام.

ومّا يدل على أن التقديم يفيد التأكيد، أن هذا الضرب من الكلام يجيء فيما سبق فيه إنكار من منكر، أو فيما اعترض فيه شك، أو في تكذيب مدّع، أو فيما يقتضي الدليل ألا يكون، أو فيما يستغرب، أو في المدح أو الضمان أو المدح أو الافتخار<sup>(4)</sup>.

(1) - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 64.

(2) - محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات، ص 49.

(3) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 128، 129.

(4) - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 65، 66.

وتتحقق هذه الصورة عندما يكون الخبر جملة فعلية مثبتة. كقول الزمخشري: « يا أبا القاسم. الله خَلَعَ مِنْ رَقَبَتِكَ رِبْقَةَ الْمَطَامِعِ »<sup>(1)</sup>. قدم المسند إليه لفظ الجلالة " الله " في التركيب من أجل تقوية الحكم " خلع ربقة المطامع "، وتأكيده في نفس المخاطب وتحقيقه، وهذا الحكم ناشئ من تكرار المسند إليه مرتين اسما ظاهرا " الله " وضميرا مستترا " هو " فاعل الفعل " خلع "، ويعود على المسند إليه المتقدم فكأنك قلت:

الله خَلَعَ هو مِنْ رَقَبَتِكَ رِبْقَةَ الْمَطَامِعِ.

ويعني التركيب أن الله - لا غيره - من خلع ربقة المطامع من ربقة المخاطب.

**الثانية: التقديم للتخصيص:** وتعني تخصيص المسند إليه بالمسند، « إذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدّث عنه بفعل فقدمت ذكره، ثم بنيت الفعل عليه، اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل، فترجم أنه فاعله دون واحد آخر، أو دون كل أحد»<sup>(2)</sup>. ويقول محمد مفتاح: «إن المسلمة التي تنطلق منها الدراسات الخاصة بالنحو العربي هي أن الجملة العربية تبتدئ بالفعل، وينتج عن هذا نتائج خطيرة على مستوى دراسة المعنى والتداول للجملة العربية. ولذلك فإن "جاء محمد" تعتبر تركيبا جاء على أصله أي أنه محايد لا يتضمن أي إيحاء تداولي. ولكننا إذا قلنا: "محمد جاء" فإن التركيز وقع على "محمد" دون سواه من الأسماء المتبادرة إلى ذهن المخاطب التي يشترك في معرفتها مع المتكلم، وكذا: "إياك أحب" و"قائما كان زيد" فتقديم "إياك" قصر المحبة على المخاطب دون غيره، كما أن تقديم "قائما" تعني انه لم يكن جالسا ولا نائما»<sup>(3)</sup>.

وعلى هذا الوجه يحقق التركيب « الله خَلَعَ مِنْ رَقَبَتِكَ رِبْقَةَ الْمَطَامِعِ » دلالة التخصيص، أي: إن الله وحده ولا يشركه أحد في الحكم، هو من خلع ربقة المطامع من ربقة المخاطب، بعد أن أمده بجأش رابط جعله عزوفا عيوفا يربأ بنفسه عن استحباب ما ليس له، والتطلع إلى ما في يد غيره.

والدلالة نفسها يحققها قول الزمخشري: «هو يُرْخِي عَلَى مَعَايِكَ سِتْرًا لَا يَشْفُ جَافِيًا. وَيُسْبِلُ عَلَى مَثَالِكَ ذِيْلًا لَا يَصِفُ ضَافِيًا»<sup>(4)</sup>، يريد المخاطب أنه «الله» وحده ستار المعاييب والمثالب، منفرد بذلك، ومستبد به، لأن من لا يستره الله يوشك أن يفضح ولو في جوف رحله.

وينتج السياق هذه الدلالة عندما يظنُّ ظانُّ أن هناك من يكون منه ذلك، أو يشارك المسند إليه في هذا

(1) \_ مقامان الزمخشري، (الديوان: ص 246).

(2) \_ انظر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 128.

(3) \_ محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص 69

(4) \_ مقامات الزمخشري (الشكر: ص 168).

الحكم (وهو ستر العيوب).

## 2.1. التقديم في الخبر الفعلي المنفي: م إ + نفي + م. ويحقق التقديم فيه الأبعاد الآتية:

أ. تأكيد نفي المحكوم به عن المحكوم عليه (المسند إليه) أو تخصيصه بالحكم. يقول القزويني متابعا للكلام على تقديم المسند إليه في الخبر المثبت: «وكذلك إذا كان الخبر منفيا، كقولك: "أنت لا تكذب" فإنه أشد لنفي الكذب عنه من قولك: "لا تكذب"، وكذا من قولك: "لا تكذب أنت"، لأنه لتأكيد المحكوم عليه أي: الفاعل، لا الحكم. و عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾<sup>(1)</sup> فإنه يفيد من التأكيد في نفي الإشارك عنهم ما لا يفيد قولنا: والذين لا يشركون برهم<sup>(2)</sup>. وهو رأي عبد القاهر الجرجاني نفسه: و«اعلم أن هذا الصنيع يقتضي في الفعل المنفي ما اقتضاه في المثبت، فإذا قلت: أنت لا تحسن هذا. كان أشد لنفي إحسان ذلك عنه من أن تقول: لا تحسن هذا»<sup>(3)</sup>. ونجد هذا البعد في قول الزمخشري: «هَذِهِ بَرَاهِينُ السَّامِدِينَ<sup>(4)</sup> اللَّاهِينَ. وَاللَّهُ الصَّمَدُ لَا يَقْبَلُ هَذِهِ الْبَرَاهِينَ»<sup>(5)</sup>، حيث قدّم المخاطب المسند إليه لفظ الجلالة "الله" على خبره الفعلي المنفي أبلغ وأشد قوة، وأكثر إقناعا للسامع، ويفيد من التأكيد في نفي قبول الله لبراهين السامدين المتكبرين المسرفين على أنفسهم المحتقنين من الجرائم والجرائر ما لا حصر له، هذا التقديم أشد تأكيدا لنفي الحكم عن المحكوم عليه مما لو قيل: لا يقبل الله هذه البراهين. فكان تقديم المسند إليه على الخبر المنفي مؤديا إلى المعنى المطلوب، والذي لا نجد إذا لم يقدم المسند إليه، ففيه تقوية نفي الحكم و تقريره في المحكوم عليه، لما فيه من تكرار المسند إليه المبتدأ "الله" وفاعل " لا يقبل" هو.

ويدعي المخاطب بتقديم المسند إليه أن الله وحده هو المنفرد بعدم قبول براهين السامدين ونفيه عنهم، وهو المستبد به، أي أن الجزء الأخرى خصيصة إلهية لأن الله وحده هو من يقبل براهين اللاهين ومعاذيرهم، فالتقديم هنا لتخصيص المسند إليه بنفي الحكم.

ومثله قوله: «وَبَشْرُ بَنِي حَجْوَانَ لَمْ يَلِقَ مَا لَقِيَ بِقُصْوَانَ. حِينَ أَقْبَلَ عَلَى عَضِّ الْإِبْهَامِ. وَلَمْ يُغْنِ عَنْهُ يَا

(1) \_ (سورة المؤمنون: الآية 59) .

(2) \_ القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 68

(3) \_ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 138.

(4) \_ السامد من سمد يسمد سمودا: لها وسها وعتى وهذا قليل، والسمود في الناس: الغفلة والسهو عن الشيء. قال ابن الأعرابي:

السامد: اللاهي، والسامد الغافل، والسامد الساهي، والسامد المتكبر والسامد المتحير بطرا وأشرا. (لسان العرب: مادة س م د).

(5) \_ مقامات الزمخشري، (الدعاء: ص 158).

لعجلٍ ويا لهَمَّامٌ»<sup>(1)</sup>، فالنفي هنا منصب على الخبر، والمقصود هو المسند إليه المقدم؛ وهذا أبلغ في تأكيد نفي أن يكون بشر قد لقي من الهول العظيم كالذي لقيه بقصوان.

### ب. النص على عموم السلب وسلب العموم:

ويعني عموم السلب شمول النفي لكل فرد من أفراد المسند إليه، ويتحقق ذلك بتقديم ما ينص على التعميم والشمول مثل: "كل" و"جميع" وغيرهما على أداة النفي، (فتسلط الأولى على الثانية دون عكس، نحو (كل كسول لا ينجح)، فأداة العموم "كل" هي المسند إليه، وتقدمت لتسلط فاعليتها على النفي لإنتاج شموليته)<sup>(2)</sup>، ويكون النص على سلب العموم عادة بتأخير أداة العموم عن أداة النفي، و«النفي في سلب العموم أو نفي الشمول ليس عاما شاملا لكل الأفراد، بل يفيد ثبوت الحكم لبعض الأفراد، ونفيه عن البعض الآخر»<sup>(3)</sup>. نحو: لم يكن كل ذلك. أي: لم يقع المجموع، فيحتمل ثبوت البعض، كما يحتمل نفي كل فرد، لأن النفي يتجه إلى الشمول خاصة دون أصل الفعل.

ومّا يفيد سلب العموم في المقامات قول الزمخشري: «تَسْتَقُّ فِي الْبَاطِلِ اسْتِنَانٌ»<sup>(4)</sup> المَهْرُ الأَرْنُ<sup>(5)</sup>. ما كَلُّ رَائِضٍ لَشِمَاسِكَ بِمُقَرَّنٍ<sup>(6)</sup>»<sup>(7)</sup>، فالمعنى هنا أن الانسان لا يطيق أن يروض كل شماسه، وإنما يستطيع أن يروض بعضه، ويعجز عن بعض، وحين نعديّل في التركيب إلى: «كُلُّ رَائِضٍ لَشِمَاسِكَ لَيْسَ بِمُقَرَّنٍ» يصير دالا على عموم السلب أو شمول النفي، فأداة العموم «كل» في هذا الوضع تكون متسلطة على المنفي بـ«ليس»، فيشمل النفي كل فرد من أفراد المسند إليه المتقدم فيكون المعنى: لا يطيق أحد من الناس أن يروض إباءك الحق والرشد.

### 3.1. تقديم المسند إليه بعد النفي:

ويعرض للمسند إليه التقدم لتخصيصه بالخبر إذا كان ضميرا بعد نفي والخبر فعل. نحو: «ما أنا فعلت هذا»، فالنفي متسلط على الفاعل وحده، وأفاد أن الفعل مفعول، لكن الذي فعله فاعل (المسند إليه) آخر غير الفاعل المقدم المذكور. أي: أفاد نفيه عن المتكلم، وإثباته لغيره. ولم يقصر السكاكي

(1) \_ المصدر السابق، (أيام العرب: ص 260).

(2) \_ محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 240.

(3) \_ عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص 138.

(4) \_ الاستننان: العدو في نشاط وتقدم يمضي لا يردعه رادع.

(5) \_ الأرن: المرح النشيط.

(6) \_ شماس: الامتناع والإباء. مُقَرَّن: مُطَبَّق، قويّ على الشيء.

(7) \_ مقامات الزمخشري، (المنذرة: ص 64).

التخصيص على الخبر الفعلي، وإنما عمم الحكم المذكور، وحكم بأن تقديمه (المسند إليه) يفيد تخصيصه، وإن لم يكن الخبر فعلاً، وهو قول الزمخشري، أو لم يكن المسند إليه ضميراً، بل نكرة وإن لم تكن منفية<sup>(1)</sup>. كقول الزمخشري: « ما أنت - وإن خلوت وحدك - بفريد. معك من هو أقرب إليك من حبل الوريد. وجنابتيك حفيظان يتلقيان لا يغفلان ولا يبتغيان »<sup>(2)</sup>، نفى المخاطب المسند إليه المتقدم " أنت " بالمسند " الفردية " وقصره عليه، لكنه أثبتها لغيره، أي أن الفريد ليس أنت، حتى في حال خلوتك، لأن الله معك أينما كنت، وملكين حفيظين عن اليمين وعن الشمال، إنما الفريد هو الله تعالى.

وكذلك في قوله: « يَقُولُ بملء فيه بارك الله في العلم والأدب، هما خير من كنوز الفضة والذهب، ما أنا - لولاها - والأخذ بذؤابة الشرف الأفرع، والقبض على هادية هذا الفخر الأتلع »<sup>(3)</sup>، يعني: أن الأخذ بذؤابة الشرف ثابت موجود، ولكن تخصيصه بالمسند إليه المتقدم " أنا " وإثباته له منفي، ولكنه ثابت لغيره ممن طلب العلم الأدب. وكأنه قال: هناك من أخذ بذؤابة الشرف، ولكنني لست أنا، وإنما غيري من أخذ به. لكنه يعود ويثبت لنفسه، لانتقاض النفي بوجود شرط نيل الشرف والفخر، وهو حيازة العلم والأدب.

#### 4.1. تقديم المسند إليه بعد همزة الاستفهام:

##### 1.4.1. التقديم والفعل ماض.

ومما يعلم به ضرورة أنه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم. إذ ليس قولك: أ فعلت؟ كقولك: أنت فعلت؟ فإذا قلت: أ فعلت؟ فبدأت بالفعل، كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده.

وإذا قلت: أنت فعلت؟ فبدأت بالاسم، كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه<sup>(4)</sup>، وأنت تعلم بوقوع الفعل من غير أن تعرف فاعله.

قال الزمخشري: « أعجزت أن تكون مثل همزة الاستفهام. إذ أخذت على ضعفها صدر الكلام »<sup>(5)</sup> يفيد تقديم الفعل "عجزت" أن المتكلم شاك في فعل المخاطب الفعل "عجز"، أ كان منه أم لم يكن؟ أي يجوز أن يكون قد عجز عن تصدُّر الناس وتقدُّمهم في الخير، أو لم يكن كذلك، فكان من المتقدمين. لكن في الاستفهام غير المحض عندما « يلي الفعلُ الهمزةُ ينتج السياق دلالة معدولة غير دلالة الأصلية،

(1) \_ محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات، ص 47.

(2) \_ مقامات الزمخشري (المراقبة، ص 178) .

(3) \_ المصدر نفسه (الظلف، ص 85).

(4) \_ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 111، 112.

(5) \_ مقامات الزمخشري (النحو، 218).



وهي الإنكار التوكيدي أو التويخي<sup>(1)</sup> «(1). والمخاطب هنا يُوَبِّخُ المتلقي على عجزه عن التقدم في الخير. وقد يعلم المخاطب في الاستفهام الصوري وقوع الفعل من الفاعل فعلا، فينتج دلالة التقرير بمعونة السياق. أما إذا قدم المسند إليه: **أَنْتَ عَجَزْتَ** أَنْ تَكُونَ مِثْلَ هَمَزَةِ الاستفهام، إِذْ أَخَذْتَ عَلَى ضَعْفِهَا صَدَرَ الكَلَامِ؟ يفيد المخاطب أن فعلا كان بالفعل، ولكنه يشك في فاعله، أمن زيد كان أم عمرو؟؛ وهو في هذا التركيب يعلم أن عجزا في التقدم في الخير قد كان بالفعل، ولكن يشك في فاعله أهو من المخاطب أو أحد غيره؟ وإذا ولي الهمزة اسم أنتج السياق دلالة مزدوجة إحداها جلية والأخرى خفية: أما الجلية، فهي **الإنكار** إذ ينكر المخاطب على المتلقي عجزه أن يكون متقدما في الخير. وأما الخفية، فهي توحى **بالتعظيم** فكأنه قال: أ تتصف بهذه الصفة وأنت القوي العظيم؟ أي: أتعجز أن تتقدم في الخير وأنت القوي العظيم؟

#### 2.4.1. التقديم والفعل مضارع:

وما قيل عن تقديم المسند إليه في الاستفهام والفعل ماض، يقال كذلك عنه إذا كان الفعل مضارعا دالاً على الحال. فإذا قلت: " **أتفعل؟** " كان الاستفهام **تقريريا**، تريد أن تقرره بفعل هو يفعله. وإذا قلت: " **أأنت تفعل؟** " كان الاستفهام **تقريريا** كذلك، ولكن تريد أن تقرره على أنه الفاعل. وإذا أردت بالفعل المضارع " **أتفعل؟** " الاستقبال كان الاستفهام **إنكاريا**؛ أي تعمد بالإنكار إلى الفعل نفسه، وتزعم أنه لا يكون، أو أنه لا ينبغي أن يكون. وإن بدأت بالاسم فقلت: " **أأنت تفعل؟** " كنت وجهت الإنكار إلى نفس المذكور، وأبيت أن تكون بموضع أن يجيء منه الفعل وممن يجيء منه، وأن يكون بتلك المثابة<sup>(2)</sup>. جاء في الخطاب: « **أتريدُ - ويحك - أن تُصِرَّ عَلَى مَا فَعَلْتَ. وَأَنْ تُشَيِّعَ النَّارَ الَّتِي أَشَعَلْتَ؟. مهلاً مهلاً. فلستَ لذلك أهلاً** »<sup>(3)</sup>. توسل المخاطب الاستفهام الشكلي « **أتريد...؟** » - ولا توجد قرينة تصرفه إلى الدلالة على الاستقبال - للدلالة على:

أ. **التقرير**: يوهم المخاطب المتلقي أنه لا يعلم بحقيقة " أن إرادته الإصرار على الفعل كائنة "، ويريد أن يقرره بفعل هو يفعله، وأنه يريد فعلا أن يصر على ما فعل في الحال.

ب. **الإنكار**: ينكر المخاطب على المخاطب فعلا يريد أن يفعله في المستقبل، وهو إرادته الإصرار على ما فعل، وأنه لا ينبغي أن تكون منه تلك الإرادة في المستقبل.

(1) - بسويبي عبد الفتاح قيتود، دراسات بلاغية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2006، ص58، 59.

(2) - انظر عبد القاهر المرجاني، دلائل الإعجاز، ص116، 117.

(3) - مقامات الزمخشري، (الإنبابة: ص40).

فإذا قدّم المسند: **أَنْتِ تُرِيدُ أَنْ تُصِرَّ عَلَى مَا فَعَلْتَ...** بتقديم الفاعل كان الإنكار والتقريب مسلطين على الفاعل نفسه (المخاطب).

**5.1.** ويقدم المسند إليه لتحقيق مقاصد وأغراض أخرى تستفاد من السياق، ومنها:

أ. **تعجيل المسرة إلى المتلقي.** نحو قول الزمخشري:

طوبى لعبدٍ بجبلِ الله مُعتصمه **على صراطٍ سويٍّ ثابتٍ قدمه**<sup>(1)</sup> (البيسط)

وقوله: «**الوعدُ ينفُضُ على حَدِّكَ وَرَدَ الاستبشار.** ويُدِيقُ قلبك بَرْدَ الاستبصار. **والثوابُ يمسحُ أركانك بجَنَاحٍ. وَيَغْسِلُكَ عَنْ كُلِّ مَأْثَمٍ وَجَنَاحٍ**»<sup>(2)</sup>. في هذا السياق قدّم المخاطب المسند إليه "الوعد" و"الثواب" من أجل تعجيل المسرة إلى مخاطبه.

ب. **تعجيل المساءة إلى المتلقي.** نحو قول الزمخشري: «**والوَعِيدُ يَتَلَقَّكَ بَوَجْهِ جَهَمٍ. وَيَرْحَفُ تَلْقَاءَكَ بِجَيْشِ دَهَمٍ. وَالْعِقَابُ يُحْدُ لَكَ نَابَهُ. وَيُشْمِرُ عَنْ مَخْلَبِهِ قِنَابَهُ. وَبَنَاتُ الرَّجَاءِ يَبْرُزْنَ إِلَيْكَ فِي جِدَادٍ. وَأَفْوَاهُ النَّاسِ تُكْشِرُ لَكَ عَنْ أَنْيَابِ جِدَادٍ**»<sup>(3)</sup>، وهنا قدّم المخاطب المسند إليه "الوعيد"، و"العقاب"، و"بنات الرجاء"، و"أفواه الناس" من أجل تعجيل المساءة إلى مخاطبه.

ج. **الذم.** نحو قوله: «**قَبِيحٌ بِمِثْلِكَ أَنْ يَحِيدَ عَنِ الْحَقِّ وَيَصِيفَ**»<sup>(4)</sup>.

د. **التلذذ بذكره.** كما في قوله: «**الْحَقُّ قَدْ رُفِعَتْ سُوْرُهُ. وَتَبَلَّحَ فَسَطَعَ نُورُهُ**»<sup>(5)</sup>.

هـ. **التشويق إلى المتأخر:** وهذا يعتمد على ردود الفعل لدى المتلقي، وذلك بأن يكون في المسند إليه تشويق إلى المسند. نحو: «**إِنَّ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ. رَكَّبَ فِيكَ عَقْلَكَ وَهَوَاكَ**»<sup>(6)</sup>

**2. الأبعاد التداولية لتقديم المسند:** وقد يقدم المسند لأبعاد تداولية، ومنها:

أ. **التخصيص:** أي تخصيص المسند بالمسند إليه وقصره عليه: كما في قول الزمخشري: «**يا أبا القاسم، لله عبادٌ رهنوا بحقِّ الله ذِمَّتَهُمْ. وَعَقَدُوا بِابْتِغَاءِ رِضْوَانِهِ هَمَمَهُمْ**»<sup>(7)</sup>. فهؤلاء العباد عبوديتهم مختصة بكونها لله ومقصورة عليه لا تتجاوزها.

(1) \_ المصدر السابق (الزهد: ص36).

(2) \_ المصدر نفسه (الندم: ص108).

(3) \_ المصدر نفسه (الندم: ص106).

(4) \_ المصدر نفسه (الاستقامة: ص67).

(5) \_ المصدر نفسه (التقوى: ص22).

(6) \_ المصدر نفسه (النهي عن الهوى: ص194).

(7) \_ المصدر نفسه (الأسوة: ص171).

ومثله قوله: (( لَكَ سَيِّدٌ مَا أَجَلَّهُ! وَأَنْتَ عَبْدٌ مَا أَدَّلَّهُ! ))<sup>(1)</sup>، فالسيد مختص بكونه للمخاطب، ومقصود عليه، ومنحصر فيه لا يتجاوز به إلى غيره.

ب. التنبيه على أن المتقدم خبر لا نعت: وذلك خاص بتقديم الخبر المسند على المبتدأ المسند إليه. وتحقق هذه الدلالة عندما يكون المسند إليه نكرة، والمسند المقدم يصلح أن يكون خبراً أو نعتاً، ومما جاء يترجم هذا البعد قول الزمخشري: (( لَهُ رُكُوعٌ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَتَكْفِيرٌ، وَخُرُورٌ عَلَى ذَقْنِهِ وَتَغْفِيرٌ ))<sup>(2)</sup>. فلو قال المخاطب: (( ركوع له )) لتوهم ابتداءً أن "له" نعت، وأن خبر المبتدأ سيذكر لاحقاً "في كل ساعة" مثلاً، وهذا مخالف لمقصديّة المخاطب الذي يريد بـ"له" مسنداً، وليست نعتاً، وذلك لأن حاجة النكرة إلى النعت أشد من حاجتها إلى الخبر من أجل تخصيصها، ولذلك تعين تقديم المسند للتنبيه على أنه خبر لا نعت. ومن هذا قوله: (( إِنَّ لَكَ أَجْلاً مَكْتُوبًا لَنْ تَعُدَّوهُ، وَأَمْدًا مَضْرُوبًا لَنْ تَخْطُوهُ ))<sup>(3)</sup>، قدم المخاطب المسند لك "في التركيب للدلالة على أنه خبر حتى لا يتوهم متوهم أنه نعت لا خبر.

ج. مراعاة السجع والموسيقى: ويقدم المسند من أجل المحافظة على السجع. كما في قوله: (( يَا أَبَا الْقَاسِمِ ضَرْبُ السَّخَاءِ جَمَّةٌ دَثْرَةٌ. لَا تَكَادُ تَحْصِيهَا كَثْرَةٌ ))<sup>(4)</sup>. قدم المخاطب المسند "تحصيها" الذي هو خبر تكاد من أجل تأخير المسند إليه "كثرة" لداعي التسجيع الذي هو قانون فن المقامة. د. التعجب. يقدم المسند لإنشاء التعجب. كقول الزمخشري: (( فَلِلَّهِ دَرُّهُ مِنْ قَرِيٍّ غَيْرِ عَاتِمٍ. وَيَا لَهُ مِنْ جُودٍ يُمَثِّلُ بِجُودِ حَاتِمٍ ))<sup>(5)</sup>

هـ. المدح والذم: ويكون بالأفعال الدالة على المدح والذم أو بغيرهما، وتحقق هذه الدلالة بالسياق، ومما يدل على المدح الفعل المشهور "نعم" في قول الزمخشري: (( فافعل صَحَبَكَ التوفيق. وَنَعَمَ الصَّاحِبُ وَالرَّفِيقُ ))<sup>(6)</sup>. وذلك بذكر المخصوص بالمدح المحذوف "نعم الصحاب والرفيق التوفيق" المتقدم ذكره في التركيب السابق. وكما هو معلوم أنّ المحذوف في اللغة العربية إذا دل عليه دليل، أو كان مفهوماً فهو في حكم الملفوظ.

ومما يدل على الذم فعل المشهور "بئس" في قول الزمخشري: (( عرفت قصتي وحديثي. وبئس

(1) \_ المصدر السابق (الإخلاص: ص 118).

(2) \_ المصدر نفسه (العبادة: ص 132).

(3) \_ المصدر نفسه (أيام العرب: ص 256).

(4) \_ المصدر نفسه (التصدق: ص 160).

(5) \_ المصدر نفسه (التصدق: ص 161).

(6) \_ المصدر نفسه (اجتناب الظلمة: ص 161).

القِصَّةُ والحديثُ»<sup>(1)</sup> . والمخصوص بالذم قصتي وحديثي المفهوم بالسياق .

كما يدل على المدح والذم كل وصف بالحسن والقبح بمعونة السياق، مثل قول الزمخشري: « قَبِيحٌ بِمِثْلِكَ أَنْ يَجِدَ عَنِ الْحَقِّ »<sup>(2)</sup> .

### 3. التقديم في التركيب الفعلي ومتعلقاته:

يقتضي الأصل في تكوين الجملة العربية وترتيب كلماتها اتصال الفاعل بعامله، وانفصال المفعول به عن ذلك العامل، بسبب وقوع الفاعل فاصلاً بينهما، إذ يلي الفاعل عامله ويتقدم المفعول به، إلا أن هذا الأصل لا يراعى أحياناً، فيتقدم المفعول به على الفاعل ويفصله عن فعله وعامله، ويتقدم الفاعل عن عامله، كما تتقدم المتعلقات كالجار والمجرور، والحال، وغيرها. وهذا التصرف في رتبة عناصر الجملة الفعلية - سواء أعلق الأمر بالعمدات، أو المكملات - تنشأ عنه دلالات إضافية، أهمها:

أ. **تقديم الفاعل:** الفاعل هو ما كان مسنده فعلاً على طريقة فعل أو شبهه، وحكمه الرفع، واشترط النحاة البصريون أن يتقدم الفعل أو شبهه أبداً. والأصل في الفاعل أن يلي الفعل، لا ينفك عنه لأنه كالجزء منه، ولأن تقدمه يوقع في اللبس بينه وبين المبتدأ، وإن تقدم قُدِّرَ للفعل فاعل يعود على العنصر المتقدم وأعرّب هو مبتدأً.

وأما الكوفيون فيجيزون تقديم الفاعل عن فعله معنى وحكما<sup>(3)</sup>، وهذا مذهب بعض المحدثين كذلك «لأن المبتدأ لا يتميز عن الفاعل بمكانه وإنما يتميز بما هو أعمق من هذا وأدق، يتميز بأنه يتصف بالمسند اتصافاً ثابتاً، ولا يتحقق هذا إلا إذا كان المسند اسماً جامداً، أو وصفاً دالاً على الدوام، وأن الفاعل - وهو مسند إليه أيضاً - إنما يتصف بالمسند اتصافاً متجدداً، ولا يتحقق هذا إلا بكون المسند فعلاً، أو وصفاً دالاً على التجدد»<sup>(4)</sup>. وحسب هذه الرؤية يبقى الفاعل فاعلاً معنى واصطلاحاً تقدم أو تأخر بشرط أن يدل فعله أو وصفه على التجدد والحدوث.

ويقدم الفاعل على الفعل بغرض العناية والاهتمام باعتباره محور الحديث، بالإضافة إلى غرض بلاغي آخر وهو التعظيم، يقول الزمخشري: « يا أبا القاسم. اللهُ خَلَعَ مِنْ رِقَبَتِكَ رِبْقَةَ الْمَطَامِعِ. واقتحامك عَقَبَةً

(1) \_ المصدر السابق (الدعاء: ص158).

(2) \_ المصدر نفسه (الاستقامة: ص67).

(3) \_ انظر على بعداش، خصائص البنى التركيبية، ص 163

(4) \_ مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986، ص73.

صَعْبَةَ الْمَطَالِعِ»<sup>(1)</sup>. قدم المخاطب لفظ الجلالة "وهو الفاعل" في التركيب لإفادة تعظيمه سبحانه وتعالى. وهي قوة الخطاب الإنجازية المستلزمة مقاميا.

ب. تقديم المفعول به: الغرض البلاغي من تقديم المفعول به عن الفعل والفاعل هو إفادة التعظيم، والتخصيص غالبا، كقول الزمخشري «اللَّهُ نَسَأَلُ أَنْ يُلْقِيَ عَلَيَّهَا قُبُولًا مِنَ الْقُلُوبِ، وَيَبْرُزُهَا مَيْلًا مِنَ التُّفُوسِ»<sup>(2)</sup>. حيث قدم المتكلم المفعول لفظ الجلالة "الله" للتعظيم، وتخصيص الله تعالى بالسؤال والدعاء، فالمخاطب يسأل الله، ويرجوه وحده، لأنه لو قدم الفعل لجاز أن يسأل غيره، ولكنه لما قدم لفظ الجلالة الله، قصد به اختصاصه به، أي اختصاص الله تعالى بسؤال العبد ودعائه.

وفي الاستعمالات الشائعة تقديم الضمير المنفصل إذا كان مفعولا به إذا قصد به التخصيص، كقول الزمخشري: «وَكُلُّ مَنْ يَعْبُدُ، فَإِيَّاهُ يَعْبُدُ»<sup>(3)</sup>، قُدِّمَ الضمير "إِيَّاهُ" العائد على الله تعالى على الفعل، كان المقصود به اختصاصه بعبادة العباد واستعانتهم به وحده.

وقد يقدم المخاطب المفعول به على الفاعل إذا كان تقديمه أهم والعناية به أتم، وكان محور الكلام والاهتمام منصبا عليه لا على الفاعل. كما في قول الزمخشري:

وَلَا تَرْتَكِبْ مَا لَوْ دَرَاهُ ابْنُ آدَمَ لَبَرَقَ خَدْيُكَ التَّشْوُّرُ<sup>(4)</sup>. وَالْخَفَرُ<sup>(5)</sup>. (الطويل)

ويدل السياق على أن المخاطب مهتم بالشخص، لأنه محور الكلام، ولذلك قُدِّمَ الموصوف وهو مفعول به، على الفاعل وهو الوصف "التشور" و"الخفر".

ج. تقديم المتعلقات: يرى ابن الأثير أن تقديم الجار والمجرور والظرف على الفعل يكون لأحد الغرضين: أحدهما الاختصاص، ومما قدم فيه الزمخشري الجار والمجرور للعناية والاختصاص قوله: «بِهِ (القرآن الكريم) أَحْيَا رَسُولَ الشَّرْعِ الطَّامِسَةَ. وَجَلَّى ظُلُمَاتِ الشَّرْعِ الدَّامِسَةَ»<sup>(6)</sup>، حيث قُدِّمَ الجار المجرور "به" على الفعل "أحيا" للاهتمام والعناية، ولأنه محور الكلام، ومدار العناية والاهتمام وإفادة الاختصاص، أي أَنَّ إحياء تعاليم الشرع السابقة يكون بالقرآن الكريم وحده.

(1) \_ مقامات الزمخشري، (الديوان: ص246).

(2) \_ المصدر نفسه، (خطبة الكتاب، ص15).

(3) \_ المصدر نفسه، (الإخلاص: ص118).

(4) \_ التشور والخفر: الخجل.

(5) \_ مقامات الزمخشري، (المراقبة: ص181).

(6) \_ المصدر نفسه (الفرقان: ص187).

وثانيهما مراعاة نظم الكلام: كما في قوله: (( تُسَلِّقُ بِالْسِنْتِهِمِ الْأَعْرَاضَ. كَمَا تُرَشِّقُ بِسِهَامِهِمِ الْأَعْرَاضَ ))<sup>(1)</sup>.  
 قدم المخاطب الجار والمجرور " بسهامهم " على المسند إليه " الأعراض " في التركيب الثاني " كما تُرَشِّقُ بِسِهَامِهِمِ الْأَعْرَاضَ "، للمحافظة على السجع والترصيع خاصة، وهي سمة بارزة في فن المقامات، فلو قال: كما ترشق الأعراض بسهامهم، لقوض بذلك ركنا من أركان فن المقامة، وهو التّسجع، ولذهب بطلاوة الخطاب وحسن موسيقاه.

وتقدم كذلك المتعلقات إذا كان المقدم محط الإنكار، كما في مقامة الإنابة: (( أبعداً عطّلت شبيبتك في التغزل والتشبيب. وذهبت بصقوة عمرك في صفة الحب والحبيب. وأضللت حلمك في أودية الهوى. وعكفت همك على أبرق الحمى وسقط اللوى. واتخذت بقر الجواء بلاءك وفتنتك. ووهبت لظباء وجرة ذكاءك وفطنتك. تريد ويحك أن تُصبر على ما فعلت ))<sup>(2)</sup>.

قدم المخاطب الظرف " بعد ما عطّلت شبيبتك في التغزل والتشبيب... " على متعلقه الفعل " تريد " لينكر على المتلقي استنفاد شبيته كلّها في اللهو والغزل والبكاء على الأطلال، دون أن يقدم صالحاً يرضي الله تعالى، أو يتوب إليه.

وتقدم المتعلقات كذلك تشويقاً إلى متأخر إذا كان المتقدم يُشعر بغرابة. كقول الزمخشري:

أَصْحَّكَ بِالْعِلَّةِ الْمُضْنِيَةِ قَضَاءٌ تُرَدُّ لَهُ الْأَقْضِيَّةُ ( المتقارب )  
 فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الدَّاءَ فِي تَمَادِيهِ أَشْفَى مِنَ الْأَدْوِيَةِ<sup>(3)</sup>

أن يُصَحَّ العليل بالعلة أمر غريب يشوق السامع على معرفة الفاعل الذي يمكنه يشفي بالداء، فإذا علمت نفسه أنه القضاء، اطمأنت له واستقر الفاعل فيها.

ويرتكز التحليل التداولي للتركيب النحوي، حين تغادر عناصره العمدات والفضلات مواضعها الأصلية تقديمًا وتأخيرًا إلى مواضع جديدة طارئة لغايات بلاغية، وما يستتبع ذلك من نواتج دلالية ومعنوية ثابوية يتوصل إليها المتكلم بمعونة السياق، في إطار القاعدة النحوية التي يراها الجرجاني في خدمة المعاني. وهذه الأسباب حرك الزمخشري الرتب النحوية، لأن التزامها يحول دون تبليغ مقاصده إلى المتلقي، فكان من هذا الإجراء دلالات ومعان تنسجم مع مقاصد المتكلم في الانزياح التركيبي، وهذا لا تحقّقه الرتب القارّة.

(1) \_ المصدر السابق (العزلة: ص91).

(2) \_ المصدر نفسه (الإنابة: ص40).

(3) \_ المصدر نفسه (المنذرة: ص65).

### ثالثاً. تداولية الذكر والحذف في مقامات الزمخشري:

1. الأبعاد التداولية لحذف المسند إليه: المسند إليه هو الركن الأعظم في الجملة، لأنه عبارة عن ذات، والمسند كالوصف له، والذات أقوى في الثبوت من الوصف، وحاجة الجملة في الإفادة إلى الركنين شديدة، لكن حاجتها إلى المسند إليه أشد. ولهذا كان الأصل في المسند إليه أن يذكر في الكلام فلا يحذف، لكن الاستعمال الفردي للغة يتجاوز هذه القاعدة الصارمة، ويعدل عنها فيحذف ركناً من الركنين في حدود ما يسمح به النظام اللغوي الذي ينظم العملية التواصلية والتفاعلية بين المتكلم والمتلقي.

ويعدّ الحذف ظاهرة لغوية اجتماعية مشتركة بين اللغات الإنسانية، فالمتكلم يميل إلى حذف العناصر المكررة، أو التي يمكن فهمها من السياق<sup>(1)</sup>، وهو باب في الاقتصاد الكمي للألفاظ، وضرب من ضروب الإثراء الدلالي، ويكون في بعض المواضع الكلامية أبلغ من الذكر في تحقيق مقصدية المتكلم، وربما بلغ المخاطب به ما لم يبلغه بالكلام، يقول عبد القاهر الجرجاني: «الحذف هو باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين»<sup>(2)</sup>.

ويعني هنا تغييب المسند إليه دون تعويض صياغي، ولعل هذا وراء اتكاء البلاغيين على حذف المبتدأ، لأن الفاعل إذا حذف، فإنه بالضرورة لا بد أن يقوم شيء مقامه، كما في "النائب" و"الاستثناء المفرغ" و"المصدر"، وحاول بعض البلاغيين إيجاد تبرير بلاغي لحالة الحذف، وتقدّمها على الذكر، من منطلق «أن الذكر هو الأصل، وأنّ أصليته تضعف من ردود فعل المتلقي إزاءه، بخلاف الحذف لمخالفته الأصل، فيكون مخالفاً لعملية التوقع، وهذه المخالفة تصحبها حالات نفسية لا تتوفر في الحالة الأولى»<sup>(3)</sup>. وهو من أبرز التراكيب تداولاً في النحو العربي، ولا يسوّغ النحاة حذف شيء من الكلام إلا إذا أمكن استرجاعه، اعتماداً على السياق وقرائن الأحوال، ومعنى ذلك أنه توجد مقتضيات ودواع ترشح حذف المسند إليه على ذكره، والمسند إليه الذي يكثر حذفه هو المبتدأ، والفاعل، وبعض التكميلات.

ويكون الداعي العام للحذف هو الإيجاز والاقتصاد، إلى جانب دواع وأغراض أخرى خاصة، تصطبغ الخطاب بصبغة السياق الذي ترد فيه، ويقوى داعي الإيجاز للأسباب الآتية:

أ. إذا أجهّم المسند إليه بالحذف، حصل للنفس أمّ لجهلها به، وإذا التفتت إلى القرينة تفتنت له، فيحصل

(1) \_عبد الرّاجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د ط )، 1979، ص149

(2) \_عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص149.

(3) \_محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص216.

لها اللذة بالعلم به، واللذة الحاصلة بعد الألم أقوى من اللذة الحاصلة به ابتداء.  
 ب. إنه لو ذكر المسند اليه مع المسند، انتقل الذهن مع اللفظ إلى معناه من غير تحشم كسب، فلا تحصل للنفس لذة ولا ذوق بإدراك معناه، وأما إذا حصل لها شعور ما بمعناه بواسطة ذكر المسند ثم قَوِيَ شعورها به بشعور الخصوصية بالقرينة، حصل لها نوع اكتساب شبيه باكتساب التصور بالقول الشارح، فيزداد الكلام حسنا، وتحس النفس باللذة.

ج. إذا بلغ المسند إليه نهايته في أوصافه المحمودة أو المذمومة، ترك ذكره، واقتصر على ذكر أوصافه، إيماء إلى أنه لا يشاركه فيها أحد، فيذكر لامتيازه عنه، فإذا اجتمعت هذه الأسباب في شيء واحد، ازداد الكلام حسنا وبلاغة، والنفس لذة وذوقا، وإن لم يهتد إلى سببه إلا ذو طبع سليم، وعقل مستقيم<sup>(1)</sup>. وهذه الظاهرة ليست مزاجية ولا عشوائية، وإنما هي عدول كميّ مضبوط بشروط، منها ما ذكره الدسوقي: « اعلم أن الحذف يتوقف على أمرين: أحدهما وجود ما يدل على المحذوف من القرائن. والثاني وجود المرجح للحذف على الذكر:

أمّا الأول: القرينة، وهي ما يدل على المحذوف وتكون لفظية أو حالية مقامية أو منطقية. وإذا انتفت عدّ ذلك ضربا من ضروب التعمية والإلغاز في الكلام.  
 وأمّا الثاني: وجود المرجح للحذف على الذكر<sup>(2)</sup>، وهي الدلالات الضمنية والأغراض والدواعي التي رجحت الحذف على الذكر.

ويمكن إضافة شرط ثالث -ولكنه مضمن في الثاني - وهو الموقف الاتصالي الذي يستدعي الحذف أو الذكر حتى تصل الرسالة بوضوح إلى المتلقي، والاستعانة في ذلك بالسياق وطريقة النظم<sup>(3)</sup>. وأكثر ما تحذفه العرب من الكلام المسند إليه لإمكان استرجاعه، اعتمادا على التداول والقرائن.

### 1.1. حذف المبتدأ: يحذف المسند إليه لدواع كثيرة أهمها:

أ. الإيجاز والاحتراز عن العبث: تميل العرب إلى الإيجاز، وتفضّل القليل من الكلام على كثيره، إلا ما كان فيه زيادة معنى أو توضيح. ويحذفون المسند إليه إذا كان في جواب الاستفهام، أو بعد القول أو ما اشتق منه، ولهذا كان أكثر الحذف في المقامات معبرا عن هذا المعنى. يقول الزمخشري: «يا أبا القاسم لا تقولنّ لشيء من سيئاتك حقير. فلعلّه نخلةٌ وهو عند الله نقيير»<sup>(4)</sup>. أي: لا تقولنّ لشيء من سيئاتك: هو

(1) \_ محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات، ص36.

(2) \_ انظر عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص122

(3) \_ أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، ص71

(4) \_ مقامات الزمخشري، (العمل: ص121).



حقير، حذف المسند إليه لأنه مفهوم من السياق، وفي ذكره عبث وفضل من القول يذهب ببهاء النص وبلاغته.

ويحذف كذلك إذا وقع في جواب شرط مقترن بالفاء، ودلّ عليه دليل. مثل قوله: «إِذَا ذُكِرَ مَتْنُ اللُّغَةِ فَحَلَسْتُ<sup>(1)</sup> مِنْ أَحْلَاسِهِ. أَوْ قِيَاسُهَا<sup>(2)</sup> فَسَائِسُ أَفْرَاسِهِ<sup>(3)</sup>». أي: فهو حلس من أحلاسها، وهو سائس أفراسه.

ويحذف المخصوص بالمدح أو الذم للغرض نفسه لدلالة السياق. كما في مقامة الفرقان: «يا أبا القاسم اجعل كتاب الله نبيك فنعم النجى<sup>(4)</sup>». حذف المسند إليه المخصوص بالمدح، وهو "كتاب الله"، كونه مفهوماً بسبق ذكره في النص. ولتجنب التكرار المعيب في الخطاب البليغ.

ب. تعين المحذوف وظهوره (الحذف للعلم به): إذا كان في سياق بلغ المسند إليه نهاية أوصافه، ولم تعد هناك حاجة إلى ذكره للاكتفاء بالصفات الدالة عليه كنوع من الإيماء إلى تفرد به. وكان متعيناً والمسند خاص به يحيل عليه إحالة حصرية، لتعلق الوصف به وحده، بحيث يأمن التباسه بغيره، فعندئذ يحذف المسند إليه. كما في مقامة الفرقان: «نورٌ مُسْتَصْبِحٌ بِهِ فِي لَيْلِي الشُّكِّ. سَيْفٌ سَقَاطٌ وَرَاءَ ضَرَائِبِ الشُّرْكِ. جَبَلٌ يَعْصِمُ مِنْ اعْتَصَمَ بِمَعَاقِلِهِ<sup>(5)</sup>». حذف المخاطب المسند إليه "القرآن" أو "هو" بدلالة السياق عليه. (القرآن نور مستصبح... هو سيف سقاط، هو جبل يعصم... مدعياً أن ذكر المسند يعني عن ذكر المسند إليه فيحذف).

ج. التعظيم: وتتحقق هذه الدلالة في سياق ينظر فيه المخاطب إلى المسند إليه من خلال المسند نظرة تقوم على التقدير والتعظيم. كقول الزمخشري: «فَتَى طَيَّانٌ مِنَ الْمَنَاقِصِ وَالرِّذَائِلِ. رِيَّانٌ مِنَ الْمَنَاقِبِ وَالْفَضَائِلِ<sup>(6)</sup>». نقل المخاطب المسند إليه من وظيفته الابتدائية إلى الوظيفة الخبرية، وذلك من خلال تنكيه "فتى" بحيث لا يصلح مبتدأ، ومن ثم يخليها تقديرياً لهذا الدال الغائب "هو" يشي بمنزلته النفسية عند المخاطب. الفتى ← هو (غائب) + فتى (التعظيم).  
وسر التعظيم والتقدير لهذا الفتى أنه نزيه كثير الفضائل لا عيب فيه.

(1) \_ حلس: فارس من فرسانها.

(2) \_ علم الاشتقاق أو علم المقاييس.

(3) \_ مقامات الزمخشري، (التوقي: ص78).

(4) \_ المصدر نفسه (الفرقان: ص187).

(5) \_ المصدر نفسه (الفرقان: ص187).

(6) \_ المصدر نفسه (العمل: ص121).

د. التحقير: وينشئ السياق هذه الدلالة عندما ينظر المتكلم إلى المخاطب نظرة امتهان واحتقار عندما يحمل المسند أوصافا سلبية يتصف بها المسند إليه. كما في التركيب: «أَطْمَعُ مِنْ أَشْعَبِ. وَأَحْمَقُ مِنْ تَيْسِ أَشْعَبِ»<sup>(1)</sup>. حذف المسند إليه " أنت " للدلالة على التحقير لأنه موصوف بصفات سلبية. وقد يحمل التركيب نفسه دلالة أخرى، وهي تأتي الإنكار عند الحاجة؛ إذا ما اضطر السياق المخاطب إلى التراجع عن العلاقة الإسنادية، وأراد الانتقال من حالة الإقرار إلى حالة الإنكار. كأن يلاحظ ثورته وغضبه وحققه عليه، فيقول: أنا لا أعنيك أنت، فيكون قد نفى نسبة الطمع والحمق عن المخاطب، وهذه المزية أتاحتها حذف المسند إليه.

هـ. اختبار تنبيه السامع له عند القرينة أو مقدار تنبيهه: كقول المتكلم: « ذَاكَ رَثُّ يُوَارِي سَوَاتِهِ. وَغَثُّ يُطْفِي سَوْرَتَهُ »<sup>(2)</sup> تدل القرينة اللفظية في التركيب الأول « ذَاكَ رَثُّ يُوَارِي سَوَاتِهِ » على أن المسند إليه المذكور لباس المذكور، بينما تدل القرينة اللفظية في التركيب الثاني على شيء آخر غير الأول، وهو الطعام، فلا يستقيم عطف غث... على رث... وإنما تستأنف الجملة الثانية مذكورة المسند إليه " وَذَاكَ غَثُّ يُطْفِي سَوْرَتَهُ "، لكن المخاطب حذفه من التركيب الثاني " وَغَثُّ يُطْفِي سَوْرَتَهُ "، و القصد هو اختبار مدى تنبيه السامع له من خلال القرينة.

2.1. حذف الفاعل: والمقصود به حذف المسند إليه الحقيقي، وإن كان المسند إليه في اللفظ، وهو نائب الفاعل المذكورا. ويحذف الفاعل لدواع لفظية كالإيجاز والمحافظة على السجع أو القافية أو أغراض معنوية كثيرة. ومنها:

أ. أن يكون معلوما للمخاطب حتى لا يحتاج إلى ذكره له، فالفاعل في قول الزمخشري: « لَوْ لَمْ تَكُنْ إِلَّا هَذِهِ الْوَاحِدَةُ، لَكَفَى بِهَا مُوجِبَةٌ أَنْ نُعَذِّبَ عَنْ آخِرِنَا. وَنُكَبِّ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِنَا »<sup>(3)</sup>. معروف لدى المخاطب لا يحتاج إلى ذكر، ولا يكون الفعل إلا منه، ذلك أن المخاطب يعول على المعرفة المشتركة، وقدرة مخاطبه في استحضار الفاعل المحذوف، أي: يعذبنا الله عن آخرنا، ويكفينا الله على مناخرننا، وأخفي الفاعل كذلك تأدبا مع الذات الحقيقية الفاعلة وهي " الله " عز وجل.

ومما يُعَبَّرُ عن هذه الدلالة كذلك قول الزمخشري: « وَلَوْ أَنَّكَ أَجَلْتَ عَيْنَيْكَ فِي هَذَا السَّوَادِ كُلِّهِ لَا فِي أَكْثَرِهِ. وَأَدْرَهْمَا عَلَى أَسْوَدِهِ وَأَحْمَرِهِ. لَمَا أَبْصَرْتَ أَحَدًا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ وَالتَّذَاءِ نِدَاءَ مَالِكِ الْمَلُوكِ وَمَمَالِكِهِمْ

(1) \_ المصدر السابق (النصح: ص175).

(2) \_ المصدر نفسه (القناعة: ص76).

(3) \_ المصدر نفسه (الحشية: ص145).

شَخْصًا قَدْ تَحَيَّرَ. أَوْ وَجْهًا قَدْ تَغَيَّرَ»<sup>(1)</sup>. أي نادى المؤذن للصلاة.

ب. رغبة المتكلم في إظهار تحقيره للفاعل: كما في مقامة العزلة: «تُسَلِّقُ بِالسِّنْتِهِمِ الْأَعْرَاضَ». كما تُرَشِّقُ بِسِهَامِهِمِ الْأَعْرَاضَ»<sup>(2)</sup>. وكان الفاعل لا يستحق الذكر لأنه تمام طعّان، فحذفه المخاطب صونا للسانه من التلفظ بذكره، وتحقيرا لشأنه.

وحذف الفاعل كذلك في التركيب الثاني للمماثلة بين حركتي الحرفين الأخيرين في السجع، إذ لو ذكر الفاعل لرد نائب الفاعل المرفوع إلى أصله مفعولا به، ولانتفت المماثلة لتحوّل "الأغراض" من الرفع إلى النصب.

ج. عدم تحقق غرض معين في الكلام بذكر الفاعل: ويحمل هذه الدلالة قول الزمخشري: «كَأَنَّكَ لَمْ تَتَقَلَّبْ فِي حِجْرِهِ تَقَلُّبًا. وَلَمْ تَتَّخِذْ مِنْكَ مَرْكَبًا. وَلَا عَهْدَتَ عَلَى لَبَانِهِ تَلَعَبًا. وَلَا شُهَدَتَ أَمَامَهُ تَلَعَبًا»<sup>(3)</sup>. حذف فاعل الفعلين "عُهِدَ" و"شُهِدَ" لجهل المخاطب به، وعدم تعلق الغرض أو الفائدة بالفاعل، عدا الفائدة الأصلية، وهي الإيجاز والاختصار.

د. التأدب مع الفاعل وتعظيمه، فلا يُجْرِي اسمه على لسانه، كقول الزمخشري: «يَمِينُ اللَّهِ لَوْ لَزِمْتَ جُثُومِي وَاعْتَرَايَ. حُرِّمْتُ صَوْبَ هَذِهِ الْعَرَايِ»<sup>(4)</sup>. أي: لحرمني الله. ترقّع المخاطب أن يسند فعل السلب والحرمان إلى الله تعالى تعظيما له وتأدبا معه. كما خاطب إبراهيم عليه السلام قومه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾<sup>(5)</sup>، نسب إبراهيم عليه السلام أفعال الخلق، والهداية، والإطعام، والسقي، والإمامة، والإحياء إلى الله تعالى، ولكنه عندما بلغ فعل المرض عدل عن نسبه إلى الله تأدبا، وهو في الحقيقة منه.

**3.1. حذف المفعول به:** إضافة إلى حذف ركني الجملة الأساسيين تحذف كذلك الفضلات كالمفعول به إذا حقق إضافات معنوية، ومنها:

أ. تنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم، بتوجيه العناية على إثبات الفعل، والدلالة على أن القصد من ذكر الفعل أن تثبته لفاعله، لا أن تعلم التباسه بمفعوله<sup>(6)</sup>. يقول الزمخشري: «لَا تَفْطَنُ لَكَرَّاتِهَا (الدنيا) وَدُوَّهَا

(1) \_ المصدر السابق (الحشية: ص144).

(2) \_ المصدر نفسه (العزلة: ص91).

(3) \_ المصدر نفسه (الموت: ص184).

(4) \_ المصدر نفسه (الظلف: ص86).

(5) \_ (سورة الشعراء: الآيات 78 - 81).

(6) \_ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص161.

أَسَاءَتْ أُمَّ سَرَّتْ. وَلَا لِأَيَّامِهَا وَلِيَالِيهَا أَعَقَّتْ أُمَّ بَرَّتْ»<sup>(1)</sup> فقصد المخاطب غير متعلق بالمفعول به، وهو "كاف الخطاب المحذوف من الأفعال المتعدية" ساءتكَ " و"سَرَّتَكَ" و"عَقَّتَكَ" و"بَرَّتَكَ"، وإنما غرضه هو إفادة ثبوت الفعل للفاعل. وإثبات السوء، والسرور، والبر، والعقوق للدينا، ولذلك حذف المفعول به.

ب. رعاية السجع. وقد يحذف المفعول به إذا كان لا يلبس النص، ويذهب ذكره بموسيقاه، الناشئة عن التسجيع، نحو التركيب الآتي: «فَأَمَّا وَمِيعَةٌ<sup>(2)</sup> الشَّيْبَةِ مَعَكَ. فَإِنْ صَاحَ بِكَ وَاعِظْ فَلَا أَسْمَعُ»<sup>(3)</sup>

حذف المخاطب مفعول " أسمع " الثاني من أجل المحافظة على السجع، والأصل: "فلا أسمعك موعظته"، - وهو دعاء إبليس - فلو ذكره لأضر بموسيقى النص.

ج. رعاية الوزن، فإذا ذكر المخاطب المفعول به في البيت ترتبت عنه زيادة تخل بالوزن، كقول الزمخشري:

أَتْنِ عَلَيَّ رَبِّ الْبَشَرِ      عَلَيَّ الَّذِي أَعْطَى الشَّبْرَ      (الرجز)  
أَعْطَى الَّذِي عَيَّ الْوَرَى      بَحْضَرَهُ وَلَا حَصَرَ<sup>(4)</sup>

حذف المخاطب مفعول " أعطى " الأول من عجز البيت الأول، ومفعوليه من البيت الثاني، من أجل المحافظة على الوزن، فلو ذكره "على الذي أعطى البشر الشبر" لترتبت عن ذلك زيادة تفسد الوزن. وحذف كذلك المفعول به الأول للإيجاز، والاحتراز عن العبث لأنه معلوم لدى المخاطب، ليس له مزية في ذكره.

د. مجرد الاختصار أو الإيجاز. العرب أكثر أمم الأرض ميلا إلى الاقتصاد اللغوي، فيكرهون الإطناب، ويمجّون الإسهاب، إذا لم تكن له فائدة معنوية، وفي المقابل يجذون القول الموجز، والإشارة على العبارة، إذا لم يلبس على المتلقي، ومما يدل على الإيجاز قول الزمخشري: « وَمَا أَكَادُ أَظُنُّ لِسَعَةِ آثَامِكَ إِلَّا أَنْ عَفَوْ اللَّهُ أَوْسَعُ»<sup>(5)</sup>، حيث يمكن للمخاطب أن يسترد المحذوف، ويقدره اعتمادا على السياق، وإشارة المخاطب إليه بما بعد "إلا" كأنه قال: ما أكاد أظن أن الله يعفو عنك" لسعة آثامك ".

هـ. إفادة التعميم مع الاختصار. ويحذف المفعول به ليفيد تعميم الحكم، وشموله جنس المفعول به كله، وذلك أنفع للمخاطب، وأكثر ملاءمة للخطاب الوعظي، كما في منظوم الزمخشري:

(1) - مقامات الزمخشري (الحذر: ص 45).

(2) - ميعة الشبيبة: هي النشاط والحدة.

(3) - مقامات الزمخشري (الارعواء: ص 28).

(4) - المصدر نفسه (اجتناب الظلمة: ص 151)

(5) - المصدر نفسه (الإناية: ص 41).

أَعْطَى الَّذِي عَمِيَ الْوَرَى بِحَصْرِهِ وَلَا حَصْرٌ<sup>(1)</sup> (الرجز)

حذف المخاطب مفعولي " أعطى " للدلالة على العمومية والشمول، أي: يشمل جنس المفعول به، وأن ما يعطاه المخاطب من السلطان، إنما هو من فيوضات الله وعطاءاته، فلا أحد يعطي غير الله. ومثله قوله: «فَمَا هَذِهِ الْجِسَارَةُ وَلَا جِسْرٌ إِلَى النَّجَاةِ إِلَّا أَنْ تَجْنِي. وَمَنْ غَرَسَ الْقِتَادَ لَمْ يَجِنِ مِنْهُ الثَّمَرُ وَلَنْ يَجْنِي»<sup>(2)</sup>. حذف المخاطب المفعول به ليشمل جنس كل مجيء يمكن أن يعبر بالإنسان إلى بر الأمان، ويبلغ به شاطئ النجاة.

**2. الأبعاد التداولية لحذف المسند:** وكذلك يحذف المسند عند أمن اللبس، ووجود ما يدل عليه من القرائن اللفظية أو المعنوية أو العقلية أو السياقية مع وجود المرجح أو المعدل. وأغلب مواضع حذف المسند في المدونة عندما يكون عاملاً في المفعول به في أسلوب الإغراء والتحذير، أو في المفعول المطلق.

**1.2.** ويحذف المسند الفعلي لأسباب تداولية، أهمها:

**1.1.2.** الإيجاز أو الاحتراز عن العبث بذكره لدلالة السياق عليه، وعدم تعلق فائدة بذكره، ويحذف المسند عندما يكون:

أ. في جملة معطوفة على مثلها سواء أكانت فعلية أو اسمية كما في مقامة التصديق: «لَا تَمْنَعُ خَيْرِكَ لِأَنَّهُ نَذِرٌ. وَلَا دَرَكٌ لِأَنَّهُ مَزْرٌ»<sup>(3)</sup> أي: ولا تمنع درك .

ب. جواباً عن استفهام علم منه الخبر. كما في الخطاب: «مَا قُلْتُ لِأَحَدٍ هَلْ تَشْعُرُ بِهِ إِلَّا قَالَ: لَا»<sup>(4)</sup> . أي: لا أشعر به.

ج. في جملة اسمية مؤكدة بـ"أن" بعد "لو" الشرطية التي تختص بالدخول على الأفعال. نحو: «فَلَوْ أَنَّ شَعْلًا كَانَ يَقْظَانَ مُشْتَعِلَ الضَّمِيرِ... لِصَلِّيَ بِنَارِ بَنِي نُفَاثَةَ»<sup>(5)</sup> . أي: فلو ثبت أن شعلاً...

د. عاملاً في المفعول المطلق. كالذي في مقامة الإنابة: «أَصْبَوَةٌ»<sup>(6)</sup> وَحَقُّ مَثَلِكُ أَنْ يَصْحُوَ لَا أَنْ يَصْبُوَ أَنْزَاعًا»<sup>(7)</sup> . أي: أتصبو صبوة؟.

(1) \_ المصدر السابق (اجتناب الظلمة: ص 151)

(2) \_ المصدر نفسه (الدعاء: ص 156).

(3) \_ المصدر نفسه (التصدق: ص 163).

(4) \_ المصدر نفسه (النحو: ص 218).

(5) \_ المصدر نفسه (أيام العرب: ص 275).

(4) \_ الصبوة: الشوق والحنين، والميل إلى اللهو.

(5) \_ مقامات الزمخشري (الإنابة: ص 38).

## 2.1.2. ضيق المقام عن ذكره خوفاً من فوات فرصة أو للتوجُّع، وغالباً ما يستعمل في أسلوب الإغراء

والتحذير، وهما من الأساليب التي تقتضي السرعة بالاختصار، فيما هو مطلوب، خوفاً من تضييع المغرّي به، أو وقوع المحذور. ويظهر البعد التداولي في هذا الأسلوب في الأدوات اللسانية التي يستعملها المخاطب، فبالإضافة إلى حذف الفعل والفاعل وترك المفعول به مفرداً أو مكرراً أو معطوفاً، فإن هنالك تنغيماً خاصاً يصاحب نطق الأسلوب، وهو الذي يفيد معنى التحذير والإغراء، وهذا الأمر لا نجده إلا في الخطابات المنطوقة.

أ. في أسلوب الإغراء: في هذا لأسلوب يستعجل المخاطب من مخاطبه فعلاً نجازياً لأمر مرغوب، بحذف الفعل وفاعله، وليس الهدف منه مجرد الإيجاز، وإنما للاحتراز عن العبث بظهوره، ولأن ظهوره يبعد المقصود منه زمنياً، وأن الاشتغال بذكره قد يفضي إلى تفويت المرغوب المهم عن المغرّي، ومما أغرى به الزمخشري مخاطبه:

نفسك فاغنمها وشرد بها عنهم وقُلْ يا نفسِ (السرّيع)  
إن لم تشردّها تجدها لقي للفرس بين الظفر والضرس<sup>(1)</sup>

أفرغ المخاطب النص السابق من الفعل وفاعله "الزم" لأن إظهارهما يبطئ حركة الفاعل نحو المفعول زمنياً كما يرى صلاح الدين عبد التواب، وأن الانشغال بذكره يؤدي إلى تفويت المرغوب المهم على المخاطب وهي فائدة الإغراء. لأنه قد أتاحت له ساحة يلزم فيها نفسه فيصلحها، ورأى المخاطب أنه لو يذكر الفعل وفاعله يطول الخطاب ويستغرق وقتاً يعطل حركة المخاطب نحو إصلاح نفسه، أو يفوتها عليه، ولذلك تركهما من أجل تحصيل فائدة الخطاب.

ب. في أسلوب التحذير. حيث إن الخطر مُحَدَّق بالمحذّر، يوشك أن يقع فيه، لذلك يلجأ المحذّر إلى حذف الفعل وفاعله، فيكون التحذير بأقل الكلمات لينتبه ويأخذ حذره. وأكثر تحذيرات الزمخشري بـ "إياك والمحذور"، ومما حذّر منه "الإباء عند النصيحة" في قوله: ((إياك والإباء إذا نصحت. والشّماس<sup>(2)</sup> إذا استصليحت<sup>(3)</sup>)).

يستعجل المخاطب في التركيب السابق المخاطب بالقبول الفوري للنصيحة، فلا تأخذه الأنفة وعزة النفس من الناصح أو المستصلح فيرفضها، لذلك حذف الفعل والفاعل "احذر"، وفي ذكرهما طول وقت يتعارض مع قصد المخاطب، فقد يتمكن المحذور من المحذّر.

(1) \_ المصدر السابق (العزلة: ص 95).

(2) \_ الشّماس هو الإباء، والرفض، والعصيان

(3) \_ مقامات الزمخشري (أيام العرب: ص 259).

ج. كما يحذف اتباعاً للاستعمال، نحو: «كأني بجنّازتك يجمّزُ بها إلى بعض الأجدّاث. وبأهل ميراثك هجرؤك بعد الثّلاث»<sup>(1)</sup>. أي: كأني أبصر بك، ومعناه أعرف لما أشاهد من حالك اليوم كيف يكون حالك غداً، كأني أنظر إليك وأنت على تلك الحال، يسرع بك إلى قبر، وأن أهلك قد تركوك وحدك هناك.

2.2. ويحذف المسند الإسمي للإيجاز والاحتراز عن العبث بذكره لدلالة السياق عليه، وعدم تعلق فائدة بذكره كما في الاستعمالات الآتية:

- حذف الزمخشري من خطابه «ولولا استيجابها أن تكون مرفوضة. لوزنت عند الله جناح بعوضة»<sup>(2)</sup>. المسند "موجود" لأنه خبر للمبتدأ بعد "لولا" الشرطية: لولا استيجابها الرض موجود لوزنت عند الله جناح بعوضة.

وحذف المسند "سواء" أو "سيان" لدلالة السياق عليه من قوله: «وإن أعطيتك من نفسك ما يُريد. فكلاكما والشيطان المرید»<sup>(3)</sup>. أي: فكل واحد منكما والشيطان سواء.

وحذف المسند "سواء" كذلك في التركيب للمحافظة على السجع. فلو ذكره لذهب بموسيقى النص الناشئة عن تسجيعة.

ويحذف كذلك المسند في أسلوب القسم، كما قسم الزمخشري: «يمينُ الله لو لَزِمْتُ جُثُومي واعتزالي. حرُمْتُ صَوْبَ هَذِهِ العزالي»<sup>(4)</sup>. أي: يمين الله قسَمي.

يشي الحذف بكفاءة المخاطب المستهدف وقدرته اللغوية في ملء التركيب بما يناسب السياق الذي يلعب دوراً محورياً في الكشف عن المعاني الضمنية والأغراض المتوخاة من الإيجاز (الحذف) في المنجز اللغوي.

ويعتبر كذلك محطات يستوقف فيها المتكلم المتلقي لتنشيط كفاءته الذهنية الاستدلالية ليسهم في إنتاجية الخطاب، ولا يلجأ المخاطب إلى هذه الآلية إلا مراعيًا العقد التخاطبي الذي يحتكم إليه المتلقي كذلك في تأويل الخطاب، والوصول إلى مقاصد المخاطب.

3. الأبعاد التداولية لذكر المسند إليه:

الأصل في المسند إليه أن يذكر في الكلام، ولا ينبغي العدول عنه إلا إذا كان هناك قرينة في الكلام ترجح الحذف والاحتراز عن العبث. ويرجح ذكر المسند إليه على حذفه لأسباب تداولية، أهمها:

(1) \_ المصدر السابق (الصلاح: ص115).

(2) \_ المصدر نفسه (الزهد: ص33).

(3) \_ المصدر نفسه (العزلة: ص94).

(4) \_ المصدر نفسه (الظلف: ص86).

أ. القصد إلى زيادة التقرير. نحو قول الزمخشري: «قَدِ اسْتَأْثَرَ هُوَ بِالْأَوَّلِيَّةِ وَالْقَدَمِ. وَهَذِهِ كُلُّهَا مُحَدَّثَاتٌ مِنْ عَدَمٍ»<sup>(1)</sup>. حيث كرر المخاطب الفاعل مضمرا ومظهرا من أجل تأكيد وتقرير اختصاص الله تعالى نفسه بالأولية والقدم.

ويذكر المسند إليه كذلك من أجل التمكن من تأكيد الكلام، كقول الزمخشري: «فَقَضَّ فِيهَا أَسْرَعَ مَا تَقْضِي أَهَمَّ أَوْطَارِكِ. إِنَّ أَهَمَّ أَوْطَارِكِ فِيهَا تَزَوُّدُكَ مِنْهَا»<sup>(2)</sup>. كان يمكن للمخاطب أن يحذف المسند إليه "أهم أوطارك" لتكراره، ولما كانت مقصديته تأكيد الكلام "أهم أوطارك فيها تزودك منها"، ترك حذفه، ولزم ذكره لتحقيق تلك المقصدية. فلو لم يذكر المسند إليه لما تمكن من تأكيد الكلام بـ "إن"

ب. التعريض بغباوة السامع: بذكر ما هو مفهوم، وليس في حاجة إلى ذكر تعريضا بغباوة المخاطب الذي لا يفهم إلا بذكر كل العناصر نحو: «وَمَا أَدْرَاكَ يَا غَافِلٌ مَا الْكَامِلِ. الْكَامِلِ هُوَ الْعَامِلُ الْحَامِلُ»<sup>(3)</sup>، لو حذف المخاطب المسند إليه "الكامل" لفهم من السياق، لكنه ذكره لتحقيق الغرض سالف الذكر.

## 2. الأبعاد التداولية لذكر المسند:

المسند كالمسند إليه، الأصل فيه الذكر، ولا يعدل عنه إلا لقرينة في الكلام تبرر حذفه، ويبرر الحذف كذلك لأغراض تداولية أخرى، وأبرزها:

1.2. القصد إلى زيادة التقرير والإيضاح. كما في الخطاب: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ أَبْغَضَهَا اللَّهُ وَأَبْغَضَهَا أَنْبِيَآؤُهُ.

وَمَقْتَهَا وَمَقْتَهَا أَوْلِيَآؤُهُ؟»<sup>(4)</sup>. ذكر الزمخشري المسند "أبغض" و"مقت" و"وكرّر، زيادة في تقرير حصول

الفعالين، وثبوت حدوثهما تأكيدا لبغض الله وأنبيائه وأوليائه للدنيا، ومن ثم حقارتها.

وكان يكفي المخاطب أن يدل على المعنى بألفاظ أقل: ألم تر كيف أبغضها الله وأنبيائه وأوليائه. لكن الموقف خطير، والمقام يتطلب بسطا في الكلام وإطنابا، يتطلب من السامع الإصغاء إليه لجلال قدره وعلو شأنه، وقربه من قلبه، لذلك كرر المعنى لكي يقرره في نفسه ليستميله إلى قبول الخطاب ويُنبيهه على خطورة الدنيا فيرفضها، وينفض يديه منها. كما يعبر النص عن النزعة العقلية للزمخشري حين يوجه المخاطب إلى استعمال الفكر، فإذا علم أن أنبياء الله وأوليائه قد مقتوا الدنيا وأبغضوها، كان حريا به أن يمقتها ويفرّ هو من شراكها.

(1) \_ المصدر السابق (التوحيد: ص130).

(2) \_ المصدر نفسه (الزاد: ص31).

(3) \_ المصدر نفسه (النحو: ص218).

(4) \_ المصدر نفسه، (الزهد: ص33).



2. إفادة التجدد والحدوث: عندما يكون المسند فعلا في تركيب اسمي، لأن الاسم عادة ما يدل على

الثبوت والدوام بخلاف الفعل الذي يدل على التجدد والحدوث. مثل قول الزمخشري: «إِنَّ الْمُغْتَابَ - فَضَّ اللَّهُ فَمَهُ - يَأْكُلُ لَحْمَ الْمُغْتَابِ وَيَشْرَبُ دَمَهُ»<sup>(1)</sup>. يفيد المسند الفعلي " يغتاب " تجدد فعل الاغتياب وتكراره مرة بعد مرة بسبب حركة الفعل في الزمن.

3. إفادة الثبوت والدوام: ويفيد هذه الفائدة المسند إذا كان تركيبا اسميا في تركيب اسمي آخر، كقول

الزمخشري: «الْإِعْصَارُ عَصْفَتُهُ خَفِيفَةٌ. وَالسَّحَابَةُ الصَّيْفِيُّ مَطْرَتُهَا طَفِيفَةٌ»<sup>(2)</sup>. حيث يفيد المخاطب بالتركيب أن عصفة الإعصار خفيفة دائما، ومطرة السحابة الصيفية طفيفة أبدا.

يعمد الزمخشري إلى العدول النوعي والرتبي والكمي في المقامات، ويميل بعض الميل إلى الإيجاز والاقتصاد اللغوي، ليسقط من الألفاظ ما يدل عليها غيرها، وبما يعتقد في المتلقي من قدرة على استدعاء المحذوف، بما يحتزنه من معارف وإحاطات مقامية وسياقية تمكنه من الوقوف على الدلالات والمعاني التداولية الضمنية التي تمثل مقصدية المخاطب، وتأويلها تأويلا صحيحا، ليحدث التأثير المنشود، ويتحقق التواصل والإبلاغ المقصود.

(1) - المصدر السابق (الضمت: ص 57) .

(2) - المصدر نفسه (الاستقامة: ص 67).

## الفصل الثالث

# تداولية التركيب البلاغي في مقامات الزمخشري

### تمهيد

- 1 . العلاقة بين البلاغة والتداولية .
- 2 . تداولية التركيب البلاغي في مقامات الزمخشري .
  - أ . تداولية الصورة التشبيهية في مقامات الزمخشري .
  - ب . تداولية الصورة الاستعارية في مقامات الزمخشري .
  - ج . تداولية الصورة الكنائية في مقامات الزمخشري .
  - د . تداولية المجاز المرسل في مقامات الزمخشري .

## تمهيد

يكاد الباحثون يجمعون على أنّ أغلب مقولات البلاغة كلها ذات بعد تداولي، وهي الأفق المنشود والمتلقى الضروري للتداولية لارتباط جل مباحثها بتأدية المعنى وتبليغه بطرق مختلفة في الوضوح والبيان مع مطابقة المقام ومقتضى الحال، وتعدّ البلاغة أبرز رافد يغذي التداولية، ويمدّ التداوليين ومحلي الخطاب خصوصا بأدوات التحليل وآلياته، باعتبارها أداة نفعية ذرائعية ونظاما من الأشكال التصويرية واللغوية الصالحة لإحداث الأثر المتلقي، كما تنظر البلاغة الجديدة إلى مباحث علم البيان بوصفها أدوات يتوسّلها المتكلم لتحقيق النفع المباشر أو غير المباشر، ونسعى في هذا الفصل إلى الوقوف على حجاجية الصورة الفنية باعتبارها أحدث مجال تطرقه التداولية، يوظّفها المخاطب لتبليغ مقاصده، والتأثير في المتلقي وإقناعه، ومن ثمّ دفعه إلى تعديل سلوكه.

### أولا: البلاغة والتداولية:

تعد البلاغة أداة تداولية، وفنّا من فنون الإقناع؛ بحيث «يكون لكل تركيب بلاغيّ في مقولات علم المعاني أو البيان أو البديع بعد تداولي، ووسيلة حجاجية، ومقدرة إقناعية تختلف باختلاف سياق المقال، وما يقتضيه حال المتلقي»<sup>(1)</sup>.

وللكشف عن علاقة البلاغة بالتداولية، ينبغي تحديد مجال كل منهما أولا؛ فإذا كانت البلاغة «هي كلّ ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن»<sup>(2)</sup>، وهي «بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها»<sup>(3)</sup>، ويعرف القزويني بلاغة الكلام بأنه «مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته»، ومقتضى الحال مختلف، ومقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام فللتنكير مقام يباين مقام التعريف، ومقام التقديم غير مقام التأخير، ومقام الذكر يختلف عن مقام الحذف، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين مقام الغبي، ولكل كلمة مع صاحبها مقام، وتعرّف كذلك بأنّها «علم الخطاب الاحتمالي الهادف إلى التأثير أو الإقناع أو هما معا»<sup>(4)</sup>.

ولا يختلف التحديد الغربي للبلاغة عن التحديد العربي كثيرا. يقول الباحث الألماني لوسبرج

(1) - أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات التداولية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2015، ص65

(2) - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص19.

(3) - السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، ص415.

(4) - محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، (د ط)، 2005، ص6.

(Losberger): « إن البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية، يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد»<sup>(1)</sup>، ويقاسمه جيفري ليتش (J.Leitch) الرؤية نفسها حين عدّ « البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ إنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما»<sup>(2)</sup>

فإن التداولية وبالرغم من اختلاف وجهات نظر الدارسين لها، وتساؤلاتهم عن القيمة العلمية للبحوث التداولية، وتشكيكهم في جدواها، فإن معظمهم يقرّر أن قضية التداولية هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير من ثمّ جديرة بأن تعرف بأنها: « علم استعمال اللغة»، ويمكن أن نقول في تعريفها: « بأنها نسق معرفي استدلاي عام يعالج الملفوظات ضمن سياقاتها التلفظية، والخطابات ضمن أحوالها التخاطبية»<sup>(3)</sup>.

وتتطرق التداولية إلى اللغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في آن. وهي بهذا تتجاوز الدراسة البنيوية السكونية للغة إلى دراستها في سياق استعمالها، بمراعاة مقاصد المتكلمين، وأحوال المتخاطبين، ولذلك تُعرّف بأنها « تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم كما يعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث». وبناء على ما تقدم يمكننا القول كذلك: إن اللسانيات التداولية هي لسانيات الحوار أو الملكة التبليغية أي ما يعرف ( La compétence de la communication )<sup>(4)</sup>.

وتمدّنا التحديدات السابقة بالقواسم المشتركة بين التداولية والبلاغة، وما يمكن أن تُفيده التداولية من البلاغة باعتبارها بلاغة جديدة أو معاصرة أو عنوانا جديدا لها، ومن أبرز النقاط التي تلتقي فيها التداولية مع البلاغة هي اللغة، والمعنى، والسياق، والتواصل، وطرفا التواصل، والأثر. وتعد البلاغة كبرى العلوم التي تبرز فيها العلاقات التداولية في اللغة، لأنها تعني بدراسة التعبير في مستويات عدّة: اللفظية، والتركيبية، والدلالية، والعلاقات القائمة بينها، وإذا كانت التداولية في أوجز تعريفاتها: هي دراسة مناحي الكلام أو دراسة اللغة حين الاستعمال فان البلاغة هي « فن القول»، ويشمل هذا التعريف الموجز مجالين واسعين من مجالات اللسانيات التداولية:

(1) - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص123

(2) - المرجع نفسه، ص124.

(3) - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص25.

(4) - الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، من مقدمة المترجم محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992،

**الأول:** وهو كل ما يرتبط بالذوق والاستعمال الشخصي للغة، أي ما يقابل آثار المتكلمين في كلامهم كيف يمكن للمتكلم أن يعدّل من موقف سامعه، وهو المجال الأوسع للتداولية كما حدده بيرس (C.S.Peirce)، في دراسة العلامات وعلاقتها بمستعملها.

**الثاني:** وهو القول، ويشمل الأداء الفعلي للغة<sup>(1)</sup>؛ أي: اللغة في واقع استعمالها.

وإذا لم تكن التداولية مرادفة للبلاغة، فإنها عليها تنهض، وعلى مقولاتها تقوم، فيرى لبيتش « أن البلاغة تداولية في صميمها، إذ إنها ممارسة الاتصال والتأثير بين المتكلم والمتلقي، ولذلك فإن البلاغة والتداولية يعتمدان على اللغة باعتبارها أداة لممارسة الفعل على المتلقي، على أساس أن النص اللغوي في جملته إنما هو "نص في موقف". مما يجعله يرتبط بالتعديلات التي يفرضها المؤلف والمتلقي على معناه، أو ما يحدثه النص من تعديلات في سلوكهما أيضا»<sup>(2)</sup>.

وإذا كانت اللسانيات البنوية قد اهتمت بالمعنى من خلال شبكة العلاقات الداخلية، وما تنتجه من تواصل بين أجزائها، والمعنى عندها هو ما كان داخل النص وليس خارجه، في حين أن المعنى الذي هو جوهر اللغة الإنسانية، ومناطق التواصل اللغوي والاجتماعي، لا يمكن أن يكون حبيس البنية، وإنما يرتبط بأمور أخرى خارجها، ولم تسد هذه الثغرة إلا جزئيا في أعمال بعض اللسانيين الوظيفيين، لتسد كليا بعد ظهور التداولية والتيارات اللسانية الوظيفية المنبثقة عنها والمتأثرة بها «العلاقة بين البلاغة والتداولية تتمثل في رصد كفاءات إيصال المعنى إلى المتلقي، لأنه هو الذي يعيد إنتاج النص من خلال فعل القراءة والتأويل، ولا يكون ذلك إلا بإعادة تحليله وفهمه، وفهم البلاغة يعني فهم التداولية لأن «التداول هو بحث في استعمال اللغة لا في نظامها»<sup>(3)</sup>، أي بحث في استعمال اللغة باعتبارها وسيلة للتواصل، والعناية بتحليل العلاقة بين الخطاب ومستخدميه للوصول إلى الفهم والتأثير من جهة السياق، والمقصدية، ومراعاة معايير الصحة، ومبدأ التعاون، وبهذا تكوّت البلاغة العربية فعلا تداولية.

ويعدّ السياق محور كلّ من البلاغة والتداولية؛ ويحتل في البلاغة المعاصرة مركزا متقدما ومهمّا في الفهم والتأويل، إذ إنه يشمل أزمنة الكتابة والقراءة، والعلاقة بين الوحدات النصية الداخلية، ثم تأتي التداولية لتغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (مقتضى الحال)،

(1) - عبد الله بيرم، التداولية والشعر، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014، ص40.

(2) - انظر صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص124.

(3) - جان موشر وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة عزالدين المجدوب، مراجعة خالد ميلاد، دار سينتارا، تونس، 2010

وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية ( لكل مقام مقال )<sup>(1)</sup>

ويظهر من خلال هذا التحديد أن علم البلاغة تهتم بدراسة العلاقة بين تراكيب الكلام ومقتضى الحال، والتي تقتضي رصد حال المتكلم والمتلقي، وما بينهما من علاقة اجتماعية وثقافية، ورصد ظروف الخطاب، ومقاماته المختلفة. وهنا تتلاقى التداولية مع البلاغة في تشكيل الخطاب اللغوي وتحليله. وتعرّف التداولية الخطاب بأنه « نصٌّ في موقفٍ »، أو « كل تعبير لغوي أنتج في مقام معين قصد القيام بغرض تواصلية معين »<sup>(2)</sup>، وكما هو ظاهر تعني التداولية بدورها بالعلاقة بين بنية النص، وعناصر الموقف الاتصالي المرتبطة به، ممّا يطلق عليه سياق النص. فالمتكلم حين يقصد تمرير غرض تواصلية معين يصوغه جزئياً ضمن فحوى خطابه، وتتفاوت صياغة الغرض الاتصالي من حيث درجة صراحتها التي يحددها مخزون المتكلم المعلوماتي حين التواصل، وما يفترضه المتكلم عن المخزون المعلوماتي للمستمع<sup>(3)</sup>. فالبلاغة والتداولية يتقاطعان إذن، في « دراسة الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم في عملية التواصل، وعوامل المقام المؤثرة في اختياره أدوات معينة دون أخرى للتعبير عن قصده، كالعلاقة بين الكلام وسياق الحال، وأثر العلاقة بين المخاطب ومخاطبه على الكلم، ومقاصد الكلام »<sup>(4)</sup>، فالبلاغة المعاصرة تهتم بعناصر الخطاب ومقاماته المختلفة وفق آليات بلاغية وتداولية حجاجية.

ويركز هذا العنصر على الغاية الاجتماعية التي أودع من أجلها الجهاز التبليغي في الإنسان، وهي التواصل، إذ تدرس كلٌّ من البلاغة والتداولية الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم في عملية التواصل، و تعني التداولية إذن، بكل ما يتصل بالعمل التخاطبي بحثاً عن المعنى، ضماناً لتواصل ناجح، ولذلك يكون « المقصود بمجال التداول في التجربة التراثية هو التواصل والتفاعل بين صانعي التراث »<sup>(5)</sup>.

ويعدُّ المتكلم والمتلقي قطبي عملية التواصل، ومحوري الإنتاج والتفاعل، والأداة المحركة للغة:

أمّا المتكلم فهو منتج الخطاب، يختار العلامات المناسبة ويستعملها في سياق مناسب لمقامات المخاطب وسياق الخطاب، وبما يضمن تحقيق مقاصد المخاطب والخطاب وغاياته.

وأما المتلقي فهو الطرف المتفاعل المنفعل الذي يتلقى الخطاب المعبر عن مقاصد المرسل، « ويلعب

- على نحو غير مباشر - دوراً في توجيه المرسل عند اختيار أدواته وصياغة خطابه انطلاقاً من علاقاته

(1) - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 26.

(2) - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2001، ص 17.

(3) - المرجع نفسه، ص 19.

(4) - جورج براون وجورج يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، 1997، ص 32 .

(5) - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 124.

السابقة بالمتلقي وموقفه منه وموضوع الخطاب، كل هذه وغيرها تفرض أطرا معينة لا بدّ أن يستجيب المرسل لها، حين يختار من الأدوات اللغوية ما يعبر به عمّا يريد، مع مراعاة الخصوصية السياقية<sup>(1)</sup>.

وتعتمد التداولية والبلاغة كذلك على اللغة باعتبارها أداة للتواصل، والتأثير على المتلقي، و«تعدّ المعاني البلاغية المنطقة المركزية للتقاطع بين الشعري والخطابي، ومركز المركز في هذا التقاطع هو التأثير في النفوس ودفعها نحو اعتقاد أو فعل»<sup>(2)</sup>.

ويعدّ التخيل فعلا ضمنيا وعملية إيهام تقوم على مخادعة المتلقي، عندما تعبر عن المعنى بطريقة خاصة من أجل التأثير في المتلقي، وتجعله يدعن للخطاب «وقد ينفع التخيل فيردع النفس الحيوانية والشهوانية، ويساعد على تهذيب الأخلاق أو يشارك في نصرة مذهب أو عقيدة»<sup>(3)</sup>، وهو كلام ضمني لا تظهر معانيه ومقاصده وأغراضه في البنية السطحية، لكنه يحمل معنيين: معنى حرفيا مباشرا وآخر ضمنيا غير مباشر، لكنه يفهم من المعنى الأول، تماما كما هو عند الجرجاني «... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا على «الكناية» و«الاستعارة» و«التمثيل»<sup>(4)</sup>.

وبإيجاز يمكن القول: «إن المعنى هو المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، ومعنى المعنى هو أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»<sup>(5)</sup>.

ولا تطفو معاني الخطاب الأدبي ومقاصده على سطح الملفوظ، وإنما ينبغي التنقيب عنها في بنيته العميقة للكشف عنها، لأنّ «التجربة الإنسانية تجعل الأفراد يحتزنون مضامين المعلومات خلال تعرّضهم في ممارساتهم وتفاعلاتهم إلى عدد لا يحصى من التجارب، فكل تجربة منها تترك بصماتها على شاشة الذاكرة، وتخوم النفس، ولهذا يسهل على الأفراد استنتاجها من الأقوال والأفعال أو الظواهر، بواسطة عمليات ذهنية استدلالية تشغل كل الإمكانيات التي يتوفر عليها الذهن البشري»<sup>(6)</sup>.

ويلجأ المخاطب إلى التخيل للتعبير عن معانيه ومقاصده بما يغيّر معنى الخطاب الحرفي، ولينجز به أكثر ممّا يقوله، أو ما لا يقوله، أو عكس ما يقوله، ثم يفسح للمتلقي ليكشف عنها من خلال الآثار

(1) - انظر أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية، ص 15 وما بعدها.

(2) - محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص 32.

(3) - جابر عصفور، الصورة الفنية، ص 70.

(4) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 262.

(5) - انظر المرجع نفسه، ص 263.

(6) - عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص 17.

اللغوية والحالية التي يتركها في الخطاب، والهدف من ذلك استفزاز المتلقي واستثارته واستدراجه إلى الفكرة أو الدلالة من أجل التأثير فيه وإقناعه، ويمكن أن يوصف التخيل بأنه « عملية إيهام موجهة تهدف إلى إثارة المتلقي إثارة مقصودة سلفاً، وهي تبدأ بالصورة المخيلة التي ينطوي عليها النص، والتي تنطوي هي عينها على معطيات بينها وبين الإثارة المرجوة علاقة الإشارة الموحية، وتفعل العملية فعلها عندما تستدعي خبرات المتلقي المخترنة والمتجانسة مع معطيات الصورة المخيلة، فيتم الربط على مستوى اللاوعي لدى المتلقي، فتحدث الإثارة المقصودة، ويلج المتلقي عالم الإيهام المرجو، فيستجيب لغاية مقصودة سلفاً»<sup>(1)</sup>.

ويعتبر الخطاب الأدبي تحويلاً للقوالب اللغوية في زمان وفضاء معينين، بكيفية هي جوهره وسر حياته، ويصفه سيرل بأنه ضرب من الاستعارة القصوى، تتجاوز دلالاته دلالة الألفاظ، ويرتكز على مواضع مضمرة خاصة، وعلى عقد واقع بين الكاتب والقارئ<sup>(2)</sup>، وفيه يقول المخاطب شيئاً، ويقصد شيئاً آخر لا يدل عليه كلامه حرفياً، كما يحدث في الاستعارة والتشبيه والكناية والحجاز المرسل وغيرها، فكيف يمكن إذن، للمتلقي أن يؤوّل كلاماً يدلّ على معنى آخر؟ ولحل هذه الإشكالية يرى سيرل أنه « في الأفعال الكلامية غير المباشرة يستطيع المتكلم أن يبلّغ المتلقي أكثر ممّا يقوله بالفعل استناداً إلى معلومات لغوية وغير لغوية، وخلفية معرفية مشتركة، وقدرة ذهنية واستدلالية تمكّن المتلقي من تأويل الخطاب، ويكون ناجحاً وفعّالاً، وبوجه أدقّ « يشتمل النموذج التفسيري لما هو غير مباشر من الأفعال الكلامية على بعض المبادئ العامة للمشاركة في الحديث وخلفية من المعلومات الواقعية الأساسية المشتركة بين المتكلم والمتلقي، كما أنه يفترض مقدرة من المتلقي على إقامة الاستدلالات»<sup>(3)</sup>.

وقد أحكم جرايس (Greice) عملية التخاطب بمبدأ شامل سماه مبدأ التعاون (The co-operative principle) فافترض توجيهات أو قواعد (maxims)، ترسم للمشاركين ما يجب عليهم أن يقوموا به، لكي يتم التخاطب بالطريقة المثلى من التعاون والعقلانية والفعالية، وهذا لا يعني أن عليهم أن يلتزموا هذه القواعد حرفياً في كل الأحوال والأوقات؛ إذ قلّمَا يستمرّ التخاطب العادي على هذا المنوال، وحتى عندما لا يجاري التخاطب ما ترسمه القواعد المذكورة، يظل السامع يفترض -خلافاً للظاهر - أن المتكلم مازال يأخذ بهذه القواعد، ولو على مستوى أعمق حتى يتسنى له التوصل إلى معنى ما، فمن دون تقدير هذه القواعد يستحيل التواصل بين الناس<sup>(4)</sup>. وفي النص الأدبي كثيراً ما يخرق المتكلم قاعدة أو أكثر

(1) - جابر عصفور، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط2، 1982، ص161.

(2) - انظر سلطان الزغلول، المقصدية... نظرية المعرفة وآفاق اللغة والأدب، صحيفة الرأي الأردنية، عدد 2012/4/20

(3) - عادل فاخوري، المعجم الفلسفي، ص 1340.

(4) - عادل فاخوري، الاقتضاء في التداول اللساني، ص147.



من قواعد التخاطب؛ فيقصد أكثر مما يقول، أو يقصد ما لا يقول، ومع ذلك يظل التواصل قائماً.

### ثانياً: تداولية التركيب التشبيهي في مقامات الزمخشري.

يعدّ التشبيه أكثر وجوه البيان تداولاً وتوظيفاً، وأبرز أنواع التصوير اطراداً وشيوعاً، وأهم الوسائل الفكرية والتبليغية في نظام اللغات والتواصل الإنساني، المسموع منها والمقروء على حد سواء، بما يضيفه على الأسلوب من بهاء وجلال، وما يخلعه عليه من قوة وامتعة ونشاط.

وهو في حدوده المعجمية مصدر الفعل شبّه، من قولهم شبهته بكذا، إذا جمعت بينهما بوصف جامع<sup>(1)</sup>، وهو كذلك بمعنى التمثيل، وكثرت تحديدهاته عند البلاغيين كثرة تعددت ألقاظاً وانفقت معاني، فقد حدّه القزويني بأنه: «دلالة على مشاركة أحد لآخر في معنى»<sup>(2)</sup>.

ويراه الطيبي: «وصف الشيء لمشاركته الآخر في معنى، وهو يستدعي خمسة أشياء: الطرفين ليحصل والوجه ليجمع، والغرض ليصح، والأحوال ليحسن، والأداة لتوصل»<sup>(3)</sup>.

وعرفه المحدثون تعريفات لا تختلف مضمونها عن تعريف القدامى، ومنه «إلحاق أمر بأمر في صفة مشتركة بينهما بأداة ملفوظة أو ملحوظة لغرض يقصده المتكلم»<sup>(4)</sup>، أو «عقد صلة بين صورتين، ليتمكن من الاحتجاج وبيان حججه»<sup>(5)</sup>. وهذه التحديدات تشتمل على أهم مبدأ تداولي، وهو الغرض الذي يقصده المتكلم، والأثر الذي يحدثه في المتلقي، والفائدة التي يرومها المتكلم من التشبيه، مثل «بيان إمكان وجود المشبه، أو بيان حاله، أو بيان مقدار حاله في القوة والضعف والزيادة والنقصان، أو تقرير حاله في نفس السامع، أو تزيينه للترغيب فيه، أو تشويبه للتنفير منه أو استطرافه»<sup>(6)</sup>، وحصول المشابهة بين الطرفين لا يعني إلغاء الفارق بينهما، بل «يظل كل واحد منهما غير الآخر»<sup>(7)</sup>، فلا يمكن إجراء الشبه بين الشيء ونفسه.

ويرى الزمخشري وابن الأثير أن التشبيه والتمثيل شيء واحد، لاتحاد الدلالة اللغوية لكل منهما، فكل تشبيه تمثيل، وليس كل تمثيل تشبيهاً. يقول ابن الأثير (تـ622 هـ): «وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا باباً مفرداً، ولهذا باباً مفرداً، وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل

(1) - العلوي، الطراز، الجزء 1، ص 135.

(2) - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 188.

(3) - الطيبي، التبيان في البيان، ص 92.

(4) - محمود السيد شيخون، البلاغة الوافية، ص 10.

(5) - ابن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 497.

(6) - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 206 - 209.

(7) - جابر عصفور، الصورة الفنية، ص 173.

الوضع، يقال شبهت هذا الشيء بهذا الشيء، كما يقال مثلته به، وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه»<sup>(1)</sup>،

وأما عبد القاهر الجرجاني (ت 474 هـ) فيفرق بينهما قائلاً: «واعلم أن الشئين إذا شُبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين: أحدهما: أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج إلى تأوّل. والآخر: أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأوّل»<sup>(2)</sup>، واعتمد الجرجاني في تفريقه بين التشبيه والتمثيل على وضوح وجه الشبه وخفائه؛ فإذا كان وجه الشبه أمراً جلياً ظاهراً فهو التشبيه، وإن كان خفياً واحتاج إلى تأويل فهو التمثيل. ثم يردف الجرجاني قائلاً: وإذا قد عرفت الفرق بين الضربين، فاعلم أن التشبيه عامٌّ، والتمثيل أخصُّ منه، فكل تمثيل تشبيهيٌّ، وليس كل تشبيه تمثيلاً<sup>(3)</sup>. ولعل مراد الجرجاني هنا بالتشبيه هنا التشبيه بمعناه الاصطلاحي الذي عرف عند البلاغيين وهو مجرد إلحاق أمر بآخر في معنى مشترك بينهما بأداة". فبين التشبيه والتمثيل بهذا المعنى: علاقة العموم والخصوص، بمعنى أنه يجوز إطلاق لفظ التشبيه على التمثيل كما يجوز إطلاقه على التشبيه الظاهر الصريح، ولكن هذا الإطلاق عام في التشبيه الظاهر، خاص في التمثيل. لهذا سمي بعض البلاغيين التمثيل بالتشبيه التمثيلي، والتشبيه الظاهر بالتشبيه غير التمثيل، فالتمثيل عند الجرجاني ما كان وجه الشبه فيه عقلياً وكان مفرداً أو مركباً.

ويرى السكاكي (ت 626هـ) أن التمثيل هو ما كان وجه الشبه فيه عقلياً ومنتزعا من أمرين أو عدة أمور، وما عدا ذلك يكون تشبيهاً ظاهراً، والتمثيل بهذا الوصف أخصُّ من التمثيل عند الجرجاني «واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفاً غير حقيقي، وكان منتزعا من عدة أمور، خصّ باسم التمثيل»<sup>(4)</sup> وهو عند القزويني (ت 739هـ) «ما كان وجهه وصفاً منتزعا من متعدد أمرين أو أمور»<sup>(5)</sup>. على مطلقه سواء أكان هذا الوجه عقلياً أو حسياً.

وبهذا يطلق التمثيل على ما كان وجه الشبه فيه مركباً عقلياً أو حسياً، كما يطلق على ما كان الوجه فيه مفرداً عقلياً غير حقيقي، وما عدا ذلك وهو ما كان وجهه مفرداً حسياً أو مفرداً عقلياً حقيقياً يعد تشبيهاً صريحاً. وبإيجاز التمثيل ما كان وجه الشبه فيه مركباً، والتشبيه ما كان وجه الشبه فيه مفرداً. ويعدّ كثير من اللغويين الصورة التشبيهية حجّة وشكلاً من أشكال الحجاج، لما له من طاقة عالية

(1) ابن الأثير، المثل السائر، الجزء 2، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نخضة مصر، القاهرة، مصر، ط2، (د ت)، ص 115.

(2) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، ط1، 1991، ص 90.

(3) المرجع نفسه، ص 95.

(4) السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، ص 346.

(5) القزويني، الايضاح في علوم البلاغة، ص 216.

قادرة على تحقيق أهداف حجاجية بإثارة المتلقي والتأثير فيه، وحمله على الاقتناع بالفكرة أو الدلالة التي تحملها الصورة، حيث يرى باحثون أنه أكثر أبواب المجاز تأثيراً، «لأنه يظل قريباً من نفوس الجميع»<sup>(1)</sup>، وأنه كلما نزع المتكلم إلى التقريب بين الطرفين، وخفيت علاقة الشبه، ازدادت الصورة تأثيراً، ونمت طاقتها الحجاجية؛ لذلك يكون «التشبيه البليغ والمجمل أقوى حجاجياً من العادي والتشبيه المقلوب أقوى من الاثنين وأقدر على الفعل في المتلقي، والاستعارة تحتل حجاجياً مرتبة أعلى من كل أصناف التشبيه»<sup>(2)</sup>، في حين يرى آخرون أن التشبيه «يمكن أن يستخدم- مع بعض الحرص- في الإقناع، لكن كفاءته في التأثير تظل أدنى من الاستعارة غالباً»<sup>(3)</sup>، لتقل حجاجيته، أو تنعدم في التشبيه التام الأركان، «والتشبيه المرسل المفصل لا يمكن أن تكون طاقته الحجاجية قوية، هذا إن كانت له طاقة حجاجية أصلاً»<sup>(4)</sup>، إذن، بقدر ما تُفرغ الصورة التشبيهية من عناصرها تزداد الصورة التشبيهية قوة وتأثيراً وإقناعاً.

ويعتبر التشبيه أحد طرق الإبانة والتوضيح عن المعنى اللذين يعدّان خطوة أولى في عملية الإقناع، ذلك أنه تعبير عن المعنى بطريقة تقرب بعيدة، وتصوره في نفس المتلقي أبين تصوير وأوضحه، فقد ذكر أحد اللغويين أربعة شروط تجوّد التشبيه، وترقى به إلى مرتبة الحجة، وهي: «إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، أو إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، أو إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها، أو إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها»<sup>(5)</sup>.

ويقصد بالتشبيه على جميع وجوهه إخراج الكلام من الأغمض إلى الأوضح، وتقرير المشبه في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه فيستفاد من ذلك ما قصده من مدح أو ذم أو ترغيب أو ترهيب أو كبر أو صغر، أو غيرها. ويُعدّ التشبيه بنية مركزية في مقامات الزمخشري، تنوع وتعددت صوره وأنماطه إلا أن أكثر ما استعمل هو التشبيه المجمل والبليغ والتمثيل.

### 1. التشبيه التام المرسل المفصل: ويكون على الشكل الآتي: أ + ب + ج + د.

وهو الأقل استعمالاً في المدونة، ويشير إلى «كل تشبيه ذكرت فيه الأداة ووجه الشبه على طريقته مجروراً بـ "في" أو منصوباً على التمييز على معنى "في"»<sup>(6)</sup>، و الواقع أنك تجد أكثر التشبيهات يورد فيها

(1) - جابر عصفور، الصورة الفنية، ص 200.

(2) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 270.

(3) - انظر صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 204.

(4) - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007، ص 567.

(5) - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 262 وما بعدها.

(6) - محمود السيد شيخون، البلاغة الوافية، ص 39.

المشبه به مخالفاً للتقييد السابق، وعلى هذا يمكن اعتبار كل وصف ألحق فيه المشبه بالمشبه به فيه وجه شبه توسيعاً وبه أخذت.

ويرى كثير من الباحثين أن التشبيه المفصل هو أقل أنواع التشبيه حجاجية، وربما شبه منعدمة لتغييبه الحوار في إنتاج المعنى، « فالتشبيه المرسل المفصل التام الأركان لا يمكن أن تكون طاقته الحجاجية قوية، هذا إن كانت له طاقة حجاجية أصلاً، والسبب في ذلك أن الكلام فيه لا يترك للمتلقى فضاء ضمناً يتحرك داخله بطريقة أو بأخرى، أي أن الكلام في التشبيه المفصل لا يحمل المتلقي على الإسهام في صنع الكلام الضمني»<sup>(1)</sup>، لكن من وجهة نظر تداولية لا يعتد كثيراً بهذا الرأي، ولا يمكن إطلاق هذا الحكم على كل تشبيه مفصل، لأن « الكلام يصاغ بحسب الأغراض، مع موافقة مقتضى الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»<sup>(2)</sup>، حيث يحتم الاستعمال على المتكلم وفي مقامات معينة تفصيل الصورة « حيث يعنى المتكلم ببيان حدود الدلالة إيضاحاً للمخاطب، وتقريباً لاستدلالاته»<sup>(3)</sup>. مراعاة لمقام المتلقي وحاله، حتى تتحقق الإبلاغية، ويحدث فيه الأثر المرجو، ومنه قول الزمخشري: « يا أبا القاسم... ألا أخبرك بكلّ مهانٍ مُتَّهَن. في قبضة الدلّ مُرَّهَن. كلّ مُتَّهَالِكِ عَلَى حُبِّ هَذِهِ الْهَلُوكِ<sup>(4)</sup>. مُنْقَطِعِ إِلَى أَحَدٍ هُوَ لِأَيِّ الْمُلُوكِ. يَدِينُ لَهُ وَيَخْضَع. وَيُحِبُّ فِي طَاعَتِهِ وَيَضَع... يَنْتَصِبُ قُدَّامَهُ انْتِصَابَ الْجَدَلِ. وَهُوَ مَلَأْنُ مِنَ الْجَدَلِ. بَعْرُضٍ يَحْسِبُهُ مَصُونًا وَهُوَ كَمَنْدِيلِ الْعَمْرِ<sup>(5)</sup> مُبْتَدَل»<sup>(6)</sup>.

يعتقد المخاطب عرضه مصوناً، وهو في الحقيقة دنس إلى درجة الابتدال، ولما علم المخاطب أنه جاهل بهذه الحقيقة أطر الصورة بالفعل « يحسب » الذي يفيد الظن والرجحان<sup>(7)</sup>، وهذه الحال تتطلب منه تفصيل الصورة، وبيان حدود الدلالة المقصودة، فذكر وجه الشبه وهو "الابتدال"، بالرغم من دلالة المشبه به والسياق عليه، وهذا إغراق منه في إيضاح المعنى وإظهاره وتأكيده في نفس المخاطب للتأثير فيه، وإقناعه بأن عرضه مدنس إلى درجة الابتدال وليس مصوناً كما يعتقد، لذلك ألحق العرض بمنديل العمر

(1) - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص 567.

(2) - انظر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 370.

(3) - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص 82.

(4) - الهلوك: الفاجرة. جعل ما فيها من الفجور والفساد هلاكاً.

(5) - الغمر: الوسخ والدم، ورجل غمر العرض: دنسه.

(6) - مقامات الزمخشري (العبادة: ص 132).

(7) - الرجحان أو الظن هو ما ينشأ من تغلب أحد الدليلين المتعارضين في أمر بحيث يصير أقرب إلى اليقين، فالأمر الراجح محتمل

الشك واليقين، لكنه أقرب إلى اليقين منه إلى الشك. عباس حسن، النحو الوافي، الجزء 2، هامش ص 5.

في صفة الابتدال لبيان مقدار دنس العرض وامتهانه، ومبالغة منه في ذم المخاطب المتهالك على الدنيا، المنقطع إلى الملوك والسلاطين.

ويعد التوضيح والإبانة «خطوة أولية في عملية الإقناع، ذلك أن من يريد إقناع الآخرين بمعنى من المعاني، يشرحه له بادي ذي بدء ويوضحه توضيحا يغري بقبوله والتصديق به»<sup>(1)</sup>، وحين رأى الزمخشري أنّ حال المخاطب تتقلب بين القلق والاضطراب، وأن الموقف يتطلب التوضيح لجأ إلى تفصيل الصورة في قوله: «وَكُنْ رَيْبَطَ الْجَاشِ دُونَ الطَّوَارِقِ وَلَا تُهَلِّ. وَتَلَقَّهَا بَيْنَ التَّمَّاسِكِ وَلَا تَنْهَلْ. رَزِينًا لَا تَحْمِلُكَ خِيفَةً عَلَى خِفِّهِ. شَبِيهَ جَبَلٍ لَا تَهْزُ مَنَاكِبُهُ رَجْفَهُ. الْأَرِيبُ لَا يَحْمِلُ عَلَى رَقَبَتِهِ رَأْسَ نَزِقٍ طَيَّاشٍ. وَلَا بَيْنَ جَنْبَيْهِ صَدْرَ حَنِقٍ كَمِرْجَلِ جِيَّاشٍ»<sup>(2)</sup>

حيث يقدم لنا المخاطب غضوبا طياشا مضطربا، والحال هذه تتطلب منه تفصيل الصورة لا إجمالها حتى تحصل بها الفائدة، فذكر وجه الشبه، وهو «الرزانة والثبات» في الصورة الأولى «كُنْ رَزِينًا لَا تَحْمِلُكَ خِيفَةً عَلَى خِفِّهِ. شَبِيهَ جَبَلٍ لَا تَهْزُ مَنَاكِبُهُ رَجْفَهُ، إيماننا منه أن الأثر لا يحدث في المخاطب إلا إذا فهم الصورة، ولم يسقط الكلام في الغموض والإبهام، واحتاج بعد ذلك إلى بيان مقدار القوة والثبات في الدلالة المطلوبة فلم يجدها إلا في الجبل الراسي، ثم احتج على ذلك بالتفصيل «لا تهز مناكبه رجفة».

نصح المتكلم مخاطبه أن يكون رزينا قويا ثابتا كالجبل الذي لا تهزه الرجفة القوية، والزلزلة العنيفة. وكذلك في قوله: «الْأَرِيبُ لَا يَحْمِلُ عَلَى رَقَبَتِهِ رَأْسَ نَزِقٍ طَيَّاشٍ. وَلَا بَيْنَ جَنْبَيْهِ صَدْرَ حَنِقٍ كَمِرْجَلِ جِيَّاشٍ»، حيث يُعْرَضُ المتكلم بالمخاطب المتذاكي المتوازن، ويلمّح له أنه - في حقيقته - طيَّاش غضوب، لذلك تحتاج حاله هذه إلى تفصيل التشبيه بذكر وجه الشبه «جِيَّاشٍ»، وهو من صيغ المبالغة، لتحقيق الأبعاد الآتية:

الأول: إيضاح معنى المشبه بإخراجه من المعقول إلى المحسوس مراعاة لمقام المخاطب.

الثاني: إبراز الغرض من التشبيه، وهو بيان مقدار وشدة حنقه.

الثالث: الاحتجاج للمعنى لإثباته في المشبه.

وبالرغم من أن المخاطب لا يحاور المتلقي في الصورة، إلا أنه يستحضره ذهنيا بمراعاة مقامه وحاله، وما يقتضيه من تفصيل عند إنتاج الدلالة، فلجأ إلى توضيح المعنى «والتوضيح يغري بقبول المعنى،

(1) - جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عنج العرب، ص 232، 233.

(2) - مقامات الزمخشري ( التماسك: ص 200) .

والتصديق به، ومن ثم الاقتناع به<sup>(1)</sup>، يقول الزمخشري: «كُنْ فِي تَقْوَاكَ كَسَالِكِ طَرِيقِ شَائِكِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَوَقَّى وَيَتَحَفَظُ. وَيَأْخُذُ حِذْرَهُ وَيَتَيْقِظُ»<sup>(2)</sup>.

لما أراد الزمخشري أن يعلم المخاطب التقيّ كيف يحافظ على تقواه، وقد كثرت في طريقه الشهوات وزرعت الذنوب صغيرها وكبيرها، نقله من عالم المعقول إلى عالم المحسوس لتوضيح المعنى، فأراه صورة سالك طريق شائك يحذر ما يرى، يتخير مواضع القدم؛ يتوقى هذه، ويجانب تلك، يقارب الخطو حيناً، ويباعده أحياناً حتى يتجنب الأذى. فإذا التزم بذلك فقد فاز.

## 2. التَّشْبِيهُ الْمُرْسَلُ الْمَجْمَلُ: ويتخذ الشكل: أ + ب + ج - د.

وهو أكثر التشبيهات استعمالاً في المقامات، ويحدّ بأنه «التشبيه الذي حذف منه وجه الشبه، وحين يفرغ من التفصيل فإنه يتميز بإجمال التقريب بين الطرفين»<sup>(3)</sup>، ولا يستهدف به المتكلم أيّ قارئ، إنما هو قارئ خاص «يقنضي منه إلمام خاص بإطار الحديث، أو ثقافة معينة واسعة تمكّنه من الوقوف على الهدف المقصود»<sup>(4)</sup>، وقدرة ذهنية استدلالية تمكّنه من ملء المحلّ الشاغر الذي يمثل بؤرة الحجاج في الدراسات التداولية، فإذا تمكن منه يكون قد خطا خطوة أولى على درب الاقتناع بما يعرض عليه، وبعبارة أخرى نقول: إن هذا الإجمال الناشئ عن حذف المشبه به يعدّ «تحريضاً للمخاطب على تفصيل الدلالة على المشبه مما يجعله شريكاً في عملية إنتاجها»<sup>(5)</sup>.

ويترك المتكلم في هذا النوع من التشبيه فضاء عاتماً، وهو وجه الشبه الذي يمثل مدخل المتلقي إلى الصورة ليسهم في إضاءتها وبلوغ مقصديته بما يناسب السياق، كما في قول الزمخشري: «لَا يَكُونَنَّ مَوْعِدُكَ مِثْلَ مَعِ الْبُرُوقِ<sup>(6)</sup> بِالذَّنْبِ. وَلَا مُشَبَّهًا بِلَمْعِ الْبُرُوقِ الْخَلْبِ»<sup>(7)</sup>، وبعد تجنيد معارفه العقلية والسياقية، وقدراته الاستدلالية، ومحاوره المتكلم من خلال الصورة يصل إلى الدلالة الجامعة، وهي خيبة الانتظار والإحباط الذي يسببه الوعد الكاذب، كمن يرى ناقته تلمع بذنّبها، وبرقا يُرجى مطره، فيستبشر بالولد والغيث، لكنه يخيب أمله فلا الناقة لقاح، ولا البرق ماطر. وعندئذ تحصل لديه القناعة بما تمكن من استنتاجه، والاستدلال

(1) - انظر جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص 232، 233.

(2) - مقامات الزمخشري (النهي عن الهوى: ص 197).

(3) - محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، (د ط)، 1981، ص 150..

(4) - المرجع نفسه، ص 147.

(5) - علي بعداش، خصائص البنى التركيبية، ص 306.

(6) - البروق: الناقة التي تلمع بذنّبها من غير لقاح.

(7) - برق خلّب: برق يحمل سحاباً لا مطر فيه. مقامات الزمخشري (الصدق: ص 216)

عليه بنفسه، ذلك «أن النجاعة الحجاجية التي للصورة بما في ذلك التشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل مستمدة كما هو الشأن في الصورة عامة من ظاهرة دفعها المتلقي إلى الإسهام في إنتاج قسم من الصورة، هو القسم الضمني، وذلك بالانطلاق من القسم المصرح به»<sup>(1)</sup>.

وبنى المخاطب الصورة على خلفية معرفية مشتركة مع المتلقي، وثقافة واقعية حسية؛ حيث شبه «من يخلف الوعد» بصورة «البروق تلمع بالذنب» و«البروق تلمع خلبا»، وهو تشبيه معقول بمحسوس، من أجل الإبانة عن المعنى وتوضيحه، وكما هو معلوم أنّ النفوس تعتد كثيرا بالمحسوس، وتتأثر به أكثر من تأثرها بالمعقول، لذلك يكون المشبه به غالبا من المحسوسات، «ينبغي أن تكون الصورة التشبيهية مطابقة للواقع، مدركة بالحواس»<sup>(2)</sup>.

ولهذه الصورة تأثير كبير على الواعد؛ عندما يعلم بالأثر النفسي العميق الذي يصيب مواعده جزاء خيبة الانتظار بإخلافه وعده، ويكون ذلك ادعى لأن يغير سلوكه وسيرته في تعامله مع الناس. ومن ثمّ يكون تحذير المخاطب من الإخلاف بالوعد قوة الصورة الإنجازية.

وتشتمل الصورة كذلك على فعل كلامي تأكيدي "لا يكوننّ موعدك..." مؤشر عليه بـ"نون

التوكيد الثقيلة"، وهو بلغة سيرل والتداوليين المعاصرين فعل كلامي يدرج في التقريريات "Assertifs"، والغرض المتضمن في القول له هو التقرير.

واستعمل الزمخشري التشبيه من أجل تشكيل بنية لغوية، تسمح بإيجاد أو إثبات حقيقة عن طريق تشابه في العلاقات، وهو احتجاج لأمر معين عن طريق ربطه بأمر آخر بوساطة الشبه، يقول الجرجاني: «والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا

الأسماع والآذان»<sup>(3)</sup>، وبنى القياس على أصل معلوم وصفا وحكما، يستدل به المخاطب على الفرع لمشابته الأصل أو مماثلته له في صفة أكثر من صفاته، ولجأ الزمخشري إليه من أجل إمتاع المتلقي والتأثير فيه وإقناعه، كما في قول: «يا أبا القاسم إنَّ خِصَالَ الخَيْرِ كَتَفَاحِ لَبْنَانٍ. كَيْفَمَا قَلْبَتْهَا دَعْتِكَ إِلَى نَفْسِهَا. وَإِنَّ خِصَالَ السُّوءِ كَحَسَكِ السَّعْدَانِ»<sup>(4)</sup>. أُنِّي وَجْهَتْهَا نَهْتِكَ عَنْ مَسِّهَا»<sup>(5)</sup>، لكن ما يظهر في الخطاب هو

(1) - انظر عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص 576.

(2) - انظر خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص 81.

(3) - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 20.

(4) - السعدان نبات تغزر عليه ألبان الإبل، وينبت متفرشا على الأرض، وهو كثير الحسك، ويقال: كأن جنبه على حسك السعدان، إذا كان قلقا متمللا.

(5) - مقامات الزمخشري ( المرشد: ص 16 ) .

الشكل الضمني من القياس، أين يكتفي المخاطب بالاستنتاج الذي يخفي فرعا وأصلا كما يمثله الشكل الآتي:

الفرع: الخير حلو ولذيذ.

الأصل: كل حلو ولذيذ كتفاح لبنان.

الاستنتاج: الخير كتفاح لبنان.

وكذلك في الصورة الثانية من الخطاب « وَإِنَّ خِصَالَ السُّوءِ كَحَسَكِ السَّعْدَانِ »

الفرع: الشر مُرٌّ وأليم.

الأصل: كل مُرٌّ وأليم كحسك السعدان.

الاستنتاج: الشر كحسك السعدان.

اختار المخاطب في الصورتين المشبه به من العالم المادي ليخرج المعنى في صورة الحسبي، وهذا أدعى لتقرير المعنى في نفس المتلقي، وتأكيد من خلال التصوير والإقناع الحسبي.

وتحمل الصورة طاقة حجاجية أخرى، بما تركه المخاطب للمتلقي من محل شاغر، وهو وجه الشبه، ليدفعه إلى تحريك طاقته الذهنية الاستدلالية من أجل اكتشاف المعنى الجامع بين الطرفين «الحلاوة واللذة» في الصورة الأولى، و« المرارة والألم» في الصورة الثانية، وشغله بهما، وبذلك يكون قد شارك في إنتاج قسم من الصورة، وهو مسلك آخر على درب الاقتناع بوجود فعل الخير، وترك الشر.

كما بنى الرمخشري الصورة على التقابل والتوازي، ليعزز طاقتها الحجاجية بالجمال الناشئ عن الموسيقى المتولدة عنهما، «من جهة استيلائها على النفوس، وامتلاكها للأسماع، وما كان أملك للسمع، كان أفعل باللب وبالنفس»<sup>(1)</sup>، ويمكن اعتبارها رافدا من روافد الحجاج بما توفره للقول من جمالية قادرة على تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه، فإذا أضيفت تلك الجمالية إلى حجج متنوعة زادتها حجاجا إلى حجاجيتها، «فالحجاج لا غنى له عن الجمال الذي يرفد العملية الإقناعية، ويسر على المتكلم ما يرومه من نفاذ إلى عوالم المتلقي الفكرية والشعورية، والفعل فيها»<sup>(2)</sup>.

وكان المخاطب حريصا على تصوير خصال الخير وخصال السوء، فألبس الأول لباس اللذة يمتد مداها ليجد حلاوتها في مطعمه وذكائها في مشمّه، وجمالها في مرآه، وألبس الثاني لبوس الألم كمن يتلع شوكا أو يتقلب على فراش شائك. وتقديم المعنى واضحا جليا، وتأكيد من خلال الصورة والإقناع الحسبي، والمعنى المستلزم مقاميا هو تحسين فعل الخير، والترغيب فيه، وتقبيح فعل الشر والترهيب منه.

(1) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 127.

(2) - المرجع نفسه، ص 120.



كما يعد الاستدلال بالتشبيه طريقة أخرى لإثبات شيءٍ بآخر، وهو يأخذ ظاهر الاستدلال، دون أن يحمل المعاني الدقيقة للكلمة في المعنى الطبيعي أو الرياضي، ذلك أن «علاقة المشابهة والمماثلة تفترض أن يكون هناك أصل وفرع، ولضبط العلاقة بينهما يُحلل المتكلم الأصل إلى مكوناته، أو مقوماته، أو صفاته الذاتية، والعرضية، فيختار بعضاً منها لإسقاطه على الفرع، على أن ما يسقط يجب أن يكون جامعاً متفقاً عليه، بأنه وصف منضبط مطرد غير مضطرب»<sup>(1)</sup>، مثل قول الزمخشري: «وَقِيَّضُ (2) لَكَ عَلَى حِينِ ضَعْفِكَ وَفُرْبِ عَهْدِكَ. وَاسْتِلْقَائِكَ عَاجِزَ النَّهْضِ عَلَى مَهْدِكَ. رَطَبَ الْعِظَامِ رِخْوَ الْمَفَاصِلِ. كَأَنَّكَ أُرْيَغِبُ مِنْ حُمْرِ الْحَوَاصِلِ. مُهَيِّمَةً (3) تَرَأْفُ بِكَ وَتَرْحَمُكَ. وَتُرْفِرُ عَلَيْكَ وَتَرَأْمُكَ... إِنَّمَا أَوْلَاكَ مَا أَوْلَاكَ لَتَنْظُرَ فِي وُجُوهِ نَعْمَائِهِ مُتَفَكِّراً. وَتَتَوَفَّرَ عَلَى مَحَامِدِهِ مُتَشَكِّراً»<sup>(4)</sup>.

أنجز المخاطب بهذه الصورة التشبيهية فعلا كلاميا غير مباشر، باتباع سبل استدلالية عدة، وبعملية ذهنية سريعة وبالاعتماد على كفاءته التداولية، استحضر السمات الدلالية للمشبه، وهو المخاطب: **المخاطب ← إنسان + حي + عاقل + حي + ذكر + (الصغر + الضعف + العجز)** في سياق الكلام، واستحضر ذهنيا في معجمه الكائنات التي يُعدّ الصغر والضعف والعجز من سماتها البارزة، واختار أكثر الكائنات تميّزا بهذه الصفة وألصقها بها، فلم يجد إلا «الأريغب»، ثم أسقط جميع السمات الأخرى غير المناسبة، حتى لا يلتبس الأمر على المتلقي عند التشبيه، ويمكن تشبيه ذلك على النحو الآتي: **الأريغب ← طائر + حي + صغير + ضعيف + عاجز - (طائر + حي)**، فلا تبقى إلا الصفات المشتركة بين المخاطب والأريغب، وهي **الصغر والضعف والعجز** لدلالة سياق الكلام عليهما. وأنجز المخاطب بهذه الصورة فعلا كلاميا ضمنيا وهو: توجيه المخاطب إلى شكر الإله على نعمه ومحامده، وأقربها إليه أنه قدّر له أمّا ترأف به وترأمه وترحمه.

وحرص المخاطب على تقريب المعنى إلى المتلقي وتأكيده، فوظّف "كأن" رابطة بين الطرفين، وهي -عند أكثر اللغويين- حرف مركب من "الكاف" و"إنّ" قالوا: والأصل في (كأن زيدا أسد). إن زيدا كأسد، ثم قدم حرف التشبيه للاهتمام به، ففتحت همزة "إن" لدخول الجار، وما بعد الكاف جرّ بها.

(1) - محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990، ص 40.

وابن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، ص 409

(2) - قيّض الله له: قدره له وهيأه له وأتاحه له.

(3) - مهيمنة: حاضنة مشفقة.

(4) - مقامات الزمخشري (الشكر: ص165).

وتدخل على المشبه، وهي للتشبيه على الإطلاق، وهذا هو الغالب المتفق عليه من جمهور النحاة<sup>(1)</sup>، والفرق بينها وبين الكاف هو «تأكيد التشبيه وعدم تأكيده»<sup>(2)</sup>، ولا تستعمل إلا حيث يقوى التشابه بين الطرفين. فقد وضع المخاطب في صغره وضعفه وعجزه إلى مستوى أزيغب من حمر الحواصل يحتاج فيه إلى حاضنة ترعاه، ثم نقله في صورة حسية، وهو من قبيل تشبيه محسوس بمحسوس، تأكيداً على قوة صفة المشبه به في المشبه، وزيادة في الإبانة والإيضاح، وهي منهج المخاطب للتأثير على المتلقي وإقناعه. ولكي تزداد الصورة تأثيراً وإقناعاً خاطب وجدان المتلقي الجحود الكافر بنعم الله، فوظف صيغة التصغير «أزيغب» لتحقيره وتذكيره بحال وضعفه وعجزه عن النهض في المهدي، فقيض الله له أمماً رؤوما رؤوفاً رحيماً، لكنه حين استوى رجلاً نسي نعم الله. و«الصورة تخاطب في المتلقي وجدانه وفكره معاً، فهي تؤثر فيه وتقنعه أو تعمل على إقناعه في الوقت نفسه»<sup>(3)</sup>. فإذا فعلت الصورة فعلها فيه تأثر واقنع، واستبدل الشكر بالكفر، وقابل النعمة بالطاعة.

وقوله: «(وَإِيَّاكَ وَالْكَفَّ (4) بِيضَاتِ الْخُدُورِ. وَقَسَمَاتِهِنَّ الْمَشْبَهَةَ بِالْبُدُورِ)»<sup>(5)</sup>.

وتنطلق العملية الإبداعية من نواة أساسية في التواصل، وهو المشبه «القسمات»، وأداة اسمية «المشبهة» ومشبه به وهو «البدور»، وكذلك من قبيل تشبيه محسوس بمحسوس من أجل تأكيد الحسن والإشراق والاكتمال والألألاء في المشبه، ثم أفرغ الصورة من وجه الشبه ليُحوَج المتلقي إلى أعمال الفكر وإطالة التأمل إلى حين الكشف المعنى الجامع بين الطرفين، وهو الإشراق والاستدارة والامتلاء، فيقوم بملء المحل الشاعر، وإكمال الصورة، فيحدث التأثير بما اكتشف بنفسه، ويقنع بتحذير المخاطب من فتنة الحسنات وغوايتها. ومن ثم تتحقق مقصدية المتكلم فيستجيب لتحذيره.

### 3. التَّشْبِيهُ الْبَلِيغُ. أ + ب - ج - د.

والتشبيه البليغ أعلى مراتب التشبيه في البلاغة وقوة المبالغة، لما فيه من الإيجاز الناشئ عن «حذف الأداة ووجه الشبه معاً»، ولما فيه من ادعاء مماهة ومماثلة، وإجمال تقريب بين الطرفين<sup>(6)</sup>، وهذا الإيجاز يجعل النفس تذهب كل مذهب، ويوحى لها بصفات ودلالات عديدة تمثل قواسم مشتركة قد تكون جميعها

(1) - عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 59.

(2) - محمد الجرجاني، الإشارات والتشبيهات، ص 149.

(3) - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص 575.

(4) - الكلف: مصدر كلف به أي: أحبه حباً شديداً، وأولع به، وعشقه.

(5) - مقامات الزمخشري (الاعتبار: ص 48).

(6) - انظر محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص 150..

مقصودة، ولأن الشيء إذا نيل بعد الطلب، والاشتياق إليه، كان نيله أحلى، وموقعه من النفس ألطف، ويمكن المخاطب من إصابة الهدف بأقرب سبيل مع أبلغ التأثير.

والصورة في هذا النوع من التشبيه تكون أشد إيجازاً، وأكثر انفتاحاً، وبقدر انفتاحها تكون طاقتها الحجاجية، ويمثل انفتاحها مدخل المتلقي إليها ليسهم في إنتاجها، بملء المحل الشاغر، وإضاءة الفضاء المعتم فيها، بتفعيل كفايته الثقافية والمنطقية والذهنية والاستدلالية لتبيين المسار الحجاجي المنتهج في التشبيه، ((إن مدار الحجاج في الصورة على المحل الشاغر، وهو بؤرة الحجاج، وهو العنصر المطلوب ملؤه والتهدّي إليه، سواء كان هذا التصوير تشبيهاً أو تمثيلاً أو كناية أو استعارة، وطبي هذا العنصر وإبقاؤه ضمناً مخفياً هو دعوة المتلقي إلى إمالة اللثام عنه انطلاقاً من العناصر الحاضرة في الصورة. والسبب في إبقائه مطوياً ضمناً يتوصل إليه عبر مسار حجاجي معين، وأن مضمونه سيكون عادة معلومة جديدة بالنسبة إلى المتلقين، أو هي في حكم الجديد مما لا يمكن تمثله أو قبوله واستساغته بسهولة ويسر))<sup>(1)</sup>.

ووظفه الزمخشري أكثر في المدونة لأثره البالغ في المتلقي، ومنه قول الزمخشري: ((وَأَعْلَمُ أَنَّ الْحَامِلَ<sup>(2)</sup> عَلَى الضَّلَالِ صِلٌ<sup>(3)</sup> أَصْلَالٌ. لَسَعْتُهُ لَا يَنْفَعُكَ مِنْهَا الرَّقِي. إِلَّا إِذَا كَانَتْ رُقِيَّتَكَ التَّقِي))<sup>(4)</sup>، حيث أجمل التشبيه بتركه محلاً شاغراً في الصورة، وهو وجه الشبه، ودعا المخاطب إلى تفعيل كفايته الثقافية والمنطقية والذهنية، وتحريك قدراته الاستدلالية، تحريضا له على تفصيل الدلالة، والكشف عن المعنى المقصود وهو الأذى والهلاك، فإذا تمكن من ذلك أمكنه شغل المحل الشاغر، والمساهمة في تشكيل الصورة، لأن النفس إذا توصلت إلى تفصيل مجمل، وبسط موجز ((عسر عليها عند ذلك إنكاره، إذ لا سبيل إلى إنكار وردّ ما توصل إليه المتلقي بنفسه، وما قاده إليه ذهنه، وأوحى إليه به خياله))<sup>(5)</sup>. وهو بتفاعله مع المخاطب، والخطاب يحدث له نوع من الاقتناع بمقاصد النص، وهذه غاية تداولية حجاجية.

وليؤكد المخاطب قوة الصفة في المشبه ومطابقتها للمشبه به، جرّد الصورة من الأداة، ليرفع المضلّ إلى درجة الصلّ، ويلحق الأضعف بالأقوى، وهذه هي المبالغة في قوة التشبيه.

ولكي تكون الصورة أشد تأثيراً وأكثر فعلاً وإقناعاً، عمد المخاطب إلى توضيحها عن طريق التصوير الحسي، حيث ((يحرص المتكلم على أن يكون المعنى واضحاً، رغبة في تأكيد المعنى عن طريق التصوير

(1) - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص555.

(2) - الحامل: حمله على الأمر أي: أغراه به وحثه عليه.

(3) - الصل: الحية التي لا تنفع منها الرقية.

(4) - مقامات الزمخشري (المرشد: ص20).

(5) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 125.

والإقناع الحسي، فضلا عن أن الصورة التشبيهية ذاتها ينبغي أن تكون مطابقة للواقع، مدركة بالحواس<sup>(1)</sup>، لما أراد المخاطب أن يثبت للمتلقي خطورة من يدعو الناس إلى الضلال وما يمكن أن يلحقه بهم من أذى، لجأ إلى العالم الحسي الذي يعرفه المتلقي، ولا يمكن أن ينكره، والتقط منه صورة الحية التي لا ينفع من لسعها علاج، فتردي اللسع، أو تلحق به أذى كبيرا. ومما لا يخفى أن الصورة بنقلها المضلّ من مجرد صورة معنوية إلى صورة مجسدة، تؤثر في نفس المتلقي، وتحقق متعة فنية وبعدا جماليا، وبالتالي تسير مزية الإقناع جنب سمة الإمتاع، «والجمال مقترن بالإقناع، ويستحيل الفصل بينهما، والمعنى يكون مقنعا لكنه يحتاج إلى جمال توشيه، ويدعم فعله، وتزداد قدرته على الفعل في المتلقي»<sup>(2)</sup>.

وحذف الأداة لكي يذيب الفوارق بين الطرفين، ويرفع المضلّ إلى مرتبة الصلّ، حتى لا ترى فرقا بينهما، وكأنّ المضلّ أفعوان من الزواحف، وليس من جنس البشر، وبهذه المبالغة يخرج المعنى من حدّ التوهم إلى حد اليقين.

والمعنى أن الداعي إلى الضلال، والمغري به قاتل أو أخطر من قاتل، وفي هذا ذم له وبيان لمقدار خطورته، ولذلك حذر المخاطب منه، وهو الفعل الإنجازي غير المباشر والمعنى المستلزم مقاميا.

ومثلها الخطاب الذي صوّر فيه الزمخشري الدنيا لإبراز حقيقتها، وتحذير المخاطب من غدرها وختلها وخترها، حين قال: «يا أبا القاسم ما لك لا ترفض هذه الفانية رفضاً. ولا تنفض يدك عن طلبها نفضاً... إن راقك رؤها الجميل فما وراءه مشوه. ما هي إلا سمّ دُعا فبالعسل مُمّوه»<sup>(3)</sup>، من أجل التأثير في المخاطب وإقناعه سلك المخاطب مسالك عدة منها:

أ. التصوير الحسي الواقعي، استنجد بالعالم المادي، وواجه المخاطب منه بصورة لا يمكنه إنكارها أو حتى الشك فيها، وهي صورة السم الزعاف وقد دُسّ في العسل المصقّى، فينخدع بلذّة الحلاوة لكن سرعان ما يتحسّن فيها الألم القاتل، فينساق وراء الصورة ليقتنع بأن الدنيا مهلكة.

ب. إيجاز الصورة وانفتاحها، حيث إن «الكلام الموجز يفتح أمام الأذهان طريق التخيل، ويحملها على التصور والتخمين فيقنعها بما لم يقله صراحة، وإنما أجمله وأوجزه، فتوصلت هي إليه، وعسر عليها عند ذلك إنكاره، إذ لا سبيل إلى إنكار ورد ما توصل إليه المتلقي بنفسه، وما قاده إليه ذهنه، وأوحى إليه به خياله»<sup>(4)</sup>. حيث حذف العنصرين (ج) و(د) ليؤكد المطابقة التامة بين المشبه بالمشبه به في صفته، وإجمال

(1) - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص 81.

(2) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 122.

(3) - مقامات الزمخشري (الزهد: ص 33).

(4) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 125.

الدلالة، ويعدّ هذا الحذف فجوة وفضاء عاتما هو محل المشبه به، ومدخلا للمتلقى ليسهم في سد تلك الفجوة وإضاءة العتمة اعتمادا على كفايته الثقافية والمنطقية بالإضافة إلى عناصر خارجية، للوقوف على الغرض المقصود. ليكون المعنى الناتج ثمرة شراكة بين المتكلم والمتلقى الذي لا ينكر نتاجه. وهذه طاقة الصورة الحجاجية.

ج - الاقتباس، وظّفه الزمخشري في خطابه باعتباره استدلالا ضمنيا لإقناع المتلقى بقيمة توجيهه

وصحته، وهذا التحذير مقتبس من قول الرسول ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ حَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَحْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ»<sup>(1)</sup>.

والمعنى المستلزم مقاميا من تصوير الدنيا للسامع هو بيان حالها وحقيقتها ليحذرهما المخاطب ويزهد فيها. ومثلها دعوته إلى المداومة على العمل والإخلاص فيه، في قوله: «لِيَكُنْ عَمَلُكَ دِيمَةً»<sup>(2)</sup>، فَلَيْسَ لِلْعَمَلِ الْأَبْتَرِ قِيَمَةٌ»<sup>(3)</sup>، يقوم التركيب التشبيهي «العمل ديمة» على التأكيد والإجمال، بعدما جرّده المخاطب من الأداة ووجه الشبه، ويعد هذا النزوع بمثابة دعوة إلى المتلقى للإسهام في إنتاج الدلالة المغيبة (وجه الشبه) وبالتالي السير في اتجاه إتمام الصورة المرسومة، والمتلقى يعلم يقينا نجاحه في ذلك لتلقيهما المعرفة من منهل واحد، وهو خطوة على درب الاقتناع بما يعرض عليه، واقتصر على العنصرين الجوهريين ادعاء منه على ذوبان الفروق بين "العمل" و"الديمة".

ينصح المخاطب المتلقى أن يكون عمله مطابقا للديمة، أو هو الديمة نفسها في دوام درورها واتصالها واستمرارها. فالغرض من المشاهدة إذن، هو بيان صفة المشبه والحث على الإخلاص في العمل والمواظبة عليه، كقول الرسول ﷺ: «وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»<sup>(4)</sup>

وهناك نوع آخر من التشبيه البليغ يسمّى «التشبيه المصدرى» وهو الذي يكون فيه المشبه به مصدرا مبينا للنوع يقول ابن الاثير: «واعلم أن من محاسن التشبيه أن يجيء مصدريا كقولنا: أقدم إقدام الأسد، وفاض فيض البحر، وهو أحسن ما استعمل في باب التشبيه»<sup>(5)</sup>.

(1) - رواه مسلم والنسائي

(2) - الديمة: المطر يدوم أياما.

(3) - مقامات الزمخشري (الاستقامة: ص 66).

(4) - رواه البخاري ومسلم.

(5) - ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص 124.

ومما جاء على هذا النوع في المدونة قول الزمخشري: « **فَإِنْ كَانَ الْعَقْلُ فَأَحْرَبِهِ أَنْ تَلْتَزِمَهُ التَّزَامَ الصَّبِّ** <sup>(1)</sup> **وَتَعْتَلِقَهُ** <sup>(2)</sup>. **وَإِنْ كَانَ الْهُوَى فَفِرَّ مِنْهُ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ. وَاحْذَرَهُ حِذَارَكَ مِنَ الْأَسْوَدِ** <sup>(3)</sup> <sup>(4)</sup>.

التزم العقل التزم الصب " ← التزم العقل كما لو كان العقل صَبًّا وعشيقا مواصلا.

فَرَّ من الهوى كما لو كان الهوى أسدا يطاردك. ← فر من الهوى فرارك من الأسد "

احذر الهوى حذارك من الأسود " ← احذر الهوى كما لو كان الهوى أسودا بجوراك.

يخصُّ المتكلم المتلقي في هذه الصورة على أن يلتزم العقل، ويفرَّ من الهوى، ويحذره منه، بتكرار

صورة المشبه في مصدر مبين للنوع « التزم الصب »، و« فرارك من الهوى »، و« حذارك من الأسود ».

ويتمثل حسن هذه التشبيهات وجمال صورها في كون المشبه به مصدرا مبينا للنوع لمشبه فاعل

فعله، أي لما علم المتكلم جهل السامع بنوع المشبه « قوة الالتزام »، و« سرعة الفرار »، و« شدة الحذر »

احتاج إلى مصدر مضاف إلى نوع يعتقد أنه يمثل الدرجة القصوى في الاتصاف به، ولو علم غيره لأضافه

إليه، ليبين به تلك الهيئة، وهو قصد المتكلم وغرضه من عقد الصلة بين المشبه والمشبه به، ومادام الطرفان

من مادة واحدة، وقد أزيلت الحواجز المادية بحذف الأداة والوحدة المعنوية "وجه الشبه" من الصورة، فهذا

مدعاة لالتحامهما وتطابقهما في الصفة. وبالتالي يكون المعنى أقوى وأكد، وهذه قيمة الصورة التداولية.

وبنيت هذه الصور التشبيهية جميعها على التأكيد والإجمال الناشئين عن حذف الرابطين اللفظي

والمعنوي، تحريضا للمتلقي على تفصيل مكونات الدلالة على المشبه وصولا إلى تحقيق المطابقة بين الطرفين

فتتضح له الصورة، ويثبت معناها في نفسه، عن طريق التجسيد والإقناع الحسي.

#### 4. تشبيه التمثيل:

وهو التشبيه الذي « لا يحصل إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر، حتى إن التشبيه كلما

كان أوغل في كونه عقليا محضا، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر» <sup>(5)</sup>، وهو «ما كان وجه الشبه وصفا غير

حقيقي» <sup>(6)</sup>، و« صورة منتزعة من متعدد أمرين أو أمور» <sup>(7)</sup>. ولا يكون أمرا بيّنا بنفسه، بل يحتاج في تحصيله

(1) - الصَّبُّ: ذو الصبابة: وهو العاشق، الشديد الحب، العظيم الشوق.

(2) - اعتلقه، وبه: أحبه حبا شديدا.

(3) - الأسود: ج أساود، مؤنث أسودة: العظيم من الحيات، وفيه سواد.

(4) - مقامات الزمخشري (النهى عن الهوى: ص 195).

(5) - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 108.

(6) - السكاكي، مفتاح العلوم، ص 346.

(7) - عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 65. علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص 35.

إلى ضرب من التأول، لأن المشبه لا يشارك المشبه به في صفته الحقيقية بل في هيئة مركبة من عدة أمور حسية أم عقلية<sup>(1)</sup>، ولا يشترط فيه البلاغيون غير تركيب الصورة، سواء أكانت العناصر التي تتألف منها صورته وتركيبه حسية أم معنوية، وكلما كثرت عناصرهما، كانت الصورة أبعد وأبلغ.

وللتمثيل تأثير قويّ على النفوس «واعلم أنّ مما اتفق العقلاء عليه، أن "التمثيل" إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أجهّة، وأكسبها منقبةً، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباية و كلفا، وقسّر الطباع على أن تُعطيها محبةً وشغفا. فإن كان مدحا كان أجهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم... وإن كان حجاجا، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أجهر... وإن كان وعظا، كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر أن يجليّ الغياية، ويُبصّر الغاية»<sup>(2)</sup>

ومن أسباب هذا التأثير، هو أنّ أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ، وتأتيها بصريح بعد مكّي، وأن تردّها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها في المعرفة به أحكم... لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع، وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: "ليس الخبر كالمعاينة"<sup>(3)</sup>

ووظف الزمخشري التمثيل لما يتوافر له من تأثير وإقناع وحسن، وقدرة على تبليغ مقاصد المقامات خاصة ما تعلق بتربية المجتمع، وتوجيهه بإشارات موحية عميقة. ومما صوّره تمثيلا قوله: «فتى إذا ذُكر... نَقَدُ الْكَلَامَ، فَالْتَقَدَةُ إِلَيْهِ كَأَنَّهُمُ النَّقْدُ<sup>(4)</sup>. وَقَدَ عَاثَ فِيهَا الذَّنْبُ الْأَعْقَدُ<sup>(5)</sup>».

شبه المتكلم حال ممدوحه الناقد في مجلس نقدي وقد بدّ النقاد بفكره الناقد، ورأيه الصائب، وبيانه الأجهر، وبرهانه الأنور، وسلطانه الأقهر، بحال النّقْد وقد أغار عليها الذئب ففرقت شجر بعر. وترك في الصورة محلا شاغرا، وشرط الكلام نصفين: منطوق، ومفهوم «يستخلص ليملاً به ذلك الخل الذي بقي شاغرا، ليرد على الكلام انسجامه. وبحصول هذا الانسجام يحصل الإقتناع أو يحصل

(1) - محمود السيد شيخون، البلاغة الوافية، ص42.

(2) - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص115، 116.

(3) - المرجع نفسه، ص497

(4) - النّقْد: جنس غنم قبيح الشكل صغير الأرجل، الواحدة نقدة للذكر والأنثى.

(5) - الأعقد: المتلويّ الذئب. مقامات الزمخشري (العمل: ص123).

الإعداد له على الأقل<sup>(1)</sup>، وهذا المفهوم هو الهيئة الحاصلة من حضور قويّ في جماعة تفترق بحضوره لضعفها، وانتقل المتكلم من الصفة والخبر إلى الواقع العياني ليواجه السامع بصورة قدمت المعنى تقديمًا حسيًا لا يملك ردّه، بما يعلم من أن المشاهدة تؤثر في النفوس، وتطمئن القلوب حتى مع العلم بصدق الخبر. ويسعى المخاطب بواسطة التمثيل إلى توريث المتلقي وإجباره على تأويل المعنى، وتفكيك الصورة، وبذلك يقع إلزامه بالنتيجة التي انتهى إليها، بعد التفكيك والتأويل، كما في قوله: « وَمَا أُوتِيتَ مِنْ فَضْلِ مُبِينٍ. رَأْيِي لَيْسَ بِغَبِينٍ<sup>(2)</sup>. وَبَصِيرَةٌ كَالْكُوكَبِ الثَّاقِبِ فِي الْغَيْهِبِ الْوَاقِبِ<sup>(3)</sup> »<sup>(4)</sup>.

ويجد المتأمل في الصورة أن المتكلم قد « عَقَدَ صِلَةَ بَيْنَ صَوْرَتَيْنِ، لِيَتِمَّكَنَ مِنَ الْاِحْتِجَاجِ وَبَيَانِ حُجْجِهِ<sup>(5)</sup> »، فقد شبه صورة المخاطب (ممدوحه) وقد أُوتِيَ رأيا صائبا وبصيرة قوية تهديه السبيل، وتمكنه من اتقاء الشبهات واجتناب المعاصي والمحرمات، بصورة كوكب دريّ يضيئ للساير في الظلام الحالك فيتقي المزالق والمهالك، وبهذا التصوير واجهه بصورة من الواقع الحسي المشاهد من أجل توضيح المعنى، وأخرجه من الخفاء إلى الجلاء، والقصد هو إثبات قيمة رأي المخاطب وقوة بصيرته في الهداية ومعايرة الأعمال، لأن فائدة التشبيه هي الكشف عن المعنى المقصود، وهذه غاية الصورة تداوليا.

وترك المخاطب في الصورة فضاء عاتما وهو وجه الشبه، ودعا من خلاله المخاطب إلى تجنيد كفاياته الذهنية والفكرية والاستدلالية، ليسلط الأضواء عليه بالتأمل والتأويل، ليهتدي إلى الرابط المعنوي الذي يجمع بين الطرفين، وهو الشيء يهدي، ويمنع من الضلال والهلاك، وهذه خطوة أخرى على درب الإقناع، والاقتران.

ولما أراد إثبات هذا المعنى « أصالة الرأي وقوة البصيرة » وتوضيحه وتأكيده في المشبه، استدل عليه بالقياس، و« اللفظة الواحدة تستعار على طريقتين مختلفتين، وبذهب بها في القياس والتشبيه مذهبين، أحدهما يفضي إلى ما تناله العيون، والآخر يومئ به إلى ما تناله الظنون<sup>(6)</sup> »، فجعل صورة المشبه " أصالة رأي المخاطب، وقوة بصيرته " وهي المعنى المعقول المظنون فرعا، ثم قاسها على ما هو محسوس ومعروف ومعلوم وصفا عند المخاطب، وهو صورة " الكوكب الثاقب وقد لاح في الغيب " التي تعد أصلا في القياس،

(1) - انظر عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص 565.

(2) - الرأي الغيبين: الضعيف.

(3) - الواقب: الداخل في كل شيء.

(4) - مقامات الزمخشري (المراقبة: ص 179).

(5) - ابن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 497.

(6) - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 69.



لتضطلع الصفة المنزوعة من المشبه به بدور الدليل على وجودها في المشبه. فتكون للصورة طاقها الحجاجية، لأن التشبيه في الحقيقة هو دعوى تحتاج إلى دليل أو برهان، ويكون معنى المشبه به هو الدليل، مما ينتج عنه استمالة المتلقي واقتناعه بهذه الدعوى. كما يهدف الصورة إلى بناء مفارقة بين شيئين للتأثير في المتلقي وإمتماعه وإقناعه.

ومثلها قوله: «إِنَّ الْحَسَنَةَ لَتَسْحَقُ السَّيِّئَةَ وَتَمْحُوهَا. كَمَا تَسْحُو (1) الْمِبْرَأَةُ الرَّصِيفَةَ الْحَبْرَ عَنِ الطَّرْسِ» (2)

شبهه المخاطب حال الانسان يفعل الحسنه وتمحو سيئاته فلا يبقى لها أثر ذنب بالمبراة وقد مسحت الحبر عن الصحيفة فلا يبقى عليها أثر كتابة، ووجه الشبه هو: الشيء يزيل شيئاً فلا يبقى له أثر، ويعتقد السامع بـ «أن الحسنه تمحو السيئة» وهو المشبه، ثم جاء بالمشبه به «تسحو المبراة الحبر من الطرس» ليقوم دليلاً حسيّاً عيانياً وحجة على صحة وجوده في نفسه، ذلك أنّ «التشبيه باعتباره إجراء داللياً، يؤدي وظيفة إفهامية من خلال زيادة المعنى وضوحاً و تأكيداً و إخراج الموصوف من حال التجريد إلى التجسيد» (3)، ولكنه يحتاج بعد إلى بيان المقدار فيه، أي مقدار المحو ودرجته؟ لذلك جاء بالمشبه به «تسحو المبراة الحبر عن الطرس» أي يجعله أبيض لا شية فيه، ليكشف أن الحسنات يذهبن السيئات ويطهرن الخطاء، ويعود كيوم ولدته أمه.

ويجد المتأمل في الصور التمثيلية أنها «كلام نصفه وهو المصريح به من صنع النص أو المتكلم، ونصفه وهو الضمني من صنع المتلقي، وهذا الوضع هو الذي يكفل للصورة قدرتها الحجاجية» (4)، حيث ترك المخاطب في الصورة محلاً شاغراً، يملأه المتلقي في ضوء المفهوم الأول الحاصل من السياق اللغوي بالحضور، وهذا توجيه من المتكلم إلى المتلقي ليقوم بدوره بملء النصف الثاني الضمني من الصورة، وهو «وجود شيء يحو فلا يبقى أثراً» فإذا تمكن منه، فلا يستطيع أن ينكره، ومن ثم يحصل له الاقتناع به. ويتميز هذا النوع من التشبيه بالعمق، ذلك أنّ الشئيين كلما كانا أشد تباعدا كانت النفوس بهما أعجب، ولهما أطرب، وكان إحداث الأريحية إليهما أقرب.

## 5. التَّشْبِيهُ الضَّمْنِي:

وهو قليل في المدونة، لكنه كالخال في الوجه يزيد الخطاب حسناً وجمالاً، ويحدّه البلاغيون بأنه «تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمحان في التركيب، وهذا

(1) - تسحو: تقشر.

(2) - الطرس: الكتاب الذي محي ثم كتب. مقامات الزمخشري (الدعاء: ص158).

(3) - الروماني، النكت في أعجاز القرآن... تح محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط4، ص80

(4) - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص562، 563

الحكم يؤتى به ليفيد أن الحكم الذي أسند إلى المسند إليه ممكن<sup>(1)</sup>، ويعدّ القدامى هذا النوع من التشبيه قياساً خطابياً، يحضر في النص ليدعم الفكرة أو الرأي أو الموقف، ومأتى الحجاج في هذا التشبيه أنه قياس على مقدمات، ويفضي إلى نتيجة، فإذا أنعمنا النظر في قول الزمخشري: «من حمل العلم والأدب لمثل هذه الثمار. فقد حمل منهما أثقالاً على ظهر حمار»<sup>(2)</sup>، وجدناه يستدل على فكرة من قبيل أنه " لا يليق بالمخاطب تعلم العلم والأدب للتكسب والمباهاة"، ويحتج للحكم:

مقدمة أولى: المخاطب يحمل العلم الأدب للتكسب والمباهاة.

مقدمة ثانية: الحمار يحمل أثقالاً من العلم والأدب.

مقدمة ثالثة: الحمار لا يقدر قيمة ما يحمل.

النتيجة: المخاطب لا يقدر قيمة العلم والأدب مادام يحملهما للتكسب والمباهاة.

وفي هذا القياس يكفي أن يسلم المخاطب بالمقدمات، ليقبل بالنتيجة.

كما يلجأ المخاطب في هذا النوع من التشبيه إلى إشراك المتلقي في إنتاج المعنى، واستخلاص الضمني مرادفاً على كفاءته للوصول إلى فحوى الصورة، وبلوغ مقصده، والشيء إذا نيل بعد الطلب، والاشتياق إليه، كان نيلاً أحلى، وموقعه من النفس ألطف وأبلغ، وتأثيره عليها أبرز وأفعل.

ومما سبق نستخلص أنّ المخاطب يستهدف بالتشبيه نواتج دلالية إضافية تتلون بمقامات التخاطب، وتنوع الروابط اللفظية والمعنوية حضوراً وغياباً وتبديلاً، وتحقيق أبعاد تداولية وحجاجية؛ باعتبار أن الصورة وسيلة تبليغ وتواصل وتأثير وإقناع من خلال التجسيد، والقياس، والاستدلال، والإمتاع، والحوار.

### ثالثاً: تداولية التركيب الاستعاري في مقامات الزمخشري:

الاستعارة هي نشاط لغوي وفكري يتصدر بنية الكلام الإنساني، ولا يمكن اختزاله ولا الاستغناء عنه في أي مجال من مجالات حياتنا، وهي أولى ألوان البديع وأضرب التشبيه وأوجز أنواعه، وأكثر فنون البيان تداولاً في التواصل والتخاطب اليومي لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية. نجدتها في اللغة اليومية، وفي الكتابات الأدبية والسياسية والصحفية والعلمية. وهي عنصر حركة وحياة من حيث إنها تريك الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية. وتعني في الوضع اللغوي رفع الشيء وتحويله من مكان إلى مكان آخر، يقال استعار فلان سهماً

(1) - عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 101

(2) - مقامات الزمخشري (الظلف: ص 87).

من كنانته أي رفعه وحوله منها إلى يده (1).

وأما في الاصطلاح، فهي « أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به، كما يقول في الحَمَام أسد، وأنت تريد به الشجاع، مدعياً أنه من جنس الأسود» (2). وأما عن طريقة إجرائها، فهي: «أن تشبه الشيء بالشيء، وتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجره عليه، تريد أن تقول: رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول رأيت أسداً» (3).

وتحتل الاستعارة حجاجياً أعلى مراتب التشبيه، وتعدُّ «من الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم لتحقيق أهداف تواصلية مقامية، ويعبر من خلالها عن مقاصده وأهدافه، بغرض التأثير في المتلقي وإقناعه بما يقدمه» (4)، ولهذا الاعتبار التداولي قسم عبد القاهر الجرجاني الاستعارة قسمين: «أحدهما: أن يكون لنقله فائدة.

والثاني: ألا يكون له فائدة.

فأما غير المفيد، فإنه قصير الباع، قليل الاتساع. وهو الذي يسمى بالاستعارة الشعرية.

وأما المفيد فقد بان لك باستعارته فائدةً ومعنىً من المعاني، وغرض من الأغراض، لولا مكان الاستعارة لم يحصل لك؛ فهي تبرز البيان في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا، وتوجب له بعد الفضل فضلاً، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد... وإنها تريك الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية، وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون» (5).

ويستهدف المتكلم بالاستعارة غايات حجاجية من خلال التأثير العاطفي والعقلي على المخاطب، وعلى الأخص إمتاعه وإقناعه، «فإننا لا نخرج عن هذه التقاليد عندما نرى في الاستعارة وسيلة للإقناع. وإن دورها الحجاجي أكثر نجوعاً عندما يكون أشد خفاءً، إن قوة الاستعارة في عملية الإقناع تأتيها من أنها

(1) - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحى السيد، (مادة: ع ي ر).

(2) - السكاكي، مفتاح العلوم، ص 369.

(3) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 67.

(4) - أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية، ص 68، 69.

(5) - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 30 - 43.

تستثمر ما تسعفها به البنيات الدلالية للغة»<sup>(1)</sup>.

وتنقسم الاستعارة بحسب وظيفتها إلى قسمين: استعارة حجاجية، واستعارة غير حجاجية:

فأمّا الاستعارة الحجاجية فهي «تلك الاستعارة التي تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي»<sup>(2)</sup>، وبذلك فإن لها سلطانا لا يضاهيه سلطان؛ لأن المتكلم يتعمد استخدامها لتغيير رأي المتلقي أو إقناعه بقضية ما، وتدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستخدمها المتكلم بقصد توجيه خطابه وتحقيق أهدافه الحجاجية<sup>(3)</sup>.

وأمّا الاستعارة غير الحجاجية أو البديعية فإنها تكون مقصودة لذاتها، ونجدها عند بعض الأدباء والفنانين الذين يهدفون من ورائها إلى إظهار البراعة اللغوية، والسياق هنا هو سياق الزخرف اللفظي والتفنن الأسلوبي، وليس سياق التواصل والتخاطب<sup>(4)</sup>، ولكن باحثين آخرين رأوا حتى هذا النوع من الاستعارات لا يعدم الوظيفة الحجاجية، وإن كانت أقل فعالية من الاستعارة الحجاجية.

### 1. الاستعارة التصريحية:

تعدّ الاستعارة التصريحية قليلة في المدونة إذا قورنت بنظيرتها، ولكنها كالخيلان فيها، وتلعب دورا يزدوج بين البديعية والحجاجية. ويشير البلاغيون إلى أنّها «نقل اللفظ من مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجربه عليه، وتجعله متناولا له تناول الصفة للموصوف، وذلك كقولك: رأيت "أسدا" وأنت تعني "رجلا شجاعا" و"عنت لنا ظبية" وأنت تعني امرأة، فالاسم في هذا كله - كما تراه - متناول شيئا معلوما، يمكن أن ينصّ عليه فيقال: إنه عني بالاسم وكني به عنه، ونقل من مسماه الأصلي فجعل اسما له على سبيل الإعارة والمبالغة والتشبيه»<sup>(5)</sup>، وموجزها هي: ما يصرح فيها بلفظ المشبه به.

ويستهدف المتكلم بالتشبيه التعريف بالمشبه، لكنّ الذي يحدث في هذا النوع من الاستعارة هو حذف المعرف والاكتفاء بالمعرف، هذا ما يوقع في الصورة غموضا وإلباسا، وهذا العنصران - أي الحذف والغموض - هما تاج الحجاج ومناطه، «إن مدار الحجاج في الصورة على المحلّ الشاغر، وهو بؤرة الحجاج وهو العنصر المطلوب ملؤه والتّهدي إليه، سواء كان هذا التصوير تشبيها أو تمثيلا أو كناية أو استعارة، وطئ هذا العنصر وإبقاؤه ضمينا مخفيا هو دعوة المتلقي إلى إمطة اللثام عنه انطلاقا من العناصر المذكورة،

(1) - ميشيل لوجيرين، الاستعارة والحجاج، تعليق الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، المغرب، عدد 4، 1991، ص 90

(2) - عمر أوكان، اللغة والخطاب، رؤيا للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص 218.

(3) - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006، ص 108-109.

(4) - المرجع نفسه، ص 108-109.

(5) - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 44.

والسبب في إبقائه مطويا ضمنيا يتوصل إليه عبر مسار حجاجي معين، وأن مضمونه سيكون عادة معلومة جديدة بالنسبة الى المتلقين، أو هي في حكم الجديد مما لا يمكن تمثله أو قبوله واستساغته في سهولة ويسر<sup>(1)</sup>. وبملا المفهوم المحلّ الشاعر بطريقتين:

إحدهما جدولية غيائية، وتمثل في كون المحلّ الشاعر يملأه المفهوم الثاني انطلاقا من المفهوم الأول الحاصل في الذهن بالغياب.

والأخرى نسقية حضورية، وتمثل في أن المحلّ الشاعر يملأه المفهوم الثاني في ضوء المفهوم الأول الحاصل من السياق اللغوي بالحضور.

وتعدّ الاستعارة أوجز أنواع التشبيه، وتبني حضورا على أحد الطرفين فقط، وهذا الحذف المكثف هو دعوة إلى « تنشيط خيال المتلقي، والدفع به إلى التفكير لأجل الفهم، وهما في حدّ ذاتهما خطوات حجاجية »<sup>(2)</sup>، فقد ترك الزمخشري في قوله: « سُبْحَانَ اللَّهِ. أَيَّ جَوْهَرَةٍ كَرِيمَةٍ أُؤَلِّتِ. وَبِأَيِّ لَوْلُؤَةٍ يَتِيمَةٍ حُلِّيتِ »<sup>(3)</sup> فجوات دلالية، ودعا من خلالها المتلقي إلى محاوره النص للإسهام في سدّها، باستدعاء جملة المفاهيم الذهنية التي تتشابه مع العنصر الحاضر "الجوهرة" و"اللؤلؤة" في صفاته وخصائصه، وبعد الاستقصاء، وبمعونة السياق والمعرفة المشتركة، يستطيع أن يحدد العنصر الغائب المقصود وهو العقل ليملاّ به المحلّ الشاعر، ويكمل رسم الصورة. وهذه طريقته في إقناع المتلقي بمقصديته من الصورة، وهو تمجيد العقل وتثمينه.

ويعتبر الخطاب الأدبي ضربا من الاستعارة القصوى، حيث يخفي المخاطب قصده خلف المنطوق الحرفي للاستعارة، ويطلب من المتلقي تأويل مقصد ضمني، فإذا ذكر المخاطب « أَيَّ جَوْهَرَةٍ كَرِيمَةٍ أُؤَلِّتِ »، علم المتلقي أنه يقصد أكثر مما يقول، وأن المعنى الحرفي للجوهرة لغو ساقط، ولا يمثل مقصديته، لتعارضه مع سياق الوعظ والإرشاد، فيضطر إلى البحث عما وراء الكلام من معنى، فيقول في نفسه: المتكلم يريد أن يعظم أمرا ويثمنه، والمفروض أنه ملتزم بمبدأ التعاون، فهو لا يريد بي خداعا ولا تضليلا، فماذا يريد أن يقول؟ إنه يريد أن يخلع على الموصوف بعض صفات الجوهرة، وهي التفرد في القيمة والجمال، وهو يعرف أنني أستطيع أن أعرف المعنى الضمني باستصحاب المعنى الحرفي وبمعونة السياق، بل إنه يريد أن يصف أمرا معقولا شبيها بالجواهر، وبما أنه لم يقيم بأي عمل يصرفني عن مقتضى اللفظ، فعلى الأرجح أنه

(1) - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص 555.

(2) - محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 241.

(3) - مقامات الزمخشري (الرضوان: 25).

يريد أن يوجهني إلى موصوف شبيه بالجوهر، ولا يقدر في العالم المادي إلا به، ثم يهتدي إلى أن الموصوف المقصود وهو "العقل".

ويدعي المتكلم بهذا الإجراء الاتحاد بين الطرفين، وأن المستعار له قد صار من جنس المستعار منه، ثم إن الصورة قد قرنت بملائم المستعار منه " كريمة" و"يتيمة"، وهذا فيه مبالغة بتناسي التشبيه وادعاء أن المشبه هو المشبه به نفسه، وليس شيئاً شبيهاً به، وكأن الاستعارة غير موجودة أصلاً. فهي استعارة تصريحية أصلية مطلقة، وتتضح قيمة العقل بنقله من التجريد إلى التجسيد، فيتأثر به خاصة وأن الجواهر والالآئ هي الأعلى والأحب إلى الانسان. وأما القوة الإنجازية للصورة فهي دعوة المخاطب إلى **تثمين العقل**، وإبراز قيمته.

وتعمل اللغة على نحو استعاري، حيث تنفي عن الكلمة معناها الحرفي وتكسبها معنى ضمناً، بالاستناد إلى السياق الثقافي للمتلقى، والمعرفة المشتركة لقطبي العملية التواصلية، ف "الجوهرة" تتحول بطريقة عكسية غير متوقعة من عالم المادة إلى عالم التجريد عقلاً بلغ الغاية في القيمة والغلاء، ومن ثم يتم إنجاز فعل **التمجيد والتثمين** بصورة غير مباشرة عبر المراحل الآتية<sup>(1)</sup>:

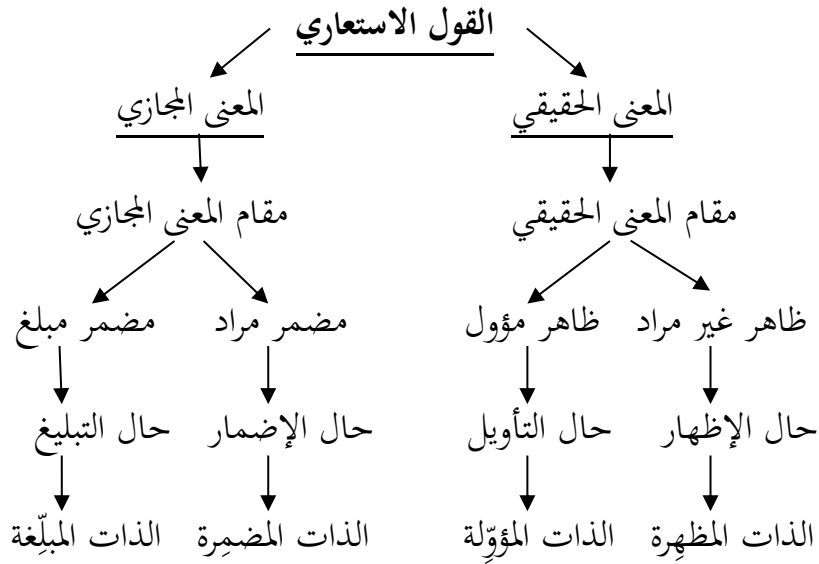
1. يلتزم المتكلم بالمبادئ الحوارية التي تقتضي وصول المعنى بالصورة الصحيحة.
2. إن المتكلم بإنجازه لهذا الفعل يكون قد خرق ظاهرياً بعض المبادئ الحوارية، ولا سيما الجانب المتعلق بالصدق، حيث لا بد أن تكون العبارات صادقة، ومن ثم يجب على المتكلم ألا يقول ما هو كاذب إلا إذا قصد معنى آخر بقوله، وبذلك يكون محترماً للشروط الإنجازية غير خارق لها.
3. باحترام المتكلم والتزامه للشروط، يستنتج المتلقي أن المتكلم يقصد معنى آخر غير المعنى الحرفي.
4. يبحث المتلقي استناداً إلى القرائن السياقية وقدرته الاستدلالية عن المعاني الممكنة لكلمة "لؤلؤة" في الجملة ليحصرها في معنى يمثل مقصدية المتكلم، وهو **العقل** الذي يدل على النفاسة، والقيمة المتفردة التي تشير إلى **التمجيد والتثمين**.

5. يفهم المتلقي الفعل الإنجازي بالانتقال من المعنى الحرفي إلى المعنى غير المباشر. أنجز المتكلم بالصورة « **وَبِأَيِّ لُؤْلُؤَةٍ يَتِيمَةٍ حُلِيَتْ** » فعلاً غير مباشر، هو **تمجيد العقل**، وتثمينه. وتشتغل الاستعارة على نحو تداولي حجاجي من خلال المثلث الاستعاري الذي يشكل الحوار والحجاج والفعالية أضلاعه، ولا تكتمل الصورة، ولا تحقق تأثيرها في المتلقي، ولا تؤدي وظيفتها الحجاجية في الفرضين الأولين، ولا في واحد منها، بل لا بد أن تمتد إلى الفعالية، وفيها فقط يتجلى كمال الصورة،

(1) \_ علي محمود حجّي الصراف، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2010، ص150، 151.

وتزول الضبابية التي كانت تغشاها:

**1. الحوارية:** يدل ظاهر هذا المبدأ أن ذوات خطابية تشترك في بناء القول الاستعاري، لكن قائله في الظاهر واحد لا محاور له، فأين تتجلى الذوات المتحاورة؟ لما كان القول الاستعاري يتكون من مستويين هما: مستوى المعنى الحقيقي، ومستوى المعنى المجازي، فبالإمكان تخصيص لكل مستوى مقاما؛ مقاما خاصا بالمعنى الحقيقي، ومستوى خاصا بالمعنى المجازي. وبما أن المعنى الحقيقي ظاهر مراد أو ظاهر مؤول، والمعنى المجازي مضمّر مراد أو مضمّر مبلغ، جاز أن نميز في المقام الحقيقي بين حال الإظهار وحال التأويل. وفي المقام المجازي بين حال الإضمار وحال التبليغ، فيترتب عن ذلك تشطّي الذات المستعيرة إلى أربع ذوات متحاورة، تمثل كل واحدة حالا من الأحوال السابقة، وهي: الذات المظهرة، والذات المؤولة، والذات المضمرة، والذات المبلّغة. ويتخذ المتكلم كل هذه الذوات مظاهر لوجوده في القول الاستعاري يتقلّب بينها، ولا يمكن حذف إحداها أو ترجيحها أو تقطيعها<sup>(1)</sup>. ويمكن توضيحه بالشكل الآتي:



**2. الحجاج:** تقوم الصفة الحجاجية للقول الاستعاري عبر تداخل آليتي الادّعاء والاعتراض، حيث يعتقد المدّعي دائما صدق دعواه، ويطالب محاوره بأن يصدّقه، ويقتنع بما يقيمه من أدلة عليها؛ بينما يطالب المعارض المدّعي بإثبات دعواه، وألا يُسلّم له إلا عند تمام اقتناعه بصحة هذا الإثبات. ويظهر الادّعاء والاعتراض في ذات المتكلم المتشظية في مستويين:

1.2: في مستوى المعنى الحقيقي تدعي الذات المظهرة المطابقة بين المستعار له والمستعار منه، بينما تعترض الذات المؤولة على وجود المعنى الحقيقي للجملة، وبما أن المعنى المؤول هو أولى بالخفاء من المعنى المضمّر، أي يقوم هذا الدور في إنكار المطابقة بين المستعار له والمستعار منه.

(1) - انظر طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 310.

2.2: وفي مستوى المعنى المجازي، تدّعي الذات المضمورة وجود المعنى المجازي للجملة، أي أنها تدّعي المباينة بين المستعار له والمستعار منه، بينما تعترض الذات المبلّغة على وجود المعنى المجازي للجملة، وبما أن المعنى المبلّغ هو أولى بالظهور من المعنى الحقيقي غير المبلّغ، أي أن تنكر هذه الذات المباينة بين المستعار له والمستعار منه<sup>(1)</sup>.

3. الفعاليّة: تمثل الاستعارة عملياً أبلغ وجوه تقيّد اللغة بمقام الكلام، ويتكون هذا المقام من المتكلم والمستمع، وهذا المقام يدخل في سياق «التواصل الخطابي»، وتبرز فعاليّة الاستعارة في ارتكازها على المستعار منه، الذي ينزل منزلة الشاهد الأمثل والدليل الأفضل، فتكون الاستعارة بذلك أدعى من الحقيقة لتحريك همة المستمع إلى الاقتناع بها، ويهدف المستعير إلى تغيير المقاييس التي يعتمدها المستمع في تقويم الواقع والسلوك، وأن يتعرف المستمع على هذا القصد منه، وعلى معنى كلامه وما يلزم عنه، وأن يكون هذا التعرف سبيلاً لقبوله خطابه، وإقباله على توجيهه<sup>(2)</sup>. يقول الزمخشري: «**وَلَا تُطْعَمُ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ. تَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ يَكُونَ مَسْكَنُهَا دَارًا قَوْرَاءَ<sup>(3)</sup> وَسَكْنُهَا مَهَاءَ<sup>(4)</sup> حَوْرَاءَ. تَجُرُّ فِي عَرَصَتِهَا فُضُولَ مِرْطِهَا<sup>(5)</sup>. وَتَمْسُ عَقْوَتَهَا<sup>(6)</sup> بِهُدَّابٍ<sup>(7)</sup> رَيْطِهَا<sup>(8)</sup>»<sup>(9)</sup>.**

في هذه الصورة تتحاور الذوات الأربع لصناعة حجاجيتها، تمهيدا لإقناع المخاطب؛ حيث تدّعي الذات المظهرة وجود المعنى الحقيقي للاستعارة في مطابقة المستعار له للمستعار منه؛ فتدعي أن سكن الدار مهة حوراء، بينما تعترض الذات المؤولة على وجود المعنى الحقيقي، فتتفي أن يكون سكن الدار مهة، وتنكر المطابقة بين المرأة والمهة. هذا في مستوى المعنى الحقيقي، وأما في مستوى المعنى المجازي للجملة، تدّعي الذات المضمرة وجود المعنى المجازي، وتدعي المباينة بين المستعار له والمستعار منه، فالدار ليس سكنها مهة حقيقية، وإنما مهة من جنس آخر، وفي المستوى نفسه تعترض الذات المبلّغة على وجود المعنى المجازي للجملة، أي: سكن الدار مهة حقيقية لأن المعنى المبلّغ هو المعنى الظاهر. وبالانتقال إلى مبدأ

(1) - المرجع السابق، ص 311.

(2) - المرجع نفسه، ص 312.

(3) - قوراء: واسعة.

(4) - مهة: بقرة الوحش، سميت لبياضها تشبيها بالمهة وهي البلورة والدرّة.

(5) - مرط: كساء من صوف أو خز أو كتان يؤتزر به، وربما يلقيه المرأة على رأسها تتلقّع به.

(6) - عقوة الدار: ساحتها.

(7) - هُدَّاب: خمل الثوب وطرته.

(8) - الريط: الملاعة.

(9) - مقامات الزمخشري (العفة: ص 97)



**الفعالية** حيث تنقيد الاستعارة بالمقام الذي يجمع المتكلم والمستمع، ويؤطر القول الاستعاري، وبالارتكاز على المستعار منه الذي يقوم شاهداً أمثل، ودليلاً أفضل يمكن أن يقود المستمع إلى قصد المتكلم من اللفظ الاستعاري، وما يلزم عنه، فيتعرف على المعنى المقصود باللفظ، وهو أن النفس تهوى داراً قوراء مع امرأة صافية نقية حوراء بيضاء حسناء فاتنة. وهذا التعرف سبيل لقبول خطابه، وإقباله على توجيهه، والقوة الإنجازية للصورة هو تحذير النفس من غواية النساء وفتنتهن، والتوجيه بمعاصتها.

وفي الصورة الاستعارية يشطر المخاطب الصورة نصفين « والصورة كلام نصفه وهو المصرح به من صنع النص أو المتكلم، ونصفه وهو الضمني من صنع المتلقي. وهذا الوضع هو الذي يكفل للصورة قدرتها الحجاجية»<sup>(1)</sup>، ويترك للمتلقي فيها محلاً شاغراً، ويحثه على الانخراط في دورة الكلام الهادرة، والإسهام في إتمام الصورة من خلال المعطى، في ضوء الإحاطة بالمستعار منه (المعرفة المشتركة) والاتكاء على السياق الثقافي واللغوي، خاصة وأنها من العامي المبذل الذي تجده في كل جيل، وتسمعه من كل قبيل، وهذا استدراج له لتبني ادعاء المخاطب، فتهديه قراءة الصورة وتدبره إياها إلى أن العنصر الغائب "امرأة حسناء"، ومن المركز في الطبع أن النفس إذا ظفرت بالشيء بعد طول معاناة وتفكير، فإنها تحسّ بالمتعة والسعادة الغامرة، وسيقع الظفر بالمعنى المقصود منها موقع البشري لشعورها بجلاوة الفهم بكدها من تلقائها، وهذا من أسباب التأثير والاقتناع.

إن كلّ خطاب بذل فيه المتلقي جهداً في تفسيره وتأويله، صار من استنتاجاته، ويعبر عن قناعاته الخاصة، يصعب دحضه ودفعه، فيكون « من السهل عليك أن تدحض قولاً بـ « أن زيذاً بليد وعنيد» من أن تدحض « إن زيذاً حمار» ، ذلك أن الحكم في الحالة الأولى صريح على لسان المتكلم، بينما هو في الحالة الثانية من استنتاج المخاطب، إنه نتيجة تأويله. ومن السهل دائماً أن ننفي ما يقوله من يتحدث إلينا أكثر مما يسهل أن تنفي ما نستنتجه نحن عن طريق عملية تأويلية، إن أحكام القيمة التي تتضمنها الاستعارات أقل التباساً من غيرها؛ إنها أقرب إلى الفهم، ولو كانت أصعب كثيراً في التحليل، ولهذا الصعوبة كان الدحض أشدّ عسراً، ولكنها تزيد الاستعارة الحجاجية قوة»<sup>(2)</sup>.

يسهل على المخاطب أن يدفع المعنى الحرفي بـ " تسكن الدار امرأة حسناء"، لكنه لا يستطيع أن تدحض " تسكن الدار مهارة حوراء"، ذلك أن المعنى في التركيب الأول صريح على لسان المتكلم، بينما هو في الصورة الثانية من استنتاج المخاطب، وما تمكّن المخاطب من استنتاجه عن طريق عملية تأويلية لا يمكن دفعه، ومن ثم يزداد تأثيراً واقتناعاً وتتضاعف حجاجية الصورة.

(1) - عبدالله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص 562.

(2) - ميشيل لوجيرين، الاستعارة والحجاج، ص 88.

في هذه الصورة يحذر المخاطب من نفسه الفاتنة الغاوية التي تأمره بالسوء، وتزين له سوء عمله. وتتميز الاستعارة بحذف مكثف حيث لا يبقى من التشبيه إلا صورة المشبه أو المشبه به، مما يغرق الصورة في الضبابية والغموض، والواقع أن الحجاج ينمو ويتضح في بيئة الغموض والالتباس، ويميل المتكلم إلى هذه الآلية حتى يفسح للمتلقى للمساهمة في تشكيل الصورة<sup>(1)</sup> والواقع أن الحجاج يجد في الغموض أرضية خصبة، لأن الحقيقة عندها لن تكون واحدة، أو لا يمكن الحسم في شأنها، فيكون الالتجاء إلى التأثير والإقناع وتبرير المواقف بديلا عن برهنة شكلية صارمة تميز بين الحق والباطل انطلاقا من مقدمات صادقة وضرورية. ولذلك ذهب كل من نظرُوا للحجاج إلى تأكيد شدة الحاجة إليه في عالمنا هذا لأنه غموض على غموض وأسرار دونها أسرار، فما يرى لا يرى كاملا بل تحتجب وراءه أشياء، وتختفي حقائق فإذا بالواحد منا يحاول جاهدا الاحتجاج لصحة أفكاره ونيل مقاصده وسلامة مواقفه مجندا في ذلك كل أساليب الإقناع وفنيات الحجاج<sup>(2)</sup>، نحو قول الزمخشري: ((أَيْنَ عِنكَ زَمَانُ الْإِنْتِهَاءِ عَلَى رَسْلِكَ حَتَّى يَنْحِي غُصْنُ الْهَامَةِ وَيَبْرِقُ صِلْعُ الْهَامَةِ. وَتَرَى التُّنُومَةَ<sup>(3)</sup> ثَغَامَةً<sup>(4)</sup>). فَأَمَّا وَمِيعَةُ الشَّبِيَّةِ مَعَكَ. فَإِنْ صَاحَ بِكَ وَاعِظْ فَلَا أَسْمَعُ<sup>(4)</sup>)).

إذا قال المتكلم للمخاطب " وترى التئومة ثغامة "، أوقع المتلقي في عالم يلقه الغموض ويكتنفه الالتباس، ولكنه يعلم أن المخاطب ملتزم بالمبادئ الحوارية وخاصة مبدأ التعاون، وأنه يفكر داخل العلبة ولم يخرج عن إطار الحديث وموضوعه، وطالما أن المتكلم لم يصدر عنه ما يصرف عن المعنى المقصود، فسيضطره ذلك إلى تجنيد قدراته الفكرية والذهنية والاستدلالية للبحث عما يربط التركيب الاستعاري بأجزاء الخطاب، فسيهتدي إلى أن المتكلم يريد أن يفكر في " أن الرأس قد شاب "، وأن قوله: " وترى التئومة ثغامة " يقتضي " أن الرأس الأسود الفاحم قد شاب ".

وبالمعنى المقتضى يتمكن المخاطب من بلورة المعنى، وملء المحل الشاغر، وهو المستعار له، لتكتمل الصورة، وترينا المخاطب قد اشتعل رأسه شيبا، وحالت فتوته، وذبلت قوته، وخارت قواه، وتحول من الشبيبة إلى الشيب. وبإسهام المخاطب في صناعة الكلام الضمني يكون قد خطا خطوة كبرى على درب الاقتناع.

وأما القوة الإنجازية للتركيب الاستعاري، فهي دعوة المخاطب إلى التعجيل بالتوبة، والأخذ من شبابه

(1) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 63

(2) - التئومة: نبات أسود.

(3) - الثغام: نبت زهره أبيض وثمره.

(4) - مقامات الزمخشري (الارعواء: 28).

لهرمه قبل فوات الأوان.

وأكثر الاستعارات التصريحية الحجاجية توظيفاً في المدونة تبعية فعلية، مثل قول الزمخشري: ((ثُمَّ اصْطَبَرُوا لَوَجْهِ اللَّهِ وَتَبَتُوا. وَمَا اسْتَكَانُوا لَهُمْ وَمَا أَحْبَبْتُوا<sup>(1)</sup>. حَتَّى اشْتَرُوا النَّعِيمَ الْحَالِدَ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ. بِبُؤْسٍ وَطَنُوا<sup>(2)</sup> عَلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ<sup>(3)</sup>))، حيث يحيل الفعل "اشترى" إلى دلالة مادية في الواقع إذ يحصل الفعل عادة في المجال المادي "المال"، لكن المتكلم نقله إلى دلالة جديدة وهي الاشتراء في المعنويات "النعيم والبؤس" بمعنى الاختيار والتفضيل.

شبهه المخاطب اختيار أولياء الله للنعيم السرمدى وتفضيلهم إياه على البؤس (العنصر الغائب)، بالاشتراء (العنصر الحاضر)، الذي هو استبدال مال بآخر بجامع استبدال شيء مرغوب فيه بشيء مرغوب عنه، ثم استعير لفظ المشبه به وهو "الاشتراء" بعد التناسي والادعاء للمشبه، وهو "الاختيار والتفضيل"، ثم اشتق من الاشتراء بمعنى التفضيل والاختيار اشتروا بمعنى فضلوا واختاروا على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

إنَّ مَّا يَعْنِيهِ الْاِشْتِرَاءُ التَّمْلِكُ الدَّائِمُ لِلْمَشْتَرِي، وَمَا تَتَّبَعَهُ مِنْ فَرَحَةٍ تَتَمَلَّكُ وَجْدَانَ الْمَشْتَرِي بِالْأَمْرِ الْمَفْضُولِ الْمُخْتَارِ بِصِيرِ بِحُوزَتِهِ، وَلِهَذَا كَانَ لَفْظُ "الْاِشْتِرَاءِ" أَكْثَرَ تَأْثِيرًا فِي النَفُوسِ مِنْ لَفْظِ "الْاِخْتِيَارِ". ويتمكن المخاطب من المفهوم الغائب "الاختيار والتفضيل" من خلال التأمل والتدبر العقلي للصورة، بتوجيه من أطر الخطاب خاصة السياق والمقام، والمتكلم الذي أفسح المجال للمتلقى بتركه فضاءً يسمح له بالمشاركة في إنتاج الدلالة، وبهذا التمكن الذي يشغل حيزاً في الفكر يستطيع ملء الفضاء، وإتمام بناء الصورة يحدث له نوع من التقبل لها، فينصاع لها نتيجة تأثره بها، ولأن الإنسان لا يستطيع أن ينكر ما أسهم في إنتاجه، فيحصل له الاقتناع بالصورة، ومنه تستمد طاقتها الحجاجية. وتتمثل القوة الإنجازية للتركيب في دعوة المتلقي ضمناً إلى الصبر على المحن والابتلاء حتى يعيش في نعيم أبدي.

وكذلك استعارته الصوم للكفّ والامتناع في قوله: ((وَاسْتَعَصِمِ اللَّهُ لَعَلَّهُ يَعْصِمُكَ. وَصُمْ عَنْ جَمِيعِ مَا يَزُرِي<sup>(4)</sup> بِكَ وَيَصِمُكَ<sup>(5)</sup>))، فقد شبه المتكلم الامتناع عن كل فعل معيب مشين بـ "الصوم" وهو المشبه

(1) - الإخبات: الخشوع. والخبث: المطمئن من الأرض.

(2) - وطن نفسه على الشيء: حملها عليه، وهيئها.

(3) - مقامات الزمخشري، (الفرقان: ص191).

(4) - يزري بك: يضع من قيمتك، ويحتقرك.

(5) - يصمك: يعيبك. مقامات الزمخشري (العفة: ص104).

به، بجامع الكف والابتعاد في كلِّ. والقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي للفعل "صُم" هي اللفظ " عن كل ما يزرى به"، ومعلوم أن لفظ "الصوم" يكتسي طابعا مقدسا يرفع الصائم عن الشهوات مكانا عليا في جنة الريان، ولهذا وظّف اللفظ "صُم" بدل "امتنع" للارتقاء بالمخاطب، ووضعه في محل فوق الشهوات والمزريات. ومّا لا شك فيه أن الألفاظ الدينية - الصيام مثلا - لها وقع كبير على السامع، تتأثر بها نفسه، وتقتنع.

كما ترك المتكلم فجوة دلالية تمثل نصف الصورة الاستعارية، وهي حظ المتلقي منها، وتمثل دعوة له ليسهم في سدّها من خلال المعطيات المقدمة والإطار الخارجي للخطاب، وعندما يتمكن من المفهوم الغائب "الامتناع" ينحفر في ذهنه ويقتنع به، ثمّ ينصاع إليه. وهذه هي قيمة الصورة التداولية الحجاجية. وتمثل القوة الإنجازية للصورة في وجوب امتناع المخاطب عن كل ما يصمه، ويعيبه.

## 2. الاستعارة المكنية:

اعتمد الزمخشري كثيرا على الاستعارة المكنية باعتبارها الآلية الأنسب لإنتاج الخطابين المرعّب

والمرهّب، وأنجع أداة للحثّ والحفز، وهي الأكثر شيوعا وتنوعا في المدونة.

وتشير في اصطلاح البلاغيين إلى « تشبيه لا يصرح فيه بلفظ المشبه به، بل يطوى ويرمز له بلازم من لوازمه، ويسند هذا اللازم إلى المشبه، ولهذا سميت استعارة مكنية، أو استعارة بالكناية »<sup>(1)</sup>، وعرفها عبد القاهر الجرجاني بأنها «أخذ الاسم على حقيقته، ووضعه موضعاً لا يبيّن فيه شيء يُشارُ إليه فيقال: هذا هو المراد بالاسم الذي استعير له، وجعل خليفةً لاسمه الأصلي، ونائباً منابه»<sup>(2)</sup>، وتتميّز الاستعارة المكنية بدرجة أوغل في العمق، ومرجعه إلى خفاء لفظ المستعار منه، وحلول بعض ملائماته محله، مما يفرض على المتقبل تحطي مرحلة إضافية في العملية الذهنية، التي يكتشف إثرها حقيقة الصورة<sup>(3)</sup>.

وتتجلى تداولية الاستعارة في النقل والتجريد الذي يظهر في سطح التركيب الاستعاري؛ عندما تخصص المواضع، وينقل المتكلم المعنى من التجريد إلى التجسيد من خلال الأنسنة أو الحيونة أو التشبيهي، فتصبح المعنويات والأمور المجردة بارزة للعيان في صورة شخوص وكائنات حية يصدر عنها كل ما يصدر عن الكائنات الحية من حركات وأعمال، ولا شك أن في هذه الاستراتيجية توضيحا للمعنى، وتأكيدا له، حين يبالغ في تناسي التشبيه، وادعاء أنّ المشبه صار فردا من أفراد المشبه به، كما في قول الزمخشري: «يا

(1) - بسويوني عبد الفتاح فيود، علم البيان، ص153.

(2) - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص44.

(3) - محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص166.

أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّكَ لَفِي مَوْقِفٍ صَعْبٍ بَيْنَ حَوْبَةٍ رَكِبْتَهَا. وَبَيْنَ تَوْبَةٍ تُبْتَهَا. فَمَتَى يَأْسَرْتَ بِنَظْرِكَ إِلَى جَانِبِ حَوْبَتِكَ وَهُوَ أَوْحَشُ جَانِبٍ. وَأَجْدَرُهُ بِالْمَخَافِ وَالْمَهَابِ ... رَأَيْتَ الشَّرَّ يُهْرَوُلُ إِلَيْكَ مُقْعَعًا بِأَقْرَابِهِ. مُخْتَرِطًا مَنصَلَهُ مِنْ قَرَابِهِ. يُؤَامِرُ<sup>(1)</sup> فِيكَ نَفْسِيهِ. وَيُدَاوِرُ فِيكَ رَأْيِيهِ. أَيَقْدُكَ<sup>(2)</sup> أَمْ يَقْطُكَ. وَالْوَعِيدُ يَتَلَفَّأَكَ بِوَجْهِ جَهْمٍ<sup>(3)</sup>. وَيَرْحَفُ تَلَفَّأَكَ بِجَيْشِ دَهْمٍ<sup>(4)</sup>. وَالْعِقَابُ يُحْدُ لَكَ نَابَهُ. وَيَشْمَرُّ عَنْ مَحْلَبِهِ قَنَابَهُ... وَمَتَى يَأْمَنْتَ بِبَصْرِكَ إِلَى جَانِبِ تَوْبَتِكَ. وَهِيَ آنَسُ جِهَةٍ وَأَنْقَهَا. وَأَوْفَقُهَا بِالْمُؤْمِنِ وَأَرْفَقُهَا... وَجَدْتَ الْخَيْرَ مُقْبِلًا بِوَجْهِ طَلْقٍ. بَسَامًا عَنْ مِثْلِ وَمِضِ الْبَرْقِ. يُلَازِمُكَ لِزَامِ الْحَمِيمِ الْمَشْفِقِ. وَيُلَاقِمُكَ لِثَامِ الْحَبِيبِ الْمَتَشَوِّقِ. وَالْوَعْدُ يَنْفُضُ عَلَى حَدِيدِكَ وَرَدَّ الْاسْتَبْشَارِ. وَيُدِيقُ قَلْبَكَ بَرْدَ الْاسْتَبْصَارِ. وَالثَّوَابُ يَمْسَحُ أَرْكَانَكَ بِجَنَاحٍ. وَيَغْسِلُكَ عَنْ كُلِّ مَأْتَمٍّ وَجَنَاحٍ. وَالرَّجَاءُ وَالْيَأْسُ يَتَقَارَعَانِ فَيَخْرُجُ سَهْمُ الرَّجَاءِ بِالْفُوزِ وَالْفَلَجِ<sup>(5)</sup>. وَيَبْقَى الْيَأْسُ مَقْرُوعًا دَاخِضَ الْحُجَجِ<sup>(6)</sup>.

تقدم لنا مخيلة المخاطب صورة الآثم العاصي في موقف صعب وهدفا لأغراض شتى، الكل يترصد به، ويترصده، ويستعد لينال منه نصيبا، الشر يمتشق سيفه، والوعيد يريه وجها كالخا عبوسا يقود جيشا جزارا، والعقاب يحذ أنيابه، ويشمر عن مخالفه يتهيا لاغتيا له وافتراسه، فأنى له النجاة، وكيف يخرج من هذا الموقف الخطير، لا شك أن هلاكه حتمي.

ويجد المتأمل في الصورة أن المخاطب قد هز علاقة التطابق بين الشر، والوعيد، والعقاب ومدلولاتها الوضعية، إلى وضع إبداعي جديد، حيث نقل المشبه من التجريد إلى التجسيد، وأرانا إياه في صورة كائنات بشرية، وحيوانية مخيفة تتشوفها العيون، وتناى عن الظنون. فجعل الشر سيافا شرسا، والوعيد قائد جيش جزار، والعقاب سبعا كاسرا. وهو تحويل قسري فرضه مقام التلفظ، والمخاطب بهذا الإجراء يستهدف التأثير في المتلقي، لأن النفس تتأثر بالمحسوس، وتقنع به أكثر من تقبلها المعقولات، والنتيجة أنه ينساق خلف مجريات الصورة الاستعارية وحمولتها وينصاع لها.

ويمثل المحل الشاغر وهو المشبه به المركز في الاستعارة المكنية الحجاجية، إذ يضاعف به المخاطب من الطاقة الحجاجية للصورة، وشغل هذا المحل مرهون بإشارات مقالية توجه المتلقي إليه، وهو حظ المتلقي

(1) - يؤامر فيك نفسه: إذا تردد الرجل في أمر واتجه له داعيان لا يدري على أيهما يعرج. قالوا: فلان يؤامر نفسه يريدون داعي

النفس وهاجسها، فسموهما نفسين.

(2) - يقْدُكَ: القطع بالطول، والقطّ بالعرض.

(3) - الجهم: الغليظ الباسر العابس.

(4) - دهم: عظيم كبير.

(5) - الفلج: الظفر

(6) - مقامات الزمخشري (الندم: ص 105 - 108).

من الصورة، وحتى يتمكن من شغله بالمعنى الضمني، ويعيد بناء الصورة كما هي في ذهن المتكلم، يجب عليه التحليق في الفضاء النصي، وتكثيف العملية الذهنية باستدعاء خبراته المختزنة والمتجانسة مع معطيات الصورة المخيلة، ليصل إلى أن المشبه به المقصود هو: "السيّاف"، و"القائد"، و"السبع".

ويُعدّ الادّعاء سبيلَ الإمتاع أحد وسائل التأثير وأدوات الإقناع والحجاج، إذ ((تقوم الاستعارة على ادّعاء المتكلم أن المعنى المذكور هو المقصود إثباته في اللفظ المذكور، لأنه منقول إليه؛ فإذا قال: «رأيت أسداً»، فهو يدّعي أنه رأى أسداً لا إنساناً يشبه الأسد، ويدعُ المخاطب يبحث عن حدود هذا الادّعاء وأبعاده، ليدرك أخيراً أنّ في ذلك تقوية للمعنى المراد وتثبيتاً له في نفسه<sup>(1)</sup>، إذ يسعى المتكلم به إلى التقريب بين عنصرين من نظامين مختلفين مع محاولة جاهدة لطمس ما بينهما من فروق، ويدّعي المجانسة ودخول المستعار له في جنس المستعار منه، ((فالادّعاء بوصفه فعلاً حجاجياً يستوجب إدخال المستعار له في جنس المستعار منه على وجه الحقيقة، وذلك بخلق عالم ثالث، هو العالم الممكن، حيث يمكننا أن نجتمع بين عالمين ذوي بنيتين ونسقين مختلفين، فنصير المستحيل ممكناً عن طريق الخيال<sup>(2)</sup>، لذلك اعتبره الجرجاني "أداة من أدوات الإقناع" و«هذا الادّعاء يحتاج إلى إثبات ثبوت صفة المشتركة للمستعار له، وادّعاء دخول المستعار له في جنس المستعار منه، والتدليل عليهما:

أمّا ادعاء ثبوت الصفة في المستعار له، فدليله هو المستعار منه نفسه، إذ تلزم عنه هذه الصفة لزوماً. وأمّا ادعاء دخول المستعار له في جنس المستعار منه، فلا يذكر له دليلاً خارجاً، والحقّ أنه لا حاجة له بهذا الدليل الخارجي، فإن هذا الادّعاء يبلغ الغاية في الإقناع، حتى إنه يصير بمنزلة قانون حجاجي، يُدلل على نفسه، ولا يدلّ عليه غيره<sup>(3)</sup>.

وإذا انتقلنا في الخطاب السابق إلى الجانب المقابل للحوبة، وهو جانب التوبة، وجدنا المخاطب يرسم لمخاطبه صورة نابضة بالحياة، يرى فيها "الخير"، و"الوعد"، والثواب" و"الرجاء"، و"اليأس" كائنات حية بشرية، تتحرك وتتصرف كما يتصرّف البشر؛ الخير يستقبله بوجه ناضر ضاحك متهلل، والوعد يستقبله بالأزهار، ويصبغ خديه بوردية البشري، فتنزل على قلبه برداً وسلاماً، والثواب يغسل جوارحه من الذنوب حتى يعود كيوم ولدته أمه، ويتقارع الرجاء واليأس على قلبه، فيدمغ الرجاء اليأس فإذا هو زاهق.

(1) - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص 63.

(2) - أحمد عبد السيد الصاوي، الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين، دراسة تاريخية فنية، منشأة المعارف، مصر، (د ط)،

1988، ص 86

(3) - انظر طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 307.

وفيهما يدّعي المخاطب المجانسة ودخول المستعار له في جنس المستعار منه، حيث ينقل المجردات في صور كائنات حية بالتشخيص؛ حيث أنسن الخير والوعد، والثواب والرجاء. ثم رشّح الاستعارة بذكر ملائمتها المشبه به، حتى إنك لتجد المتكلم يتناسى التشبيه ويدّعي أن المشبه هو المشبه به نفسه لا شيئاً شبيهاً به، وكأنّ الاستعارة غير موجودة أصلاً، وتجدّه يعن في إنكارها، حتى يجيّل إليك أن الأمر محمول على حقيقة لا تجوّز فيها. ومثل هذا الخطاب يثير في المخاطب الشعور باللذة والرغبة ويحفّزه على التوبة، وهذا من دواعي التأثير والانصياع والافتناع.

وبنى الرمخشري مقامة الندم على المقابلة، وفيها وضع عن يسار المخاطب حوبته وما ينجر عنها من آلام قاتلات، وعن يمينه توبته وما تسبغه عليه من ملذات، وانتهى بالملذات باعتبار أن آخر ما يبلغ الأذهان أول ما يعلق بها، وأول ما يبادر إليه الإنسان، ولن تتضح للمخاطب عواقب الحوبة إلا إذا وضع إلى جانبها مزايا التوبة، وللموسيقى الناشئة عن المقابلة دور كبير في الحجاج، إذ (( يمكن اعتبارها رافداً من روافد الحجاج من جهة استيلائها على النفوس، وامتلاكها للأسماع، وما كان أملك للسمع، كان أفعال باللب وبالنفس ))<sup>(1)</sup>.

وإذا قال: (( كَلِّمًا تَبَرَّجَتْ لَهُمْ ( عباد الله ) الدُّنْيَا وَتَزَيَّنَتْ بِأَبْهَجِ زِينَتِهَا، وَتَحَلَّتْ بِأَبْهَى حَلِيَّتِهَا مُفْتَخِرَةً بِوَشِيْهَا، مُتَبَخِّرَةً فِي مِشِيَّتِهَا، غَضُّوا دُونَ رُؤْيَيْهَا أَجْفَانَهُمْ، وَضَرَبُوا عَلَى اللَّبَّاتِ أَذْقَانَهُمْ ))<sup>(2)</sup>، علم المخاطب أنه استعار في النفس لفظ " المرأة " لـ " الدنيا " بجامع " التبرج للإثارة والفتنة والغواية"، وادّعى ثبوت هذه المعاني في الدنيا على أنها هي الواردة، لا على أنها منقول من مجال دلالي إلى آخر، ثم أثبت التبرج والتزين والتحلي والتبختر في المشي للدنيا على سبيل الاستعارة التخيلية.

واستدل المخاطب على ثبوت صفة الجمال والفتنة والغواية في المستعار له " الدنيا " بالمستعار منه " المرأة المليحة الحسناء"، ثم إن الدنيا قد جانست الحسناء، وصارت امرأة لا شيئاً شبيهاً بها، ولم يعد التبرج خاصاً بـ " المرأة " بل هو صفة " الدنيا " كذلك. ولكي يجعل المخاطب المتلقي ينساق عاطفياً وراء الاستعارة رشّحها بذكر ملائمتها المستعار منه (( تَزَيَّنَتْ بِأَبْهَجِ زِينَتِهَا، وَتَحَلَّتْ بِأَبْهَى حَلِيَّتِهَا مُفْتَخِرَةً بِوَشِيْهَا، مُتَبَخِّرَةً فِي مِشِيَّتِهَا ))، وكان الكلام محمول على الحقيقة لا تجوّز فيه، وهذا الانسياق يدفع المتلقي إلى الانصياع التلقائي المبيّت من المخاطب، فيتبىّ الادّعاء، ويقتنع بفحوى الخطاب. أي أنك لن تكون عبداً لله حتى ترهد في الدنيا، وتقاوم ملذات الدنيا وشهواتها بالإغضاء والحياء.

(1) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 127

(2) - مقامات الرمخشري (الاسوة: 172).

وتعدّ الاستعارة وسيلة رئيسة ومهمّة من الوسائل المستخدمة في إنجاز الأفعال غير المباشرة، فقد أنجز الزمخشري بالصورة فعلا كلاميا تعبيريا طلبيا غير مباشر، حيث نقل إعجابه بعباد الله الذين لم تغوهم الدنيا وتفتنهم. وذو السلطة (كيفما كانت سلطته سياسية أو اجتماعية أو دينية أو أخلاقية) يعد إعجابه بالشيء توجيهيا غير مباشر بالفعل أو الترك، فهو يحذر المتلقي من فتنة الدنيا، وينخدع بها اقتداء بهم. وتتجلى ملامح الصورة التداولية الحجاجية كذلك في:

أ. التصوير الحسي لـ "الدنيا"، ونقلها من العالم المجرد إلى العالم الحسي، فقد تمثّلت لعباد الله امرأة حسناء طافحة بعناصر الإثارة والاعواء والإغراء، وفي صورة تعشقها العيون قبل القلوب، لكن كلّ هذا لم يخدمهم، فقاوموها بالإغضاء والحياء.

ب. انفتاح النص، فقد أفسح المخاطب المجال للمتلقي من خلال الفجوة التي تركها في الصورة - وهي المستعار منه - لاستكمال بنائها من خلال الإشارات المقاليّة المرسومة في الصورة، مستندا إلى ثقافته وخبراته المادية العالقة في الذهن، ومشاهداته العيانيّة للعالم الواقعي، وبمعونة السياق الداخلي والخارجي يتمكن من فكِّ شيفرتها وسد الفجوة. فإذا تمكن من ذلك آمن بالفكرة واقتنع بالمعنى.

ج. جمال معنوي وشكلي ناشئ عن التسجيع والتجنيس (وشي، مشي)، و(أجفان، أذقان)، وتكرار الصيغ الصرفية "تفعل" (تبرّج، وتزيّن، وتحلّي) و"مفتعلة" (مفتخرة، ومتبختر)، ولا يخفى دور الموسيقى المتولدة عن المحسنات اللفظية والمعنوية في التأثير والإقناع.

وتضطلع الصورة بوظيفتين إحداهما حجاجية، والأخرى شعريّة، لذلك يرتبط الإقناع في الثقافة العربية ارتباطا وثيقا بالإمتاع « لأن الإمتاع سبيل من سبل الاقتناع، وداع من دواعي النظر في فحوى الخطاب ليكون أدعى للاستمالة، ويتمثل ذلك في كل ما من شأنه أن يترك آثاره في نفس السامع ويدفعه إلى الامتثال، فالاستعارة إذن، بقدر ما هي إقناع للعقل هي إمتاع للنفس أيضا»<sup>(1)</sup>. يقول الزمخشري: «وأقبل على العلم يبوس الأرض بين يديه. وعلى الأدب يعنتقه ويثلم خديه»<sup>(2)</sup>، لما علم المخاطب أن المتلقي يطلب العلم والأدب للتكسب والمباهاة، سعى إلى تصحيح هذه الفكرة من خلال هذه الصناعة البيانية الناشئة عن العدول في المستويين الجدولي والتسقي، فصور العلم في صورة سلطان يجثو الناس أمام عرشه تعظيما وتقديرا، ومثّل له الأدب شخصا محبوبا يستقبل بالعناق والتقبيل، وهو إجراء يسحر النفس ويخلب القلب، ويفعل باللب، ويهدف المخاطب بهذه الصناعة البديعة إلى إطراب المتلقي وإمتاعه وشدّ انتباهه

(1) - سامية الدريدي الحسيني، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 127.

(2) - مقامات الزمخشري (الظلف: 84) .



إلى محتوى الخطاب، من أجل التأثير فيه واستمالته إلى رأيه، ودفعه إلى الامتثال له والاقتران به ((إن المميز واللافت في القياس الشعري أي في التشبيه والاستعارة أنه يجمع بين الإقناع والجمال، إنه يقنع بالفكرة أو الرأي من جهة أنه قياس، وهو يمتنع من جهة أنه صورة تزين القول وتوشيه))<sup>(1)</sup>.

### 3. الاستعارة التمثيلية:

الاستعارة التمثيلية مهوى أفئدة البلغاء، ومبلغ آمالهم، ومحط أنظارهم، لا يعدلون بها إلى غيرها إلا عند عدم إمكانها، فهي أبلغ أنواع المجاز مفردا ومركبا.

وهي بنية لغوية تؤدي مهمة الاستعارة المفردة دون أن تأخذ شكلها، فيكون المستهدف البلاغي التعبير عن معنى بعبارة وضعية، ثم يعدل عن المعنى والعبارة، إلى معنى آخر يكون مساويا للمعدول عنه<sup>(2)</sup>. وفي حدودها المعرفية ((هي اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه، أي: تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى، ثم تدخل المشبه في جنس المشبه بها، مبالغة في التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه))<sup>(3)</sup>. وبإيجاز، هي ((تركيب استعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي))<sup>(4)</sup>. كما كتب الوليد بن يزيد - لما بويح - إلى مروان بن محمد، و قد بلغه أنه متوقف في البيعة له: ((أما بعد، فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا، فاعتمد على أيهما شئت، والسلام)). شبه صورة تردده في المبايعة بصورة تردّد من قام ليذهب في أمر، فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلا، وتارة لا يريد فيؤخر أخرى. وتخالف الاستعارة المجاز المفرد لأنها تقع في المجموع، وتخالف المجاز لعقلي، لأن المجاز فيه يقع في الإسناد، أما التمثيل، فالمفردات فيه حقائق والتجوز يقع في مجموعها<sup>(5)</sup>.

ولم يصطنع الزمخشري هذه الفعالية كثيرا في المقامات كإجراء في تحقيق الاخبارية والتواصل فقلّت إلى حد الندرة، ولكن مع هذا فقد كانت فيها كالحال في الوجه تسحر النفوس وتخلب العقول وتؤثر فيها تأثيرا بليغا، ووردت مثلا وغير مثل.

ومما قامت على مثل قول الزمخشري: ((وَفَقَى طَيَّانٌ مِنَ الْمَنَاقِصِ وَالرِّذَائِلِ. رِيَّانٌ مِنَ الْمَنَاقِبِ وَالْفَضَائِلِ.

(1) - سامية الدريدي الحسيني، دراسات في الحجاج قراءة نصوص مختارة من الأدب العربي القديم، عالم الكتاب الحديث، جدارا

للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2009، ص95.

(2) - محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 185.

(2) - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص260

(4) - عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 192.

(1) - انظر محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 186

إِنْ ذُكِرَ... الْقَوَائِي، فَإِبْدَاعُهُ فِيهَا يُلَقِّطُكَ ثَمَرَاتِ الْغُرَابِ»<sup>(1)</sup>.

وتقوم الصورة على المثل العربي «ثمرة الغراب»، حيث شبه المخاطب الفتى لا ينتقي من القوافي إلاّ أعذبها وأرقّها وأبدعها، بصورة الغراب الذي لا يقع إلا على أعلى الثمر وأينعه، بجامع إحسان الانتقاء لكلّ منهما، ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه، بعد تناسي التشبيه، وادّعاء الاتحاد بين الطرفين، على سبيل الاستعارة التمثيلية. والقريفة حالية تفهم من سياق الكلام. ويحفر هذا النوع من الكلام المتلقي على الانغماس في عالم الصورة للتنقيب عن الروابط المعنوية التي يمكن أن تجمع بين الطرفين بغية استجلائها، وعن الخيوط التي تجمع بين المورد والحالة الجديدة المناسبة أو المطابقة له، وهي خطوة أولى في سبيل الاقتناع، كما يُعوّل المتلقي كثيرا على المقام في تأويل الصورة تأويلا ناجحا، يمكنه من الكشف عن غرض المتكلم ومقصده ونواياه من الصورة.

واحتجّ المخاطب لرأيه بسلطة المثل، وكما هو معروف فإنّ المثل هو ابن التجربة والملاحظة لا يصدر إلاّ عن خبير مُنجد، لذلك يصلح أن يكون قانون حياة، يسوقه المتكلم حجة وبرهانا، يحاجج به ليثبت بها موقفه من تفرّد الفتى وتميّزه في عدوبة نظمه.

ومّا بني على غير مثل قوله: «وإنّ ذكّر معرفة الكتابة والخطّ. فقد لجج وتركّ الناس على الشطّ»<sup>(2)</sup>

فقد شبّه المتكلم حال الفتى وقد تفرّد في معرفة الكتابة والخط دون غيره، بحال سبّاح ماهر تفرّد بإجاداته السباحة فخاض البحر، وتركّ الناس على الشاطئ بجامع الإجادة والتميّز لكلّ منهما. ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه، بعد تناسي التشبيه، وادّعاء الاتحاد بين الطرفين، على سبيل الاستعارة التمثيلية. والقريفة حالية تفهم من سياق الكلام.

لا شك أن الاستعارة التمثيلية تحتل المرتبة الأولى في الأبلغية، لأنها تتميز بالعمق كونها مبيّنة على التشبيه التمثيلي الذي هو أبلغ أنواع التشبيه. ذلك بما تخلعه على المتلقي من سحر وفتنة، وتضعه أمام صورة تملك عليه مشاعره، وتذهله عما تنطوي عليه من التشبيه، وهي شديدة التوتر، فتؤثر في المتلقي تأثيرا بليغا يجعله ينساق وراء الصورة الاستعارية، ويخضع لسلطانها، وما دامت المعاني عميقة في الصورة، تطلب من المتلقي أن يمتلك أدوات عدة للغوص في ثنايا النص باحثا منقبا عن الروابط المعنوية التي يمكن أن تجمع بين الطرفين بغية استجلاء الصورة، والكشف عن المعاني الخفية التي تنطوي عليها، فيكون له حظ المساهمة في إنتاجها، ومن ثمّ يحدث فيه نوع من التأثير المؤدي إلى الاقتناع.

(2) - مقامات الزمخشري (العمل: ص 123)

(3) - المصدر نفسه (العمل: ص 124)

#### رابعاً: تداولية التركيب الكنائي في مقامات الزمخشري:

الكناية من أركان المجاز، وأوجه البيان وأنواع البلاغة، وأساليب الفصاحة، وهي أبلغ من التصريح، وملجأ الوقور والمقهور، ومنجي الخائف، ومسلك الأديب، وأحد طرق التعبير الفني، يلجأ إليها الأدباء للتعبير عما تجيش به نفوسهم والإبانة عما في صدورهم دون أن يُبينوا.

وهي في العرف اللغوي مصدر قولك: كنيت بكذا عن كذا، وكنوت، إذا تركت التصريح به، أو أردت أن تتكلم بشيء وتريد به غيره، وكنئ يكتي كناية، يعني: إذا تكلم بغيره مما يستدل عليه، نحو الرفث والغائط ونحوه<sup>(1)</sup>، ومادة (ك ن ي) كيفما تركبت دارت مع تأدية معنى الخفاء<sup>(2)</sup>.

وأما في الاصطلاح فقد عرفها اللغويون بأنها «إرادة المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يدرکه باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي به إليه، ويجعله دليلاً عليه، ومثال ذلك قولهم: هو طويل النجاد، يريدون طويل القامة، و"كثير رماد القدر"، يعنون كثير القرى، وفي المرأة "نؤوم الضحى"، والمراد أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها»<sup>(3)</sup>.

أو «ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: فلان طويل النجاد لينتقل منه إلى ملزومه، وهو طول القامة»<sup>(4)</sup>

أو «كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز»<sup>(5)</sup>. وفي أبسط تعريف جامع لها «هي كل لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع جواز إرادة ذلك المعنى»<sup>(6)</sup>.

وتقوم على ترك التصريح بذكر الشيء، إلى ذكر ما يلزمه، وحينها ينبغي على المخاطب أن ينتقل من المعنى المذكور إلى المعنى الخفي، أو معنى المعنى، أو المعنى اللازم، وعلى هذا القياس. «وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلُّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض. ومدار هذا الأمر على «الكناية» و«الاستعارة» و«التمثيل» [...] أو لا ترى أنك إذا قلت: «هو كثير رماد القدر» أو قلت: «طويل النجاد» أو قلت في المرأة: «نؤوم الضحى» فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدلُّ اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانياً

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (ك ن ي). الرازي، مختار الصحاح، مادة (ك ن ي) (

(2) - انظر السكاكي، مفتاح العلوم، ص402.

(3) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص66.

(4) - السكاكي، مفتاح العلوم، ص302.

(5) - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، ص52.

(6) - انظر القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص273. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص47

هو غرضك. فمعرفة من «كثير رماد» إنه مضياف، ومن «طويل النجاد» أنه طويل القامة، ومن «نؤوم الضحى» في المرأة أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيا»<sup>(1)</sup>.

وبإيجاز يمكن أن تقول: «المعنى» و«معنى المعنى»، تعني بـ«المعنى» المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة. وبـ«معنى المعنى»، أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر<sup>(2)</sup>. وهذا الذي يعبر عنه التداوليون بالمعنى الحرفي والمعنى الضمني أو المستلزم.

وتشمل الصورة الكنائية في هذا كالاتعارية معنيين: الأول حرفي في سطح البنية، والثاني ضمني يمثل مقصدية المتكلم من فعل التلفظ، وهو قابع في العمق، يدركه المتلقي انطلاقاً من المعنى الحرفي بالاستناد إلى أطر الخطاب، لكنها لا تغرق في الوقوف عند المعنى الضمني، لأن المعنى الحرفي قد يعبر مباشرة عن مقاصد المتكلم ونواياه. و«يعتمد المتكلم في الصورة الكنائية على التلميح إلى المعنى المقصود رغبة منه في اختبار مدى فطنة المتلقي ويقظته»<sup>(3)</sup>.

وتنقسم الكناية باعتبار المكنى عنه ثلاثة أقسام هي: كناية عن صفة، وكناية عن موصوف، وكناية عن تخصيص الصفة بالموصوف<sup>(4)</sup>، هذا وإن كثرت الوسائط في الكناية نحو كثير الرماد سميت تلويحاً، وإن قلت وخفيت سميت رمزا، نحو: فلان من المستريحين كناية عن الجهل والبلاهة، وإن قلت الوسائط ووضحت أو لم تكن، سميت إيماء وإشارة، نحو الفضل يسير حيث سار فلان: كناية عن نسبة الفضل إليه. ومن الكناية نوع يسمى التعريض، وهو «أن يطلق الكلام ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق، كأن تقول لشخص يضر الناس: خير الناس أنفعهم للناس»<sup>(5)</sup>.

### 1. الكناية عن صفة: يعدّ هذا القسم هو الأكثر جريانا وتوظيفا في المدونة، ويعدّ نواة فاعلة في

النسيج الفني، والتوظيف التداولي الحجاجي في مقامات الزمخشري العملية الإبلغية التواصلية.

أولى عبد القاهر الجرجاني هذا النوع عناية فائقة، ومكانة خاصة، وهو يتحدث عن الكناية، حتى يبدو لك هذا القسم هو الكناية كلها، فيقول: «والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم: «هو طويل النجاد» ويريدون طويل القامة [...] فقد أرادوا كما

(1) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 262.

(2) - المرجع نفسه، ص 263.

(3) - انظر خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مقارنة بين التداولية والشعر، ص 73.

(4) - السكاكي، مفتاح العلوم، ص 403.

(5) - علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، هامش ص 125.

ترى معنى، ثم لم يذكره بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان. أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال التجاد<sup>(1)</sup>. ويمثل هذا النوع من الكناية نواة فاعلة في النسيج الفني، والتوظيف التداولي الحجاجي في مقامات الزمخشري.

وتعدّ الكناية وسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع، ولها دور بارز في شحذ الأسلوب، وتعميق الفكرة، وتكمن حجاجيتها في إثباتها المعنى الضمني بإقامة الدليل عليه من التركيب الكنائي نفسه، ذلك « أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه، أن إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلاً. وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يشك فيه، ولا يُظن بالمخبر التجوُّز والغلط<sup>(2)</sup>».

وساهمت الكناية عن صفة خاصّة، في تشكيل الصورة الفنية في المدونة، وبفحصها تبين أن الزمخشري اعتمد كثيرا عليها في تحقيق الإبلاغية والتواصلية لأنه كان يعتني بأوصاف الناس وأخلاقهم بالدرجة الأولى قبل أن يهتم بذواتهم.

والجدول أسفله يمثل ملخصا لصور كنائية عن صفات تتبع بتحليل متنوعة على النحو الذي أمكننا

الوصول إليه:

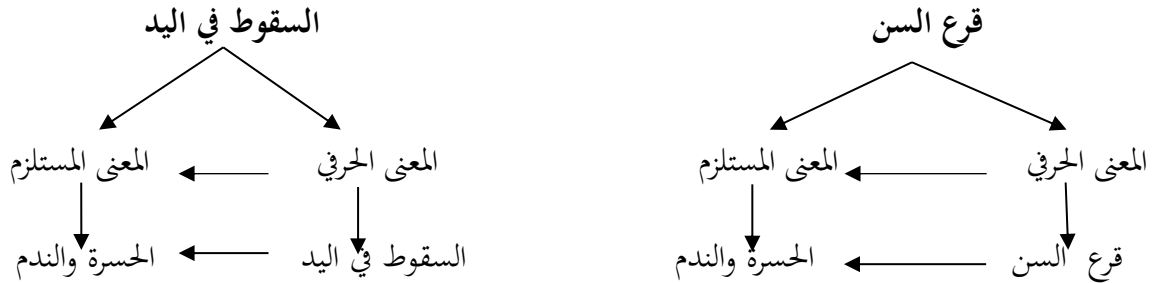
الرقم	التركيب الكنائي	المعنى التداولي ( معنى المعنى )
1	أنت بين أمرين؛ لذة ساعة بعدها قرع السنّ والسقوط في اليد	الندم والحسرة
2	ول صديقك منك ساكنا طائره	الطمأنينة.
3	غضّ عباد الله دون رؤية الدنيا مترجة أجفانهم. وضربوا على اللبات أذقانهم.	الحياء والعفة.
4	قد شاب القذال. وسكت العذال	المهرم والكبر.
5	الحريص شقيّ تصبُّ إلى كل مشتهى لهاته. وتصبُّ لكل متمنى لثاته.	الشره إليه والحرص عليه.
6	جرّد العوفي للخفاجي العصا عن اللحاء.	المكاشفة والعداوة

(1) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 66

(2) - المرجع نفسه ص 72.

يستدلّ المتكلم في الصورة الكنائية بمعنى اللفظ الكنائي على المعنى الضمني المرتبط بأعراف، وتقاليد، وعادات، وضوابط اجتماعية، ودينية، وثقافية خارجة عن نطاق النص اللغوي، والمسنودة بالواقع، يقول عبد القاهر الجرجاني: «إن طريق العلم بما يراد إثباته والخبر به في هذه الأجناس الثلاثة التي هي «الكنائية» و«الاستعارة» و«التمثيل» المعقول دون اللفظ، من حيث يكون القصد بالإثبات فيها الى معنى ليس هو معنى اللفظ، ولكنه معنى يستدل بمعنى اللفظ عليه، ويستتبط منه كنعو ما ترى من أن القصد في قولهم: «هو كثير رماد القدر» الى كثرة القرى، وأنت لا تعرف ذلك من هذا اللفظ الذي تسمعه، ولكنك تعرفه بأن تستدل عليه بمعناه»<sup>(1)</sup>. حيث يخفي الزمخشري في الصورة (بعد لذة ساعتك قرع السنّ والسقوط في اليد) من قوله: «أنت بين أمرين؛ لذة ساعة بعدها قرع السنّ والسقوط في اليد»<sup>(2)</sup>، ومشفة ساعة يتلوه الرضوان وغبطة الأبد»<sup>(3)</sup>، معنى ضمناً لازماً لمعناه، وهو "الندم" و"الحسرة"، ويمثل هذا المعنى مقصدية المخاطب من اللفظ الكنائي برمته، ويستخرج المخاطب هذا المعنى من معنى اللفظ، ويستدلّ به عليه معوّلاً على ملكته الاستدلالية، ومبادئ التخاطب، وقرائن الأحوال، أضف إلى هذا قدرته على الوقوف على المقاصد مستنداً إلى ملكته التأويلية، ليكون الصفة التي تلزم من قرع السن والسقوط في اليد، لأن النادم والمتحسر يفعل ذلك في العادة.

ويمكن تلخيصها في الشكل الآتي:



ويمثل الفراغ والبياض في أي نصّ استراتيجية أخرى لفعل القراءة، إذ «يشارك المتلقي النص ويجاوره، ومن خلال ذلك يستطيع اكتشاف قدرات النص، وقدرته هو بالتحديد إزاء الكفاءة التي يحملها كل طرف فاعل أو متفاعل»<sup>(4)</sup>، ويحث القارئ على وجوب ملئه من خلال المفهوم وأطر الحديث، بالانخراط في دورة الكلام الهادرة، فالصورة «كلام نصفه وهو المصريح به من صنع النص أو المتكلم، ونصفه وهو

(1) - المرجع السابق، ص 441.

(2) - السقوط في اليد: من شأن من اشتدّ ندمه وحسرتة أن يعضّ يده غمّاً، فتصير يده مسقوطة فيها، لأن فاه قد وقع فيها.

(3) - مقامات الزمخشري (الرضوان: ص 23)

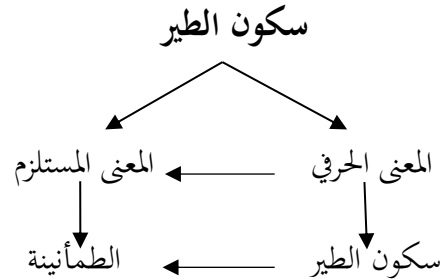
(4) - الجليلي الكندية، تأويل النص الأدبي نظريات ومناقشة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 36، منشورات كلية الآداب والعلوم

الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية، 1995، ص 47.

الضمني من صنع المتلقي. وهذا الوضع هو الذي يكفل للصورة قدرتها الحجاجية<sup>(1)</sup>.

وتشتمل الصورة « وَإِنْ اسْتُطِيرَ صَاحِبُكَ، وَثَارَ ثَائِرُهُ فَوَلَّهَ مِنْكَ سَاكِنًا طَائِرُهُ »<sup>(2)</sup>، على فراغ أو بياض يخفي الزمخشري فيه الدلالة التداولية الضمنية، ويраهن على فطنة السامع وذكائه في الكشف عن العلاقة بين المعنى الحرفي والمعنى اللازم أي الدلالة الضمنية، ذلك أن سياق إنتاج التلفظ ومقامه وهو مقام التوجيه والإرشاد، يعطّل المعنى الحرفي، فلا مزية من التوجيه بـ «وَلِ صَاحِبِكَ مِنْكَ سَاكِنًا طَائِرُهُ»، ممّا يبعث المتلقي على تدبّر المعنى الحرفي، وتأويله وتأويلا يهديه إلى مفهوم يناسب المقام، ويمثّل مقصدية المتكلم، وهو «مطمئناً»، ويكون بذلك قد خطا خطوة أولى على درب الاقتناع بما يعرض عليه.

ويصطحب المخاطب التعبير الكنائي غالباً دليلاً وبرهاناً، يثبت به الصفة في الموصوف «فالمبالغة التي تولدها الكناية، وتضفي بها على المعنى حسناً وبهاء هي في الإثبات دون المثبت، أو في إعطاء الحقيقة مصحوبة بدليلها، وعرض القضية وفي طيها برهانها»<sup>(3)</sup>، فقد أقام المخاطب اللفظ الكنائي وهو "سكون طائره" برهاناً ودليلاً على المكنى عنه "مطمئناً" لأن الطائر ينفر من أدنى حسّ، ولا يقرّ على ما يستريب. وتعدّ الكناية من المنظور التداولي مظهراً من مظاهر خرق قانون الكيف، إذ المنطوق به غير مفهوم من التعبير الكنائي، وعليه يمكن أن نحلل الصورة تداولياً:



وتقوم العلاقة بين الدوال في هذا الخطاب على التقابل الضدّي بين «لَذَّةِ سَاعَةٍ بَعْدَهَا قَرَعُ السِّنِّ وَالسُّقُوطُ فِي الْبَدِّ» و«مَشَقَّةِ سَاعَةٍ يَتَلَوَهُ الرِّضْوَانُ وَغِبْطَةُ الْأَبَدِ»، ووظّفه الزمخشري من أجل تحقيق مبادئ تداولية هامة منها:

- أ. إنجاح عملية التواصل وتحقيق مبدأ الإفادة، «والضد أوضح في الدلالة على المعنى من الشبيه»<sup>(4)</sup>.
- ب. التأثير في المخاطب لاستمالاته وإقناعه.

(1) - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص 562.

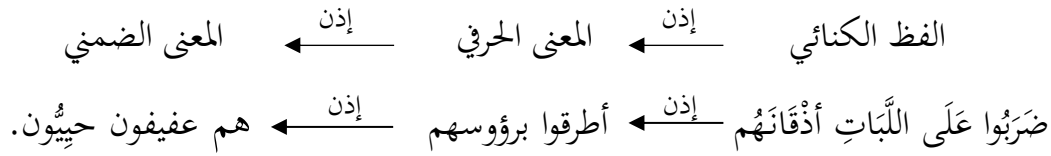
(2) - مقامات الزمخشري (التماسك: ص 201)

(3) - عبد العزيز عتيق، علم البيان، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1974، ص 222.

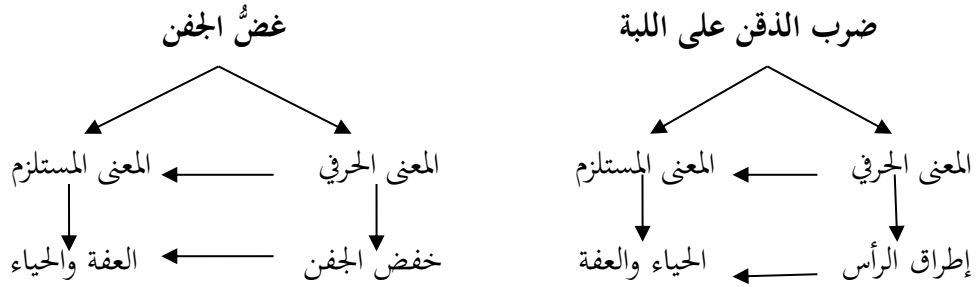
(4) - عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص 91.

ج. دعوة المخاطب إلى المساهمة في إنتاج الخطاب، «والذهن يستحضر الضد على الفور قبل مجيء الطرف الآخر»<sup>(1)</sup>، من خلال تمكين المخاطب من توقع البنية المخالفية، خاصة إذا علم أنها من أسس تفكير الزمخشري.

والمفهوم الكنائي هو دلالة لازمة للمعنى الحرفي لزوماً يجعله بمنزلة المقترضى (Pré-suppose)، ويعدّ المعنى الحرفي وبمعونة السياق -حسب ديكرود (Ducrot)- هو البوصلة التي توجه المتلقي نحو دلالة محددة، عليه أن يستخرجها، ويحمله على مواصلة منطق الحوار في الاتجاه الذي يفرضه المتكلم بواسطة أداة الربط والاستنتاج "إذن"<sup>(2)</sup>، ف"إطراق الرأس" و"غضّ الجفن" في قول الزمخشري: «لله عباد... غَضُّوا دُونَ رُؤْيَتِهَا (الدنيا) أَجْفَاءَهُمْ. وَضَرَبُوا عَلَى اللَّبَاتِ أَذْقَانَهُمْ. لَمْ يَذْهَبْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ أُمُّ الْغُرُورِ. لَا أُمُّ السُّرُورِ»<sup>(3)</sup>، تستلزم اقتضاءً "العفة والحياء".



ويلخص التحليل في الشكل الآتي:



وتصوّر الكناية المعنى وتنقله بارزا في صور ماديّة محسوسة؛ لأن أنس النفس بالمدرجات الحسية أعظم من أنسها بالمدرجات المعنوية، وذلك أن الحس هو الطريق الأول لإدراك النفس ومعرفتها؛ ولإدراك الزمخشري فعل المحسوس في النفس، وأهميته في توضيح المعنى، نقل "العفة والحياء" من التجريد في صورة تشوّفها العيون، وهي صورة "الضارب ذقنه على لبتة، والغاضّ جفنه".

ويمكن اعتبار اللفظ الكنائي دليل إثبات للمعنى الضمني وشاهداً عليه، يقول الجرجاني: «أما الكناية، فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح، أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه، أن إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد على وجودها، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجبئ

(1) - محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 355

(2) - انظر عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص 556.

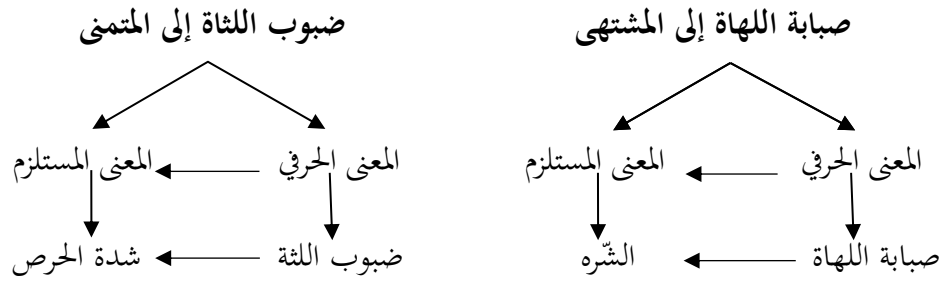
(3) - مقامات الزمخشري (الاسوة: ص 172)



إليها فتشبتها هكذا سادجا عُفلا. وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف،  
وبحيث لا يُشكّ فيه، ولا يُظنّ بالمخبر التجوّز والغلط<sup>(1)</sup>، فقد جعل الزمخشري "ضرب الذقن على اللبة"  
و"غض الجفن" دليلا وبرهانا على عفاف عباد الله وحياتهم.

وأحكم غرايس نظرية في المحادثة سمّاها "مبدأ التعاون" الذي يمثل ميثاقا غليظا بين المتكلم  
والمتلقي يلتزم بموجبه المتكلم الوضوح والإخلاص إلى المتلقي، فعندما يتلقّظ الزمخشري: "قد شاب القَدال"  
و"سكت العذال" من قوله: «يا أبا القاسم شهوتك يَقْظِي فَأَمْمَهَا. وَشبابُك فُرْصَةٌ فَأَغْتَنِمَهَا. قَبْلَ أَنْ تَقُولَ  
قَدْ شَابَ الْقَدَالُ<sup>(2)</sup>. وَسَكَتَ الْعَدَالُ<sup>(3)</sup>، علم المتلقي أنه مشدود والمخاطب إلى مبدأ التعاون، وأنه لا  
يريد به خداعا ولا تضليلا، فعندئذ يجند كفاياته المعرفية والثقافية والاستدلالية منقبا عن المدلول الذي  
يترجم قصد المخاطب، وبسلك هذه المسارات مرتكزا على المعنى الحرفي دليل المعنى الالتزامي، ليستجلي  
الدلالة الثابوية خلف المعنى الحرفي، ويهتدي بمعونة السياق إلى لازم المعنى الحرفي، وهو الهرم والكبر الذي  
يمثل مقصدية المتكلم من الصورة.

ويخفي المخاطب خلف سطح التركيب الكنائي «الحريص [...] شقيّ تصبُّ<sup>(4)</sup> إلى كلِّ مُشْتَهَى  
لَهَاتِهِ. وَتَصِبُّ<sup>(5)</sup> لِكُلِّ مُتَمَنَّى لِنَاتِهِ<sup>(6)</sup>، قصديته وخرضه، وهو الشره وشدة الحرص، وبعد ملء المحل  
الشاعر يصير التركيب «شقي شره إلى كل مشتهي، حريص على كل متمنى».



وعندما يخرق المخاطب أحد مبادئ التخاطب خاصة مبدأي الكيف والطريقة، يوقع المتلقي في  
حيرة، وهذه الحيرة تحرّضه على البحث عن مقصدية المخاطب (لازم المعنى) معوّلا على فطنته وذكائه وقدرته  
الاستدلالية في اكتشاف المعنى الضمني (المفهوم) للصورة اتكاء على اللفظ الكنائي، وبمعونة السياق الذي

(1) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 72

(2) - القدال: ما بين الأذنين من مؤخرة الرأس.

(3) - مقامات الزمخشري (الارعواء: ص 26).

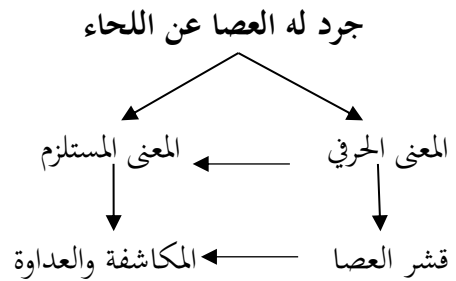
(4) - صبَّ إليه صبابة فهو صببٌ: وهو رقة الشوق.

(5) - صببٌ بكذا أو عليه: اشتد حرصه عليه، وطلبه له.

(6) - لثاته: لهاته. مقامات الزمخشري (القناعة: ص 75)

يقوم بدور الموجه إليه « فالنجاعة الحجاجية التي للصورة الكنائية مستمدة كما هو الشأن في الصورة عامة من ظاهرة دفعها المتلقي إلى الإسهام في إنتاج قسم من الصورة، هو القسم الضمني، وذلك بالانطلاق من القسم المصرح به »<sup>(1)</sup>.

فإذا قال الزمخشري: «جَرَدَ العَوْفِيُّ لِلخَفَاجِيِّ العَصَا عَنِ اللِّحَاءِ»<sup>(2)</sup>، علم المتلقي أن المتكلم لا يفكر خارج العلبة، وأنه يراعي قواعد التخاطب أو على الأقل مبدأ التعاون، وعلى المتكلم أن يعترف من المعجم المشترك الذي يتلقى منه المتلقي معارفه عند تأويل الخطاب، ومادام المتكلم لم يقم بأي عمل يمنع من التفكير في غير المعنى اللازم، فلا بد أنه يريد منه أن يفكر في المعنى اللازم وهو: "المكاشفة بالعداوة" وهو المعنى اللازم للملفوظ، وأنه عند قوله: «جَرَدَ العَوْفِيُّ لِلخَفَاجِيِّ العَصَا عَنِ اللِّحَاءِ»، يقتضي اقتضاء «كاشفه بالعداوة والبغضاء». ويمكن إيجاز التحليل في الشكل الآتي:



ومن خلال هذه المحاورة يحدث التفاعل مع النص، ويؤول المتلقي اللفظ الكنائي منطبقا على مقصدية المخاطب، وبذلك يكون قد أسهم في إنتاج الصورة، وهي أعظم خطوة في طريق التأثر والاقتناع بضرورة تعديل سلوكه قبل أن يدركه الهرم، ويصاب بالوهن وتخور قواه ويعجز عن أداء واجباته.

2. الكناية عن موصوف: ويشير هذا النوع إلى اختصاص موصوف بصفة، فتذكرها مستدلا بها عليه «إن الكناية في هذا القسم هي أن يتفق في صفة من الصفات اختصاص موصوف معين عارض فتذكرها متوصلا بها إلى ذلك الموصوف، مثل أن تقول: جاء المضيف، وتريد زيدا لعارض اختصاص المضيف بزيد. أو هي أن تتكلف اختصاصها، بأن تضم إلى لازم آخر وآخر، فتلفق مجموعا وصفيا مانعا عن دخول كل ما عداه مقصودك فيه، مثل أن تقول في الكناية عن الإنسان: حيّ، ومستوي القامة، وعريض الأظفار»<sup>(3)</sup>.

فيذكر لفظ تلك الصفة ليتوصل بتصورها إلى الموصوف أي إلى ذاته، واشترط البلاغيون في هذه

(1) - انظر عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص 576.

(2) - مقامات الزمخشري (أيام العرب: ص 273).

(3) - السكاكي، مفتاح العلوم، ص 404.

الكناية أن تكون الصفة أو الصفات مختصة بالموصوف لا تتعداه ليحصل الانتقال منها إليه<sup>(1)</sup>.

وتميز هذا القسم من الكناية في المدونة بخاصية القرب وبقلته، واخترت منها الصور الآتية:

يقول الزمخشري: «استنظر نفسك إن تقاضت إيثار الملاهي. واستمهلها إن طابتك بارتكاب المناهي.

يتفضل عليك ذو الطول<sup>(2)</sup> والمنة<sup>(3)</sup>. بالوصول إلى دار الجنة<sup>(4)</sup>.

فقد كنى المتكلم في الصورة الأولى بـ «ذو الطول والمنة» عن «الله تعالى»، لاختصاص الصفات به،

وعدم تجاوزها إياه.

وأنجز بالتركيب فعلا كلاميا غير مباشر، هو: الإرشاد إلى استمهال النفس التواقة إلى الملاهي والمناهي،

وكبح جماحها، ليتفضل الله تعالى عليه بدخول الجنة. ويفهم المتلقي مقصدية المخاطب، ويقنع بالمعنى مرورا

بالمراحل الآتية:

1. أنجز المخاطب فعلا كلاميا بـ " يتفضل عليك ذو الطول والمنة بدخول الجنة "

2. يحترم المخاطب يحترم " مبدأ التعاون "

3. بقول المخاطب " ذو الطول والمنة " يكون قد خرق مسلمة الكيف والطريقة التي تنص على وجوب

التزام الصدق والوضوح في الكلام " لأن السطح يلفه غموض، ويكتنفه إبهام، بسبب إطلاقه.

4. يعارض السياق والمقام المعنى الحرفي الصريح.

5. إذن، يقصد المخاطب معنى غير المدلول الحرفي للملفوظ.

6. يجند المتلقي كفاياته المعرفية والاستدلالية استنادا إلى السياق اللغوي والثقافي والاجتماعي للبحث عن

المعاني الضمنية الممكنة، ليتمكن من تحديد مقصود واحد مرتبط لزوميا بالمعنى الحرفي هو " الله تعالى،

لأن الصفة تختص به ولا تتجاوزها. ويفهم التركيب مطابقا لمقصدية المخاطب: «استنظر نفسك

واستمهلها إن دعتك إلى الملاهي وفعل المناهي يتفضل عليك الله تعالى بدخول الجنة».

7. يقنع المتلقي بقصد المخاطب ويقبله.

ويقول في موضع آخر: «يا أبا القاسم للسيّد سيادته. وعلى العبد عبادته. ولك سيّد ما أجله. وأنت

عبد ما أدله. فاعبد سيّدك الذي كلُّ من يسودُّ فله يسجد. وكلُّ من يعبدُ فإياه يعبد. ترى كلُّ ذي خدِّ

(1) - أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 208.

(2) - الطول: الفضل والغنى واليسر.

(3) - المنّة: الإحسان والإنعام.

(4) - مقامات الزمخشري (الاعتبار: ص 49).



التي تعلق بها المخاطب بالزوال والفناء، ورأى أنّ تذكيره بأوصافها أوقع في نفسه، وأقوى زاجر في الوعظ من ذكرها بالذات. ويعتبر التركيز على الصفة دليل الطلب وبرهانه، كأنه قال: ارفض الدنيا لأنها فانية.

3. الكناية عن تخصيص الصفة بالموصوف: وهي الكناية عن نسبة التي يراد بها نسبة أمر لآخر إثباتاً أو نفيًا، فيكون المكنى عنه نسبة أسندت إلى ما له اتصال به. أو بعبارة أخرى يطلب بها تخصيص الصفة بالموصوف<sup>(1)</sup>، أو هي أن يصرح بالموصوف، وبالنسبة إليه، ولا يصرح بالصفة المطلوب نسبتها، ولكن يذكر مكانها صفة تستلزمها<sup>(2)</sup>. ومما عثرت عليه من النماذج في المدونة على قلتها قول الزمخشري: « وَلَا تَفْطُنْ لِعَيْبِ أَحَدٍ سِوَى عَيْبِكَ. وَلَا يَهْمُكَ إِلَّا دَنْسُ رُدْنِيكَ<sup>(3)</sup> وَجَيْبِكَ<sup>(4)</sup> »<sup>(5)</sup>

يراهن المخاطب على فطنة المتلقي وذكائه وملكته الاستدلالية والتأويلية في الكشف عن المعنى المستلزم. فالمؤدى الحرفي للتركيب « لَا يَهْمُكَ إِلَّا دَنْسُ رُدْنِيكَ وَجَيْبِكَ » هو " لا تهتمّ إلا بدنس ثوبك " في حين أن الدلالة المستلزمة التي يتغيها المخاطب، هي " لا تهتمّ إلا بدنس نفسك ".

ولا يكتفي المخاطب إلا مستندا إلى ملكاته الاستدلالية ومبادئ التخاطب، وقرائن الأحوال، أضف إلى هذا اعتبار قدرة المتلقي على الوقوف على المقاصد، وهي نفس ما يرتكز عليه هذا الأخير في تأويل الخطاب، ويمكننا رصد هذه المراحل الاستدلالية على المقصود وفق المراحل الآتية:

1. قال المخاطب: « لَا يَهْمُكَ إِلَّا دَنْسُ رُدْنِيكَ وَجَيْبِكَ » ← ( قصر / فعل كلامي )
2. السياق سياق نصح بوجوب تطهير النفس ← ( السياق / قرائن الأحوال )
3. المخاطب يدرك أن تطهير الثوب ليس مما ينصح به ← ( الخلفية المعرفية )
4. ما يعرضه المخاطب غير ملائم ← ( مبدأ الملاءمة )
5. ما دام المتكلم على عقد التعاون فلا بد أنه قاصد إلى معنى آخر ← ( مبدأ التعاون )
6. مادام السياق نصحا بوجوب تطهير النفس فلا بد من علاقة بين الثوب والنفس، وهي علاقة تلازم لأن الثوب يلبس النفس، وبدلا من أن ينسب دنس النفس إلى المخاطب مباشرة عدل عن ذلك ونسبه إلى ما له اتصال به، وهو ردها وجيب ثيابه.

يدرك المخاطب مرورا بهذه المراحل أن ليس المقصود بالخطاب حرفيته (دنس الثوب)، وإنما هو

(1) - انظر رابع بوحوش، اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري، ص 194. وعبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 215.

(2) - محمود السيد شيخون، البلاغة الوافية، ص 179.

(3) - الردن: أصل الكُم.

(4) - جيب القميص: ما يدخل منه الرأس عند لبسه.

(5) - مقامات الزمخشري ( العزلة: ص 90 ).

المعنى المستلزم مقاميا المشمول بالمعنى الحرفي، وهو (دنس النفس).

أراد المخاطب بدنس الثوب تلوّخ النفس بالعيب، وخصّ الجيب والردن لأنهما أول ما يتدنّس من الثوب، وذكر دنس الردن والجيب، وأراد النفس لاشتمالهما عليها والتباسهما بها.

ويلعب السياق الداخلي والخارجي دورا بارزا في تعطيل اشتغال الفكر بالمعنى الحقيقي، لأنه ليس المقصود في العملية التواصلية، لكن يدفعه إلى تدبر المفهوم الذي هو المعنى اللازم، ولهما دور الموجه والحاصر للمعاني فيضيقان مجالها حتى تنطبق واحدة منها على مقصدية المتكلم المعتمدة من الصورة أو الخطاب. كما يوجهان المتلقي نحو استنتاج المكنى عنه بنفسه، وما يستنجه الإنسان بنفسه لا يستطيع أن يعترض عليه، ولا أن ينكره لأنه صار من بُنيّات أفكاره.

وترك المخاطب في التركيب فضاء معتما، أراد أن يستوقف به المتلقي ليعود به إلى مخزونه الفكري يبحث فيه عما يختص بالصفة أو الصفات الطافية على السطح، لهذا فهو في حاجة إلى تحريك الفاعلية الذهنية للوصول إلى الكشف عن الذات المخصوصة بتلك الصفة، وذلك الفضاء هو حظ المتلقي ليسهم في إضاءة الصورة وتشكيلها كما هي عند المتكلم.

خامسا: تداولية المجاز المرسل في مقامات الزمخشري.

المجاز اللغوي هو «كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الأول والثاني، فهي مجاز»<sup>(1)</sup>. وهو قسمان: أ. مجاز استعاري، وهو ما كانت علاقته المشابهة.

ب. مجاز مرسل، وهو ما كانت علاقته ملابسة غير التشبيه.

ويكون المجاز اللغوي في المفرد والمركب، فأما مجيئه في المركب فيكون باستعمال التركيب في غير ما وضع له، كقولك لمن يسيئ إليك وينتظر منك حسن جزاء: "إنك لا تجني من الشوك العنب". وأما مجيئه في اللفظ المفرد فيكون باستعمال الكلمة في غير ما وضعت له أصلا لعلاقة مع قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي.

وتقوم العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي في المجاز المرسل على غير المشابهة، وتكون سببية، أو مسببية، أو جزئية، أو كلية، أو ماضوية، أو مستقبلية، أو محلية، أو حالية، أو آلية، وغيرها. ويفهم المجاز تداوليا «بالنظر إلى المعنى السياقي الذي يقدمه المرسل في خطابه، عند تحوّل الألفاظ عن دلالة الوضع إلى دلالات جديدة تقتزن وسياق التخاطب، فالمرسل في سعيه إلى التأثير على المتلقي، يعتمد إلى استخدام استراتيجيات أسلوبية في إيصال المعنى، فيلجأ إلى المجاز مستندا في ذلك على المخزون

(1) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 351.

الدلالي المشترك بينه وبين المتلقي، لإيجاد العلاقة بين الملفوظ والمقصود، مع وجود قرينة تدل عليه<sup>(1)</sup>. وكثرت صور المجاز المرسل في المدونة اخترت منها صوراً اكتفيت بتحليل أبرزها تجنباً للتكرار، ومنها قول الزمخشري: «كُلَّمَا أزدَدْتَ بِلُؤْمِكَ غَمَصًا<sup>(2)</sup> لِأَيَادِيهِ وَكُفْرَانًا. زَادَكَ بِكَرَمِهِ الوَاسِعِ طَوْلًا وَإِحْسَانًا»<sup>(3)</sup>. شكلت الصورة قوة حجاجية ذات طابع تأثيري، فقد تجمَّز المخاطب بلفظة "الأيادي" المعنى الحرفي إلى معنى ضمني يتعالق معه، وهو "النعم"، ولكنه بدلا من أن يذكر المقصود باللفظ مباشرة "النعم" تركه وشغل محله بسببه مراهنا على كفاءة المخاطب الفكرية والثقافية والمعرفة المشتركة والسياق اللغوي والاجتماعي في فك الشيفرة، ومريدا توقيفه عنده بشغل فكره بالمعنى الحرفي خاصة عندما يعلم تعارضه مع السياق، لكن المتلقي يعتقد أنه مرتبط بالمتكلم بمبدأ التعاون، مما يضطره إلى البحث عن العلاقة بين المعنى الحرفي ومقصودية المخاطب، ليكشف أنّ بين "النعمة" و"الأيادي" علاقة سياقية، فاليد من شأنها أن تكون سببا في النعمة، فحينئذ يتمكن من إضاءة الصورة فتحدث له الاقتناع بما أسهم به في تشكيل للصورة. واستعمال "الأيادي" أكمل في الأبلغية من "استعمال" النعم " باعتبارها العلة الفاعلة لها، وذكر السبب أهمّ وأبلغ من ذكر المسبب، وبذكرها يكون قد أخرج المعنى من التجريد إلى التجسيد فيزداد المعنى وضوحا، ويزداد هو اقتناعا.

والعلاقة بين الأيادي والنعم هي علاقة السبب بالمسبب، فالعلاقة هي السببية. والقوة الإنجازية للتركيب هي الإنكار على المخاطب الكفور بنعم الله وذمه حين يقابل النعم المتتابعة بالكفران والمجحود. وتستعمل اليد كذلك للدلالة على القدرة، كما في قول الزمخشري: «وإن أظعتهَا أرتك العجب من مُعَاصَاتِهََا. وَقَعَدَتْ لَا يَدِي لَكَ بِمُعَانَاتِهََا»<sup>(4)</sup>. فاليد في الشاهد تدل على القدرة والطاقة "وقعدت لا طاقة ولا قدرة لك بمعاناتها. وقوله في مقامة الرضوان: «فَمَا عُدْرُكَ فِي أَنْ تَرَقَلَ كُلَّ هَذَا الْإِرْقَالَ إِلَى الشَّقَاءِ وَطُولِ الْحِرْمَانِ. وَأَنْ تُعَدَّ كُلَّ هَذَا الْإِغْذَاذِ إِلَى النَّارِ وَغَضَبِ الرَّحْمَنِ. وَأَيْنَ عَلَّتْكَ فِي أَنْ تَشْرُدَ شَرَادَ الظَّلِيمِ. عَنِ رِضْوَانِ اللَّهِ وَدَارِ النَّعِيمِ»<sup>(5)</sup>.

ذكر المخاطب في النص المسببات (الشقاء، وطول الحرمان، والنار، وغضب الرحمن، ورضوان الله، ودار النعيم)، ولكنه أراد معاني أخرى قابعة في البنية العميقة، وهي "الشر" و"الخير"، وترتبط بالمعاني

(1) انظر محمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية، ص 67.

(2) غمص النعمة: أنكرها ولم يشكرها

(3) مقامات الزمخشري (الشكر: ص 169).

(4) المصدر نفسه (العفة: ص 101)

(5) المصدر نفسه (الرضوان: ص 34).

السطحية بقانون السببية لأنه جاءه من حيث لا ينتظر، وقطع عليه أفق الانتظار، وباغته بذكر ما يترتب عن أفعاله « المسبب » من أجل أن يؤثر فيه، ويقنعه بتغيير مساره في الحياة، **فالعلاقة إذن، مُسببِيَّة**. وذكر المسبب لأنه أهم من السبب عنده. وتحفيز المخاطب بالثواب وتحذيره من العقاب المترتب عن أفعاله أولى، لأنهما أعظم حافز وأكبر رادع في الحث والحفز والكفّ والزجر، وفي الترغيب والترهيب خاصة وأنّ الإنسان يهتم بالنتائج أكثر من اهتمامه بالأسباب. وتتمثل القوة الإنجازية للتركيب في المسبب، وهي تحذير المخاطب من فعل الشرور واتباع الشهوات ودعوته إلى المسارعة إلى الخيرات.

وقوله كذلك: «سُحْقًا لِمَا يَجْرِي مِنَ الْقَوَافِي عَلَى أَلْسُنِ الْمُنْشِدِينَ. وَمَرْحَبًا بِالنُّفُوسِ (1) الْقَوَافِي (2) فِي آثَارِ الْمُرْشِدِينَ» (3). حيث تعطل القرينة "الإنشاد" الدلالة المرجعية لـ"القوافي" لتدلّ على معنى جديد متعلق معه، وهو القصائد لا القوافي فقط. وقد عبر بالجزء عن الكل إبرازاً لقيمة ذلك الجزء وأهميته، إذ القافية هي الجزء الأهم في البيت الشعر، وهي التي تميزه عن النثر وتعطيه موسيقاه الخارجية. وصرفت القرينة "الترحيب" النفوسَ عن معناها الحرفي لتحمّل دلالة جديدة تقتزن بالسياق والمعرفة المشتركة بين المتكلم والمتلقي، وهي "العباد"، وعبر بالنفوس عن الجسم ككل لأهمية النفس في الجسم «فالإنسان بالروح لا بالجسم إنسان»، ولهذا أطلق المخاطب لفظ الجزء، وهو "القوافي" و"النفوس"، وأريد به القصائد والعباد، وهو كل. **فالعلاقة بين المعنى الحرفي والمعنى الضمني جزئية**. ولجأ المخاطب إلى هذا الإجراء لتحقيق قيمة تداولية حجاجية تتمثل في نزوع المخاطب إلى التأثير في المتلقي بتجاوز المعنى الوضعي للدوال على سبيل المبالغة. ويحمل التركيب قوة إنجازية تتمثل في الدعاء على الشعراء المدّاحين بالهلاك، والترحيب بالمهتدين واتباعهم.

ومن مقامة الإنابة قوله: « يا أبا القاسم هل لك في جاذرِ جاسِم. إنْ أُنْعِمْتَ فَلَا أُنْعِمَ اللهُ بِأَلِكْ.

وَلَا وَصَلَ حِبَالَكَ. وَلَا فَضَّ (4) فُو مَنْ مَاءِكَ بِالْحَقِّ وَنَبَّهَكَ. وَعَضَّكَ بِالْمَلَامِ وَعَضَّهَكَ (5) (6).

(1) - النفوس: ج نفس وهي الروح.

(2) - القوافي: التوابع من قفا أثره.

(3) - مقامات الزمخشري (اجتناب الظلمة: ص 148).

(4) - قال رسول الله ﷺ للناطقة الجعدي: لا فَضَّ اللهُ فاك، فكان ثغره ما عاش كأنه برد ينهل. الفض هو الكسر مع التفريق. أي: لا نثر الله أسنانك.

(5) - العَضَّه: الشتم.

(6) - مقامات الزمخشري (الإنابة: ص 38).



تجاوز الزمخشري بكلمة "فو" الواردة في الصورة الدلالة الوضعية، فقد أطلقها وأراد بها "الأسنان"، لأن من وجوه الاستعمال اللغوي التعبير عن الجزء بالكل، ولأنّ ما يدرّد في الحقيقة هي الأسنان لا الفم، فذكر الفم وهو كل، وأراد الأسنان والشفقتين، وهي أجزاء، فالعلاقة بين المعنيين إذن، كلية. ويمكن أن يكون دَرْدُ الأسنان سببا في ارتخاء الشفتين، فتكون العلاقة بين الحاضر والغائب سببية. وإطلاق الكل على الجزء، أو الجزء على الكل من المبالغة البديعة التي تجعل المجاز رائعا خلافا يسبي النفوس، ويخلب القلوب.

ويقول في مقامة أخرى: «قِفْ عَلَى أَطْلَاهَا ( القصور ) بِالتَّأَوُّهِ وَالِاسْتِعْبَارِ . وَلَا يَكُونَنَّ تَأَوُّهُكَ وَاسْتِعْبَارُكَ إِلَّا لِلتَّنْذِيرِ وَالِاعْتِبَارِ . وَلَا تَسْتَوْفِفِ الرُّكْبَ فِي أَوْطَانِ سَلَمَى وَمَنَازِلِ سَعْدَى مُقْتَرِحًا عَلَيْهِمْ أَنْ يُسَاعِدُوكَ بِالْقُلُوبِ وَالْعُيُونِ»<sup>(1)</sup>. حيث ذكر " القلوب والعيون " في موضع " المواساة بالعطف والبكاء، وهذا يمثل خرقا لمبدأ الحوار خاصة مبدأ الكيف والطريقة، إذ يبدو الكلام كاذبا وغير مفهوم، ولا ينسجم ومقام الإرشاد والتوجيه، هذا يدفعه إلى البحث عن دلالة عميقة مرتبطة بالدلالة السطحية بالالتكاء على مبدأ التعاون ومقولة السياق، وبتوجيه من القرينة "يساعدوك"، فتهديه كفاءته التداولية وقدراته الثقافية إلى أن المقصود هو استعطاف الراحلين واستبكاتهم وهما من آثار منطوق الخطاب.

ليفهم المتلقي مقصدية الخطاب وهي عدم جدوى البكاء على الأطلال، واستعطاف الراحلين واستبكاتهم، و دعوته إلى الإقبال على إصلاح نفسه. وهي قوة الخطاب الإنجازية.

وتكون العلاقة بين المعنى الحرفي والضمني محلّية، حين يذكر المخاطب المحلّ ويريد به الحالّ، كما في قول الزمخشري: « فليملاً اليقين صدرك بلا مخالجة ريب . وَلَا تَرَلَّ عَنِ الْإِيمَانِ بِعَالَمِ الْغَيْبِ»<sup>(2)</sup>، حيث أطلق المخاطب لفظ "صدر" وأراد به القلب، لأن الصدر هو محل القلب الذي يملأ يقينا، وهو مجاز مرسل علاقته محليه، ومقصد المتكلم «فليملاً اليقين قلبك بلا مخالجة ريب».

وتكون حالّية لما يذكر الحالّ، ولكنه يريد المحل كما في قوله: « ولعلك تستصحب من هذا القرين المواصل الملازم ... صاحب صدق يؤنسك في موافيت وحدتك ووحشتك . ويلقي عليك السكينة في مقامات حيرتك ودهشتك . ويجهد لك في دار السلام المهاد الأوثر»<sup>(3)</sup>. ويرد بك سلسيلاً والكوثر»<sup>(4)</sup>.

ذكر المخاطب "سلسبيل والكوثر" وهما حالّ، ولكنه يريد بهما المحل، وهو "الجنة"، فالعلاقة بينهما

(1) - المصدر السابق (الطاعة: ص60).

(2) - المصدر نفسه (التوحيد: ص130).

(3) - الأوثر: من الوثير أي الوطية.

(4) - مقامات الزمخشري (الصلاح: ص117).

حاليّة، وتذكير المخاطب بحسن الجزاء يمثل حافزا إضافيا للمتلقى للاندفاع نحو الخير، كما أن اهتداء المتكلم لهذا الإجراء يفتح له باب التفصيل، فهذا أوقع في نفسه مما لو ذكر المحل " الجنة".

وقد تكون العلاقة لازميّة كما في قوله: « يا أبا القاسم، اعْبُدْ سَيِّدَكَ الَّذِي كُلُّ مَنْ يُسَوِّدُ فَلَهُ يَسْجُدُ. وَكُلُّ مَنْ يَعْبُدُ فَإِيَّاهُ يَعْبُدُ. تَرَى كُلَّ ذِي خَدٍّ أَضْعَرَ وَطَرْفٍ أَصْوَرَ. وَجِدِّ مِنَ الرَّهْوِ مُنْتَصِبٍ. وَرَأْسٍ بِالتَّاجِ مُعْتَصِبٍ. يَضَعُ لِعِزَّتِهِ صَحِيفَةَ خَدِّهِ. وَيُخَضِّعُ بِخَدِّهِ لِتَعَالَى جَدِّهِ. يُخَفِّضُ مَا نَصَبَ مِنْ جِيدِهِ. عِنْدَ تَقْدِيسِهِ وَتَمَجِيدِهِ وَيُطَاطِئُ تَاجَهُ الْمَرْفَعِ. وَإِكْلِيلَهُ الْمَرْصَعِ. مُشَعَّنًا رَأْسَهُ إِذَا مَا دُهِيَ. كَأَنَّهُ لَمْ يَتَجَبَّرْ قَطُّ وَلَا زُهِيَ »<sup>(1)</sup>.

يعدّ المجاز المرسل من الوسائل الحجاجية التي تدعم المخاطب في تحقيق مقصديته بما اصطنعه المخاطب من تجاوز للأعراف اللغوية، عندما حمل الدال " التاج " و" الإكليل " مدلولاً آخر، وترك في الخطاب ما يهتدي به المتلقي إليه " يطأطي " بمعونة السياق، وفي الوقت نفسه يحث المتلقي على أعمال العقل، ومقاسمته تشكيل الصورة - المخاطب ينتج، والمتلقي يؤوّل - من أجل بلورة الصورة المعنى كما هو عند المخاطب، اعتماداً على السياق وقرائن الأحوال، ومبادئ الحوار، والقربنة المقالية المبنوثة في النص، ليصل إلى المعنى الضمني الذي يمثل مقصدية المخاطب ليصل إلى إعادة رسم الصورة كما هي في ذهن المخاطب " وَيُطَاطِئُ رَأْسَهُ"، وبين المعنى الحرفي والضماني علاقة سياقية لازميّة، إذ يرتبط وجودهما بوجود ملك، وذكر المخاطب التاج والإكليل باعتبارهما الباعث على الكبر والغطرسة، وإذا طأطأ الملك رأسه يكونان أول ما تبدو فيهما الحركة.

وفي نهاية هذا المبحث يمكن القول: إن المجاز المرسل - كغيره من الصور البيانية - يحقق قيمة تداولية وحجاجية إذ:

عطلّ المخاطب الدلالة المرجعية للألفاظ، ليحملها معاني جديدة مستندا إلى علاقات عدة تجمع بين المعنيين، وتفوق أهميتها المعاني السطحية في العملية التواصلية، لإحداث التأثير والاقتناع، العاطفي والعقلي.

ويكشف المجاز عن مهارة المخاطب في تأدية المعنى المقصود بإيجاز، وهو ضرب من ضروب تمكين المعنى في قلب المخاطب من أقصر طريق، وفي تخبّر العلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي، بحيث يكون المجاز مصورا للمعنى المقصود خير تصوير.

ويفهم المجاز المرسل تداولياً بالنظر إلى المعنى السياقي الذي يقدمه المخاطب في خطابه عند خروج الألفاظ عن أصل وضعها الدلالي لتؤدي دلالات جديدة تقترن بسياق الخطاب.

(1) - المصدر السابق (الإخلاص: ص 118).

ويعمل المرسل في سعيه إلى التأثير في المتلقي على استخدام استراتيجيات أسلوبية في إيصال المعنى، فيلجأ إلى المجاز مستندا في ذلك إلى المخزون الدلالي المشترك بينه وبين المتلقي لإيجاد العلاقة بين الملفوظ ومقاصد المتكلم، مع وجود قرينه ومؤشر يدلّ عليه.

ويتيح الفرصة للمتلقى ليسهم في تشكيل الصورة من خلال اكتشاف المعنى الضمني واستنتاجه من خلال المعنى المعطى والمعرفة المشتركة والسياق والمراهنه على قدرة المؤول الفكرية والثقافية وفطنته وذكائه في اكتشاف المعنى الضمني، ممّا يجعله يقتسم مع المتكلم تشكيل الفكرة وبالتالي ضمان الاقتناع، لأنه يدرك أن المتكلم قد أحاط بأحواله ومقامه عند إنتاج النص، ولهذا فالمعنى التداولي ليس عنه ببعيد، فإذا تمكن منه ملاً به الصورة فيكون ذلك سببا في اقتناعه.

وممّا سبق يمكن القول: إن المجاز المرسل يعدّ من الوسائل الحجاجية التي تدعم موقف المرسل لتحقيق هدفه، كما أنه من الوسائل التعبيرية الجمالية التي تترك أثرا في نفس المتلقي، ذلك أن المعنى ينقل من مدلول اللفظ الوضعي إلى مدلول جديد يحث المتلقي على إعمال العقل، وتنشيط الفكر لتشكيل الصورة بالاستناد إلى الأطر المحيطة بطرفي الخطاب للوصول إلى المعنى الضمني.

ونستخلص في نهاية هذا الفصل إلى أن الصورة التشبيهية والاستعارية والكنائية والمجاز المرسل في

المقامات ذات وظيفة شعريّة وتداولية حجاجية، لجأ إليها الزمخشري لتحقيق مقاصده من المقامات:

1. قصد التأثير العاطفي في المتلقي فيتجاوب مع الصورة وينساق إليها حتّى تسلمه إلى إرادة المخاطب ومقاصده في نهاية المطاف، والانصياع الوجداني هو بريد الاقتناع العقلي.

2. قصد الإمتاع النفسي وهو أحد سبل الاقتناع، وداع من دواعي النظر في فحوى الصورة لتكون أدعى لاستمالة، ويتمثل ذلك في كل ما من شأنه أن يترك أثرا في نفس السامع ويدفعه للامتثال.

3. قصد الإقناع العقلي من خلال آليات منطقية أو شبه منطقية وظّفها المخاطب تجعل المتلقي يعتنق أفكاره ويخضع لها، وينقاد إليها راضيا فيغير من مواقفه، ومنها الاستدلال والقياس

4. قصد المساهمة في إنتاج الخطاب من خلال الفجوات الدلالية التي يتركها المخاطب في الصورة، والتي تمثل حظ المتلقي منها، ليسهم في تشكيل الصورة وإضاءتها من خلال تجنيد كفاياته المعرفية والذهنية

- الاستدلالية، واستصحاب المعنى الحرفي، ومراعاة أطر الخطاب المتنوعة، والالتزام بقواعد التخاطب، فإذا تمكّن من مقاصد المخاطب، اقتنع بها، لأن الانسان لا يستطيع أن ينكر ما استنتجه بنفسه.
5. إيجاد واقع فعلي للمعنى عن طريق التجسيد بالأنسنة أو الحيونة أو التشبيهي، فيتضح بالأصل الفرع إذا كان معنويًا، ويتأكد إذا كان حسيًا.
6. يدلّ تنوع الصور بين الإجمال والتفصيل على تعدد المقامات في الخطاب، وعلى عالمية خطابه، فهو يخاطب الكلّ بخطاب النفس.

## الفصل الرابع

# البنية اللغوية المحجاجية في مقامات الزمخشري

### تمهيد

1 . مفهوم المحجاج .

2 . العلاقات والروابط المحجاجية

أ . علاقة التتابع في مقامات الزمخشري .

ب . العلاقة السببية في مقامات الزمخشري .

ج . علاقة الاقتضاء في مقامات الزمخشري .

د . علاقة الاستنتاج في مقامات الزمخشري .

هـ . علاقة التناقض في مقامات الزمخشري .

## مهيّد

يتكون الخطاب من شبكة دوال وتراكيب تربط بينها شبكة من العلاقات، ويتميز الخطاب الحجاجي عن غيره من الخطابات، في كونه لا يحمل إلى المتلقي المعلومة أو ينقل إليه فكرة أو يبدي له رأيا فقط، بل يحاول أن يضغط عليه باتباع استراتيجية محددة ويسلك به مسلكا برهانيا واستدلاليا حتى يتمكن من إقناعه وحمله على الإذعان. وسنحاول في هذا الفصل الكشف عن العلاقات الشكلية والمنطقية وشبه المنطقية التي تنظم الخطاب الحجاجي وتؤلف بين مكوناته بما يقنع المتلقي بمقاصد المتكلم وأغراضه، والتركيز على الروابط اللغوية التي تسهم في تحديد طبيعة العلاقات، وتحقق اتساق الخطاب وانسجامه.

### أولا: مفهوم الحجاج:

يرجع الحجاج إلى مادة (ح ج ج)، يقال: حاججته أحاجه حجاجا ومُحاجّة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها. الحجة: البرهان، وقيل: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة. وهو رجل محجاج أي جدل. والتجاج: التخاصم. وحاجّه مُحاجّة وحجاجا: نازعه الحجة. وحجّه يحجّه حجّا: غلبه على حجّته. وفي الحديث فحجّ آدم موسى أي غلبه بالحجة. واحتج بالشيء: اتخذه حجة، وفي حديث الدجال: «إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَاجِبُهُ»، أي محاجّه ومغالبه بإظهار الحجة عليه. والحجة الدليل والبرهان<sup>(1)</sup>. وحاجّه فحجّه أي غلبه بالحجة. وفي المثل: لَجّ فحجّ، فهو رجل محجاج أي جدل، والتجاج التخاصم<sup>(2)</sup>. و(حاجّه) مُحاجّة، وحجاجا: جادله. وفي التنزيل العزيز: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾. واحتجّ عليه: أقام الحجة، وعارضه<sup>(3)</sup>.

وندرك من خلال التحديد المعجمي أنّ الحجاج والمُحاجّة والتجاج تستعمل بمعنى المغالبة، والمنازعة، والتخاصم، والمجادلة، وتدلّ صيغها الصرفية (فعال ومفاعلة وتفاعُل) على معنى المشاركة، أي أن الحجاج لا يكون إلا بين طرفين محاجّ ومحجوج، ويفترض أنّ بينهما تنازعا وتخاصما واختلافا على أمر ما، حيث يجتد المحاجج ما أمكنه من حجج وأدلة من أجل إقناع المحاجّ، وعليه يمكن أن نستنتج أنّ العملية الحجاجية تقوم على ثلاثة عناصر:

1. المحاجّ أو المحاجج، وهو صاحب الغلبة.
2. المحاجّ أو المحجوج، وهو المغلوب، أي المخاطب.

(1) - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، مادة (ح ج ج).

(2) - محمد الرازي، مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، دار الحديث، مادة (ح ج ج).

(3) - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004، مادة (ح ج ج).

3. الحجج: وهي الأدلة والبراهين التي تساق للإقناع، والدّحض، والاقتناع.

وارتبط مفهوم الحجج (L'argumentation) بمصطلحات أخرى يرادفها أحيانا مثل الاستدلال (Raisonnement) والبرهان (Démonstration) والجدل (Polémique) والإقناع (Persuasion).

#### أ. الحجج والجدل:

ارتبط الحجج عند القدماء والمحدثين بالجدل، فهو عند ابن منظور مرادف للجدل، نقول: رجل **مُحَجَّج** أي **جدل**، والجدل مقابلة **الحجة بالحجة**<sup>(1)</sup>. لكنّ محمد الطاهر بن عاشور أشار إلى أن ثمة فرقا رفيعا بين مدلولي اللفظين «معنى حاجّ خاصم، وهو فعل جاء على زنة فاعل، ولا يعرف له "حاجّ" في الاستعمال فعل مجرد دال على وقوع الخصام، ولا تعرف المادة التي اشتق منها. ومن العجيب أن الحجّة في كلام العرب البرهان المصدق للدعوى، مع أن حاجّ لا تستعمل غالبا إلا في معنى المخاصمة [...] والأغلب أنه يفيد الخصام بباطل، والمجادلة من الجدل، وهو القدرة على الخصام والحجة فيه، وهي منازعة بالقول لإقناع الغير برأيك، وتكون في الخير والشر»<sup>(2)</sup>. ويستقي الحجج أو المحاجة معناها من الجدل والظفر والخصام التي تفترض طرفي التخاطب أو التحاج، الذي من خلاله تتحقق العملية الحجاجية التواصلية<sup>(3)</sup>.

إن عدّ هؤلاء الحجج مرادفا للجدل، واستعمالهما معطوفين باعتبارهما مترادفين من شأنه أن يضيق مجال الحجج ويغرقه في الجدل من حيث هو معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه. والحال أن الحجج أوسع من الجدل، «فكل جدل حجج، وليس كل حجج جدلا»<sup>(4)</sup>، وإذا كان الجدل يمثل القسم الإقناعي من الخطاب، فإن الحجج هو جوهر الخطاب باعتبارها فن الإقناع، ولهذا لا يقتصر الحجج على الاستدلال العقلي، وإنما يتعداه إلى الحجج اللغوية الخالص<sup>(5)</sup>. ويعمل كلّ من الجدل والخطابة على إنتاج الحجج باعتبار أن غاية كلّ منهما هي الإقناع، ولهذا يعدّ الحجج القاسم المشترك بينهما، ومعنى هذا أنه يوجد على الأقل حججان: أحدهما جدلي والآخر خطابي:

أما الجدلي، فهو الذي يدور على مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد.

وأما الخطابي، فهو حجج موجه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة في مقامات خاصة، والحجج هنا ليس

(1) - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، مادة (ج د ل).

(2) - ابن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء 3، الدار التونسية للنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ص 31-32

(3) - رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد 2، مجلد 40، 2011، ص 71.

(4) - عبد الله صولة، الحجج في القرآن الكريم، ص 16 و 17.

(5) - انظر قدور عمران، البعد التداولي والحجج في الخطاب القرآني، عام الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط 1، 2012، ص 26.

لغاية التأثير النظري العقلي فحسب، وإنما يتعداه التأثير العاطفي وإثارة المشاعر والانفعالات، وإلى إرضاء الجمهور واستمالاته ولو كان ذلك بمغالطته وإيهامه بصحة الواقع، وينشد الخطاب الفعل في المتلقي ويروم التأثير فيه، وتوجيه أفكاره وسلوكه الوجهة التي يريدتها، فينغرس بداهة في الحجاج، والفعل والتأثير والتغيير والتوجيه كلها جوهر الحجاج، ولإثبات نهوض الخطاب بوظيفة إقناعيه نسوق الخبرين:

ذكر الجاحظ في البيان والتبيين: ومن قدر الشعر وموقعه في النفع والضرر أن ليلي بنت النضر ابن الحرث بن كلدة لما عرضت النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت واستوقفته، وجذبت بردائه حتى انكشف منكبه، وأنشدته من الكامل بعد مقتل أبيها:

أحمد هـ أنت صنو نجيبه      من قومها والفحل فحل مُعرق (الكامل)  
 ما كان ضررك لو مننت ورماً      من الفتى وهو المغيظ المحنق  
 فالنضر أقرب من تركت قرابة      وأحقهم إن كان عتق يُعتق

فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته» (1).

وما أورده في الرجل الذي طلق امرأته لأنها مؤنث: تزوج شيخ من الأعراب جارية، وطمع أن تلد له غلاما، فولدت له بنتا، فهجرها وهجر منزلها، وصار يأوي إلى غير بيتها، فمرّ بجنائها بعد حول، وإذا هي ترقص بُنيتها منه، وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا      يظل في البيت الذي يلينا (الرجز)  
 غضبان أن لا نلد البنينا      تالله ما ذلك في أيدينا  
 وإنما نأخذ ما أعطينا

قال: فغدا الشيخ حتى ولج عليها الخباء فقبّلها، وقبل بنيتها، وقال: ظلمتكما ربّ الكعبة (2).  
 ب. الحجاج والاستدلال:

ويختلف الاستدلال عن الحجاج في كونهما ينتميان إلى نظامين جدّ مختلفين، نظام المنطق، ونظام الخطاب. إن استدلالا ما (القياس الحملي أو الشرطي مثلا) لا يشكل خطابا بالمعنى القوي الذي يعطيه ديكر (O. Ducrot) لهذا المصطلح؛ «فالأقوال التي يتكون منها استدلال ما، مستقلة بعضها عن بعض، بحيث إن كل قولٍ منها يعبر عن قضية ما، أي يصف حالة ما، أو وضعاً من أوضاع العالم باعتباره وضعاً واقعياً أو متخيلاً. ولهذا فإن تسلسل الأقوال في الاستدلال ليس مؤسساً على الأقوال نفسها، ولكنه

(1) - الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء 3، ص 614.

(2) - المرجع نفسه، الجزء 3، ص 616.



مؤسس على القضايا المتضمنة فيها، أي على ما تقوله أو تفترضه بشأن العالم، وأما الحجاج فهو مؤسس على بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب<sup>(1)</sup>.

### ج. الحجاج والبرهان:

الحجاج فعالية تداولية، وخطاب جدلي يقبل المغايرة والاختلاف. عكس خطاب البرهان الصناعي القائم على الإفحام باتباع طرائق في الاستدلال مغلقة صماء، وأما البرهان فهو عملية ذهنية أو استدلال استنتاجي، الهدف منه هو تأكيد صدق قضية انطلاقاً من منطلقات ينظر إليها على أنها صادقة " فالنص الاستدلالي قد يكون من الصنف البرهاني، إذا كانت علاقاته الاستدلالية قابلة للحساب الآلي، ولكنه يصير من الصنف الحجاجي إذا كانت هاته العلاقات تأبى الخضوع لمثل هذا الحساب الصوري<sup>(2)</sup>.

والخطاب الحجاجي هو «جنس متميز من أنواع الخطاب، يعرض فيه المخاطب دعواه مدعمة بالتهريرات بغية إقناع المخاطب أو المتلقي أو التأثير في موقفه أو سلوكه أو استمالاته نحو المسألة المعروضة عليه، كأن يلجأ أحد المتخاطبين إلى دعم رأيه بأدوات إقناع علمية تجعل الطرف الآخر يتجاوب معه، ويتقبل حجته<sup>(3)</sup>. ومن الخصائص التي تميزه عن الخطاب البرهاني أو الاستنتاج «إمكانية النقض أو الدحض، مما يجعل من إمكانية التسليم بالمعطيات أمراً نسبياً بالنسبة إلى المخاطب<sup>(4)</sup>. ولهذا يقف المتلقي أمام الخطاب الأول موقف الآلة ليس له إلا التسليم، بينما في الخطاب الحجاجي له إمكانية مناقشة الرأي أو مصادرته.

### د. الحجاج والإقناع:

ويهدف الحجاج باعتباره فعلاً لغوياً غائياً دوماً إلى الإقناع وفق آليات لغوية وبلاغية تكمن في ثنايا الخطاب، واستناداً إلى هذا التصور يمكن القول: «إن البلاغة الحجاجية هي تاريخ الخطاب، إذ كل الخطابات التي تأسست بوصفها خطابات فاعلية ونوعية، هي تلك التي أفنعت ... ففي كل فكرة يقتنع بها الإنسان، يوجد عمل يترتب عنها، والتزام عملي يقوم به، وبالتالي يوجد نشاط حجاجي يتحرك في الفكرة» ومن هذا المنطلق فإنّ عمل أي محاجج يتركز أساساً حول إقناع أكبر قدر ممكن من المتلقين، وترجمة القناعات إلى أفعال اجتماعية.

ويشير الحجاج في الاصطلاح إلى «تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز

(1) - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 17.

(2) - رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص 79.

(3) - بلقاسم دفة، استراتيجية الخطاب الحجاجي، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، عدد 10، 2014، ص 497.

(4) - المرجع نفسه، ص 497.

تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها<sup>(1)</sup>.

وحدّه آخر بأنه « فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية إنشاءً موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة<sup>(2)</sup>، ويشير في موضع آخر إلى أنه « كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها<sup>(3)</sup>، أو هو « طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التأثير في السامع، فيكون بذلك الخطاب ناجحا فعلا، وهذا معيار أول لتحقيق السمة الحجاجية، غير أنه ليس معيارا كافيا إذ يجب ألا تشمل طبيعة المتقبل المستهدف، فنجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبه للسامع، ومدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة على إقناعه فضلا على استثمار الناحية النفسية في المتقبل من أجل تحقيق التأثير المطلوب فيه<sup>(4)</sup>.

ويعرفه بيرلمان (Chaïm Perlman) انطلاقا من موضوعه الذي هو «دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم<sup>(5)</sup>، وأما الغاية من الحجاج فيقول عنها: «... إن غاية كل حجاج أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجح الحجاج ما وفق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيين لذلك العمل في اللحظة المناسبة<sup>(6)</sup>».

ويمكن القول ممّا سبق: إنّ الخطاب الحجاجي هو خطاب يشتمل على عناصر حجاجية لا تخلو من التبرير والتعليل والبرهنة والمحاجة وحشد الدعم اللغوي والاسناد المثالي لإثبات قضية ما أو نفيها، لدفع الآخرين إلى الاعتراف بقرار هو الغرض من الكلام، أو جمع الاتفاق الجماعي حول كلام هو مثال الحقيقة.

2. نجاعة الخطاب الحجاجي:

والخطاب الحجاجي هو خطاب غائي ضاغظ موجه بتحشيد البراهين والحجج لفائدة أطروحة،

(1) - أبو بكر العزّوي، اللغة والحجاج، ص 16.

(2) - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص65.

(3) - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 226.

(4) - صابر الحباشة، التداولية والحجاج، صفحات للدراسات النشر، دمشق، سورية، الإصدار1، 2008، ص 21.

(5) - محمد الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 107.

(6) - المرجع نفسه، ص 107.

أو قضية، أو فكرة، أو رأي، أو موقف، وتترابط فيما بينها بواسطة علاقات وروابط لغوية وأخرى منطقية أو شبه منطقية، ويتوخاها المخاطب من أجل تحقيق أهدافه وأغراضه في المتلقي بإقناعه بآرائه ومواقفه، وحمله على الإذعان والاستسلام، ليحدث في نهاية المطاف أثرا واضحا في المتلقي، لا من حيث أفكاره فحسب، بل من حيث مواقفه أيضا، وما قد يكون له من سلوك واقعي ملموس، ويعدّ تحقق التغير المنشود في أفكار المتلقي ومواقفه علامة فارقة على نجاعة الخطاب الإقناعي ووجاهة الحجاج المعتمد، غير أنّ

الحجاج لا يتحقق فعله في الآخر، ولا يشكل واقعا جديدا إلا بتوافر جملة من الشروط أهمها:

1. الحياد: أي الإيهام بأنه لا ينحاز إلى رأي بعينه، ولا يتعصب لموقف محدد، وأن ما يعرضه في الخطاب هو واقع لا مرء فيه، وحقيقة لا سبيل إلى دحضها.

2. التناغم البين والانسجام الجلي بين مفاصل الخطاب ومختلف مكوناته؛ فلا تخالف نتائجه مقدماته، ولا تناقض أوائله أوآخره، ولا تعارض دقائقه عمومياته. وقد حدد الدارسون ثلاثة مقومات للتناغم الضروري في كل خطاب حجاجي<sup>(1)</sup>:

أولها: القبول (La recevabilité) أن يضمن الباث عملية التلقي، ولا يتم ذلك إلا إذا وجد المتلقي في الكلام شكلا معقولا مقبولا ففهمه وقبله.

ثانيها: مشابهة الحقيقة (La vraisemblance) ذلك أن العالم المعروض في الخطاب ينبغي أن يكون متصورا، وأن تكون أشيائه قابلة للتحديد، وعلاقاته محتملة تطابق ما يحمله المتلقي من تصورات حول الواقع على مستوى الممكن والمستحيل.

ثالثها: الإقرار (Acceptabilité) فالغايات التي يرسمها الخطاب والمواضع والقيم التي يعتمدها يمكن للمتلقي تحديدها في مقام أول، ثم إقرارها والافتداء بها في مقام ثان.

ثانيا: العلاقات والروابط الحجاجية في مقامات الزمخشري:

يعدّ الخطاب كتلة معنوية يعبر فيها المخاطب عن معانيه ومقاصده الذهنية، وتبرز مرتبة في سطح

الملفوظ في شكل مفردات وتراكيب وجمل متماسكة نحويا، تؤلف بينها شبكة من العلاقات المتناغمة أو المتناقضة، وكل جملة منه يمكن عدها تواسلا على مستوى المعنى العام للخطاب، وهو تواصل يحدد عن طريق العناصر المكونة لهذا الخطاب ومختلف العلاقات القائمة بينها.

ويتشكل الخطاب الحجاجي من خلال تفاعل مكوناته الداخلية من استدلالات وآليات ومفاهيم،

(1) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، إربد، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط1،

2008، ص35 وما بعدها.

مع مكوناته الخارجية المتمثلة في الوقائع الإنسانية والتجارب والأسباب والمسببات، وهي عناصر ضرورية لكنها غير كافية لفهم القول الحجاجي وتحليله، لأن الحجاج يطرح إشكالات أخرى ترتبط بطبيعة أشكاله وأنواع حججه، وطرق توظيفها<sup>(1)</sup>، كما أن الخطاب الحجاجي ليس مجرد تحشيد لحجج وبراهين تربط بينها روابط لغوية يسعى المحاجج من خلالها إلى إثبات أطروحة معينة قصد إقناع خصمه، أو حمله على الإذعان لها، بل هو نص متكامل « قائم على التناغم البين والانسجام الجليّ، وضرب من الترابط بين أقسامه، مما يدعونا إلى النظر في العلاقات الحجاجية، أي العلاقات بين مختلف الحجج والبراهين من ناحية، وبين هذه الحجج والبراهين من جهة، والنتائج التي يقصد إليها الخطاب ويقود إليها المتلقي من جهة أخرى. هذه العلاقات التي تحدد بدورها مسار البرهنة، وتعكس استراتيجية معينة في الإقناع اختارها الباحث دون سواها لأنه يراها كفيلة بتحقيق غاية الخطاب، قادرة على تبليغ مقاصد صاحبه»<sup>(2)</sup>، بل لا بد أن يترابط بشبكة معقدة من العلاقات الحجاجية « وهي علاقات مخصوصة موجهة غير عادية، تحكمها معطيات كثيرة منها ما يتصل بالمتكلم، ومنها ما يعود إلى المتلقي، ومنها ما يرجع أيضا إلى وضعيات الخطاب وغاياته ومختلف مقاصده»<sup>(3)</sup>، ثم إن مفهوم العلاقة الحجاجية مفهوم واسع شامل، يمكن أن تربط بين حجة وحجة أو بين حجة ونتيجة، أو بين نتيجة واحدة ومجموعة من الحجج روابط صريحة وأخرى مضمرة، وأخرى لغوية أو منطوية تزود وظيفتها بين النصية والحجاجية.

وسأحاول في هذا الفصل التركيز على أهم هذه العلاقات، وعلى الروابط الحجاجية التي أحكم بها المخاطب النسيج النصي للمقامات، ويشكل حضورها فيه دورا أساسيا في التأسيس للعلاقة المقصودة وتحديدها وتوجيهها؛ فكلما تعددت الروابط وتنوعت، حددت هوية العلاقة التي تربط بين قضايا الخطاب وحججه. وأهم العلاقات الحجاجية التي استغلها الزمخشري في الربط بين مفاصل النص وتلحيم أجزائه نجد علاقة التتابع، والسببية، والافتضاء، والاستنتاج، وعدم الاتفاق أو التناقض.

### 1. علاقة التتابع:

يكون التتابع في الحجاج من خلال تتابع الأحداث والوقائع، أو تتابع القضايا والأفكار، ويكون عن طريق الربط السببي. وللترتيب الزمني دور بارز في الاحتجاج بتتابع الأحداث، فالراوي - مثلا - يذكر الحدث وتوابعه، وهذا ما يُمكنه من الاحتجاج لفكرة من خلال التتابع المتتالي لأحداث القصة، ويرى بلنجر (L. Bellenger) أن المقطع السردي لا يكون إقناعيا إلا إذا توفرت فيه وسائل السرد:

(1) - انظر عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص 156.

(2) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 317.

(3) - المرجع نفسه، ص 317.

1. احترام التسلسل الزمني.

2. ضبط كل الأحداث.

3. اختيار التفاصيل.

4. استعمال كلمات التلفظ التي ترمز للزمن (أولاً، وبعدها، ثم ...).

5. الاستمرار في استعمال الضمير "أنا" (1)

وهذا التتابع السردى هو في الواقع عملية استدلالية؛ لأنه « في جوهره عملية معقدة تسمح بالربط بين فرضيات كثيرة وقضايا متعددة، بل تسمح في الوقت ذاته بالجمع بين الحديث ومستتبعاته، وبين الفعل ونتائجه، وبين السابق ولواحقه، فتستجيب بذلك إلى شرطين، أو تحقق معادلتين يعسر الجمع بينهما، هما التطور المطرد والتناغم البيّن، لذلك تبدو العلاقة التتابعية ذات طاقة حجاجية هامة، إذ يمكن أن نحتج بتقرير متتابع مستمر في الأحداث» (2). وتبدو حجاجية هذه العلاقة باعتماد المخاطب أكثر على تفسير الوقائع والأحداث، وتكثيفها على نحو متتابع يضغط به على المتلقي، ويوفر نوعاً من التطور في الحجج، ليحقق الاتساق والانسجام بين المقدمات والنتائج، فتغرس الحجة في نفس المتلقي، وتشد انتباهه إلى النتيجة، مما يجعل التتابع أقدر على الفعل والتأثير، فيأتيه المتلقي خاضعاً مدعناً مستسلماً لأطروحته. كما تتجلى القوة الحجاجية للسرد في القبض على القارئ ودفعه إلى الانخراط في السرد من خلال التوقع والتأليف. على أن التتابع يقع إجمالاً على مستويين: «أحدهما مستوى الأحداث، والثاني مستوى القضايا والأفكار:

أما على مستوى الأحداث، تغرس الحجة في الحجة، وتنتهي بداهة إلى أحد الصنفين، وهما الحجج المؤسسة على بنية الوقائع، أو المؤسسة لبنية الوقائع.

وأما على مستوى القضايا أو الأفكار، فتتسمي الحجة عندها إلى صنف الحجج شبه المنطقية» (3).

وتوفّر علاقة التتابع الحجاجية طاقة تأثيرية وقدرة إقناعية هائلة، ويمكن أن نلمسها بوضوح في قول الزمخشري: « لا تبغ على أحد. فالباغي وخيم المرع. ذميم المصرع. قاعدٌ بمرصاد المعاقب. مُنتظرٌ لسوء العواقب. وفي قصة الحارث بن ظالم زجرةٌ لكلِّ باغٍ ظالم. حينَ بغيَ على خالد بن جعفر. في جوارِ

(1) خديجة بوخشة، العلاقات الحجاجية في قصة " النظارتين " لإدغار ألان بو"، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية ع 13،

2020، مج 4، المركز العربي الديمقراطي، برلين، ألمانيا، ص 64

(2) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 321.

(3) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص 156.

الْأَسْوَدُ ابْنُ الْمُنْدَرِ. أَتَى قَبْتَهُ بِاللَّيْلِ. وَاللَّيْلُ أَخْفَى لِلْوَيْلِ. فَهَتَكَ شَرَجَهَا (1). ثُمَّ وَلَجَهَا. فَعَلَاهُ وَهُوَ رَاقِدٌ بِذِي حَيَاتِهِ (2) حَتَّى فَجَعَهُ بِحَيَاتِهِ (3).

احتج المخاطب لمخاطبه على وخامة البغي، وعاقبة الباغي، فساق حجة مؤسّسة على بنية الواقع، وهي حادثة بغي الحارث على خالد بن جعفر، وأطرها بزمن هو الليل، وأسسها على علاقة التابع، فوصل الأحداث بعضها ببعض، وراعى التابع الزمني المنطقي بين بعضها حسب ما يتطلبه الموقف، فحين يضع الأحداث على محور الزمن انطلاقاً من الزمن الصفر، حتى نقطة النهاية، نجد أحداثاً متتابعة بعضها متعاقب متصل سريع، وبعضها متعاقب متراخ يعكس حيطة الحارث وحذره، كما أنّ هذه الأحداث المتعاقبة مترابطة، لا يمكن تخطي واحد منها دون الوقوف على الحدث الذي قبله، فإذا اقتنع المخاطب بصحة الحادثة، اتخذها عبرة ومزدجراً، وينتهي عن بغيه وغيه.

فقد أحيا خالد ثأراً قديماً وحقداً دفيناً في نفس الحارث، حين ذكره بقتله أشرف قومه وسيدهم، فراح يتحين الفرصة لإدراك ثأره، ولم تتجاوز ليلته تلك إلا وقد أجهز على خالد فقتله.

ويشكل تتابع الأحداث نصاً متسقاً منسجماً تؤلف بين عناصره روابط الترتيب المتعاقب والمتراخي " الفاء " و " ثم " بالإضافة إلى رابط انتهاء الغاية " حتى ".

الحادثة: بغي الحارث على خالد. (ح: حدث)

الأحداث: ح 1. أتى الحارث خالد ليلاً.

ح 2. هتك عروة خيمته.

ح 3. ولج خيمته.

ح 4. ضربه بسيفه.

ح 5. قتله.

وسلك الزمخشري المسلك نفسه، وهو يدعو المخاطب إلى إكرام ضيفه، وعدم الاستهانة بزائره، وإلا عدّ اللؤم نفسه، أو ألام من اللؤم، فاستند إلى الواقع ليواجهه منه بواقعة لا يملك ردّها و حتى الشكّ فيها، فقال: (( ابسُطْ مَنْ زَائِرِكَ وَأَكْرِمِهِ. وَإِنْ اسْتَوْهَبَكَ فَلَاتَحْرِمِهِ. فَإِنَّ الْمُسْتَهِينِ بَزَائِرِهِ مِنَ اللُّؤْمِ أَلَمٌ. وَلَهُ السَّهْمُ الْأَخْيَبُ وَالْبَارِحُ الْأَشَامُ. وَأَنْظُرْ مَا أَلْصَقَ بِعَجُوزِ بَنِي هَوَازِنَ مِنَ الْهَوَانِ. زُهَيْرُ بْنُ جَدِيمَةَ بْنِ رَوَاحَةَ صَاحِبِ

(1) - الشرح: العرى جمع عروة.

(2) - ذو الحيات: سيف الحارث بن ظالم المرّي.

(3) - مقامات الزمخشري (أيام العرب: ص 270).

الأريان<sup>(1)</sup>. حِينَ جَاءَتْهُ بِعُكَاظَ تَحْمِلُ السَّمْنَ فِي نُحْيِهَا<sup>(2)</sup>. وَهِيَ تَهْدِجُ فِي مَشِيهَا. فَشَكَتْ إِلَيْهِ مَا أَجْحَفَ بِهَا مِنَ الْمُخْلِ<sup>(3)</sup>. وَ مَا جَلَقَتْ مِنْ قَوْمِهَا كَحُلٍ. فَدَعَّهَا بِقَوْسِهِ فَأَلْقَاهَا مُسْتَلْقِيَةً عَلَى حَلَاوَةٍ قَفَاهَا. فَبَدَأَ مِنْهَا الشَّوَارَ<sup>(4)</sup>. وَتَعَلَّقَ بِهِ الشَّنَارَ. فَانْبَعَثَتْ أَحْقَادُ بَنِي هَوَازِنَ مِنْ مَكَامِنِهَا. وَحَدَّتَتْ أَنْفُسُهَا بِالْعَنْقِ مِنْ ضَعَائِنِهَا. وَآلَى خَالِدُ بْنُ جَعْفَرٍ لَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ فَرَاعَهُ. لِيَجْعَلَنَّ وَرَاءَ عُنُقِهِ ذِرَاعَهُ. ثُمَّ بَرَّتْ فِيهِ أَلَيْتُهُ<sup>(5)</sup>. وَحَلَّتْ بِالْمَجْدَعِ بَلَيْتُهُ. وَقَدْ انْخَلَعَتْ رِجْلُ قَعْسَائِهِ<sup>(6)</sup>. وَلَمْ يُغْنِ عَنْهُ تَوَطُّيسُ<sup>(7)</sup> حَارِثِهِ وَوَرَقَائِهِ<sup>(8)</sup>.

ونجد علاقة التتابع في التعاقب الزمني السريع للأحداث، حيث يصل المخاطب بين الأحداث، ويجعل لأولها مستتبعات تؤلف الحادثة الكبرى وتؤكددها، ويؤطرها بزمان ومكان يأتيه الناس من كل فج عميق، إذ تبدأ الأحداث عندما قدم زهيرُ هوازِنَ يوم عكاظ يجي الخراج للنعمان بن المنذر، فجاءته عجوز بسمن واعتذرت إليه بسنين عجاف تتابعت عليهم، وذاقه فلم يرضه، فدعَّها بقوس فألقاها مستلقية فبدت عورتها، فغضبت قبيلة هوازن وضغنت عليه، وبلغ ذلك خالدا فراعته، وأقسم أن يقتله، فأغار عليه في قومه، فلم يتركه إلا قتيلا. فالحدث الرئيسي يتوالد، ويستتبع بأحداث ثانوية، جاءت لتؤكد مكانة الشرف عند العربي، فإنه يتجاوز عن أمور كثيرة إلا أن يتعلق الأمر بثأر أو شرف فدوتهما الموت.

ثم جاءت الروابط النصية المنطقية واللغوية "الفاء" و"ثم" لتحقيق التتابع على مستوى الأحداث والاتساق النصي، و"الواو" لتكثيف الأحداث حول الحادثة الرئيسية.

ونلمس هذه العلاقة كذلك في قول الزمخشري: (( لم يبقَ بعدَ هجرِ العشيرةِ وَجَفْوَةِ العشيرِ<sup>(9)</sup>. وَوَدَاعِ المُسْتَشِيرِ مِنْ جُلَسَائِكَ وَالمُشِيرِ. إِلَّا عَمَلَكَ الَّذِي لَزِمَكَ فِي حَيَاتِكَ لُزُومَ صَحْبِكَ. وَيَسْتَبْقِي صُحْبَتَكَ بَعْدَ قَضَاءِ نَحْبِكَ. فَيُصْحَبُكَ عَلَى التَّخْتِ مَغْسُولًا. وَيَأْلُفُكَ عَلَى النَّعْشِ مَحْمُولًا. وَيُرَافِقُكَ مَوْضُوعًا عَلَى الْأَكْتَفِ فِي الْمُصَلَّى. وَيُجَالِفُكَ وَأَنْتَ فِي الْحُفْرَةِ مُدَلَّى. وَيُضَاجِعُكَ غَيْرَ هَائِبٍ مِنْ مَضْجَعِكَ الْحَرْبِ. وَيُعَانِقُكَ غَيْرَ مُسْتَوْحِشٍ مِنْ حَدِّكَ التَّرْبِ. وَلَا يُفَارِقُكَ مَا دُمْتَ فِي غِمَارِ الْأَمْوَاتِ وَإِنْ أَصْبَحْتَ وَمُؤَلَّفَاتِكَ أَشْتَاتِ.

(1) - الأريان: الخراج.

(2) - النحى: زق السمن.

(3) - الخل: الجفاف وانقطاع المطر ويؤس الأرض من الكأ.

(4) - الشوار: فرج المرأة والرجل.

(5) - الألية: اليمين والقسم.

(6) - القعساء: اسم فرس زهير، والحارث وورقاء: ابناه.

(7) - التوطيس: الذب والحماية.

(8) - مقامات الزمخشري (أيام العرب: ص 268).

(9) - العشير: المعاشر. ونحوه الصديق والخليل والخليط. وفي الحديث: ((ويكفرن العشير)) أراد الزوج.

وعِظَامُكَ نَحْرَةً وَرَفَاتٍ. فَإِذَا رَاعَتْكَ نَفْحَةُ النَّشْرِ. وَفَاجَأَتْكَ أَهْوَالُ الْحَشْرِ. وَفَرَّ مِنْكَ أُبُوكَ. وَأُمُّكَ وَأُخُوكَ. وَلِكُلِّ مِنْهُمْ مَهْمٌ يَعْنِيهِ. وَشَأْنٌ حِينِيذٌ يُعْنِيهِ. وَجَدْتَ عَمَلَكَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْأَغْبَرِ. وَسَاعَةَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ (1) أَتْبَعَ لَكَ مِنْ ظِلِّكَ وَالزَّمَّ (2) مِنْ شَعْرَاتِ قَصِّكَ. يَفْدُ مَعَكَ أَيَّمَا تَفْدٍ. وَيَرِدُ حَيْثُمَا تَرِدُ. ثُمَّ إِمَّا أَنْ يَدُلَّكَ عَلَى فَوْزٍ مُبِينٍ. وَإِمَّا أَنْ يَدْعَكَ (3) عَلَى عَذَابٍ مُهِينٍ (4).

ويستشرف المتكلم في هذه السردية ما يكون عليه حال المخاطب ورحلته بمعية عمله عابرا من دنياه إلى أخراه؛ حيث تنطلق الرحلة من الحياة الدنيا، أين يلزم الإنسان ما عمل من خير أو شر، ثم ينتقل معه ذلك العمل بعد موته، حين يُغسَّل على التخت، ويُجَمَل على النعش، وحين يوضع في المصلى، ثم حين يدفن، ويرافقه في الحياة البرزخية مؤنسا، ويواصل معه الرحلة إلى يوم النشور، ويشهد معه أهوال الحشر، والحساب، ثم إما أن يدلّه على فوز مبين، أو يدفعه إلى عذاب مهين.

وبنى الزمخشري خطابه على علاقة التتابع فوضع الأحداث متتابعة في خطية زمنية مستقبلية، بحيث لا يمكن الإخلال بهذا الترتيب، فكل محطة من محطات الرحلة تعد حجة في حد ذاتها، فقد كتّف المخاطب الحجج متتابعة حول القضية العامة " العمل رفيق الإنسان الأبدي في الحياة وبعد الممات " من أجل شدّ انتباهه إلى مقصديته من الخطاب وغايته منه، وهي توجيهه إلى العمل الصالح ليعبر بسلام إلى الجنة.

والخطاب وحدة نصية، تتسلسل فيه الأحداث وتترابط، لتشكل نسيجاً نصياً متسقاً تؤلف بين مفاصله روابط القصر ( لم و إلا )، والتفصيل ( إِمَّا وَإِمَّا )، والوصل المتزامن أو المتعاقب أو المتراخي، مثل: الواو، والفاء، و ثم. حتى يبلغ المخاطب النتيجة المرسومة والهدف المقصود.

ثم نقف أمام نمط آخر من التتابع، وفيه تتدافع الأدلة وتتقارع الحجج، وتتلاحق كأصداء، تقتضي الحجة الحجة، لتؤكد الثانية الأولى وتتجاوز معها، وكان بينها " الواو " واصلاً دالاً على الجمع والتشارك ليتحقق به وحدة شكلية ومعنوية. مثل قول الزمخشري: « يا أبا القاسم أفلاكٌ مُسْحَرَةٌ. وَكَوَاكِبٌ مُسِيرَةٌ. تَطْلُعُ حِينًا وَحِينًا تَغْرُبُ. وَيَنَأَى بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ وَيَقْرُبُ. وَقَمَرٌ فِي مَنَازِلِهِ يَغُومُ. وَشَمْسٌ فِي دَوْرَانِهَا تَدُومُ فَمَا تَقُومُ. وَسَحَابٌ تُنْشِئُهَا الْقُبُولُ وَتُلْفَحُهَا. وَتَمْرِي أَخْلَافُهَا الْجَنُوبُ وَتَمْسُحُهَا. وَأَرْضٌ مُدَلَّلَةٌ لِرَاكِبِيهَا. مُقْتَلَةٌ لِلْمَشْيِ فِي مَنَازِلِهَا مُوَطَّئَةٌ. بِالرَّاسِيَاتِ مُوْتَدَةٌ. وَبِحِرَانٍ أَحَدُهُمَا بِالْآخِرِ مَمْرُوجٌ. وَحَجَرٌ صَلْدٌ يَنْشَقُّ عَنِ الْمَاءِ الْفُرَاتِ. وَيَنْفَلِقُ عَنِ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ. وَحَبٌّ يَنْشَأُ مِنْهُ عُرُوقٌ وَعِيدَانٌ. وَنَوَى يَنْبُتُ مِنْهُ جَبَّارٌ وَعِيدَانٌ.

(1) - الفرع الأكبر: النفحة الأخيرة.

(2) - وفي أمثالهم: ( ألزم له من شعرات قصه ) لأنها تخلق ولا تنتف، والقص والقصص: الصدر.

(3) - الدّع: الدفع العنيف.

(4) - مقامات الزمخشري (الصلاح: ص116).



وَنُطْفَةٌ هِيَ بَعْدَ تِسْعَةِ إِنْسَانٍ. لَهُ قَلْبٌ وَبَصَرٌ وَلِسَانٌ. فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُ عَرَائِبُ حُكْمٍ يَعِجْزُ اللِّسَانُ الدَّقِيقُ أَنْ يَحْصِرَهَا وَيُجْصِئَهَا. وَيَعِزُّ عَلَى الفَهْمِ الدَّقِيقِ أَنْ يَبْلُغَ كُنْهَهَا وَيَسْتَقْصِيَهَا. مَا هَذِهِ إِلَّا دَلَائِلُ عَلَى أَنَّ وِرَاءَهَا حَكِيمًا خَبِيرًا قَدِيرًا. عَلِيمًا خَبِيرًا<sup>(1)</sup>.

وتخدم الأدلة المتتابعة نتيجة كبرى، وهي الإيمان بحكمة الله وقدرته على كل شيء في الأرض وفي السماء. فقد دعا المخاطب أبا القاسم إلى التأمل في هذه السماء، وما تحتويه من ملايين النجوم المشتعلة والكواكب السيارة التي تتحرك بحسبان يحفظها قانون خفي من التصادم وارتطام بعضها ببعض أو بكوكبنا الأرضي فتتسفه، وهذه الأرض التي نعيش عليها، وما فيها من نبات وحيوان وجبال وبحار، كل ذلك يسير على سنن ونواميس خاصة في نهاية الحكمة وفي سبيل منفعة الإنسان، هذه كلها من البراهين والحجج القوية للمنكرين على وجود قدرة إلهية حكيمة، يقول كريسي موريسون: «إن استعراض عجائب الطبيعة ليدل دلالة قاطعة على أن هناك تصميمًا وقصدًا في كل شيء، وإن ثمة برنامجًا ينفذ بحذافيره طبقًا لمشيئة الخالق»<sup>(2)</sup>، ثم إنَّ خلق الإنسان خلقًا سويًا في أحسن صورة، ذي سمع وبصر ولسان وإحساس، وما يعرض له من تذكر ونسيان وحزن وسرور وعلم وجهل ومحبة وبغض لأكبر دليل على وجود الله وقدرته وحكمته.

#### ن: قدرة الله وحكمته وعظمته في مخلوقاته

أفلاك مسخرة.	ح1	حيث: ن نتيجة.
الكواكب المسيرة.	ح2	ح حجة.
السحب المثقلة.	ح3	
الرياح اللواقح.	ح4	
الأرض المذللة للإنسان.	ح5	
البحران عذب فرات وملح أجاج.	ح6	
الحجر الصلد ينشق عن الماء الفرات.	ح7	
الحجر ينفلق عن الشجر والنبات.	ح8	
حب بنشأ عنه عروق وعيدان.	ح9	
نوى ينبت منه جبار وعيدان.	ح10	
خلق الإنسان من نطفة.	ح11	

(1) - المصدر السابق (التوحيد: ص128)

(2) - عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1988، ط27، ص71

## 2. العلاقة السببية:

وتبني هذه العلاقة بدورها على التابع، لكن المخاطب فيها لا يكتفي بمراعاة تلاحق وتسلسل طبيعي للأحداث، بل «يعمد المخاطب إلى مستوى أعمق من العلاقة فيجعل بعض الأحداث أسبابا لأحداث أخرى، ويسم فعلا ما بأنه نتيجة لفعل سابق، ويجعل موقفا معينا سببا مباشرا لموقف لاحق ... فإذا بالعلاقة السببية علاقة شبه منطقية تجعل النص يحاكي نصوصا منطقية في ترابط أجزائها، وتناسق أفكارها»<sup>(1)</sup>.

وتتجلى الفعالية الحجاجية لهذه العلاقة في أنها تبني على خلفيّة شبه منطقية تستمدّ أدواتها من المنطق، وتؤلف بين الأحداث والقضايا برابط سببي، وتعتمد بالدرجة الأولى على حجة سببية «تضمن مظاهر الاتصال السببي، كالربط بين بعض الأحداث المتتابعة بوساطة علاقات سببية، أو استخلاص نتيجة ما بسبب حصول حدث أدى إليها، أو التكهن بما سيقع لو أن الحدث المسبّب قد حصل»<sup>(2)</sup>، على أن المحاجّ في الخطاب الأدبي ليس ملزما بإظهار الأسباب والنتائج، فقد يركّز أحيانا على السبب، ويغفل النتيجة لإبراز السبب، وأحيانا أخرى يذكر النتيجة، ويهمل السبب لإبراز النتيجة «فالمخاطب يمكن أن يبرز السبب تارة و النتيجة تورا، و ذلك حسب تصوره للتتابع السببي، إما في شكل علاقة سبب بنتيجة، أو وسيلة بغاية، فإذا أراد التقليل من شأن عمل يكفي أن يبرزه كنتيجة، وإذا أراد تضخيم أهميته وجب تقديمه كغاية»<sup>(3)</sup>، من أجل أن يعزّز من طاقتها الحجاجية، وتتخذ كذلك هذه العلاقة أشكالا أخرى من قبيل: رأي ودليل، أو موقف ودليل وغيرهما. وتلعب الروابط النصية الحجاجية دورا بارزا في تحديد العلاقة السببية بربط الأسباب بالنتائج، أو النتائج بالأسباب، والغايات بالوسائل، وهي روابط مدرجة للحجج من قبيل: "لذا"، و "ذلك"، و "بسبب"، و "لأن"، و "فإن"، و "الباء" وغيرها، وقد تغيب هذه الروابط فيكون التأثير أقوى وأكد.

وتأسست كثير من البنى الحجاجية على هذه العلاقة في المدونة، وأكثرها من قبيل "سبب ونتيجة" أو "نتيجة وسبب".

وأوضح ما يبرّر هذه العلاقة الرابط المعجمي الذي اشتقت منه، وهو كلمة "السبب" الوارد في قول الزمخشري: «فلما أُصِيبَ فِي مُسْتَهَلِّ شَهْرِ اللَّهِ الْأَصَمِّ الْوَاقِعَ فِي سَنَةِ ثِنِّي عَشْرَةَ بَعْدَ الْخَمْسِمِائَةِ بِالْمَرْضَةِ

(1) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 327

(2) - محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 130

(3) - المرجع نفسه، ص 327.

النَّاهِكَةُ التي سَمَّاهَا المُنْدِرَةَ كَانَتْ سَبَبَ إِنَابَتِهِ وَفَيْتَتَهُ»<sup>(1)</sup>. حيث ربط المتكلم هذا الخطاب السبب (المرضة الناهكة) بالنتيجة (الإنابة والفيئة)، بوساطة رابط لغوي شبه منطقي "سبب" ليؤكد الربط بين مكونات الخطاب وأجزائه، فإذا بالخطاب سبيكة لفظية ومعنوية تقوي فرص التأثير في المتلقي والاعتناع به، ويتقبله بقبول حسن.

ومن ذلك قوله: «لَمْ يَمْشِ إِلَيْكَ وَعَدُهُ المُرْغَبِ. إِلَّا واطِنًا عَقِبَهُ وَعَيْدُهُ المُرْهَبِ. قَدْ شَفَعَ هَذَا بِذَاكَ إِرَادَةَ تَنْشِيطِكَ لِكَسْبِ مَا يُزْلَفُ. وَتَنْشِيطِكَ عَنِ اكْتِسَابِ مَا يُتْلَفُ. مَعَ اقْتِصَاصِ مَا أُجْرَى عَلَيْهِ عُنَاةَ القُرُونِ. وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ مِنْ فَظَائِعِ الشُّؤُونِ. وَمَا رَكِبَ أَعْدَاءُ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَانِهِ. غَيْرَ مُكْتَرِثِينَ لِغُتُوهِمْ بِكِبْرِيَانِهِ. رَدَعُوهُمْ عَنِ المَنَاقِيرِ. فَقَطَعُوهُمْ بِالمَنَاشِيرِ. وَدَعَوُهُمْ إِلَى أَعْمَالِ الأَبْرَارِ. فَعَرَضُوهُمْ عَلَى السَّيْفِ وَحَرَقُوهُمْ بِالنَّارِ. ثُمَّ اصْطَبَرُوا لِوَجْهِ اللَّهِ وَثَبَّتُوا. وَمَا اسْتَكَانُوا هُمْ وَمَا أَحْبَبْتُوا»<sup>(2)</sup>. حَتَّى اشْتَرَوْا النِّعِيمَ الخَالِدَ فِي جَنَاتِ عَدْنِ. بِبُؤْسِ وَطَنُوا عَلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ. لِيُرِيكَ سُوءَ مُنْقَلَبِ المُعْتَدِينَ. وَيُبَصِّرَكَ حُسْنَ عَوَاقِبِ المُهْتَدِينَ»<sup>(3)</sup>.

والعلاقة السببية بارزة في هذا الخطاب، حيث رتب الزمخشري عن قرن الوعد بالوعيد نتيجة تتمثل في إرادة تحفيز المخاطب على كسب القربات ليتحقق الوعد، وتعويقه عن المهلكات ليتجنب الوعيد. ورتب عن نهي المؤمنين الطغاة عن المنكر، ودعوتهم إياهم إلى المعروف عقابا منهم غير مستحق، حيث قطعوهم بالمناشير، وضربوهم بالسيف، وحرقوهم بالنار. كما رتب عن اصطبار المؤمنين لوجه الله على أذى العتاة ثوابا عظيما وهو النعيم الخالد في جنات عدن. وفي الجدول الآتي تفصيل للعلاقات السببية التي أحكمت الخطاب. ويليه جدول يركز على العلاقات والروابط الحجاجية السببية التي أحكمت مفاصل الخطاب السابق.

سبب / وسيلة	الرابط	نتيجة / غاية
الوعد المرغب.	المفعول لأجله	كسب ما يزلف.
الوعيد المرهب.	المفعول لأجله	التشبيط عن اكتساب ما يتلف.
ردعوهم عن المناكير.	فاء السببية	قطعوهم بالمناشير.
دعوهم إلى عمل الأبرار.	فاء السببية	عرضوهم على السيف وقطعوهم بالنار.
اصطبروا لوجه الله.	حتى الغائية	اشتروا النعيم الخالد في جنات عدن.
اشتروا النعيم في جنات عدن	لام التعليل	يريك سوء منقلب المعتدين. ويصبرك حسن عواقب المهتدين.

(1) - مقامات الزمخشري (من خطبة الكتاب: ص 11)

(2) - أحببتوا من الإخبات: الخشوع.

(3) - مقامات الزمخشري (الفرقان: ص 191)

ويظهر هذا الجدول طائفة من أدوات الوصل السببي اللغوية وشبه المنطقية التي وظفها الزمخشري في الربط بين مفاصل القضايا في النص، كالمفعول لأجله، وفاء السببية، ولام التعليل، وحتى، وهي أغلب ما يبرر العلاقة السببية في المقامات.

وتكثيف الروابط السببية، لا يهدف إلى تحقيق التماسك النصي فحسب، وإنما يضطلع بوظيفة حجاجية، وهي استدراج المتلقي إلى الاقتناع بقضايها، وحمله على القبول بالنتائج، وتأكيد الأحداث وهذا جوهر العلاقة السببية الحجاجية.

ومثال هذا قول الزمخشري: «فَمَا هَذِهِ الْجَسَارَةُ<sup>(1)</sup> وَلَا جِسْرٌ إِلَى النَّجَاةِ إِلَّا أَنْ تَجْنِي. وَمَنْ غَرَسَ الْقِتَادَ<sup>(2)</sup> لَمْ يَجْنِ مِنْهُ الثَّمَرَ وَلَنْ يَجْنِي<sup>(3)</sup>».

حيث ربط المتكلم نتيجة الخطاب وهي نجاة المخاطب، بمسلكها وهو جني ثمار، وللرباط النصي السببي "إلا أن" دور في تبرير هذه النتيجة وتحديد العلاقة، وليس أقدر على الفعل في المتلقي وأدعى إلى حمله على الإذعان وقبوله أطروحة الكاتب بفكرة أو رأي أو طرح مبرر من ربط النتيجة بسببها. كما لا تخفى وظيفة الرابط في اتساق الخطاب.

بُدئ الخطاب بفعل كلامي غير مباشر قوته الإنجازية هي اللوم، ويتمثل الغرض الإنجازي في لوم المخاطب على جرأته على الله، وتأمله آمال الأبرار بعمل الأشرار.

وقوله: «فَذُو اللَّبِّ مَنْ جَعَلَ لِدَاتِهِ كَأَوْصَابِهِ<sup>(4)</sup>. وَسَوَى بَيْنَ حَالَتِي غُرْسِهِ وَمُصَابِهِ. وَلَمْ يَفْصَلْ بَيْنَ طَعْمِي أَرْبِهِ<sup>(5)</sup> وَصَابِهِ<sup>(6)</sup>. فَإِذَا اعْتَوْرَهُ<sup>(7)</sup> النَّعِيمُ وَالْبُوسُ. لَمْ يَعْتَقِبْ عَلَيْهِ التَّهْلُلُ وَالْعُبُوسُ. ذَلِكَ لِأَنَّهُ مُسَلِّمٌ لِمَجْتَلَبِ الْقَضَا. عَالِمٌ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ إِلَى انْقِضَا<sup>(8)</sup>».

يريد المخاطب أن يعرف السبب الذي جعل اللبيب يظل على حال واحدة متهللاً صلباً ثابتاً بالرغم من تداول المتناقضات عليه، فكان أن هذا اللبيب مسلم مؤمن بالقضاء، وأن كل نعيم وبؤس لا محالة إلى زوال، حيث ربط المخاطب النتيجة بالسبب بوساطة الرابط السببي "ذلك لأن"، وجعلها نتيجة

(1) - الجسارة: الجرأة.

(2) - القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر.

(3) - مقامات الزمخشري (الدعاء: ص 156).

(4) - الأوصاب: الآلام والأوجاع.

(5) - الأري: العسل.

(6) - الصاب: شجر مرّ له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المارة.

(7) - اعتور: تداول عليه.

(8) - مقامات الزمخشري (التسليم: ص 51).

طبيعية، وهذا ما يحمل المخاطب على قبولها والإذعان لها، ومن ثمّ الاقتناع بها، وبما يقصد إليه من ربط للأسباب بالنتائج بواسطة الربط السببي، يضاف إليه اعتماده على القيم الاجتماعية والدينية لإقناع المخاطب؛ إذ تعد الصلابة والإيمان بالقضاء والقدر قيمتين راسختين عند المسلم، إذ يُمكنانه من الصمود ويظل ثابتا لا يتزعزع مهما عُرض لأمواج الابتلاء، وعواصف البلاء، ويرى بيرلمان (Perlman) أن للقيم دورا فعالا في بناء الثقة بين المتحاورين، لذلك اعتبرها قواعد حجاجية.

وقوله: (( كَمَا اسْتَعَاثَ سَيِّدُ الصَّعَالِيكِ عَامِرُ بْنُ الْأَخْنَسِ. فَوَجَدَ كُلُّ مَنْ سَمِعَ صُرَاخَهُ كَالْأَخْرَسِ. عَلَى أَنَّ الْقَدَرَ يُعْمِي الْبَصَرَ وَالْبَصِيرَةَ. وَتُظْلَمُ مَعَهُ الْأَرَاءُ الْمُسْتَبِيرَةَ. وَإِلَّا فَلِمَ انْتَضَمَ السَّهْمُ قَلْبَ تَابُطٍ شَرًّا. وَكَانَ الَّذِي رَمَاهُ غُلَامًا غَرًّا. وَكَانَ ثَابِتٌ أَخُو فَهْمٍ. مَوْصُوفًا بِثَبَاتِ الْقَدَمِ. وَثِقَابَةِ الْفَهْمِ ))<sup>(1)</sup>.

وتبرز أهمية العلاقة الحجاجية السببية في هذا الخطاب في الربط بين الأسباب والنتائج، وربط المحجوج بالمحاجج، وتحاول إقناعه بحجة المتكلم وأطروحته، حين ربط النتيجة بالسبب، فردّ مقتل تابط شرا وهو البطل المغوار على يد غلام غرّ إلى القدر بالرغم من ثبات قدمه، وثقابة فهمه، وكان للرباط السببي و" وإلا فلم " دور في تحديد العلاقة السببية، وتحقيق الاتساق النصي.

وتغيب أحيانا روابط السبب، ومع ذلك يتأكد الاتساق، ويقوى الترابط بين أجزاء النص، دون الاعتماد على الروابط، ذلك أن المتلقي له دور إضافي في الكشف عن العلاقة السببية من خلال تركيز ذهن المخاطب عليها، على نحو ما جاء في قول الزمخشري: (( يَا أَبَا الْقَاسِمِ اقْنَعْ<sup>(2)</sup> مِنَ الْقَنَاعَةِ لَا مِنَ الْقَنُوعِ. تَسْتَعْنِ عَنْ كُلِّ مَعْطَاءٍ وَمَنْوعٍ ))<sup>(3)</sup>.

تبرز في هذا الخطاب العلاقة السببية واضحة، لما ربط الباث بين جزئي الخطاب برابط سببي ضمني، حين رتب عن اتصاف المخاطب بالقناعة استغناؤه عن غيره ممن يعطي أو يمنح حين يسأل، واتباع الباث التوجيه بالنتيجة المترتبة عنه مما يقوى به، ويكون أنجع وأقدر على الفعل في المخاطب، خاصة وأنّ الحجة مؤسسة لبنية الواقع. ومثلها قوله: (( يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا أَنْتَ وَإِنْ خَلَوْتَ وَحَدَكَ بِفَرِيدٍ. مَعَكَ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَجَنَابَتَيْكَ<sup>(4)</sup> حَفِظَانِ يَتَلَقَّيَانِ. لَا يَغْفُلَانِ وَلَا يَنْتَقِيَانِ ))<sup>(5)</sup>.

تؤلف العلاقة السببية بين جزأي الخطاب نتيجة / السبب دون اعتمادها على رابط سببي لفظي،

(1) - المصدر السابق (أيام العرب: ص275).

(2) - قنع يقنع قناعة: رضي بما قسم له. وقنع يقنع قنوعا: سأل وتذلل.

(3) - مقامات الزمخشري (القناعة: ص73).

(4) - جنابتيك: ناحيتيك (اليمن والشمال).

(5) - مقامات الزمخشري (المراقبة: ص178).

يؤكد المخاطب للمتلقي أنه ليس فريدا وإن خلا وحده، ولكي يقنعه بالنتيجة بَرّرها بذكر السبب الذي ينفي خلوته ووحدته وهو وجود معية الله والملكين الحفيظين. وهنا تبرز حجة أخرى لكنها استدلالية ذات قيمة سلطوية وهي مقولة دينية مما يؤمن به قطبا التواصل (( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تَوْسُوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ))<sup>(1)</sup>. وهي من الحجج المؤسسة لبنية الواقع<sup>(2)</sup>.

ومما غيب منها الزمخشري الرابط قوله: (( يَا أَبَا الْقَاسِمِ بَسَأْتُ<sup>(3)</sup> نَفْسُكَ بِالشَّهَوَاتِ فَاْفْطَمَهَا عَنْ هَذَا الْبُسُوْسِ. وَلَا تُطْعَمَهَا إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَارَةٌ بِالسُّوْسِ. تَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ يَكُوْنَ مَسْكُنُهَا دَارًا قَوْرَاءَ. وَسَكْنُهَا مَهَاءَ حَوْرَاءَ... ))<sup>(4)</sup>. تتمثل القوة الإنجازية للفعل الكلامي في وجوب فطم النفس عن اعتيادها على الشهوات، فوظف الرابط السببي " الفاء " لوصل السبب (بُسُوْسُ النَّفْسِ بِالشَّهَوَاتِ) بالنتيجة (افطمها)، لكن الشاهد هنا هو الوصل دون رابط حين نهي المتكلم المخاطب عن طاعة النفس بسبب أنها أماراة بالسوء، فبالرغم من غياب الرابط مقاليا إلا أن العلاقة السببية بارزة بين أجزاء الخطاب، وهو مسعى من المخاطب من أجل التأثير في المتلقي وإقناعه، ولم يكتف المخاطب بهذه الآلية بل عززها بثان، هو كون الحجة مؤسسة لبنية الواقع ( Les arguments qui fondent la structure du réel )، خاصة وأنها حجة ذات قيمة سلطوية مستمدة من عقيدة المتلقي، كما في الآية القرآنية (( وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَارَةٌ بِالسُّوْسِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ))<sup>(5)</sup>، وتعدّ هذه الحجة تبريرية استدلالية كذلك.

ثم عزز بثالث، وهو التفصيل بعد الإجمال الذي يعد من الحجج شبه المنطقية ويعني (( تقسيم كل إلى أجزائه المكونة له، وبيان أن حكما ما ينطبق على كل جزء من أجزائه، ينطبق على الكل ))<sup>(6)</sup>، حيث جاءت المقامة كلها تفصيلا للسوء الذي تأمر به النفس في أولها وهو الداعي إلى الأمر بعدم طاعتها.

وقد تتخذ العلاقة السببية صورا أخرى لا تعتمد على ثنائية سبب/ نتيجة، وإنما تعتمد على ثنائية غاية / وسيلة<sup>(7)</sup> إذا كانت الغاية المقصودة هي التي تتحكم في الوسيلة التي يتوسل المتكلم من أجل تحقيق أهدافه ومقاصده. ومثال ذلك قول الزمخشري: (( وَاعْلَمْنَا أَنَّ الْعِلْمَ إِذَا يُتَعَلَّمُ. لِأَنَّهُ إِلَى الْعَمَلِ سُلْمٌ. كَمَا أَنَّ

(1) - (سورة ق: الآيتان 16، 17)

(2) - انظر محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 131.

(3) - بسأ: اعتاد، أَلَف.

(4) - مقامات الزمخشري (العفة: ص 97).

(5) - (سورة يوسف: الآية 53).

(6) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 207

(7) - المرجع نفسه، ص 330

الْعَمَلِ إِلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ ذَرِيعَةً. وَلَوْلَاهُمَا مَا عَلِمَ عِلْمٌ وَلَا شُرِعَتْ شَرِيعَةٌ»<sup>(1)</sup>، إذا حدد المخاطب غايات وأهدافا وأراد أن يقنع المتلقي بها، فلزم أن يُسجّر لها آليات ووسائل تحقيقها، على أن يقع التركيز على الغاية، واشتمل الخطاب على ثنائية غاية / وسيلة، تتناسب معها في الخطاب الثنائيات العمل / العلم، ثواب الله / العمل، العمل و ثواب الله / العلم والشريعة. فالعلاقة الحجاجية السببية الغائية هي ما جمعت بين أجزاء الخطاب.

ومثله قوله: « يَا أَبَا الْقَاسِمِ اجْعَلْ كِتَابَ اللَّهِ نَجِيكَ فَنِعْمَ النَّجِي ... وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمُتِينِ. وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَبِينِ. بِهِ أَحْيَا رُسُومَ الشَّرْعِ الطَّامِسَةِ. وَجَلَّى ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ الدَّامِسَةِ »<sup>(2)</sup>.

ربط المخاطب بين أجزاء الخطاب بحجة سببية تقوم على ثنائية وسيلة / غاية، لكي يُقنع المتلقي بالقرآن الكريم فيجعله نجيا وهو هدفه وغايته من المقامة، وجعله وسيلة لما لا يمكن له أن يردده وينكره وهو علمه بأنه الوسيلة التي أحيا بها الشرائع الطامسة، وأضاء أنوار الإيمان في ظلمات الكفر الدامسة، وألف بين مكونات الخطاب بوساطة «باء الاستعانة التي تدخل على المستعان به أي الوساطة التي يحصل بها الفعل»<sup>(3)</sup>، وبذلك يحتج بالحجة السببية الغائية لكي يقنع بالوسيلة التي لا يمكن أن تتحقق الغاية دونها. كما توظف العلاقة الحجاجية السببية لتبرير موقف على نحو ما في قول الزمخشري: «وَلَا تَقْتَدِ بِبَنِي أَيِّمِكَ فَإِنَّهُمْ رَعَاعٌ»<sup>(4)</sup>. قَدْ لَأَمُّوا صَدْعَ<sup>(5)</sup> دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُمْ شَعَاعٌ<sup>(6)</sup>. والمقتدي بهؤلاء أطف منهم في البرِّ مكيالا. وَأَخَفُّ فِي الْخَيْرِ مِثْقَالًا»<sup>(7)</sup>.

يشتمل هذا الخطاب على فعل إنجازي ممثلا في النهي، وقوته الإنجازية هي تحذير المخاطب من الاقتداء بمعاصريه ثم قام بتبرير موقفه منهم، بأنهم سفلة الناس، رقعوا دنياهم بتمزيق دينهم، والمقتدي بهم يكون برّه أخفّ وخيره أقلّ منهم. كما لا يخفى دور الرابط السببي "فإن" في ربط الموقف بالمبررات والأدلة من أجل إقناع المخاطب، وتحقيق الاتساق النصي، وتحديد شكل العلاقة التي مكونات النص. وعموما تعد العلاقة السببية ذات طاقة حجاجية هامة، ومن أنجع العلاقات وأكثرها تأثيرا في المتلقي، لأن العلاقة بين أجزاء الخطاب - الأسباب والنتائج، والغايات والوسائل، والمواقف والأدلة - هي

(1) - مقامات الزمخشري (العمل: ص 127).

(2) - المصدر نفسه (الفرقان: ص 187).

(3) - مصطفى غلاييني، جامع الدروس العربية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط 18، 1986، ج 3، ص 169.

(4) - رعاع: سفلة الناس.

(5) - لأم الصدع: ضمه وشدّه فالتأم.

(6) - الشعاع: المتفرق.

(7) - مقامات الزمخشري (العزم: ص 213).

علاقة استدلالية تبريرية تفسيرية تثير الاهتمام، وتلفت الانتباه، وتيسر القبول والاقناع، فيأتي المخاطب مدعنا مسلماً للأفكار، والمواقف، والأحكام، كما تظل هذه العلاقة من أقدر العلاقات على ربط أجزاء الكلام بتوظيف الروابط أو دونها، فيتشكل الخطاب الحجاجي المتسق المنسجم.

### 3. علاقة الاقتضاء:

ويُعدّ الاقتضاء (Implicature) من أهم المفاهيم التي يقوم عليها التداولية. وهو مأخوذ في اللغة من (ق ض ي) يقضي قضاء أي: حكم. وقد يكون بمعنى الأداء والإنهاء<sup>(1)</sup>، وهو مصدر اقتضى، ويستعمله الأصوليون بمعنى الدلالة. يقولون: يقتضي الأمر الوجوب، أي: يدل عليه. ويستعملونه أيضاً بمعنى الطلب<sup>(2)</sup>. واقتضى الدين: طلبه، واقتضى أمراً: استلزمه<sup>(3)</sup>. واقتضى الحال كذا: استوجبه.

ويعني في الاصطلاح « استلزام القول لمعنى تابع للمعنى العباري من غير توسط دليل، ومع توقف فائدة القول عليه<sup>(4)</sup> ». فهو شيء يعنيه المتكلم، ولا يمثل جزءاً من المعنى الحرفي للجملة، أو قل: « إن الاقتضاء لدى المتكلم هو المعنى غير المباشر: معنى شيء عن طريق شيء آخر<sup>(5)</sup> ».

ويراه غرايس مصطلحاً عاماً يشمل كل أنواع الاستدلالات التداولية التي يمكن الوقوف عليها، فالقضى عامة هو القسم من المعنى غير الطبيعي (meaning-nn) الذي يقابل المنطوق أو المقول (What is said) المحدد بشروط صدق العبارات<sup>(6)</sup>. ويميز بين نوعين من الاقتضاء:

الاقتضاء الاتفاقي: يتولد عن طريق المعنى الاتفاقي للكلمات المنطوقة. مثل:

س. أحمد مريض، ومن ثم يتعين عليه أن يستريح.

ج. عن كون أحمد مريضاً يستلزم أنه لا بد من أن يستريح.

الاقتضاء التخاطبي: هو شيء يلزم عن الجملة، ولكنه ليس بالمعنى المنطقي الدقيق، فالأقتضاء شيء لا تقرره الجملة تقريراً واضحاً ولكنها توحى به فقط، إنه ليس نتيجة منطقية، وإنما نتيجة غير منطقية بمعنى ما، وهذا لا يعني أن القول تعسفي أو اعتباطي.

(1) - محمد الرازي، مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، دار الحديث، ص 540.

(2) - علي الجرجاني، التعريفات، هامش ص 62.

(3) - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص 743.

(4) - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 108.

(5) - صلاح إسماعيل، النظرية القصدية في المعنى عند غرايس. حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، دار المنظومة، حولية 25،

عدد 230، 2005، ص 80. <http://search.mandumah.com/Record/476849>

(6) - عادل فاخوري، الاقتضاء في التداول اللساني، مجلة عالم الفكر، الكويت مجاد 20، عدد 3، 1989، ص 164.



س. هل تستطيع الذهاب إلى حديقة الحيوان؟

ج. يتعين عليّ أن أستذكر دروسي<sup>(1)</sup>.

ومّا تقدم يتبين لنا أنّ الاقتضاء هو معنى ضمني يوحي به المتكلم، ويقصده دون أن يتلفظ به، أو المضمون الذي تبلغه الجملة بكيفية غير صريحة.

وهناك مقتضيات تخاطبيّة عامة منوطة بمقولة الكمية، تحصل بين عبارات تتدرج على نحو سُلمي (scalar) من الأكثر إلى الأقل، بحيث أن السابق يستلزم اللاحق، و«يقتضي الأقل سلب الأكثر»<sup>(2)</sup>. فالزوج (كل، بعض) مثلاً يقتضي إثبات البعض سلب الكل، كقول الزمخشري: «وَاسْتَفْزَزُ بِهَا فِي الْأَحْيَانِ. بِمَثَلِ مَا يُؤَثِّرُ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ»<sup>(3)</sup>. فيقتضي قول المخاطب «ما يؤثر عن بعض الصالحين» «ما لا يؤثر عن كل الصالحين». والاستدلال التداولي على ذلك هو أن المخاطب ملتزم بقاعدة الكمية حين أثبت «استفزز بالنفس بما يؤثر عن بعض الصالحين»، فلا يسمح لنفسه بخرق هذه القاعدة فيثبت العبارة الأقوى، لأنه يفترض تعاون المتكلم معه، وبالتالي عدم رغبته بخرق قاعدة الكمية دون تنبيهه إلى ذلك، فهو يعتبر أن المتكلم يريد إبلاغه أنه ليس في حالة تجيز له إثبات العبارة الأقوى، بل إنه يعرف إن ذلك الإثبات غير صادق.

ومن المقتضيات التخاطبية أيضاً < 1، 2، 3... ن >. كما في قول الزمخشري: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِكُلِّ مُهَانٍ مُتَّهَنٍ. فِي قَبْضَةِ الدُّلِّ مُرْتَهَنٍ. كُلِّ مُتَهَالِكٍ عَلَى حُبِّ هَذِهِ اِهْلُوكِ. مُنْقَطِعٍ إِلَى أَحَدٍ هَوْلَاءِ المُلُوكِ. يَدِينُ لَهُ وَيَخْضَعُ. وَيَخْبُ فِي طَاعَتِهِ وَيَضَعُ...»<sup>(4)</sup>.

لما كان المتكلم يفترض أن المخاطب متعاون معه، لم يشأ أن يخرق قاعدة الكمية، ويثبت العبارة الأقوى وهي: "انقطع إلى كل الملوك" لكنه أثبت ما يعرف علم المخاطب بصدقه وهو "انقطع إلى بعض الملوك" الذي يقتضي تخاطبياً "لم ينقطع إلى كل الملوك"

ومنه أيضاً الزوج < أكثر، أقل > ويمثله قول الزمخشري: «وَإِنْ افْتَرَشَتْ ذِرَاعَيْهَا عَلَى صَدْرِهَا المَنِيةَ. أَنْ تُرَاقِبَ عِنْدَ مُقَارَنَةِ الرِّبِيَّةِ أَقْلَ النَّاسِ وَأَدْوَنَهُمْ. وَأَدَلَّ الخَلْقِ وَأَهْوَنَهُمْ، وَأَعْجَزَهُمْ عَنِ التَّمَرُّسِ بِكَ. وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ التَّعَرُّضِ لَكَ»<sup>(5)</sup>

(1) - صلاح اسماعيل، النظرية القصدية عند غرايس، ص 81.

(2) - عادل فاخوري، الاقتضاء في التداول اللساني، ص 164

(3) - مقامات الزمخشري (التصير: ص 139)

(4) - المصدر نفسه (العبادة، ص 131).

(5) - المصدر نفسه (المراقبة، ص 179).

يقتضي الزوج السابق إثبات الأقل سلب الأكثر؛ فإن قول المتكلم " أن تراقب أقل الناس وأدوهم عند مقارنة الرّيبة " يقتضي تخاطبياً " ألا تراقب أكثر الناس وأعلاهم عند مقارنة الرّيبة". ذلك أن المتكلم لم يرد إثبات العبارة الأقوى أي مراقبة أكثر الناس عند مقارنة الريبة، لأنه يعتقد أن المخاطب يفترض أنه متعاون معه، بل ويعرف أن ذلك الإثبات غير صادق، لذلك لم يخالف قاعدة الكمية حين قضى بمراقبة أقل الناس عند الريبة وأدوهم.

وأما علاقة الاقتضاء الحجاجية فهي التي تؤلف بين أجزاء خطابية بينها تلازم شبه حتمي، حيث يستدعي أحدها الآخر بمجرد التلفظ بالأول، الذي يكون حجة تترتب عنها نتيجتها، أو يكفي أن تذكر النتيجة فتعرف سببها، و«هي علاقة حجاجية تصل الحجة بالنتيجة مثلها مثل العلاقات الحجاجية الأخرى، لكنها تتميز عن كل علاقة أخرى بأنها تجعل الحجة تقتضي تلك النتيجة اقتضاء، والعكس صحيح؛ بحيث تغدو العلاقة ضرباً من التلازم بين الحجة والنتيجة، وهذا ما لا توفره سائر العلاقات حتى السببية منها، وفي هذا النوع من الخطاب أي: الخطاب الحجاجي يجتهد المخاطب في إضفاء نوع من الحتمية على العلاقة بين الحجة والنتيجة بحيث تغدو ضرباً من التلازم الحتمي، فتقتضي الأولى الثانية، والثانية تستدعي الأولى»<sup>(1)</sup>، وخير ما يمثل هذه العلاقة ما يصطلح عليها النحاة بالجملة الشرطية التي تقوم على فعلين متلازمين لا استقلال لأحدهما عن الآخر؛ أولهما شرط لتعليق الحكم عليه، وثانيهما جواب أو جزاء، لأنه مترتب على الشرط، كما ترتب الجواب على السؤال، والجزء على العمل.

وتعد أدوات الشرط أقدر الروابط على توفير هذا النوع من الصّلات حين يوظفها المخاطب، بسبب التحويل الذي تحدّثه الأداة على جملي الشرط والجواب عند دخولها عليهما فيتحوّلان إلى وحدة شكلية كالاسم المفرد. ولهذا أكّد كثير من اللغويين على وحدة جملة الشرط مثل ابن جني وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري ومهدي المخزومي وعباس حسن وغيرهم؛ حيث ينظر عبد القاهر الجرجاني (471هـ) إلى الشرط على أنه كل لا يتجزأ، ولا ينشطر: « ووزانُ هذا أن الشرط والجزء جملتان، ولكننا نقول: إن حكمها حكم جملة واحدة، من حيث دخل الكلام معنى يربط إحداهما بالأخرى، حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد»<sup>(2)</sup>.

ويعزّز الزمخشري (538هـ) هذا الرأي في معرض حديثه عن جملة القسم، والمقسم عليه، يقول: «ومن شأن الجملتين أن تنزلا منزلة جملة واحدة كجملي الشرط والجزء»<sup>(3)</sup>، وحذا مهدي المخزومي حذو

(1) - انظر سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 335

(2) - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 111.

(3) - الزمخشري، المفصل في علم العربية، ص 293.

القدمي، واعتبر جملة الشرط وحدة لغوية فكرية لا تقبل التجزئ إلا من منظار منطقي تحليلي: « ليس هناك في الاعتبارات اللغوية جملة اسمها جملة الشرط، وأخرى اسمها جملة الجواب، وإنما هناك جملة واحدة هي جملة الشرط »<sup>(1)</sup>.

وتتولد الوظيفة الحجاجية للاقتضاء من قيام الجملة الشرطية على التلازم والتعلق السببي بين الشرط والجواب، حيث «إنها توفر علاقة اقتضاء شكلي بين السبب والنتيجة قادرة على إقناع المتلقي وحمله على الإذعان»<sup>(2)</sup>.

واعتمد الزمخشري بشكل مكثف على جملة الشرط مما يعكس جهدا واضحا في الاستدلال وحرصا جليا على الإقناع، على نحو قوله: « يا أبا القاسم من أهان نفسه لرّبه فهو مُكْرَمٌ لها غير مُهين. ومَنْ امتَهَن<sup>(3)</sup> في طاعة الله فذاك عزيزٌ غير مُهين »<sup>(4)</sup>.

يعقد المخاطب بالشرط علاقة اقتضاء بين سبب ونتيجة، حين جعل إهانة نفسه وإذلالها في سبيل الله سببا لتحقيق سموها وكرامتها، وفي جانب آخر، رتب النتيجة على السبب، حين رتب عزة النفس على امتها في طاعة الله، وتبدو حجاجية الجملتين الشرطيتين بتوفيرهما علاقة اقتضاء شكلي بين السبب الذي تمثله الشرط « من أهان نفسه لرّبه » والنتيجة التي تمثلها جملة الجواب « فهو مكرم لها غير مهين » في مستوى أول، وفي مستوى ثان تشكل جملة الشرط والجواب حجة لنتيجة « إهانة النفس وامتها لغير الله ذل » ولمح المخاطب إلى هذه النتيجة عند تعريضه بالمخاطب وإنكاره عليه انقطاعه إلى ملك يتغي عنه العزة والكرامة بإهانة نفسه وابتذال عرضه « ألا أخبرك بكل مهان ممتهن. في قبضة الذل مرتهن. كل متهاك على حب هذه اهلوك. منقطع إلى أحد هؤلاء الملوك. يدين له ويخضع ويخب في طاعته ويضع»<sup>(5)</sup>.

وتتجلى هذه العلاقة أيضا، في قوله: « يا أبا القاسم قاتل الله بني هذه الأيام فإنهم طلائع الشُرور والآثام. لقاءهم لقاء. وحوارهم حوار. ونقاهم<sup>(6)</sup> نقار. ووفائهم نفاق. تُسَلَقُ بالسنتهم الأعراس. كما تُرَشَقُ بِسِهَامِهِم الأعراس. تجمع الندوة كبارهم فلا يتواصون بالصبر. بل يتناصون<sup>(7)</sup> على الصدر<sup>(8)</sup>... إن

(1) - مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص 286.

(2) - انظر سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 335

(3) - امتهن: ابتذل.

(4) - مقامات الزمخشري (العبادة: ص 131)

(5) - المصدر نفسه (العبادة: ص 131)

(6) - نقاهم نقار: نقاهم: مناقلتهم الكلام. نقار: ينقر بعضهم بعضا بالغيب.

(7) - يتناصون: يأخذ بعضهم بناصية بعض.

(8) - الصدر: على صدر المجلس.

آنْسُوكَ حَمَدَتِ الْوَحْشَةَ، وَإِنْ جَالَسُوكَ وَدِدْتَ الْوَحْدَةَ»<sup>(1)</sup>.

والمقصود من الخطاب هو جملتا الشرط « إن آنسوك حمدت الوحشة» و « إن جالسوك وددت

الوحدة» حيث عقد المخاطب علاقة اقتضاء في مستويين:

في مستوى أول يقتضي السبب الذي تمثله جملتا الشرط " آنسوك " و "جالسوك" نتيجة تمثلها جملتا الجواب " حمدت الوحشة " و " وددت الوحدة"، وعندما نُظَر المقامة بالعنوان " العزلة " نجد تلازما حتميا بين سبب ونتيجة يقتضيها اقتضاء.

وفي مستوى ثان تقتضي الحجة التي تمثلها جملة الشرط بعد أن انصهرت أجزاءها في وحدة شكلية فكرية، هي الجملة « إن آنسوك حمدت الوحشة»، و « إن جالسوك وددت الوحدة» نتيجة يلمح إليها المخاطب وهي وجوب اعتزال الناس، وهكذا تشكل جملة الشرط طاقة حجاجية يسعى المخاطب من خلالها إلى إقناع السامع، وحملة على الإذعان للنتيجة التي توصل إليها، ويضاف إلى هذا الوظيفة النصية التي يؤديها الرابط الشرطي الاقتضائي " إن"، والرابط السببي "الفاء" في التأليف بين ثنائية سبب نتيجة أو نتيجة سبب، و تحقيق الاتساق النصي، حين لجأ المخاطب إلى أتبع النتيجة المتقدمة وهي دعاؤه على بني أيامه، ومن ثمَّ وجوب اعتزالهم، بذكر المبررات والحجج بعدها.

ن: الدعوة إلى اعتزال الناس.

ح	حيث: ن نتيجة.
1ح	ح حجة
2ح	
3ح	
4ح	
5ح	
6ح	
7ح	
8ح	

ومثلها قوله: «كَلِمًا تَبَرَّجَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا وَتَزَيَّنَتْ بِأَبْهَجِ زِينَتِهَا. وَتَحَلَّتْ بِأَبْهَى حِلْيَتِهَا. مُفْتَخِرَةً بِوَشِيِّهَا.

(1) - مقامات الزمخشري (العزلة: ص 90-92).

مُتَبَخَّرَةٌ فِي مَشِيهَا. حَطَّارَةٌ (1) بِيَدَيْهَا مُتَثَنِيَةٌ (2). بَأَمِّ السُّرُورِ مُتَكَنِّيَةٌ. عَضُّوا دُونَ رُؤْيَتِهَا أَجْفَانَهُمْ. وَضَرَبُوا عَلَى اللَّبَاتِ أَذْقَانَهُمْ. لَمْ يَذْهَبْ عَنْهُمْ أَهْمًا أُمَّ الْغُرُورِ. لَا أُمَّ السُّرُورِ. وَأَهْمًا إِذَا تَبَخَّرْتَ حَيْرَتٌ. وَإِذَا خَطَرْتَ أَخْطَرْتَ (3). مَتَى بَرَزْتَ مُتَبَرِّجَةً. تَرَكْتَ الْأَحْشَاءَ مُتَضَرِّجَةً. وَمَتَى تَزَيَّنْتَ وَتَحَلَّتْ. تَبَيَّنَتْ شُرُورُهَا وَتَجَلَّتْ (4) اعتمد المخاطب على الروابط الحجاجية الشرطية المختلفة "كلما، إذا، متى" وبشكل مكثف يعكس جهدا استدلاليا واضحا، وحرصا جليا على إقناع المخاطب، وحمله على الإذعان؛ حين عقد علاقة اقتضاء وتلازم حتمي بين أسباب ونتائج؛ حيث تقتضي الأسباب - وهي جمل الشرط - النتائج - وهي جمل الجواب - اقتضاء، (تبرج الدنيا/ غض الأبصار)، و(تبخترت/ حيرت)، و(خطرت/ أخطرت)، و(برزت متبرجة/ تركت الأحشاء متضرجة)، و(تزينت/ تبينت شرورها).

كما أنَّ للروابط الشرطية "كلما، إذا، متى" دورا في سبك جمل الشرط وجمل الجواب في وحدات شكلية وفكرية تعدُّ حُججا لنتيجة يريد أن يقنع المخاطب بها، وهي "معرفة عباد الله لحقيقة الدنيا".

#### ن: معرفة عباد الله لحقيقة الدنيا وعدم اغترارهم بها

ح1	كلما تبرجت لهم الدنيا عفوا واستحيوا.
ح2	هي أم الغرور لا أم السرور.
ح3	إذا تبخترت حيرت.
ح4	إذا خطرت أخطرت.
ح5	متى برزت متبرجة تركت الأحشاء متضرجة.
ح6	متى تزينت وتحلت. تبينت شرورها وتجلت.

مما تقدم يمكن القول: إنَّ الجملة الشرطية تكسب الخطاب نوعا من الاقتضاء والتلازم الذي يفرض على المتلقي القبول والاقتناع بها، وبهذا نجد أن هذه العلاقة لها دور كبير في حمل المتلقي على الاقتناع بما توفره من ضرورة واقتضاء بقبول النتيجة والحجة، وهذا ما يجعلها من العلاقات المهمة في عملية التحاجج لقيامها على التلازم والاقتضاء، وما يوفره من سلطة في الخطاب.

(1) - خطر بيديه: ردهما إلى الأمام وإلى الوراء في مشيه.

(2) - متثنية: متمايلة، متبخرة.

(3) - أخطرت: عرضت للخطر.

(4) - مقامات الزمخشري (الإسوة: ص172).

#### 4. علاقة الاستنتاج:

الاستنتاج في جوهره عملية عقلية تسعى إلى البحث عن تبرير منطقي لتفسير الأحداث لجعل النتائج موافقة للمقدمات. وهو مأخوذ من الفعل الثلاثي نتج النتاج: والنتاج اسم يجمع وضع جميع البهائم؛ قال بعضهم: هو في الناقة والفرس، وهو فيما سوى ذلك نتج، والأول أصح؛ وقيل النتاج في جميع الدواب، والولاد في الغنم، وإذا ولي الرجل ناقة ماخضا ونتاجها حتى تضع، قيل: نتجها نتجا.

يقال: نتجت الناقة أنتجها إذا وليت نتاجها، فأنا ناتج، وهي منتوجة<sup>(1)</sup>. والولد نتاج ونتيجة، واستنتج الشيء حاول نتاجه واستنباطه، يقال استنتج الحكم من أدلته<sup>(2)</sup>.

استنتج الماخض: طلب منه أن يعتني بها حتى تضع. واستنتج النتيجة: استخرجها من المقدمات<sup>(3)</sup>.

وعموماً تدلّ مادة (ن ت ج) ومزیداتها على معنى الزيادة، واستخراج ما خفي.

ويشير في الاصطلاح إلى استنتاج النتائج من المقدمات، وهو شركة بين المتكلم والمتلقي؛ حيث يعتمد المتكلم إلى مقدمات مصحوبة بنتائجها، أو يدع المتلقي يستنتج النتائج بنفسه، وهذا أوقع في نفسه وأشد تأثيراً، وأدعى للإقناع والافتناع بفكرة أو أطروحته.

ويقوم على الانتقال من المقدمات إلى النتائج في القضايا ذات اللزوم الطبيعي أو المنطقي بطريقة استدلالية منطقية باستخدام المهارات العقلية. وقد حدّه أندريه لالاند (A. Lalland) بأنه «عملية إجرائية يتم بواسطتها الاستنتاج الصارم لما يلزم عن قضية، أو عدة قضايا، بوصفها مقدمات، والانتقال إلى قضية يكون لزومها الضروري بموجب أحكام منطقية»<sup>(4)</sup>، إن استخلاص المحصّلات والنتائج من حجة أو مقدمة أو سبب يتم وفق تنظيم وتسلسل «يكشف عن الجهد الاستنباطي عند الشخص المحاجج من خلال استعماله الأفعال التالية: ينصح أن، ينتج عن، يمكن أن... يمثل الاستنباط شكلاً للسببية، حيث يكون الحد الأخير خلاصة بمثابة نتيجة، إنه حركة فكرية تنقلنا من المبدأ إلى نتائجه أو تطبيقاته، إنه النزول من العام إلى الخاص إنه في الواقع»<sup>(5)</sup>.

وأما العلاقة الاستنتاجية فهي علاقة استدلالية شبه منطقية، يولّد فيها المتكلم النتيجة من الحجة،

(1) - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، (مادة ن ت ج).

(2) - أخطرت: عرّضت للخطر.

(3) - خليل الجر، لاروس المعجم العربي الحديث، مكتبة لاروس، باريس، مادة استنتج.

(4) - أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة أحمد خليل، تحقيق أحمد عويدات، منشورات عويدات، لبنان، ط2، 2001،

ص246، 247.

(5) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص339.

ويستنبط من المقدمة النتيجة، أو النتيجة من المقدمة، ثم يؤلف بينهما، وهذا يعني الانتقال من حجة إلى نتيجة بطريقة استدلالية استنباطية، (( حيث تقود الحجة إلى النتيجة وفق تسلسل منطقي إذا كنا في ميدان المنطق الخالص، وشبه منطقي إذا دخلنا باب الحجاج، أي أنّ المتكلم يستنتج النتيجة من حجة يقدمها، فإذا بنتيجة الخطاب متولدة من رحم الدليل أو البرهان ناشئة عنه عائدة إليه))<sup>(1)</sup>.

ويوظف المخاطب هذه العلاقة للربط بين مفاصل النص وعناصر الكلام، والتأليف بين المقدمات والنتائج، وبين الحجج والنتائج، وبين الأحداث والنتائج، ويستعمل روابط مدرجة للنتائج مثل: ونتيجة ذلك، إذن، ولهذا، وبالتالي، وغيرها. يبرزها أحيانا، ويغييها وفي كثير من الأحيان. وأما النتائج فهي صريحة في معظم الخطاب، بسبب طبيعة الخطاب، لأن المتكلم يحرص على ألا يفوت المتلقي التوجيه بإضمار النتائج، لكن أقوى النتائج تأثيرا، ما استنبطها المتلقي بنفسه من مقدمات يعرضها المخاطب عليه، نحو قول الزمخشري: ((وَلَا تَسْتَوْفِي الرُّكْبَ فِي أَوْطَانِ سَلَمَى وَمَنَازِلِ سَعْدَى مُقْتَرِحًا عَلَيْهِمْ أَنْ يُسَاعِدُوكَ بِالْقُلُوبِ وَالْعُيُونِ. وَيُسَاعِفُوكَ بِبَذْلِ ذَخَائِرِ الشُّؤْنِ<sup>(2)</sup>. مُتْرَدِّدًا فِي الْعِرَاصِ وَالْمَلَاعِبِ. مُتَلَدِّدًا<sup>(3)</sup> فِي مَسَاحِبِ أَذْيَالِ الْكَوَاعِبِ. تَقُولُ أَيْنَ أَيَّامُنَا بِحُزْوَى. وَمَنْ لَنَا بِلِيَالِي الْعَقِيقِ وَاللَّوَى<sup>(4)</sup>). وتستنتج نتيجة الخطاب من حجة يسوقها المتكلم، إذ تُعدّ الحجة هادية المتلقي إلى النتيجة المقصودة، خاصة وأن الخطاب عبارة عن مقدمات لاستنتاج لم يصح بنتيجته، ويمثّل في جوهره دعوة المتلقي إلى استخلاص النتيجة بمعونة القرائن الدالة على الوجهة الصحيحة في الاستنتاج، فقد نهى الزمخشري المخاطب عن الوقوف على الأطلال وبكاء الأحبة واستبكاء الراحلين طالبا استعطافهم ومواساتهم، دون أن يذكر مبررات النهي مما يوقع المتلقي في حيرة، تدفعه إلى التشكيك في جدوى الوقوف على الأطلال، ليقوده الشك إلى الإيقان بعدم تلك الجدوى، فتتغرس النتيجة في نفسه، ويكون ذلك أدعى لاقتناعه بها، ومن ثمّ يبطل عاداته في الوقوف على الأطلال. ومثله قوله: (( يا أبا القاسم أفلاكُ مُسَخَّرَةٌ. وَكَوَاكِبُ مُسَيَّرَةٌ. تَطْلُعُ حِينًا وَحِينًا تَغْرُبُ. وَيَنَائِي بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ وَيَقْرُبُ. وَقَمَرٌ فِي مَنَازِلِهِ يَعْومُ. وَشَمْسٌ فِي دَوْرَانِهَا تَدُومُ فَمَا تَقُومُ. وَسَحَابٌ تُنَشِّئُهَا الْقُبُولُ وَتُلْقِيهَا. وَتَمْرِي أَخْلَافُهَا الْجَنُوبُ وَتَمْسُحُهَا. وَأَرْضٌ مُدَلَّلَةٌ لِرَاكِبِيهَا. مُقْتَلَةٌ لِلْمَشْيِ فِي مَنَاقِبِهَا مُمَهَّدَةٌ مُوَطَّدَةٌ. بِالرَّاسِيَاتِ مُوْتَدَةٌ. وَبِحِرَانٍ أَحَدُهُمَا بِالْآخِرِ مَمْرُوجٌ. وَحَجَرٌ صَلْدٌ يَنْشَقُّ عَنِ الْمَاءِ الْفُرَاتِ. وَيَنْفَلِقُ عَنِ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ. وَحَبٌّ يَنْشَأُ مِنْهُ عُرُوقٌ وَعِيدَانٌ. وَنَوَى يَنْبُتُ مِنْهُ جَبَّارٌ وَعِيدَانٌ. وَنُطْفَةٌ هِيَ بَعْدَ تِسْعَةِ إِنْسَانٍ. لَهُ قَلْبٌ وَبَصَرٌ

(1) - المرجع السابق، ص 339.

(2) - ذخائر الشؤون: الدموع.

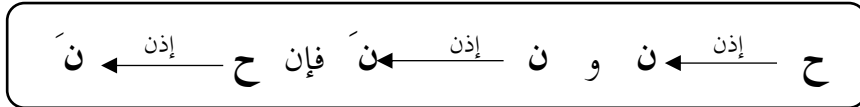
(3) - متلدا: من تلدد إذا تحيّر، وههنا من لديدئ الوادي: وهما جانباها. وقيل: تلفت يمينا وشمالا.

(4) - مقامات الزمخشري (الطاعة: ص 60).

ولسان. في كلِّ جارحةٍ منه غرائبُ حُكمٍ يعجزُ اللسانُ الدَّليقُ أنْ يَحصرَها ويُحصيَها. وَيَعزُّ عَلَى الفَهِمِ الدَّقِيقِ أَنْ يَبْلُغَ كُنْهَها وَيَسْتَقْصِيَهَا. مَا هَذِهِ إِلَّا دَلَالٌ عَلَى أَنَّ وِرَاءَهَا حَكِيمًا خَيْرًا قَدِيرًا. عَلِيمًا خَيْرًا. تَنْصَرِفُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ عَلَى قَضَائِهِ وَمَشِيئَتِهِ. وَيَتَمَشَّى أَمْرُهَا عَلَى حَسَبِ إِمضَائِهِ وَتَمَشِّيَتِهِ. وَهِيَ مُنْقَادَةٌ مُدْعِنَةٌ لِتَقْدِيرِهِ وَتَكْوِينِهِ. كَانَتْ أَنْوَاعًا وَأَلْوَانًا بَتْنُويعِهِ وَتَلْوِينِهِ. قَدْ اسْتَأْتَرَ هُوَ بِالْأَوْلِيَّةِ وَالْقَدَمِ. وَهَذِهِ كُلُّهَا مُحَدَّثَاتٌ مِنْ عَدَمٍ. فَلَيْمَالُ الْيَقِينِ صَدْرُكَ بِلَا مَخَالَجَةِ رَبِّبٍ. وَلَا تَزَلْ عَنِ الْإِيمَانِ بِعَالَمِ الْغَيْبِ»<sup>(1)</sup>.

بدأ المتكلم باستدراج المتلقي وتوجيهه إلى النتيجة المقصودة المرصودة من الخطاب، فبدأه بالحجج المادية، فدعاه إلى التأمل في الموجودات كالأفلاك والكواكب والرياح والسحب والأرض والنبات والبحرين وخلق الإنسان، وكل هذه خاضعة لمشيئة الله وتقديره، وهذه الأمور العظام كلها أوجدها الحكيم القدير عز وجل من عدم، فإذا تمكن من إقناعه بالعلاقة السببية الحجاجية عن طريق ربط النتيجة بالدليل، وإذا اقتنع بقدرة الله على ما في عالم الوجود الموجد من العدم، تيسر عليه استنباط النتيجة المقصودة، وهي الإيمان بالبعث بعد الموت، وإيجاده مما هو موجود بعد أن أوجده من عدم، قال رسول الله ﷺ: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، مِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(2)</sup>، والإيمان بالغيبيات الأخرى. حيث يستدرج المتكلم المخاطب إلى النتيجة ليستنتجها بنفسه، وهي طريقه إلى المتلقي ليحمله على الاقتناع.

وهناك استنتاج منطقي خالص يقتضي تحديدا للأطراف وتحريرا لنتيجة، فلا مجال للمسكوت عنه إذا كان المجال منطقيًا خالصًا، في حين يمكن إغفال بعض الأطراف والاكتفاء بالنتيجة أو العكس، عندما يتعلق الأمر بالاستدلال الطبيعي، أما في الحجاج فلا حاجة للمتكلم إلى مقدمة وسطى، فيمكنه الانتقال سريعًا من المقدمة إلى نتيجة أساسية<sup>(3)</sup>. ويمكن تمثيلها رياضيا بهذا الشكل:



يقول الزمخشري: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا يُتَعَلَّمُ. لِأَنَّهُ إِلَى الْعَمَلِ سُلْمٌ، كَمَا أَنَّ الْعَمَلَ إِلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ ذَرِيعَةٌ»<sup>(4)</sup>.  
وَلَوْلَاهُمَا مَا عُلِمَ عِلْمٌ، وَلَا شُرِعَتْ شَرِيعَةٌ»<sup>(5)</sup>.

(1) - المصدر السابق (التوحيد: ص 128 - 130).

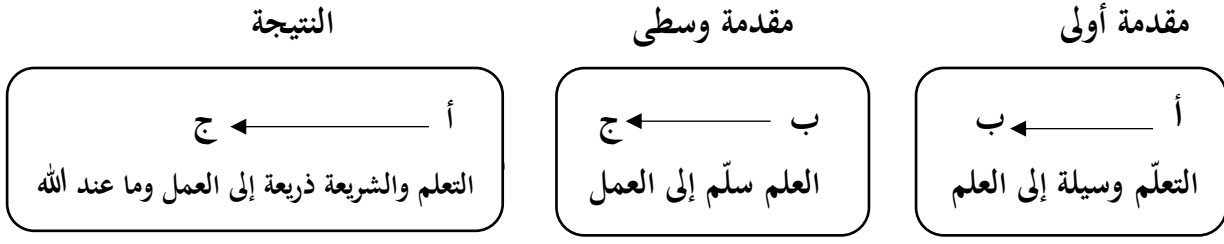
(2) - رواه البخاري ومسلم.

(3) - انظر سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 343.

(4) - الذريعة: الوسيلة. وتذرعت إلى فلان: توصلت إليه.

(5) - مقامات الزمخشري (العمل: ص 127).



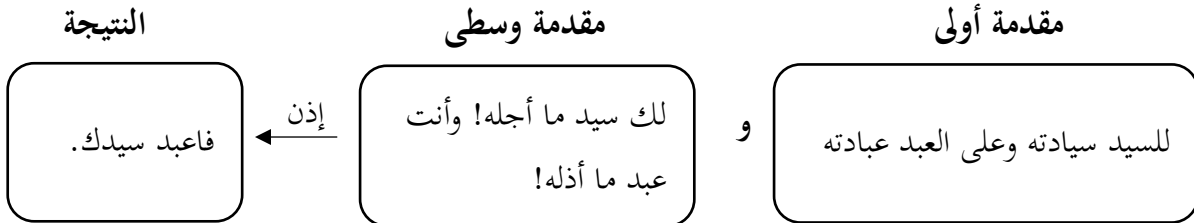


ورسم المتكلم للمتلقّي مسارا استنباطيا لبلوغ النتيجة الأساسية المقصودة، وهي "التعلّم والشريعة ذريعة إلى العمل وما عند الله" من خلال مقدمتين:

**الأولى:** هي التعلّم وسيلة إلى العلم.

**الوسطى:** هي العلم سلّم إلى العمل

حيث ربط النتيجة بالمقدمتين السابقتين، وأفسح المجال إلى المتلقّي كي يستنتجها بنفسه، وحينئذ يفتنع بها ويتقبلها ويدعن لها، ويسلّم بها، لأنه يعتقد أنها نتائج حتمية كونها مبنية على قواعد منطقية استدلالية يقبلها العقل، وبهذا يكون للعلاقة الحجاجية الاستنتاجية دور كبير في إقناع المتلقّي، لاعتمادها على المنطق. كما أنّ لها أهمية كبرى في تحقيق اتساق الخطاب وانسجامه من خلال الربط المنطقي بين المقدمات والنتائج. ويمكن أن يذكر المخاطب النتيجة المراد استدراج المتلقّي إليها، كقوله: (( يَا أَبَا الْقَاسِمِ لِلسَيِّدِ سَيَادَتُهُ. وَعَلَى الْعَبْدِ عِبَادَتُهُ. وَلَكَ سَيِّدٌ مَا أَجَلُهُ. وَأَنْتَ عَبْدٌ مَا أَذَلُّهُ. فَاعْبُدْ سَيِّدَكَ الَّذِي كُلُّ مَنْ يُسَوِّدُ فَلَهُ يَسْجُدُ. وَكُلُّ مَنْ يَعْبُدُ فَإِيَّاهُ يَعْبُدُ ))<sup>(1)</sup>.



قاد المتكلم المتلقّي إلى النتيجة عن طريق الاستدراج والاستنتاج شبه المنطقي، من خلال مقدمتين يؤمن المتلقّي بصدقهما؛ فإذا كان للسيد سيادته وعلى العبد عبادته، وأنت عبد ما أذله ولك سيد ما أجله، إذن، فاعبد سيدك"، حيث لا يمكن للمتلقّي أن يرفض هذه النتيجة، لأنها بنت الاستنتاج العقلي والتسلسل المنطقي، واستنتاجها بهذه الطريقة يحتم على المتلقّي قبولها والإذعان لها. ويمكن أن نرمز لها:

$$\text{Si } A \xrightarrow{\text{donc}} R \quad \text{إذا كان ح} \leftarrow \text{إذن ن.}$$

يقول الزمخشري: (( يا أبا القاسم تأمل بيت الناظم:

(1) - المصدر السابق (الإخلاص: ص 118).

تَوَدُّ عَدَوِيَّ ثُمَّ تَرَعُمُ أَنِّي صَدِيقُكَ لَيْسَ النَّوْكَ عَنْكَ بِعَارِبٍ (1).  
وَأَنَّ مُوَادَّ مُتَضَادِّكَ. مُحَادُّكَ وَلَيْسَ بِمُوَادِّكَ. وَعَلِمَكَ أَنَّ مَنِ ادَّعَى مِقَّةً (2) أَخِيهِ وَهُوَ يَرْتَكِنُ إِلَى مَاقِيهِ. فَقَدْ  
سَجَلَ بِسَفَهِهِ وَحَمَاقَتِهِ. حَيْثُ صَرَحَ بِأَنَّ النَّوْكَ (3) عَنْهُ لَيْسَ بِعَارِبٍ (4).

وتقود الحجة "ح" إلى النتيجة "ن" وفق تسلسل شبه منطقي، حيث يستنتج المتكلم النتيجة من حجة يقدمها، فإذا بالنتيجة متولدة من رحم الدليل أو البرهان ناشئة عنه وعائدة إليه (5). وهكذا تتولد النتائج من الحجج:

تود عدوي ← إذن أنت عدوي (مضمرة).

تود مضادّي ← إذن أنت مُحَادِّي (مظهرة).

تدعي مقّة أخيك وتركن إلى ماقته ← إذن أنت تمقته (مضمرة).

تقوم العلاقة الحجاجية الاستنتاجية في هذا الخطاب على عرض المتكلم حججا ومقدمات لنتائج بعضها مظهر، وبعضها الآخر مضمّر ضمّن لها خطابه، ثم أوكل إلى المخاطب أمر استنتاجها بنفسه. فإذا تمكّن من ذلك استقرت النتيجة في نفسه واقتنع بها، ومن ثمّ تتحقق مقصدية المتكلم وحجاجية الخطاب. وتتحقق هذه العلاقة: إذا كان "ح" إذن، "ن"، كما في قول الزمخشري: «عَيْشٌ هَيَّ عَنْ قَلِيلٍ يَتَنَغَّصُ. ظِلٌّ ظَلِيلٌ عَمَّا قَلِيلٍ يَتَقَلَّصُ. مُلْكٌ ثَابِتٌ الْأَطْنَابِ يُقَوِّضُ تَقْوِيضَ الْحِيَامِ. وَنَعِيمٌ دَائِمٌ التَّسْكَابِ يُقْلِعُ إِقْلَاعَ الْعَمَامِ» (6). يقود المتكلم المتلقي بالحجة "ح" إلى النتيجة "ن"

ن: أظلف (7) نفسك.

نعيم دائم التسكاب يقلع إقلاع العمام.	ح1
ملك ثابت الأطناب يقوض تقويض الحيام.	ح2
ظل ظليل عما قليل يتقلص.	ح3
عيش هني عن قليل يتنغص.	ح4

(1) - عَزَبَ يَعْرُبُ عَنْهُ كَذَا: إِذَا بَعَدَ عَنْهُ وَخَفِيَ.

(2) - مِقَّةٌ: وَمَقٌّ بِمَقٍّ مِقَّةٌ وَوَمَقًّا هِ إِذَا أَحَبَّهُ.

(3) - النَّوْكَ كُ الْجَهْلُ وَالْعِي وَالْعَجْزُ وَالْحَمَقُ.

(4) - مقامات الزمخشري (الولاية: ص 110، 111)

(5) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 339.

(6) - مقامات الزمخشري (الظلف: ص 88).

(7) - الظلف: منع النفس عما تشتهي.

حيث ربط المخاطب النتيجة بمقدمات وحجج واقعية لا تخفى على المتلقي الخبير، ليسهل عليه اشتقاق النتيجة واستنتاجها بالاعتماد على المقدمات والقرائن السياقية والمقامية، وعندئذ يغير سلوكه، ويظلف نفسه عن الشهوات.

ومن القضايا التي أضرمت المتكلم نتيجتها، ثم أوكل إلى المتلقي أمر استنتاجها اعتماداً على مقدمتين قوله: (( مَنْ وَقَفَ لِأَحَدِهِمْ (أهل الحيف) وَقَفَةً عَلَى رُبْعٍ. فَلْيَغْسِلْ قَدَمَيْهِ سَبْعِينَ فَضْلاً عَنْ سَبْعٍ ))<sup>(1)</sup>.

المقدمة الأولى: إذا ولغ الكلب في إناء غُسِّل سبعا ← إذن الكلب نجس.

المقدمة الثانية: يجب على الواقف لسلطان يغسل قدميه سبعين ← إذن الوقوف لسلطان نجاسة.

النتيجة المضمرة: الوقوف للسلطين للامتداح والتكسب أنجس مما ولغ فيه كلب.

ويقدم المتكلم أحياناً النتيجة على المقدمة والحجة إذا كانت تمثل مقصدية المخاطب، وأهم من الحجة، فتكون العلاقة "ن" باعتبار "ح". مثل قول الزمخشري: (( طَلَّقِ الْقَائِلَةَ بَمَلٍّ فِيهَا أَنَا غَدَارَةٌ غَرَارَةٌ. حَتَّالَةٌ (2) حَتَّارَةٌ (3) ))<sup>(4)</sup>.

يوجه المتكلم المخاطب إلى أن يطلق الدنيا وهي النتيجة، للحجة المقدمة المتأخرة، وهي إعلانها بأنها غدارة غرارة حتالة حتارة. ثم إيرادها بذكر صفاتها الدالة على المبالغة، وهذه الصياغة لا تدع مجالاً للمخاطب إلا أن يفك ارتباطه بها. والذات إذا ذكرت بالصفة كان ذلك أقوى وأدعى لأن يوقع بالنفس ويؤثر فيها تأثيراً بليغاً. وهذه سمة الخطاب الحجاجية.

وتكون كذلك على الشكل: بما أن "ن" إذن، "ح"، والنتيجة مظهرة. مثل قول الزمخشري: (( يا أبا القاسم أزل نفسك عن صحبة الناس واعزها. وائت فرعة<sup>(5)</sup> من فراع الجبل فانزلها. ولذ ببعض الكهوف والغيران. بعيداً من الرفقاء والجيران... قاتل الله بني هذه الأيام فإنهم طلائع الشرور والآثام لقاهم لقاء. وحوارهم غوار. ونقاهم نقار. ووافقهم نفاق ))<sup>(6)</sup>.

لما أراد المتكلم أن يضحّم نتيجة الخطاب ويبرزها للمخاطب مجلوة مكشوفة، ويستوقفه عندها منبهاً إلى أهميتها، قدّمها على الحجة؛ حيث قدّم النتيجة (( أزل نفسك عن صحبة الناس واعزها )) على الحجة

(1) - مقامات الزمخشري، (اجتناب الظلمة: ص 150).

(2) - حتالة: من الختل وهو الخداع.

(3) - حتارة: من الختر وهو أقبح الغدر.

(4) - مقامات الزمخشري (الزاد: 30).

(5) - الفرعة: المكان المرتفع من الجبل.

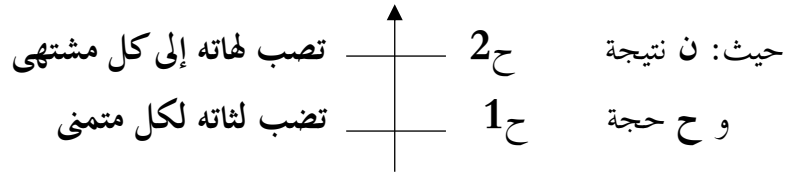
(6) - مقامات الزمخشري (العزلة: ص 90-92).

«إِنَّهُمْ طَلَّاعُ الشُّرُورِ وَالْآثَامِ»، ولم يكتف بالاحتجاج للنتيجة، بل دعم الحجة بالتفسير لقائهم لقاءً. وحوارهم غَوَارٍ. وَنَقَّاهُمْ نِقَارًا. وَوَفَّاهُمْ نِفَاقًا من أجل تركيز الحجة في الذهن، ويقوى داعي القبول بالنتيجة، فيلوذ بالعزلة ليحرز السلامة من الخلق.

وتكون أيضا على الشكل: بما أن "ح" إذن، "ن" والنتيجة مضمرة. كما في قول الزمخشري: «إِنَّ آنْسُوكَ حَمِدَتِ الْوَحْشَةَ، وَإِنْ جَالَسُوكَ وَدِدَتِ الْوَحْدَةَ»<sup>(1)</sup>. بما أن المتكلم يحذر المخاطب من بني أيامه، وإنه سيفضل الوحشة والوحدة إن لم يجد الأُنس إلا عندهم، وهذا دليل على صلاح المخاطب وورعه وتقواه، وفي المقابل فساد بني أيامه وهي النتيجة المضمرة في الخطاب.

هذا وقد يوظف المتكلم رابط الاستنتاج "إذن" ليدل صراحة على العلاقة الاستنتاجية كما في مقامة القناعة: «شَقِيَّتِي تَصَبُّ<sup>(2)</sup> إِلَى كُلِّ مُشْتَهَى لِهَاتِهِ. وَتَضِبُّ<sup>(3)</sup> لِكُلِّ مُتَمَنَّى لِنَاتِهِ. فَلَيْسَ لَهُ إِذْنٌ حَدُّ يَنْتَهِي إِلَى مَطْلَبِهِ. وَلَا أَمَدَ يَتَوَقَّفُ وَرَاءَ مَرْغَبِهِ»<sup>(4)</sup>.

ن: ليس له حد ينتهي عليه .



رتب المتكلم النتيجة "ليس له حد ينتهي عليه" على الحجَّتَيْنِ السابقتين اللتين تقودان إلى نتيجة حتمية لازمة لهما، ولعب لفظ العموم "كل" دورا في بلورة النتيجة؛ فالذي تَصَبُّ لهاته إلى كل مشتهي، وتَضِبُّ لثاته إلى كل متمنى، لا يتوقع منه أن يكون له حدُّ ينتهي إليه، ولعب الرابط المدرج للنتيجة "إذن" دورا بارزا في تحديد العلاقة الحجاجية الاستنتاجية وتحقيق الاتساق النصي.

## 5. علاقة التناقض وعدم الاتفاق:

يعدّ التناقض من القضايا التي استقطبت التداوليين في مجال تحليل الخطاب، باعتباره مفارقة وسمة من السمات البارزة التي يقوم عليها الخطاب، إلا أنها أصبحت في الدرس التداولي من الحجج والعلاقات التي يعتمد عليها المحاجج في التأثير في المتلقي والسعي إلى إقناعه.

وينحدر معجميا التناقض معجميا من النقص: وهو إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء، وفي

(1) - مقامات الزمخشري (العزلة: ص 92).

(2) - صبَّ يصبُّ صبابة إليه: كان شديد الحب له، عظيم الشوق إليه.

(3) - ضَبَّ يَضِبُّ ضبيبا: سال سيلانا، ذلك أن المشتهي للشيء يتحلَّب له فوه.

(4) - مقامات الزمخشري (القناعة: ص 75، 76).

الصحيح: النقض نقض البناء والحبل والعهد، أي: غيره. والتَّقْض ضد الإبرام، نقضه يَنْقُضُه نقضا وانتَقَضَ وتناقض، والنقض: اسم البناء المنقوض إذا هدم. وفي حديث صوم التطوع: فناقضني وناقضته، هي مفاعلة من نقض البناء وهو هدمه، أي يَنْقُضُ قولي وأنقض قوله وأراد به المراجعة والمرادّة، وناقضه في الشيء مناقضة وناقضا: خالفه... والمناقضة في القول كأن يتكلم بما يتناقض معناه، والمناقضة في الشعر: ينقض الشاعرُ الآخرُ ما قاله الأوّل، ونقيضك الذي يخالفك<sup>(1)</sup>. فالنقض إذن، هو إفساد ما بُني أو عقد أو أبرم في أيّ صناعة مادية أو معنوية.

ويشير التناقض اصطلاحاً إلى نوع حجاجي يعمد فيه المتكلم إلى «إثبات الشيء، ثم القيام لاحقاً بنفيه في الخطاب نفسه لغفلة أو جهل، وهو ما يمثل تناقضا حجاجيا صارخا، لأن الشيء لا يمكن أن يكون ولا يكون في الوقت نفسه»<sup>(2)</sup>، والمتكلم في سعيه لمحاكاة المخاطب وإقناعه بأطروحاته قد ينقلب السحر عليه، ويتحول محجوجاً بخطابه، ذلك أن للغة عاملها الخاص وسلطتها المستقلة وفاعليتها الحجاجية التي قد ترتد على المتكلم بها؛ إذ كثيراً ما يدحض المرء نفسه من خلال كلامه، ويوظف ملفوظات للاستعانة بها في خطابه بغرض تقويته ودعمه وشحنه، فإذا بها مداخل للخصم الخطابى يتوسل بها لرد كلامه ودحض أطروحاته، وتكذيب قضاياه وصرفه عن بلوغ أغراضه وتحقيق مصالحه وأهدافه<sup>(3)</sup>، وذلك بسبب ما يكون في اللغة الطبيعية من خصائص تُقدّر المتلقي على تأويل الخطاب على نحو مناقض لقصد المتكلم.

وأما علاقة التناقض أو عدم الاتفاق الحجاجية فهي «علاقة ذات خلفية منطقية واضحة، إذ ندفع أمراً بإثبات تناقضه مع نتيجة للخطاب، وإن كنا لا نستطيع الحديث عن تناقض شكلي خالص في الحجاج من قبيل أسود / أبيض»<sup>(4)</sup>، فهو نادر جداً في الحجاج، قلماً يلتجئ المخاطب في الخطاب الحجاجي إلى الاستدلال بالخلف ( Par l'absurd ) ولكنه يحتفل احتفالاً واضحاً بعدم الاتفاق ( Incompatibilité ) إذ «يدفع الحجاج أطروحة ما مبينا أنها لا تتفق مع أخرى»<sup>(5)</sup>.

ويجد المتمعن في قول الزمخشري: «وكم من عظة ضرب بها وجهك فوجدتها أبرد من جمد. ووجدتكم أقسى من جلمد؟ لم تُعْتَصِرْ مِنْ جَبِينِكَ رَشْحَةٌ مِنْ حَيَاءٍ. وَلَا مِنْ وَجْتِكَ قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ. عَلَيَّ أَنْ الْحَجَرَ

(1) - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، (مادة: ن ق ض).

(2) - محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 199.

(3) - عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط1، 2009،

(4) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص344.

(5) - المرجع نفسه، ص 192.

الصَّلْدَ قَدْ بِيضٌ<sup>(1)</sup>. وَالصَّخْرَةَ الصَّمَاءَ رُبَّمَا تَنْضُ<sup>(2)</sup> أنَّ مخاطبه قد تلقى مواعظ سير السواني، لكنها لم تلامس سويداء قلبه، ولم تنضح من جبينه رشحة من ماء الحياة، فكان قلبه أقسى من صماء الحجارة، ولكي يثبت المتكلم هذه النتيجة لجأ إلى الاستدلال بما هو أقسى من القلب، وهو الحجر الصلْد والصخر الأَصْم الذي لا تكون منه حياة، ثم عاد ونقض ذلك، واستحضر حجة تخالف الرأي الأول، وجاء بها بعد رابط الاستدراك "على أنَّ" فالحجر قد يرشح منه الماء، وتنبت منه الحياة، فقد أتى المخاطب بحجة تقود إلى النتيجة المقصودة « قلب المخاطب أقسى من صماء الحجارة »، ولكن ما يربط الحجة والنتيجة هي علاقة التناقض وعدم الاتفاق، ذلك أن المتكلم لما أراد إثبات قسوة قلب المتكلم وقحّته ساق حجة مناقضة للنتيجة، وهي أن الحجارة الصماء قد تلين وتبعث منها الحياة، ويؤدي رابط الاستدراك "على أنَّ" كغيره من روابط الحجاج وظيفتين مزدوجتين: الأولى حجاجية حين يسهم في تحديد علاقة التناقض الحجاجية، والثانية نصية تحقيق التماسك بين الحجة والنتيجة.

وقد حكمت هذه العلاقة كذلك قول الزمخشري: « إِنَّمَا أَوْلَاكَ مَا أَوْلَاكَ لِنَتَّظِرَ فِي نِعْمَائِهِ مُفَكِّرًا، وَتَتَوَقَّرُ<sup>(3)</sup> عَلَى مُحَمَّدِهِ مُتَشَكِّرًا، فَخَالَفْتَ عَمَّا أَرَادَكَ عَلَيْهِ. وَنَبَذْتَ مَا أَهَابَ بَكَ إِلَيْهِ<sup>(4)</sup>، مُخْلِدًا إِلَى الشَّيْطَانِ وَنَزَعَاتِهِ، مُقْبِلًا عَلَى الشَّبَابِ وَنَزَقَاتِهِ<sup>(5)</sup>، مَاثِلًا عَلَى الطَّيْشِ وَنَزَوَاتِهِ، مُوَعِّلًا فِي التَّصَابِي وَنَشَوَاتِهِ، تَسُدُّ مَسَامِعَكَ ذُونَ مَنْ يَتَنَصَّحُ، وَتَوَدُّ لَوْ رُمِيَ بَعِيًّا قَلَا يَتَفَصَّحُ<sup>(6)</sup> ».

وهب الله تعالى المخاطب عقلا ليفكر في نعمه ظاهرة وباطنه، ويقابل الإنعام بالحمد والشكران، لكنه خالف ذلك وقابله بالجحود والكفران، وأكد ذلك بعدة حجج، وهي:

ح1. نبذ ما أهاب له به.

ح2. الإخلاق إلا الشيطان ونزغاته.

ح3. الإقبال على الشباب ونزقاته.

ح4. الميل إلى الطيش.

ح5. الإيغال في التصابي.

ح6. عدم قبول النصيحة.

(1) \_ بضّ الماء ونضّ: سال ورشح قليلا.

(2) \_ مقامات الزمخشري، (النصح: 176).

(3) \_ توقّر على الأمر: أكتب على الأمر وصرف إليه همته.

(4) \_ نبذت: أهملت ما دعاك إليه.

(5) \_ نزع الشباب: طيشه وخفّته.

(6) \_ مقامات الزمخشري (الشكر: ص 167) .

أراد الله المخاطب على الشكر والطاعة، وهذه هي النتيجة المقصودة من الخطاب، لكنه خالفه عما أَرادَ عليه، وأراد المتكلم أن يصرف المخاطب إليها، فأثبت له أنها تعارض هذه النتيجة بتكثيف الحجج حول النقيض ليرعوي ويعود عن غيِّه إلى رشده، ولإثبات هذا التعارض، وظَّف الرابطة اللغوية الصريح الدال على التناقض وعدم الاتفاق، وهو " فخالفت " من أجل تحديد هوية العلاقة بين الحجة والنتيجة، وتحقيق التماسك النصي.

وتبرَّر هذه العلاقة كذلك الأداة "إلا" التي تدلُّ في الأصل على أن ما بعدها يخالف ما قبلها في الحكم، لكنها تستعمل أحيانا في إيهام التناقض، فيما يسمِّيه البديعيون تأكيد المدح بما يشبه الذم، وتأكيد الذم بما يشبه المدح، و«هما بنيتان يجتمع فيهما التخالف السطحي والتوافق العميق، وتوهمان بالربط المنعكس؛ حيث يكون مدح يعقبه أداة استثناء يوهم بإيراد ذم بعدها، لكن ما يأتي يؤكد المدح السابق عليها، أو يكون ذم تعقبه أداة استثناء توهم بإيراد مدح بعدها، لكن يأتي ما يؤكد الذم السابق عليها»<sup>(1)</sup> ونلاحظ في إنتاجية هذه البنية داخليا أنها تدخل منطقة الدليل العقلي؛ إذ إنَّها مثل دعوى الشيء بيينة وبرهان، حيث يستدل المتكلم على إثبات أو نفي صفة في الممدوح أو المذموم بتعليق نقيضها عنه، خلافا لما يوهم به السطح.

ومَّا يوهم الذم وهو مدح قول الزمخشري: «هُوَ (القرآن) بَحْرٌ لِحْيٍ لَا تَزَالُ تَزْحَرُ لِحْجُهُ...عَذْبٌ فُرَاتٌ إِلَّا أَنَّهُ مُلِيٌّ بِكُلِّ لَوْلُؤَةٍ يَتِيْمَةٌ قَدَّافٌ لِكُلِّ جَوْهَرَةٍ كَرِيْمَةٍ»<sup>(2)</sup>، إذا تلفظ المخاطب في سياق المدح بـ "إلا" أوهم السامع أن الآتي ذمٌّ، لكنه جاء مدح « أَنَّهُ مُلِيٌّ بِكُلِّ لَوْلُؤَةٍ يَتِيْمَةٌ قَدَّافٌ لِكُلِّ جَوْهَرَةٍ كَرِيْمَةٍ»، فيزول توهم السامع بهذه المفاجأة، ويجد أن المتكلم خدعه فلم يذكر عيبا بل أكد المدح الأول في صورة توهم الذم، ومن هنا جاء التوكيد ما فيه من تراكم الأمداح في أبهى قالب، وأنقى منظر. وتأكيد المدح بمثابة دعوى أقيم عليها البرهان، إذ كأنه استدل على اتصاف القرآن بأحسن الصفات بتعليق وجود نقيضها.

ومَّا يشبه المدح وهو ذمُّ قول الزمخشري: «أَطَعْتَ الشَّيْطَانَ. وَكَلَّا وَلَا بُرْهَانَ. إِلَّا أَنَّكَ أَخَذْتَ الْعَاجِلَ بِمَا عَزَّ وَهَانَ. وَلَا مَعْدِرَةَ إِلَّا أَنَّكَ دُقْتَ طَعْمَ الْإِتْرَافِ فَاسْتَطَبْتَهُ. وَدَعَاكَ دَاعِي الْإِسْرَافِ فَاسْتَجَبْتَهُ»<sup>(3)</sup>. فقد أثبت المتكلم للمخاطب صفة ذم وهي "طاعة الشيطان"، ثم أتبعها بما يوهم المدح، لكنه يفاجئه بما يروعه فيذكر له صفة ذم أخرى "أخذه العاجل بما عزَّ وهان"، وهي تأكيد للزجر التالي

(1) - جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص 154

(2) - مقامات الزمخشري (الفرقان : ص 187 )

(3) - المصدر نفسه (الدعاء : ص 157 )

للصفة الأولى وبرهان على أن المخاطب لا حسنة له، واستدلال على أنه مطيع للشيطان بتعليق وجود نقيضها وهو طاعة الرحمن. أو أن المخاطب لم يجد له حسنة تذكر فملاً الفراغ بعد إلاً بسيئة أخرى، وهذا من تمام الذم. فهذان إذن، أسلوبان استداليان حجاجيان يوظفهما المتكلم من أجل التأثير في المخاطب وإقناعه بوجوب إصلاح نفسه.

ومن الروابط الدالة على التناقض أيضا "بينما"، واستعمله الزمخشري مضمرا في قوله: «لَا تَمْنَعُ خَيْرَكَ لِأَنَّهُ نَذْرٌ. وَلَا دَرَكٌ لِأَنَّهُ مَزْرٌ»<sup>(1)</sup>. فَرُبَّمَا تَنَاوَلْتَ الْمُعْتَرَّ بِالْحَفْنَةِ. وَأَنْتَ أَفْضَلُ مِنَ الْقَارِي فِي الْجَفْنَةِ. وَرُبَّمَا رَضَخْتَ الْيَتِيمَ بِالْقَيْرَاطِ وَأَطْعَمْتَهُ الْفِدْرَةَ<sup>(2)</sup>. وَأَنْتَ أَكْرَمُ مِمَّنْ عَقَرَ وَمِمَّنْ سَبَقَ الْبَدْرَةَ<sup>(3)</sup>، أراد الزمخشري أن يصم مخاطبه بالبخل والشح، وهي نتيجة الخطاب فلم يجد ما يثبتها به إلا حجاجا تتعارض مع النتيجة وتناقضها، وهي: أنه أفضل من القاري في الجفنة، وأكرم ممَّنْ عقر، وممَّنْ سبق البدره، ويفترض أن يكون سخيا ندياً لأنه أغنى الأغنياء، لكنه سلك سلوك الفقراء البخلاء. ويؤلف الرابط "بينما" بين النتيجة والحجة، ويحكم العلاقة بينهما:

- ربّما تناولت المعتزّ بالجفنة بينما أنت أفضل من القاري في الجفنة.

- ربّما تناولت اليتيم بالقيراط وأطعمته الفدره بينما أنت أكرم ممَّنْ عقر، وممَّنْ سبق البدره.

وقبل التحوّل عن هذه العلاقة، يجدر بنا الحديث عن مجموعة من الروابط النصية الحجاجية التي تؤدي دورا مزدوجا في الخطاب، وذلك بتأليفها بين النفي والاثبات، وجمعها على صعيد واحد، والقيام بوظيفة حجاجية على صعيد آخر، وهي "لكن" و"بل" و"حتى"، وهي روابط تشترك جميعها في إثبات القطع مع ما سبقها، أو نفيه من جهة وإثبات ما لحقها وتأكيد من جهة ثانية، فحضورها في موضع معين من النص إنما يشي بالخلاف، ويؤكد أن العلاقة الحجاجية المعتمدة إنما هي علاقة عدم الاتفاق<sup>(4)</sup>

وهي متى توسطت دليلين - باعتبارها رابطا حجاجيا- «جعلت الدليل الوارد بعدها أقوى مما قبلها، وتكون له الغلبة المطلقة، بحيث يمكن من توجيه القول بمجمله إلى النتيجة التي يقصد إليها المتكلم»<sup>(5)</sup>.

وقدم ديكرو (Ducrot) وأنسكومبر (J.C Anscombe) حالات استعمال ( Mais )، ولما

يقابلها من الأدوات والروابط في اللغات الأخرى ومنها المقابل العربي « لكن » و« بل » في الحجاج

(1) - مزر: قليل قليل.

(2) - الفدره: القطعة من اللحم

(3) - مقامات الزمخشري، (التصدق: ص163)

(4) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص347.

(5) - انظر المرجع نفسه، ص347.



كما يلي: «إن التلفظ بأقوال من نمط (+ ح) لكن (- ح) أو العكس يستلزم أمرين اثنين:

1. يقدم المتكلم (+ ح) و (- ح) باعتبارهما حجتين، الحجة الأولى موجهة نحو نتيجة معينة "ن"، والحجة الثانية موجهة نحو النتيجة المضادة لها، أي: "لا - ن".

2. ويقدم الحجة الثانية باعتبارها الحجة الأقوى، وباعتبارها توجه القول أو الخطاب برمته نحو نتيجة الخطاب»<sup>(1)</sup>. ومما قاله النحاة العرب عن "لكن": «إنها للاستدراك<sup>(2)</sup> توسطها بين كلامين متغايرين نفياً وإيجاباً فتستدرك بها النفي بالإيجاب، والإيجاب بالنفي، وذلك قولك: ما جاءني زيد لكن عمراً جاءني، وجاءني زيد لكن عمراً لم يجيء»<sup>(3)</sup>، فالرابط "لكن" إذا دخل على جملة وجب اعتباره حرف ابتداء واستدراك معاً، وليس عاطفاً، ويقتضي أن يكون ما بعد "لكن" مخالفاً لما قبلها في الحكم المعنوي<sup>(4)</sup>، بالإضافة إلى هذا فهي تفيد التوكيد، قال ابن عصفور في المقرَّب: «إِنَّ، وَأَنَّ، وَلَكِنَّ، ومعناها التوكيد»<sup>(5)</sup>.

وقلما نعثر في الخطاب الحجاجي على تناقض حادٍّ من قبيل أبيض / أسود، وإنما أقصى ما يمكن الحديث عنه هو عدم الاتفاق<sup>(6)</sup>، أو تناقض شكلي من وحي روابط التناقض، لذلك لا نعثر على تضاد صريح بين نتيجتين، ومن ثم بين حجتين، ومن ثم يكون الاختلاف في سلم الأولى أو سلم القيمة إيجاباً أو سلباً؛ فنعثر على أشياء من قبيل السوء والأسوأ، والحسن والأحسن وهكذا. وأغلب العلاقات الحجاجية التناقضية بين الحجج والنتائج تقوم على عدم الاتفاق، ومثاله قول الزمخشري: «أَغِثْ مَنْ اسْتَعَاثَ بِكَ وَإِنْ كَانَ أَعْدَى عِدَاكَ. وَأَذْرِعْهُمْ<sup>(7)</sup> سَعِيًّا فِي رَدَاكَ. وَأَبْعِضْ مَا فَعَلَهُ فَتِيًّا هُدَيْلٍ بَعْمُرٍ بِنِ عَاصِيَةَ. لَوْ شَاءَا لَمْنَا عَلَيْهِ وَجَزَا النَّاصِيَةَ. لَكِنَّهُمَا لَمْ يَفْعَلَا رَغْبَةً بَأَنْفُسِهِمَا عَنْ بُعْدِ الْهِمَمِ<sup>(8)</sup>. وَمُعَاصَاةً لِأَوَامِرِ الْعَطْفِ وَالْكَرَمِ. بَلْ حَرَمَاهُ مَا يُفْتَأُ بِهِ لِلْهَاتِ. وَقَدْ اسْتَعَاثَ بِسَفِيهِ فَأَبِيًّا أَنْ يُعَاثَ. فَتَعَاوَرَاهُ بِأَسْيَافِهِمَا وَهُوَ يَلْهَثُ حَرَّهُ. وَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمَا بِفِعْلِ ابْنِي حُرَّهُ»<sup>(9)</sup>.

يدعو الزمخشري المخاطب أن يغيث من استعاثه وإن كان أشد الناس عداوة له، وأسرعهم إلى قتله،

(1) - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 58.

(2) - ويعني الاستدراك تعقيب الكلام بإزالة بعض الخواطر والأوهام التي ترد على الذهن بسببه.

(3) - الزمخشري، المفصل في علم العربية، ص 257.

(4) - انظر عباس حسن، النحو الوافي، ج 3، ص 616.

(5) - ابن هشام، مغني اللبيب، ج 1، ص 282.

(6) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 344.

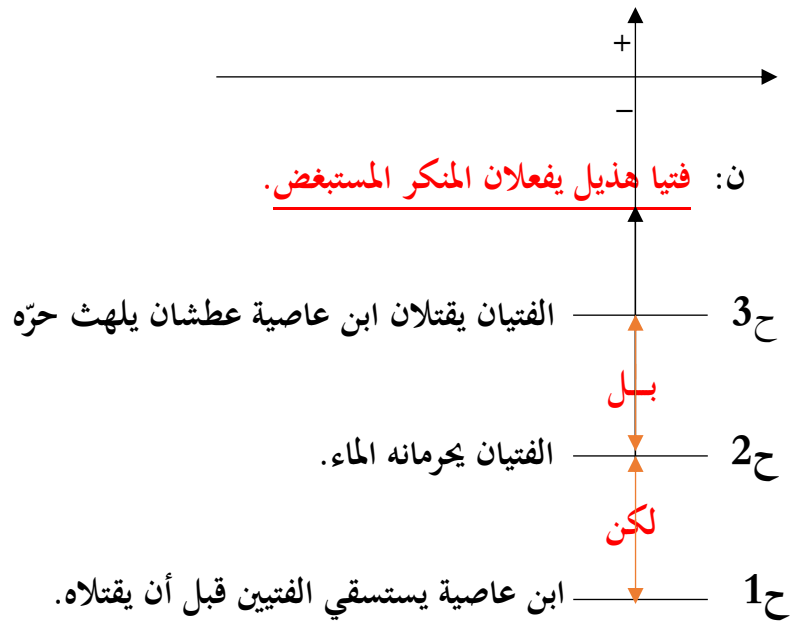
(7) - أذرعهم: أسرعهم.

(8) - رغب بنفسه عن الأمر: إذا ترفع عنه.

(9) - مقامات الزمخشري (أيام العرب: ص 264).

وأن يبغض ما فعل فتيا هذيل حين أسرا عمرا بن عاصية، وقال لهما اروياي من الماء ثم اصنعا بي ما بدا لكما، لكنهما لم يسقياه، وتعاورا به بأسيا فهما فقتلاه عطشان يلهث حرّه.

ويجد المتأمل في هذا الخطاب تعارضا غير حادّ، ليس من قبيل أسود وأبيض بين ما تقدم الرابط " لكن " و "بل" وما بعدهما، وهو يؤلف بين ثلاث حجج يوحى الرابطان بأنها متعارضة، ولكنه في الحقيقة تعارض شكلي في القيمة فقط، بحيث تتمركز الأولى قبل الرابط "لكن" في درجة دنيا، ثم تليها الحجة الثانية قبل الرابط "بل"، وهي أدنى من التي بعده، وبما أن الحجة الثالثة أقوى من السابقتين، فإنها ستوجه القول بمجمله نحو نتيجة الخطاب "فتيا هذيل يفعلان المنكر المستبغض"، ويمكن تمثيل هذه المحاجة على الشكل الآتي:



ويمثل هذا مسعى المتكلم في إقناع المتلقي بوجود إغاثة الملهوف كائنا من كان، والإنكار على فتية هذيل فعلهم بآبن عاصية النتيجة الكبرى لهذا الخطاب. كما أن الرابطين "لكن" و "بل" يسهمان في تحديد علاقة التناقض الحجاجية بين أجزاء الخطاب، بالإضافة إلى وظيفته النصية.

ويحقق هذه العلاقة كذلك الرابط "بل"، «إن تلتها جملة كان معنى الإضراب إبطاليا يقتضي نفي الحكم السابق في الكلام قبل "بل" القطع بأنه غير واقع، ومدعيه كاذب، والانصراف عنه واجب إلى حكم آخر يجيء بعدها، أو انتقاليا، وقد عبر النحاة عن الإضراب الانتقالي بعبارات مختلفة منها "الانتقال من غرض لآخر" أو "الإضراب على جهة الترك من غير إبطال"، "الانتقال من جملة إلى أخرى أهم من الأولى"، أو هو الانتقال من غرض قبل الحرف "بل" مع إبقاء الحكم السابق على حاله، وعدم إلغاء ما يقتضيه»<sup>(1)</sup>.

(1) - انظر ابن هشام، مغني اللبيب، الجزء 1، ص 115. وعباس حسن، النحو الوافي، الجزء 3، ص 623.

وفي مجال الحجاج «يربط "بل" مثل "لكن" بين الحجج والنتائج، والنتيجة المضادة "لا - ن" ستصبح نتيجة القول برمته، لأن الحجة التي بعد "بل" تكون أقوى من الحجة التي ترد قبلها»<sup>(1)</sup>، وما يهمنا في هذا المقام الإضراب بـ «بل» الحجاجية المرادفة لـ «لكن» الحجاجية أي المرادفة لـ (Mais) الفرنسية، والذي يكون على جهة الترك للانتقال من جملة إلى أخرى أهم من الأولى، أو الانتقال من غرض إلى غرض من غير إبطال، لأنها معظم إضرابات الزمخشري. وتبرز علاقة عدم الاتفاق في قول الزمخشري: «قاتل الله بني هذه الأيام فإنهم طلائع الشُّرُور والآثام لقاهم لقاءً. وحوارهم غوار. ونقاهم نقار. ووفاهم نفاق تجمع الندوة كبارهم فلا يتواصون بالصبر، بل يتناصون<sup>(2)</sup> على الصدر. ولا يتشاورون في حسم الفساد. كما يتشاورون على قسم الوساد. إن أنسوك حمدت الوحشة، وإن جالسوك وددت الوحدة»<sup>(3)</sup>. وظف المتكلم الرابط الحجاجي "بل" للربط بين حجّتين:

#### ن: وجوب اعتزال الناس

يتساورون على قسم الوساد (حجة فعل)	4ح
لا يتشاورون على حسم الفساد (حجة قول)	3ح
يتناصون على الصدر (حجة فعل).	2ح
	<b>بل</b>
لا يتواصون بالصبر (حجة قول).	1ح

حيث تبدو الحجتان متعارضتين، ولكنه تعارض شكلي يوحي به الرابط «بل» في سلم الأولى، وتخدمان نتيجة واحدة، وهي «وجوب اعتزال الناس»، ولما كانت الحجج الواقعة بعد «بل» هي الأقوى، لأن التقاتل على تصدر المجالس، وعدم مقاومة الفساد، والتساور على قسم الوساد أقوى وأكثر إقناعاً بوجوب اعتزال الناس من عدم تواصلهم بالصبر، لذلك فهي التي توجه إلى نتيجة الخطاب. وقد أضاف الرابط «بل» طاقة حجاجية للخطاب تساعد في إقناع المتلقي بالنتيجة، وتسهم في تحديد علاقة عدم الاتفاق، وسبك الخطاب.

ويمكن أن نلمس هذه العلاقة كذلك في قول الزمخشري: «إِيَّاكَ وَالْغَدْرَةَ... وَلَا تَنْسَ مَا فَعَلَ بِأَحَدِ الصُّمْتَيْنِ مَالِكٍ. وَمَا دَفَعْتُهُ إِلَيْهِ مِنْ رُكُوبِ الْمَهَالِكِ. حِينَ مَنْ عَلَيْهِ الْجَعْدُ. ثُمَّ غَدَرَ بِهِ مَالِكٌ مِنْ بَعْدِ. لَا جَرَمَ

(1) - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 63.

(2) - يتناصون: يأخذ بعضهم بناصية بعض.

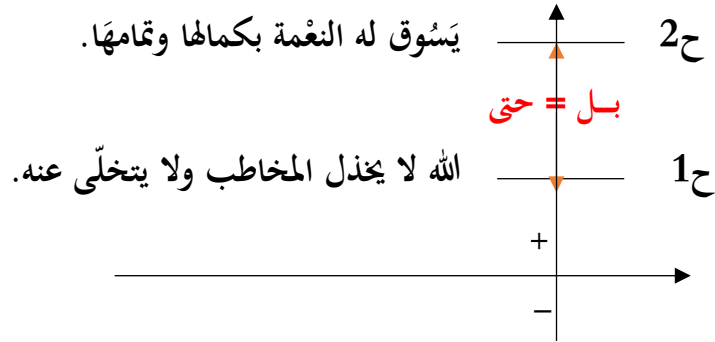
(3) - مقامات الزمخشري ( العزلة: ص 91 ) .



وهناك استعمال حجاجي آخر يكون فيه "بل" للتساوق الحجاجي مرادفاً لـ "حتى" ونجده في قول الزمخشري: (( كَلَّمَا أزدَدْتَ بِلؤْمِكَ غَمَصًا <sup>(1)</sup> لِأَيَادِيهِ وَكُفْرَانًا، زَادَكَ بِكْرَمِهِ الوَاسِعِ طَوَّلًا وَإِحْسَانًا هَذَا إِلَى أَنْ بَلَغْتَ الأربَعِينَ أَوْ نَيْفَتَ عَلَيَّهَا، وَهِيَ عَلَى الأَرِيبِ العَاقِلِ إِذَا قَارَبَهَا أَنْ يَرْعُوِي، وَعَلَى اللَّيْبِ إِذَا نَافَ عَلَيَّهَا أَنْ يَسْتَوِي، فَكَانَ أَقْرَبَ شَيْءٍ مِنْكَ التَّوَاؤُكُ، وَأَبْعَدَ شَيْءٍ عَنكَ اسْتِوَاؤُكَ، فَلَمْ يَشَأْ لِكْرَمِهِ خِذْلَانَكَ، وَأَنْ يُخَلِّيكَ وَشَانَكَ، بَلْ شَاءَ أَنْ يَسُوقَ نَحْوَكَ النِّعْمَةَ بِكَمَالِهَا وَتَمَامِهَا، وَأَنْ يَخْدُوَهَا وَيَهْدِيَهَا إِلَيْكَ مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا <sup>(2)</sup>)).

لما أراد المتكلم أن يثبت للمتلقي أن الله يعطي الكافر مع بطره وجحوده، وهي نتيجة الخطاب "ن" ساق له حجتين متساوقتين بينهما الرابط "بل":

ن: الله واسع الكرم، يحسن إلى المخاطب حتى على جحوده وعصيانه.



ويصبح الخطاب "إن الله كريم لا يتخلى عنك، بل يسوق إليك النعم كاملة حتى على جحودك وعصيانتك". ويعبر الرابط "بل" في هذا الخطاب عن التساوق الحجاجي (Coorientation argumentative) ويرادف "حتى"، حين يربط بين حجتين متساوقتين تخدمان نتيجة واحدة هي «الله واسع الكرم والجود، يعطي حتى عبده الكفور» إلا أن الحجة الواردة بعده أقوى من الحجة التي قبله، ولهذا فهي موجهة للنتيجة المعتمدة لهذا الخطاب ككل وتؤكدها، بالإضافة إلى دور الرابط الحجاجي، فهو ما يحدد العلاقة عدم الاتفاق الحجاجية، ويسهم في التماسك النصي.

ومما تقدّم يمكن الانتهاء إلى أن العلاقة الحجاجية تلعب دوراً هاماً في توسيع مجال التفاعل بين المتكلم والمتلقي من خلال إثبات فكرة أو رأي أو نتيجة ما بإثبات تعارضها مع حجة أو حجج يحشدها في هذا المجال من أجل إقناع المتلقي والتأثير فيه، وأكثر العلاقات والروابط استعمالاً في المقامات هي العلاقة والروابط السببية لأن الزمخشري كان أحوج إليها من غيرها في تحقيق مقاصد المقامات وأغراضه منها، لأنه

(1) - غمص النعمة: كفرها ولم يشكرها.

(2) - مقامات الزمخشري (الشكر: ص 169).

ليس أوقع في النفس والعقل من الخطاب المبرّر، وأكثر ما بني على التتابع نجده في مستوى الحجج، لاني مستوى الأحداث لغيات السمات الحكائي عنها، والحاجة المخاطب إلى الإقناع بها، ولا تقدم لنا علاقة التعارض أو عدم الاتفاق تناقضا صريحا بين الحجج والنتائج، أو بين الحجج نفسها، وأقصى ما تقدمه تعارضا شكليًا من وحي الروابط، أو تعارض في سلم القيمة، أو إيهام التعارض.

الْحَنَانَةُ

يشكل خطاب مقامات الزمخشري مادة دسمة للدراسات التداولية لما فيه من قضايا لغوية واجتماعية جعلتها قريبة من واقع الحياة اليومية، وبعد الفحص المتأنى للمُدوَّنة القائم على استثمار التراث النحوي والبلاغي العربي، ومقارنته تداوليا، خلصنا إلى النتائج الآتية مرتبة حسب فصول الرسالة:

1. تعتبر المقامات خطابا نفعيا غائيا يعظ فيها الزمخشري نفسه، لكنه يستهدف بها تغيير واقع، أو تعديل موقف، أو تصحيح عقيدة، أو تهذيب أخلاق، وهذا ما جعلها أكثر ملاءمة للطرح التداولي.

2. يختلف النسق البنيوي لمقامات الزمخشري عمّا عهدناه في المقامة الأتمودج كثيرا؛ فهي تكاد تخلو من عناصرها؛ فقد غاب عنها السمات الحكائي، والفكاهة، والظرف، والسخرية، ولعلّ القصد الأوّلي المعلن في المقامات "الوعظ"، والموضوعات الجديدة الجدّية المطروقة هي ما جعلتها تبتعد عن قوانين المقامة، وكلّ هذا طرح إشكالية تجنيسها بين النقاد، لكنّ المتأمل في شرحه كلمة "المقامة" في مقامة المرشد يجد أنّ للمقامة تحديدا خاصا، فهي عنده أقرب إلى مفهوم المقام والمواعظ والرسائل لا المقامة. وتنسجم كلّ المقامات الزمخشريّة مع المقصد الأوّلي التربوي التوجيهي، وحتى تلك التي توحى عتباتها (النحو، والعروض، والقوافي، والديوان، وأيام العرب) بانصراف الزمخشري عنه، نجده يستأنف الوعظ منها، ويأتيه من أبواب لغوية، وأدبية، واجتماعية، وتاريخية، ولهذا يمكننا الجزم غير متجانفين لهوى أنّ مقامات الزمخشري كلّها وعظيّة بامتياز.

3. تعكس كثافة الأفعال الكلامية الطلبيّة (الأمرات والمنهيات) حالة التخبط والتهيه التي يعيشها المجتمع العباسي في عهد الزمخشري، فقد ألف مقاماته بعد توبته ليواجه بها واقعا منحرفا، ومجتمعاً غارقا في غيّه، ماردا على المعاصي والشهوات، ومفرّطا في الواجبات الدينية والاجتماعية.

4. تشتمل المقامات على أفعال كلامية توجيهية كثيفة، ركّز عليها الزمخشري كثيرا لحث المخاطب، وحضّه على تغيير سلوكه، ومواقفه، ومعتقداته من خلال التأثير والإقناع، لذلك تنوعت الأفعال الكلامية بين المباشرة وغير المباشرة، والمباشرة أكثر خاصة في أسلوب الأمر والنهي، لأنّ الموقف التخاطبي يفرض على الزمخشري تبني استراتيجية التصريح مضافة إلى سلطة الزمخشري كونه من رجالات الدين والعلم. وفي سياقات أخرى كثيرة يتحوّل الاستفهام ليؤدي معاني مقامية تمثل مقاصد المخاطب،



كالتقرير والنفي والعرض والتعظيم والتهكم، وهذه الأغراض تمثل طلبيات غير مباشرة لفائدة المخاطب، بينما يرى لغويون آخرون أنها تعبير عن أفعال مباشرة.

5. يحرص الزمخشري على أن تفعل مقاماته فعلها في المخاطب، لذلك تجده يحفز المنادى وينبه ذهنه، ويهيئ نفسه لتلقي المقصود بالنداء، ومن أجل هذا لم تخل مقامة من النداء، وهذا ينبىء كذلك عن أهمية مقاماته وخطورة مضامينها.

6. يعدّ السياق غمامة الملفوظات؛ حيث يلعب دورا أساسيا في توجيه عمليتي الإنتاج والتأويل، ويضطلع بدور مزدوج في تضيق مجال التأويلات والدلالات الممكنة، فيجعلها تفضي عن تأويلات كثيرة حتى تسلم المتلقي إلى معنى المخاطب وغرضه ومقصدية، لكنه أحيانا يتمدد ويتعدّد خاصة في النصوص المكتوبة كالمقامات موضع الدراسة، فيترتب عن ذلك تعدد المعاني المقامية المستلزمة، لهذا لا يحسم التحليل التداولي للنصوص معنى مقاميا واحدا، بل يستطيل إلى أكثر من معنى مستلزم. ولما كانت مقامات الزمخشري خطابا وعظيّا جاداً، لغته وظيفية تداولية، فإن المخاطب يروم من خلالها تحقيق غاياته ومقاصده، وعلى رأسها المقصد التربوي، لذلك جند ما أمكنه من وسائل نحوية وبلاغية متحولة، غايتها التأثير في المخاطب وإقناعه.

7. ولم يكن النحاة العرب وهم يهتمون بمبدأ القصد والغرض من خلال التصرف في أصول النظام النحوي وعناصر التركيب الأصلي كماً ورتبةً ونوعاً بعيدين عن تصور التداوليين في تعاملهم مع ظواهر التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير وغيرها، واستثمر الزمخشري هذه الظواهر في مقاماته ليحقق بها وأغراضا خطائية وغايات تواصلية إضافية فاعلة في المتلقي، وهذه المقاصد لا يمكن أن يؤديها التركيب الأصلي بنفس الفعالية والتأثير، باعتبار أن كل عدول وتحوّل عن الأصل يحقق أبعادا تداولية حجاجية على وجه من الوجوه.

8. وظّف الزمخشري الصورة الفنية في التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل بشكل مكثّف لأنها تؤدي وظائف بديعية وتداولية وحجاجية تسهم في عملية التأثير العاطفي والاقتناع العقلي من خلال الإمتاع، والادّعاء، والتجسيد، والقياس، والاستدلال. وراعى الزمخشري مقام المتلقي وحالها لفكرية، أو الشعورية، أو الانفعالية في اللحظة الإبداعية، لذلك تنوعت الصور وتلونت بألوان التفصيل

والإيجاز والإجمال كثيرا، وهذا أكبر دليل على أنّ مخاطبه ليس واحدا، وأنّ المقامات الزمخشريّة عامة عالمية، وإنما جعل نفسه المنطلق لخطاب العالم.

9. تحيل الصورة التشبيهية والاستعارية والكناية على واقع فعلي للمعني غالبا، وهذا ما يعكس حرص الزمخشري على إيضاح المعنى، باعتبار أن الشرح والإيضاح أولى الخطوات على درب الإقناع، ولهذا كان المشبه به مذكورا أو محذوف مدركا بالحواس غالبا، يُجرح جسدا من خلال الأنسنة، أو الحيونة، أو التشبيهي، وتحقق الصورة الغاية نفسها من خلال المبالغة في المعنى، عندما يراد منها تمثيله، أو تأكيد بعض عناصره الهامة، ذلك أن الغاية من التمثيل هي المبالغة في البيان حتى يصير الغائب حاضرا، والمتخيل متحققا، والمتوهم متيقنا.

10. لا تنفصل طريقة استخدام الصورة الفنية الاستعارية، وكيفية تشكيلها عند الزمخشري عن المقام والسياق الخارجي الذي يتحكم في المتكلم، ويوجه مسار مقصديته، إما إلى جانب النفع المباشر؛ فالاستعارة هنا تهدف إلى إقناع المتلقي بفكرة من الأفكار، أو معنى من المعاني، وإما إلى جانب التوشية لتحقيق المتعة الشكلية، ولكن حتى هذا النوع من الاستعارات لا ينفك عن الحجاجية، ولكنها حجاجيّة دون حجاجيّة.

11. تعدّ الكناية ملمحا آخر من ملامح الصورة التداولية، وظّفها الزمخشري في مقاماته من أجل تحقيق مقاصده وغاياته منها؛ إذ يعتمد إلى التكنية عن المعاني ثم يدعو المتلقي إلى استصحاب المعنى الوضعي في عملية القراءة والتأويل للاستدلال به على المعنى الضمني لازمه، بالإضافة إلى هذا تقدم الصورة الكنائية على المتلقي في كثير من الأحيان الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طيها برهانها، وهذا من تجليات التداولية في الصورة الكنائية.

12. فتح الزمخشري خطابه، وترك فيها فجوات دلالية ومحالّ شاغرة وفضاءات معتمة، ويمثل هذا الإجراء دعوة إلى محاوره المتلقي والمساهمة في رسم الصورة، وإضاءتها بما يناسب مقصديته من خلال تجنيد كفاياته الفكرية والذهنية والاستدلالية، والاستناد إلى المعرفة المشتركة ومبدأ التعاون ومعونة السياق، وداعيا آخر من دواعي الاقتناع، لأنّ الانسان لا يكذب عقله، ولا ينكر بنيات أفكاره، ويفرض هذا النوع من الخطابات على المخاطب أن يحترم العقود التي بينه وبين المتلقي، ومنها مبدأ التعاون المحادثي

كما تصوّره جرايس، حتى يتمكن المتلقي من مقصدية المتكلم وغرضه من الخطاب فيتحقق التواصل والإبلاغ، والفهم والإفهام.

13. يعدّ الخطاب الوعظي أحوج الخطابات إلى الحجاج، فبينهما وشيجة لا تنقطع، لذلك تعددت العلاقات والروابط الحجاجية في مقامات الزمخشري، لأن المخاطب يتوجه بمواعظه في الغالب إلى نفس شقيّة عصيّة على التأثّر والاقتناع، لهذا نجده في كثير من المقامات يعمدُ في تحشيد الحجج، وتصريف البراهين، محاولاً إقناع المخاطب بقضية أو فكرة أو رأي أو عقيدة، وفي مثل هذه الحالة لا ينفع إلا مذهب الزمخشري مذهبٌ. وتكون العلاقات الحجاجية في المقامات ظاهرة جلية في كثير من الأحيان، وفي أحيان أخرى خفية لا تكاد تبين.

14. يضطلع الخطاب الحجاجي في مستوى العلاقات والروابط ببعدين أحدهما تداولي حجاجي والآخر نصي؛ يسعى المخاطب في النوع الأول إلى الربط بين العظة والحجة من أجل التأثير العاطفي والعقلي في المتلقي، وجعله يدعن لما يلقي إليه من مواعظ فعلية أو تركية، مُرغبة أو مُرهبة، تفضي إلى اقتناعه بوجوب تغيير سلوك، أو فكرة، أو معتقد، أو موقف، أو رأي، ليفوز في الدارين. ويقوم النوع الثاني بالتأليف بين مفاصل الخطاب، وتظهر هذه الروابط حيناً، وتختفي أحياناً فتكون ضمنية، ممّا يدفع المتلقي إلى البحث عن العلاقة بين مكونات الخطاب والتوغل في البنية العميقة لفهم مقاصده.

15. تعد العلاقة السببية وروابطها أكثر العلاقات والروابط الحجاجية استعمالاً في المقامات، لأن الزمخشري كان أحوج إليها من غيرها في تحقيق مقاصده وأغراضه منها، لأنه ليس أوقع في النفس والعقل من الخطاب المبرّر، ولا تقل علاقة الاقتضاء حضوراً في المدونة لما تتميز به من طاقة تأثيرية وإقناعية عالية من خلال التلازم الحتمي الذي تقيمه بين الأسباب والنتائج، وأكثر ما يميّز علاقة التابع هو أن التوالي فيها لم يكن على مستوى الأحداث، وإنما كان على مستوى الحجج؛ فقد انبنت مقامات كاملة أو معظمها على الأدلّة والبراهين- كما في مقامة التوحيد والشكر- وهذا يعكس جهداً حجاجياً مبذولاً من أجل إقناع المخاطب، والدفع به إلى التوبة وتغيير سلوكه ومواقفه، ولا تقدم لنا علاقة التعارض أو عدم الاتفاق تناقضاً صريحاً بين الحجج والنتائج، أو بين الحجج نفسها، وأقصى ما تقدمه تعارضاً

شكليًا من وحي الروابط، أو تعارضًا في سلّم القيمة، أو إيهام التعارض فقط، حيث نجد تعارضًا في السطح، وتوافقًا في العمق كالذي نجده في المدح أو الذم.

وفي الأخير لا تزعم هذه الدراسة أنها أحاطت بالطرح التداولي لمقامات الزمخشري، فهي لا تزال مشرعة على البحث، تنفح الباحثين بعطاء لا ينفد بأي منهج تؤتي، فيمكن على سبيل المثال مقارنة بديعيات المقامات تداوليًا، وتناولها نصيًا، وأسلوبيًا.

المصادر

و

المراجع

## المصادر والمراجع:

### أولاً. المصادر:

1. الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، **مقامات الزمخشري**، تحقيق لجنة من محققي التراث، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2004.

2. بقاعي يوسف، **المقامات شرح مقامات الزمخشري**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1981.

### ثانياً. المراجع:

#### 1 الكتب العربية:

3. ابن الأثير ضياء الدين، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، دط، 1962.

4. الاسترأبادي رضي الدين، **شرح الكافية في النحو لابن الحاجب**، تحقيق رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، (دط)، 2000.

5. التبريزي أبو زكرياء يحيى المعروف بـ "الخطيب"، **كتاب الكافي في العروض والقوافي**، تحقيق الحساني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3، 1994.

6. التفتازاني سعود بن عمر المشهور بـ "سعد الدين"، **التجريد في علم المعاني**، مطبعة السعادة، مصر، (دط)، 1331 هـ.

7. التوحيد أبو حيان وأبو علي مسكويه، **الهوامل والشوامل**، تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة. القاهرة، مصر، (دط)، (دت).

8. الجاحظ عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، (دط)، 2008.

9. الجرجاني عبد القاهر، **دلائل الإعجاز**، تحقيق أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط3، 1992.

10. — **أسرار البلاغة**، تحقيق أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط1، 1991.

11. الجرجاني محمد، **الإشارات والتنبيهات**، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002.

12. الجرجاني علي بن محمد الحسيني، **التعريفات**، تحقيق نصر الدين تونسي، شركة القدس للتصدير، القاهرة، مصر ط1، 2007.

13. ابن جني عثمان، **الخصائص**، تحقيق عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، مصر، (دط)، (دت).

14. ابن قيم الجوزية، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ.
15. — **الفوائد**، تحقيق فواز أحمد زمرلي، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر، ط1، 2006
16. الحلبي صفى الدين، **شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع**، تحقيق نسيب نشاوي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 1992.
17. الخفاجي أبو محمد عبد الله ابن سنان، **سر الفصاحة**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1982.
18. ابن خلدون عبد الرحمن، **المقدمة**، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، سوريا، ط1 2004.
19. الرماني أبو الحسن علي بن عيسى، **النكت في أعجاز القرآن... تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول** سلام، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، (دت).
20. الزركشي بدر الدين، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (دط)، 1972.
21. الزمخشري، **المفصل في علم العربية**، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
22. ابن الزملاكاني كمال الدين، **البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن**، تحقيق خديجة الحديثي وأحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد. (دط)، (دت).
23. السكاكي أبو يعقوب يوسف، **مفتاح العلوم**، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987.
24. السمعاني أبو المظفر منصور، **قواطع الأدلة في الأصول**، تحقيق محمد الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997.
25. سيويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 2009.
26. السيوطي جلال الدين **الإتقان في علوم القرآن**، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، (دط)، 1983.
27. الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق عبد الله دراز وعبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
28. الشيرازي إبراهيم، **شرح اللمع في أصول الفقه**، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، (دط)، 1988.
29. العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، **كتاب الصناعتين**، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1989.

30. ابن عقيل بهاء الدين عبد الله، شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، لبنان، ط2، (دت).
31. العلوي يحيى بن حمزة اليميني، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، 2002
32. الغزالي أبو حامد، المستصفى من علم الأصول، تحقيق أحمد زكي حمّاد، دار الميمان، الرياض، السعودية، (دط)، (دت).
33. ابن فارس أبو الحسين أحمد، الصحاحي في فقه اللغة العربية...تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 1993.
34. أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 1990.
35. القرطاجني أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986.
36. القيرواني أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1981.
37. القزويني محمد بن عبد الرحمن المعروف بـ"الخطيب"، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق عبد الحميد هندراوي، مؤسسة المختار للتوزيع والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1999.
38. المرادي الحسن بن القاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992.
39. ابن مالك، شرح التسهيل، تح عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر، مصر، ط1، (دت).
40. ابن المعتز عبد الله، كتاب البديع، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ط3، 1983.
41. ابن هشام جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، لبنان، (دط)، 2008.
42. إبراهيم عبد الله، السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992.
43. إبراهيم إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي، معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب. ط2، 1996.



44. أوكان عمر ، اللغة والخطاب، رؤيا للنشر والتوزيع، ط1، 2011.
45. الباحثين يعقوب بن عبد الوهاب، قاعدة الأمور بمقاصدها، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية ط1، 1999.
46. بحيري سعيد حسن، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2005.
47. بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، دار العلم للملايين، القاهرة، مصر، ط9، 2004.
48. بلخير عمر، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، ط2، 2013.
49. بوجادي خليفة، في اللسانيات التداولية مقارنة بين الشعر والتداولية دراسة تطبيقية، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط1، 2012.
50. — في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط2، 2012.
51. بوحوش رابع، اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، 2006.
52. — الأسلوبيات وتحليل الخطاب، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، (دط)، 2006.
53. بناني محمد الصغير، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
54. بيرم عبد الله، التداولية والشعر، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014.
55. الجابري محمد عابد، بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط9، 2009.
56. الجندي أنعام، الرائد في الأدب العربي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986.
57. الحباشة صابر، التداولية والحجاج، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، (دط)، 2008.
58. حسّان تّمّام، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط3، 1998.
59. الحوفي أحمد، الرمخشري، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1966.
60. الدريدي سامية، الحجاج في الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2008.
61. — دراسات في الحجاج قراءة نصوص مختارة من الأدب العربي القديم، عالم الكتاب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2009.

62. الراجحي عبده، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (دط)، 1979.
63. سامح رافع، الفينومينولوجيا عند هوسرل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 1991.
64. السد نور الدين، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، 2010.
65. السفياي عبد الله بن رفود، الخطاب الوعظي النبوي دراسة تحليلية بلاغية، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2014.
66. السيد عبد الحميد مصطفى، دراسات في اللسانيات العربية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004.
67. شاهين أحمد فهد صالح، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث إربد الأردن، ط1، 2015.
68. الشاوش محمد، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، 2001.
69. شوقي ضيف، المقامة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط10، 1954.
70. الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
71. صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي، سوريا، ط1، 1933.
72. ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع (دط)، (دت).
73. ——— مقاصد الشريعة الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 2010.
74. عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، 1979.
75. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1988.
76. ——— تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1993.
77. ——— في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000.
78. عبد المطلب محمد، البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1997.
79. عتيق عبد العزيز، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (دط)، 1985.
80. عزة شبل محمد، علم لغة النص، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2007.

81. العزّاي أبو بكر، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006.
82. — الخطاب والحجاج، وزارة الثقافة المغربية، المغرب، ط1، 2007.
83. عشير عبد السلام، عندما نتواصل نغير، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2006.
84. عصفور جابر، الصورة الفنية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1992.
85. — مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط2، 1982.
86. عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، 2009.
87. عمران قدور، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، عام الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012.
88. العمري محمد، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، (د ط) 2005.
89. الغلاييني مصطفى، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ط18، 1986.
90. الصبيحي محمد الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2008.
91. صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دار التنوير، حسين داي، الجزائر، ط1، 2008.
92. الصرّاف علي محمود حجي، في البراغمية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2010.
93. صولة عبد الله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007.
94. طبارة عفيف عبد الفتاح، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (د ط)، 1988.
95. الطرابلسي محمد الهادي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، (د ط)، 1981.
96. الطلبة محمد، الحجاج في البلاغة المعاصرة، الدار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
97. الفاخوري حنا، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البولسية، بيروت، لبنان، ط10، 1980.
98. فضل صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996.
99. الفقي صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2000.

100. فيود بسيوني عبد الفتاح، دراسات بلاغية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط2، 2006
101. — علم المعاني، مكتبة وهبه، القاهرة، مصر، (دط)، 1987.
102. الكك فكتور، بديعات الزمان، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 1971.
103. المتوكل أحمد، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط2، 2010.
104. — قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الأمان، الرباط، المغرب، (دط)، 2001.
105. المخزومي مهدي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986.
106. أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، ط2، 1986.
107. مرتاض عبد المالك، فن المقامات في الأدب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
108. المسدي عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2، 1986.
109. مفتاح محمد، دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990
110. — تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العرب، الدار البيضاء، ط3، 1992
111. — مجهول البيان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990.
112. النجار نادية رمضان، الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط1، 2013.
113. نحلة محمود أحمد، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002.
114. — التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل، دار التوني للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، (د ط)، 1997
115. هارون عبد السلام، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 2001
2. الكتب المترجمة:
116. أرمينكو فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986
117. أوستين جون لانجشو، نظرية أفعال الكلام، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدر البيضاء، المغرب، 1991.
118. إيكو أمبرتو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2004.

119. براون جورج، ويول جورج، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، السعودية، 1997.
120. بلانشيه فليب، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2006.
121. داسكال مارسيلو، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد حميداني وآخرون، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1987.
122. دايك فان، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، تر سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، مصر، ط1، 2001.
123. دلاش الجيلالي، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.
124. دي بوغراند روبرت، ودريسلر ولفغانغ، مدخل إلى علم لغة النص ترجمة إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، مطبعة دار الكاتب، سميراميس، ط1، 1992.
125. لاينز جون، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1987.
- 3- المجالات والدوريات والصحف:**
126. صلاح إسماعيل، النظرية القصدية في المعنى عند جرايس، دار المنظومة، الحولية 25، الرسالة 230، 2005.
127. أنقار محمد، تجنيس المقامة، مجلة فصول، مجلد 13، عدد 3، 1994.
128. بلخير عمر، النص القرآني والمقاربة اللسانية التداولية، مداخلة ألقاها بمركز بحوث القرآن، جامعة ملايا، ماليزيا، ماي 2015.
129. بوجادي خليفة، تداولية الاستعارة من خلال أسرار البلاغة، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، ع5، 2013.
130. حمام بلقاسم محمد، الملامح التداولية في النحو العربي، مجلة الآداب، مجلد 26، عدد2، جامعة الملك سعود الرياض، 2014.
131. الكدية الجيلالي، تأويل النص الأدبي نظريات ومناقشة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 36، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية، 1995.
132. دفة بلقاسم، استراتيجية الخطاب الحجاجي، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، عدد10،

2014.

133. الربابعة هارون، ونبيل حسنين، وزيد أبو لبن، مقامات الزمخشري: رؤية وتأصيل، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث.

134. الرقي رضوان، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، عدد2، مجلد 40، 2011

135. الزغول سلطان، المقصدية نظرية المعرفة وآفاق اللغة والأدب، صحيفة الرأي الأردنية، عدد 2012/4/20

135. فاخوري عادل، الاقتضاء في التداول اللساني، مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد20، عدد3، 1989.

137. كادة ليلي، الأبعاد التداولية للكناية في المنظومة البلاغية العربية، مجلة فصل الخطاب، جامعة بسكرة، الجزائر

138. كاظم فيصل مفتن، التداولية في النحو العربي، مجلة أبحاث ميسان، العدد 4، 2006.

139. لوجيرن ميشيل، الاستعارة والحجاج، تعريب الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، عدد 4، المغرب، 1991

140. نحلة محمود أحمد، نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية، مجلة الدراسات اللغوية، مج 1، ع1، 1999

141. مقبول إدريس، البعد التداولي عند سيوييه، مجلة عالم الفكر، عدد1، مجلد 55، 2004.

4- الرسائل الأكاديمية:

142. بعداش علي، خصائص البنى التركيبية للخطاب النبوي الشريف في صحيح مسلم مقارنة تداولية، (مخطوط رسالة دكتوراه) جامعة سطيف2، الجزائر، 2016 .

143. توامة عبد الجبار، القرائن المعنوية في النحو العربي (مخطوط رسالة دكتوراه)، جامعة الجزائر، 1998

144. الشنقيطي خديجة، تأصيل النظرية الفرضية الإنجازية في الفكر اللغوي العربي القديم من خلال أسلوبي الأمر والاستفهام دراسة وصفية تحليلية، (مخطوط رسالة ماجستير) جامعة طيبة، السعودية، 2012.

145. عرابي محمد، العلاقات الحجاجية في القرآن الكريم (مخطوط رسالة دكتوراه)، كلية الآداب واللغات، جامعة وهران، 2013-2014.

5. المراجع الأجنبية

146. John Langshaw Austin, **Quand dire c'est faire**, traduction française de Gilles Lane, édition du Seuil, 1970.

147. John. Lyons. **Sémantique Linguistique**. Larousse. Paris. 1980.

148. Pierre Oléron, **L'argumentation**, Presses universitaires de France, 1993.

149. John. Searle, **Intentionality; an essay in philosophy of mind**, 1983

150. John. Searle, **Les actes de langage**, essai de philosophie du langage,

traduction française de H el ene Hermann, Paris, 1972.

151. Gilles Siouffi et Dan van Raemdonck .100 fiches pour comprendre la linguistique,  ditions Br el, Paris, 2007.

#### 6- المعاجم العربية والأجنبية:

152. البعلبكي رمزي منير، معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1990

153. التهانوي محمد بن علي، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، لبنان، 1996.

154. الجر خليل، لاروس المعجم العربي الحديث، مكتبة لاروس، باريس، فرنسا.

155. الرازي محمد بن أبي بكر عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، دار الحديث، مصر.

156. الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود، أساس البلاغة، تح باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988.

157. العسكري أبو هلال، الفروق اللغوية، تحقيق لجنة إحياء التراث، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط4، 1980.

158. علوش سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1985

159. الفراهيدي الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، (دط)، (دت).

160. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004.

161. ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، تياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (دط). (دت).

162. وهبة مجدي والمهندس كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت، 1984

162. Le petit LAROUSSE,  dition Larousse, France, 2020

164. Jean Dubois et autres. Dictionnaire de linguistique et des sciences de langage, Larousse, Paris ,1994.

#### 7- المواقع الإلكترونية:

165. حمداوي جميل، التداوليات وتحليل الخطاب، دار الألوكة، الرياض، ط1، 2015.

<http://www.alukah.net>

166. رحاحلة أحمد والعجمي خالد، إشكالية التجنيس في مقامات الزمخشري، 2017/12/10

[/http://alantologia.com/node/87](http://alantologia.com/node/87)

## فهرس الموضوعات

1. المقدمة ..... أ - و
2. المدخل: ترجمة ومصطلحات ..... 30-1
  1. تمهيد ..... 2
  2. الزمخشري شيخ الاعتزال ومجمع العلوم . ..... 2
  3. المقامة : المفهوم، النشأة، الخصائص ..... 8
  4. إشكالية تجنيس مقامات الزمخشري ..... 11
  5. في التداولية . ..... 13
3. الفصل الأول: المقصدية في مقامات الزمخشري . ..... 91-30
  - تمهيد ..... 32
  - أولاً: المقصدية دلالات وإشكالات ..... 32
    1. مفهوم المقصدية ..... 32
    2. أهمية المقصدية ..... 38
  - ثانياً: المقصدية في مقامات الزمخشري ..... 45
    1. المقصدية الدلالية ..... 46
    2. المقصدية النصية ..... 51
      - 1.2. المقاصد الأولية: ..... 51
      - 2.2. المقاصد الثانوية ..... 54
  - ثالثاً. الأفعال الكلامية التوجيهية في مقامات الزمخشري ..... 57
    1. التوجيه بالأمر ..... 58
    2. التوجيه بالنهي ..... 66
    3. التوجيه بالإغراء والتحذير ..... 71
    4. التوجيه بالعرض والتحضيض ..... 75
    5. التوجيه بالاستفهام ..... 76
    6. التوجيه بالنداء ..... 86
4. الفصل الثاني : تداولية التركيب النحوي ..... 157-92
  - تمهيد ..... 93
  - أولاً. النحو والتداولية ..... 93
  - ثانياً. تداولية التعريف والتنكير في مقامات الزمخشري ..... 101



105	1. الأبعاد التداولية لتعريف المسند إليه
129	2. الأبعاد التداولية لتعريف المسند
130	3. الأبعاد التداولية لتتكير المسند إليه
134	ثالثا. تداولية التقديم والتأخير في مقامات الزمخشري
136	1. الأبعاد التداولية لتقديم المسند إليه
142	2. الأبعاد التداولية لتقديم المسند
147	رابعا. تداولية الذكر والحذف في مقامات الزمخشري
147	1. الأبعاد التداولية لحذف المسند إليه
153	2. الأبعاد التداولية لحذف المسند
155	3. الأبعاد التداولية لذكر المسند إليه
156	4. الأبعاد التداولية لذكر المسند
<b>216-157</b>	<b>5. الفصل الثالث : تداولية التركيب البلاغي</b>
159	تمهيد
159	أولا. البلاغة والتداولية
165	ثانيا. تداولية التركيب التشبيهي في مقامات الزمخشري
168	1. التشبيه التام
170	2. التشبيه المجمل
175	3. التشبيه البليغ
179	4. تشبيه التمثيل
182	5. التشبيه الضمني
183	ثالثا. تداولية التركيب الاستعاري في مقامات الزمخشري
184	1. الاستعارة التصريحية
192	2. الاستعارة المكنية
197	3. الاستعارة التمثيلية
199	رابعا. تداولية التركيب الكنائي في مقامات الزمخشري
201	1. الكناية عن صفة
207	2. الكناية عن موصوف
209	3. الكناية عن تخصيص الصفة بالموصوف
210	خامسا تداولية المجاز المرسل في مقامات الزمخشري
<b>258-216</b>	<b>6. الفصل الرابع : البنية الحجاجية في مقامات الزمخشري</b>

218.....	تمهيد
218.....	. أولا. مفهوم الحجاج
223 .....	ثانيا. العلاقات والروابط الحجاجية في مقامات الزمخشري
224 .....	1. علاقة التتابع
229.....	2. العلاقة السببية
236 .....	3. علاقة الاقتضاء
242 .....	4. علاقة الاستنتاج
248 .....	5. علاقة التناقض
259.....	7. خاتمة .
264.....	8. المصادر والمراجع
275.....	9. فهرس الموضوعات.

## الملخص:

تستهدف الدراسة مدونة تراثية هي "مقامات الزمخشري" التي تتميز بكونها خطابا تربويا وتوجيهيا جادا، يهدف المخاطب من خلاله إلى تحقيق أهداف وغايات تواصلية، لذلك لا يصلح لها إلا الطرح التداولي منهجا، فكان العنوان «مقامات الزمخشري من منظور اللسانيات التداولية».

وعبر فيها الزمخشري عن مقاصد أولية وأخرى ثانوية، تأتي على رأسها مقصدية الوعظ والإرشاد، ولهذا وظّف الأفعال الكلامية التوجيهية أو الطلبية المباشرة وغير المباشرة لتحفيزه وتحريضه على تغيير سلوكه، ومواقفه، ومعتقداته.

وهزّ الزمخشري النظام النحوي كما ورتبة ونوعا بالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير لتحقيق أبعاد تداولية حجاجية قادرة على الفعل في المتلقي إيجابا أو سلبا. كما لجأ إلى تطعيم المقامات بالتخييل في الاستعارة، والكناية، والتشبيه، والمجاز المرسل لقوة تأثيرها العاطفي والوجداني الذي يعد الممهّد للإقناع العقلي، من خلال التجسيد والإمتاع والقياس والبرهنة والاستدلال والشرح لتوضيح الدلالات والعظات وتمكينها في نفس المخاطب.

ويستهدف الزمخشري قارئاً ذا كفاءة ثقافية واجتماعية، وقدرات ذهنية وفكرية وعقلية عالية، حيث فتح له الصورة بتركه محالّ شاغرة فيها، لينخرط في عملية القراءة، فإذا تمكن من ملئها كان ذلك أدعى للاقتناع بدلالاتها، إذ لا يمكن لقارئ أن ينكر عقله وفكره.

ويعدّ الخطاب الوعظي أحوج الخطابات إلى الحجاج، لذلك فهو يتميز بكثافة حجاجية عالية، تؤلف بين مفاصله، وتربط بين قضاياها علاقات وروابط حجاجية يتوسلها المخاطب للتأثير في المتلقي وإقناعه بالقضايا التي تعبّر عنها المقامات.

### **Abstract:**

*The study aims at a heritage discourse, Maqamat Al-Zamakhshari, Which is characterized by being a serious educational and guiding discourse, Which aims for the addressee to achieve communicative objectives therefore, it is suitable for The pragmatics method, So the title was «Maqamat al-Zamakhshari from the perspective of pragmatic linguistics».*

*In it Al-Zamakhshari expressed primary and secondary intentions, Chief among which comes the intent of preaching and guidance, and for this reason the speaker took with his addressee a path of encouragement and another of intimidation in order to influence and persuade the addressee.*

*The grammatical system is quantified and arranged to achieve argumentative pragmatic dimensions and communicative purposes that are able to act in the recipient positively or negatively. He also resorted to grafting shrines with metaphorical sayings in metaphor, metonymy, simile, and metaphor sent for the*

*strength of their emotional and emotional impact, which is the precursor to mental persuasion, through embodiment, enjoyment, measurement, proof, inference and explanation to clarify the semantics and sermons and enable them in the same addressee.*

*Al-Zamakhshari aims a reader with cultural and social competence, and high mental, intellectual and mental capabilities, as he opened the picture for him by choosing vacant places in which he engages in the reading process. The great discourse in the most in need of discourses to the pilgrims, the king, for he embodies the intensity of argumentation whose joints compose the premises and results, the condition and the penalty, and cause and effect are collective relations with taste , the adressee, who influences him of the triangle and convinces him of the issues expressed by the Maqamat.*

République Algérienne Démocratique et Populaire  
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique  
Université 8 Mai 1945 Guelma



جامعة 8 ماي 1945 قالمة  
UNIVERSITE 8 MAI 1945 GUELMA

Faculté langues et littératures  
Département langue et littérature arabe

## THÈSE

*en vue de l'obtention du diplôme de  
doctorat en science*

*spécialité: Langue et littérature arabe*

*Présentée par:*

***Ghaouti Ammar***

*Intitulée*

***Maqamat El-Zamakhshary d'un point de vue de la  
linguistique pragmatique***

Soutenue le : **15/12/2022**

Devant le Jury composé de :

<b>Nom et prénom</b>	<b>grade</b>		
<b>Mr: Djoudi Abderrahmane.</b>	M.c "A"	Univ. de 8 Mai 1945 Guelma	Président
<b>M<sup>me</sup>: Maalem Warda .</b>	Pr	Univ. de 8 Mai 1945 Guelma	Rapporteur
<b>Mr: Mancer Youcef.</b>	Pr	Univ. de Badji Mokhtar Annaba	Examinateur
<b>Mr: Chekil Abdelhamid.</b>	Pr	Univ. de Badji Mokhtar Annaba	Examinateur
<b>M<sup>me</sup>: Debbiche Wafa.</b>	M.c "A"	Univ. de 8 Mai 1945 Guelma	Examinateur
<b>Mr: Ahguili Nabil.</b>	M.c "A"	Univ. de 8 Mai 1945 Guelma.	Examinateur

***Année Universitaire : 2021-2022***